نور المجاهدين

للوصول إلى جنان رب العالمين

أربعون حديثا في فضل الجهاد

ومعه

معنى الجهاد والشهيد، وبيان أصناف الشهادة

كمال شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كمال قيادته الحربية

محبة الجهاد والشهادة عند الصحابة الكرام رضي الله عنهم

حكم الجهاد في الإسلام

فائدة في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

نصائح من بعض الصحابة والمشايخ للمجاهدين

رسالة النجاة إلى إخواننا المسلمين كافّة

مسألة «الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر»

الجهاد والبطولة عند الصوفية الكرام

فائدة في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

الأدعية المهمة

جمعها

خليل بن إحسان أوران



نور المجاهدين

للوصول إلى جنان رب العالمين

أربعون حديثا في فضل الجهاد

الطبعة الأولى
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

مكتبة ياسين
(الطباعة والنشر)
شارع مانياسي زاده، رقم:٤٧، چارشامبه
فاتح - إسطنبول - تركيا

هاتف: ٥٥ ٣٠ ٦٣٥ ٢١٢ (٩٠+)
فاكس: ٦٥ ٧٨ ٦٣٥ ٢١٢ (٩٠+)
البريد الإلكتروني: bilgi@yasinyayinevi.net

نور المجاهدين

للوصول إلى جنان رب العالمين

أربعون حديثا في فضل الجهاد

وفيه

معنى الجهاد والشهيد، وبيان أصناف الشهادة
كمال شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم
كمال قيادته الحربية
محبة الجهاد والشهادة عند الصحابة الكرام رضي الله عنهم
حكم الجهاد في الإسلام
فائدة في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾
نصائح من بعض الصحابة والمشايخ للمجاهدين
رسالة النجاة إلى إخواننا المسلمين كافّة
مسألة «الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر»
الجهاد والبطولة عند الصوفية الكِرام
فائدة في قوله تعالى:
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾
الأدعية المُهِمّة

جمعها

خليل بن إحسان أوران

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١)

> يُرْجَى إعْطَاءُ الكِتَابِ مِن شَخْصٍ لِآخَرَ لِتَعمِيمِ الفَائِدَةِ <

ولا تَنْسَوْا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ :

« الدَّالُّ على الخَيْرِ كَفَاعِلِه »

« مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ».

(١) آل عمران: ١٠٤.

مُقَدِّمَة

الحمد لله المَلِكِ الأَحَدِ الفَرْدِ الصَّمَدِ الذي فَتَحَ أَبْوابَ السَّعادةِ لِمَن شاءَ مِن عِبادِه، ومَنَحَ أَسْبابَ الشَّهادةِ لِمَن اصطَفاه وخَصَّه بِإسْعادِه، وفَرَضَ الجِهادَ على العِبادِ إيجاباً وإلزاماً، ورَغَّب فيه أَعظَمَ التَّرْغيبِ، وأَجْزَلَ ثَوابَ المُجاهِدِين والشُّهَداءِ، وجَعَلَه ذُرْوَةَ سَنامِ دِينِ الإِسلامِ تَشرِيفاً له وإِعظاماً، بل جَعَلَ الجَنَّةَ تَحتَ ظِلالِ السُّيوفِ، وفَضَّلَ المُجاهِدِين على القاعِدِين مِن المُؤمِنِين، قال سُبحانه وتعالى في مُحكَمِ كِتابِه الكريمِ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى:﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً؛ دَرَجَاتٍ مِنْهُ، وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ؛ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً

---

(١) سورة الصف:١٠-١١. قال الإمام القُشَيري رحمه الله في تفسيره: «سمّى الإيمان والجهاد تِجارةً لِمَا في التِّجارةِ مِن الرِّبحِ والخُسْرانِ ونَوعِ تَكسُّبٍ مِن التَّاجِرِ، وكذلك في الإيمانِ والجهادِ رِبْحُ الجَنَّةِ، وفي ذلك يَجتهِدُ العَبْدُ، وخُسْرانُها إذا كان الأَمْرُ بِالضِّدِّ».

(٢) سورة النساء:٩٥. أُولِي الضَّرَرِ: المَرَض والعاهة كالعَمَى والشَّلَلِ، أي: لا يَتَساوَى مَن قَعَدَ عن الجهادِ مِن المُؤمنين، مع مَن جاهَد بِماله ونفسِه في سبيل الله، غيرُ أهلِ الأعذارِ (كالأَعْمَى، والأَعْرَجِ، والمَرِيضِ) ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ... دَرَجَةً﴾ أي فَضَّلَ اللهُ المُجاهِدِين على القاعِدِين مِن أهلِ الأَعْذَارِ مَرْتَبَةً عَظِيمَةً لِاسْتِوائهم في النِّيَّةِ، وزِيادةِ المجاهِدِين بِالمُباشَرَةِ ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ أي وَكُلًّا مِن المُجاهِدِين والقاعِدِين بِسَبَبِ ضَرَرٍ لَحِقَهُم، وَعَدَهم اللهُ الجَزاءَ الحَسَنَ في الآخرةِ ﴿وَفَضَّلَ اللهُ... أَجْراً عَظِيماً﴾ أي وفَضَّلَ اللهُ المجاهِدِين في سبيلِ اللهِ على القاعِدِين بِغَيْرِ ضَرَرٍ وعُذْرٍ بِالثَّوَابِ الوَافِرِ العَظِيمِ ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ أي مَنازِلَ بعضُها فَوْقَ بَعضٍ مِن الكرامة مع المَغفرَةِ والرَّحمَةِ.

(٣) سورة البقرة:٢١٦. ﴿كُتِبَ﴾: فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمُ﴾ أيها المُؤمنون ﴿الْقِتَالُ﴾ مع الكُفّارِ عَيْناً إن دَخَلُوا بِلادَكم،=

كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ

=وكِفايَةً إن كانوا بِبِلادِهم.. ﴿وَهُوَ﴾ أي: والحالُ أنّ القِتالَ ﴿ كُرْهٌ﴾: مَكرُوهٌ ﴿لَكُمْ﴾ مِن جِهَةِ الطَّبْعِ، لِمَشَقَّتِه. فالكراهةُ المَذكورةُ ههنا كراهةُ الطِّباعِ والنَّفْسِ، لا كراهةُ الاختيارِ، ولا يكون في كراهةِ الطِّباعِ خِطابٌ، لأن كلَّ أحدٍ يَنفر عن القِتالِ والمُجاهَدةِ مع العَدُوِّ، ولا يَلزَمُ مِن كونِ الطَّبْعِ يَكرَهُه أنه كارِهٌ حُكْمَ اللهِ به. وإنّما كان الجهادُ كُرْهاً: لأنّ فيه إخراجَ المالِ، ومُفارَقَةَ الوَطَنِ والأَهْلِ، والتعرُّض بالجَسَدِ للشِّجَاجِ والجِرَاحِ، وقَطْعِ الأَطْرافِ، وذهابِ النَّفْسِ، فكانتْ كَراهِيَّتُهم لذلك. ﴿وَ﴾ لكن ﴿عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ أُمِرْتُم به ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في الواقِعِ مِن تَرْكِه. فَفِي الجِهادِ مَثَلاً نَصْرُ دِينِكم، وإعلاءُ كَلِمَةِ إسلامِكم، والغَنِيمَةُ والظَّفَرُ بِعَدُوِّكم، والأَجْرُ الكبيرُ عند رَبِّكم، مَن ماتَ كان شهيداً، ومَن عاشَ عاشَ سَعِيداً، وكذلك بَقِيَّةُ التَّكالِيفِ، فإنّ النَّفْسَ تَكرَهُ الإقدامَ عليها، وهي مَناطُ صَلاحِها، وسَبَبُ فَلاحِها. ﴿وَ﴾ أي كما أنّه ﴿عَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ نُهِيتُم عنه ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ لِمَيْلِ النَّفْسِ إلى الشَّهَوَاتِ المُوجِبَةِ لِهَلاكِها، ونُفُورِها عن التَّكليفاتِ المُوجِبَةِ لِسَعادَتِها. فقد تُحِبُّونَ الرَّاحَةَ وتَرْكَ الجهادِ، وفي ذلك ذُلُّكُمْ، وظُهُورُ العدوِّ عليكم، وفَوَاتُ الأَجْرِ مِن رَبِّكم، وحِرْمانُ دَرَجةِ الشَّهادةِ عند رَبِّكم. وكذلك جميعُ المَنْهِيّاتِ؛ فإنّ النَّفْسَ تُحِبُّها بِالطَّبْعِ، وتَشْرَهُ إليها، وهي تُفْضِي بها إلى ذُلِّها وهَوَانِها. وعَبَّرَ الحَقُّ سُبحانه بـ «عسى» الدَّالَّةِ على عَدَمِ القَطْعِ؛ لأنّ النَّفْسَ إذا ارْتاضَتْ وصَفَتْ انْعَكَسَ عليها الأَمْرُ الحاصِلُ لها قبل ذلك، فيَخفُّ عليها أَمْرُ الطَّاعَةِ، ويَصعُب عليها أمرُ المُخالَفةِ، حتّى قالوا: فيكون مَحبُوبُها مَكرُوهاً ومَكرُوهُها مَحبُوباً، فلمّا كانت قابِلَةً بالارْتِياضِ لِمِثْلِ هذا الانعِكاسِ لم يَقطَعْ بأنّها تَكرَهُ ما هو خيرٌ لها، وتُحِبُّ ما هو شرٌّ لها. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خيرٌ لكم وما هو شرٌّ لكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فبادِرُوا إلى ما يَأمُرُكم به، وإن شقَّ عليكم؛ لأنه لا يَأمُركم إلّا بِمَا عَلِمَ فيه خيراً لكم، وانتَهُوا عمّا نَهاكم عنه؛ لأنه لا يَنهاكم إلّا عمّا هو شرٌّ لكم. (تفسير الجلالين، والقرطبي، والماتريدي، والآلوسي، وابن عجيبة).

وفي تفسير أبي السُّعُود: (واللهُ يَعلَمُ) ما هو خيرٌ لكم فلذلك يَأمُرُكم به (وأنتم لا تَعلَمُون) أي لا تَعلَمُونه ولذلك تَكرَهُونه أو واللهُ يَعلَم ما هو خيرٌ وشرٌّ لكم وأنتم لا تَعلَمُونَهما، فلا تَتَّبِعُوا في ذلك رَأْيَكم وامْتَثِلُوا لِأَمْرِه تعالى.

(١) سورة البقرة:١٩٣. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ﴾ أي تُوجَدَ وتَبْقَى ﴿فِتْنَةٌ﴾ شِرْكٌ ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ أي العِبادةُ ﴿لله﴾ وَحْدَهُ لا يُعْبَدُ سِوَاهُ.

قال الإمام أبو مَنصُور محمد المَاتريديُّ رحمه الله في تفسيره: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لله﴾ أي لِيَكُونَ الدِّينُ دِينَ اللهِ في الأَرْضِ لا الشِّرْكَ. والدِّينُ الحُكْمُ. (تأويلات القرآن).

(٢) سورة الصف:٤. ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ أي كأنّهم في تَراصِّهم وثُبُوتِهم في المَعْرَكَةِ بِناءٌ، قد رُصَّ بَعْضُه بِبَعْضٍ، وأُلْصِقَ وأُحْكِمَ حتّى صارَ شَيْئاً واحداً. قال القرطبي رحمه الله: معنى الآيَةِ: أنّه تعالى يُحِبُّ مَن يَثبُتُ في الجِهاد في سبيلِ الله، ويَلزَمُ مَكانَه كَثُبُوتِ البِناءِ، وقال سَعِيد بنُ جُبَيْر: هذا تعليمٌ مِن الله تعالى لِلمُؤمِنِين كيف يَكُونُونَ عند قِتالِ عَدُوِّهم.

أَجْراً عَظِيماً ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[3]...

والصَّلاةُ والسَّلامُ على أَفضَلِ مَن جَاهَدَ في سَبِيلِ اللهِ بمالِهِ ونَفْسِهِ حَتّى كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَشُجَّ وَجْهُه الكَرِيمُ، أَشْجَعِ النَّاسِ، رَافِعِ رَايَةِ الجِهادِ، مُوَضِّحِ سُبُلِ الرَّشادِ سيّدِنا محمدٍ ذِي الخَصائِصِ التي لا يُحْصِيهَا حَافِظٌ بِأَعْدَادِهِ، القائِلِ: ﴿ بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ﴾[4]، والقائل: ﴿ أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ؟

---

(١) سورة النساء: ٧٤.

(٢) سورة التوبة: ١١١. ﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين..﴾ أي اشْتَرَى أَمْوَالَ المؤمنِين وأَنْفُسَهم بِالجَنَّةِ، وهو تَمْثِيلٌ في ذُرْوَةِ البَلاغَةِ والبيانِ لِأَجْرِ المجاهِدِين، فقَدْ مَثَّلَ الله سُبحانه وتعالى جَزاءَهم بِالجَنَّة على بَذْلِهِم الأَمْوَالَ والأَنْفُسَ في سَبِيلِه، بِصُورَةِ عَقْدٍ فيه بَيْعٌ وشِرَاءٌ.

قال الحَسَن البصري رحمه الله: بَايَعَهم فَأَغْلَى لهم الثَّمَنَ، وانْظُرُوا إلى كَرَمِ اللهِ: أَنْفُساً هو خَلَقَها، وأَمْوَالاً هو رَزَقَها، ثم وَهَبَها لهم، ثم اشْتَرَاها منهم بِهذا الثَّمَنِ الغالي، فإنها لَصَفْقَةٌ رابِحةٌ.

وقال بعضُ العلماءِ: نَاهِيكَ عن بَيْعٍ البَائِعُ فيه المُؤْمِنُ، والمُشْتَرِي فيه رَبُّ العِزَّةِ، والثَّمَنُ فيه الجَنَّةُ، والصَّكُّ فيه الكُتُبُ السَّمَاوِيَّةِ، والواسِطَةُ فيه مُحمَّدٌ المُصطَفى صلى الله تعالى عليه وسلم.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٩.

(٤) جزء من حديث رواه ابن أبي شَيْبَة في مُصنَّفه (١٩٧٤٧).

قوله: (بُعِثتُ بِالسَّيْفِ) أي بِالقِتالِ (حتى يُعبَد اللهُ) وهو عِلَّةٌ لِلبَعْثِ، لا غايَةٌ له.. (تحت ظِلّ رمحي) أي جُعِلَ رِزْقِي مِن الغَنائِمِ الحاصلةِ بِالمُحارَبَةِ المُؤَدِّيَةِ إلى صَيْرُورَةِ الإنسانِ تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِهِ (الصَّغَارُ) أي: الهَوَانُ في الدنيا بِالقَتْلِ والجِزْيَةِ، وفي الآخِرة بالعَذابِ (على مَن خَالَفَ أمري) وكما أنّ الذِّلَّةَ مَضْرُوبَةٌ على مَن خالَفَ فالعِزُّ مَجْعُولٌ لِأَهلِ طاعَتِه ومُتابِعِيه (ذَكَره السِّنْدِيُّ رحمه الله في حاشيته على مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: ٥١١٤)

قال الشيخ إسماعيل حَقِّي البُرُوسَوِيُّ رحمه الله: واعلَمْ أنّ الجهادَ لا يُنافِي كَوْنَه عليه السلام نَبِيَّ الرَّحْمَةِ، وذلك أنّه مَأْمُورٌ بِالجهادِ مع مَن خَالَفَه مِن الأُمَمِ بِالسَّيْفِ لِيَرْتَدِعُوا عن الكُفْرِ، وقد كان عَذَابُ الأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ عند مُخالَفَةِ أنبياءِهم بِالهَلاكِ والاسْتِئْصَالِ، فأمّا هذه الأُمّةُ فلم يُعاجَلُوا بذلك، كَرَامَةً لِنَبِيِّهم عليه الصلاة والسلام، ولكن يُجاهَدُوا بِالسَّيْفِ، وله (أي للجهادِ) بَقِيَّةٌ بِخلافِ العَذابِ المُنزلِ.. (تفسير روح البيان، سورة التوبة، الآية: ٤١).

اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ﴾(١)، والقائل: ﴿ جَاهِدُوا بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ﴾(٢)، والقائل: ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا تَخَلَّفْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾(٣)، والقائل: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ ﴾(٤)، والقائل: ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ﴾(٥).

وعلى آلِهِ الأَطْهَارِ وصَحْبِه الأَخْيَارِ الذين جاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ بِأَنْفُسِهِم فسَجَّلُوا على جَبِينِ التَّارِيخِ أَعْظَمَ الانْتِصَارَاتِ، وعلى التَّابِعِين لهم بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

أمّا بعد: فإنّ الجِهادَ في سَبِيلِ اللهِ مِن أَفضَلِ الأَعْمالِ التي تُقرِّبُ العَبْدَ إلى المَلِكِ العَلّامِ، به يُحفَظُ الدِّينُ ودِيارُ المُسلِمِين، ويُنشَرُ نُورُ الإسلامِ في المَعْمُورَةِ، وبه يُعَزُّ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمنِ ويُذَلُّ أولياءُ الشَّيطانِ، ويُدفَعُ العُدْوَانُ ويُرْفَعُ الظُّلْمُ عن المَظْلُومِين، ويُحكَّمُ شَرْعُ اللهِ تعالى في الأرضِ، فيَنْتَشِرُ العَدْلُ ويَسُودُ الأَمانُ ويَعُمُّ الرَّخَاءُ وتَسُودُ الأُمَّةُ وتُسمَعُ الكَلِمَةُ وتُصانُ الكَرَامَةُ..

ولمَّا شاهَدْتُ قِتالَ الكُفّارِ والظَّالِمِين مع المُسلِمِين وبَغْيَهم وفَسَادَهم في أَغْلَبِ بِلادِ الإسلامِ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَرْبَعِينَ حديثاً في فَضْلِ الجِهادِ، تحريضاً لِمَنْ هُتِكَ عِرْضُه واغتُصِبَتْ أَخَوَاتُه وأُرِيقَ دَمُ إخوانِه وهُدِمَ مَسْجِدُه وحُرِقَ مُصْحَفُه وعُذِّبَتْ أُمَّةُ نَبِيِّه صلى الله عليه وسلم(٦)،

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١٠٧٨٦).

(٢) جزء من حديث رواه النَّسائِيّ (٣١٩٢).

(٣) جزء من حديث رواه البَيْهَقِيّ في السُّنَن الكبرى (١٨٩٥٣).

(٤) رواه البخاري (٢٨١٨).

(٥) جزء من حديث رواه البخاري (٢٧٩٧)، ومسلم (١٨٧٦).

(٦) قال الشيخُ عبدُ الوَهَّابِ الشَّعْرَانِيُّ رحمه الله في كتابه الأَنْوَار القُدْسِيَّة (ص:٤٩٧): «يَنبَغِي لِمَنْ لم يَتَحَمَّلْ هُمُومَ النّاسِ أَنْ يَلُومَ نفسَه ويُوَبِّخَها، عَمَلاً بِحديثِ الطَّبَرَانِيّ [في «الأوسط»: ٧٤٧٣، وفي «الصغير»، له: ٨٩٠] مَرْفُوعاً: (مَنْ لم يَهْتَمَّ بِأَمْرِ المُسلِمِين فليس مِنهم). رَأَيْتُ بَعْضَهم لا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ المُسلِمِين، ويَزْعُمُ أنّ ذلك مِن التَّسْلِيمِ لله، وهو قُصُورٌ؛ فإنّ التسليمَ لله لا يُنَافِي الاهْتِمَامَ بِأَمْرِ المُسلِمِين المَأمُورِ به، واللهُ تعالى أعلمُ».

وقال رحمه الله في كتابه الكَوْكَب الشَّاهِق.. (ص: ٥١): «ومِن أَخلاقِهم تَحَمُّلُ هُمُومِ إخوانِهم مِن المسلمين إذا نَزَلَ بهم هَمٌّ، وعَجَزُوا عن تَحَمُّلِه قِياماً بِواجِبِ حَقِّهِم، ولا يَضْحَكُ أَحَدُهم، ولا يَتَنَاوَلُ شيئًا مِن شَهَوَاتِ=

وتحريضاً لِكُلِّ المُؤمِنين الَّذين هم إِخْوَةٌ بِنَصِّ القرآنِ المُبين، وجَسَدٌ واحدٌ بِحَديثِ حَبيبِ رَبِّ العَالَمِين، وامتثالاً لِقوله سُبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ.. ﴾[1]

ومِن المَعلُومِ أَنَّنا في أَيَّامِنا هذه بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إلى الجهادِ بِاللِّسَانِ والمَالِ والنَّفْسِ.. في قِتالِ الكُفَّارِ والظَّالِمِين، فَهَيَّا بِنَا نُعْلِي رَايَةَ الجِهادِ خَفَّاقَةً، هَيَّا بِنَا نُقاتِل أَعْدَاءَ اللهِ والمُسلِمِين، وَلْيَكُنْ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ، أَشْجَعُ النَّاسِ محمّدٌ المُصطَفى صلى الله عليه وسلم قُدْوَتنا، وَوُرَّاثه الرَّبَّانِيُّونَ أَئِمَّتنا، وسَلَفُنا الصَّالِحُ أَمْثِلَتنا.. ولا نَنْسَى قولَ اللهِ سُبحانه وتعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾[2]، وقولَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)[3].

واللهَ العَلِيَّ القَدِيرَ أَسْأَلُ أَنْ يَرْزُقَنِي السَّدَادَ والصَّوابَ وحُسْنَ البَيَانِ، وأَنْ يَحْفَظَنِي مِن الخَطَأِ، ويُوَفِّقَنِي لِمَا هو حَقٌّ عِندَه، على ما يُحِبُّه ويَرْضَاهُ، وأَنْ يَجْعَلَ في هذا الكِتابِ نُوراً وهِدَايَةً، ويَنْفَعَ به جميعَ المُسلِمِين، وأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنِّي هذا العَمَلَ، ويَجْعَلَه في صَالِحِ أَعْمَالِي..

فَمِن اللهِ سُبحانه وتعالى أَسْتَمِدُّ وبه أَسْتَعِينُ، وهو المُلهِمُ للرَّشَادِ والصَّوَابِ، والمُوَفِّقُ لِبَذْلِ الجُهْدِ فيه والاجتِهادِ.

اللّهُمَّ عَلِّمْنَا ما يَنفَعُنَا وانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وزِدْنَا عِلْماً يَنفَعُنَا، اللهم أَرِنَا الْحَقَّ حَقّاً وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَه، وأَرِنَا الباطِلَ بَاطِلاً وارْزُقْنَا اجْتِنَابَه، ولا تَجْعَلْه علينا مُتَشَابِهاً فَنَتَّبِعَ الهَوَى،

=النَّفْسِ ما دَامَ بِجِيرَانِه وإِخْوَانِه الهَمُّ. كان أخي الشيخ أفضلُ الدِّينِ إذا نَزَلَ بِأَحَدٍ مِن المسلمين كَرْبٌ في سائِرِ أَقْطَارِ الأَرْضِ، يَصِيرُ كَالذي ماتَ أَعَزُّ أَوْلادِهِ، وذَهَبَ أَكْثَرُ مَالِهِ، فلا يَزَالُ كذلك حتّى يَرْتَفِعَ ذلك الكَرْبُ عَمَلاً بِقوله صلى الله عليه وسلم: (مَن لم يَهْتَمّ..) ».

(١) سورة الأنفال: ٦٥. أي: حُثَّ المُؤمِنين ورَغِّبهم بِكُلِّ جُهْدِكَ على قِتال المُشرِكِين بِنَحْوِ نَصْرِهِ تعالى وما أَعَدَّ لهم. وفي الآية بيانُ فضيلةِ الجهادِ، وإِلَّا لَمَا وَقَعَ التَّرْغِيبُ به!!.

(٢) سورة إبراهيم: ٤٢. ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ فإنّ سُنَّةَ اللهِ إمهالُ العُصاةِ، ثم يَأخُذُهم أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ. وهذا وَعِيدٌ للظالم وتَعزيةٌ لِلمَظلُومِ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: يُمْهِلُهُم مُتَمَتِّعِينَ بِالحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ ولا يُعَجِّلُ عُقُوبَتَهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: تَبقى أَعْيُنُهم مَفتُوحَةً لا تَتَحَرَّكُ أَجْفَانُهم مِن هَوْلِ ما يَرَوْنَه، يعني: أنّ تأخيره للتشديد والتغليظ، لا للغفلة عن أعمالهم ولا لإهمالهم. وشخوصُ البَصَرِ يَدُلُّ على الحيرةِ والدهشةِ وسقوطِ القُوَّةِ.

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣). قوله: (لَيُمْلِي) لَيُمهِلُ. (لم يُفلِتْهُ) لم يُخَلِّصْهُ ولم يَتْرُكْهُ حتّى يَسْتَوْفِيَ عِقَابَهُ.

اللهم أَخْرِجْنَا مِن ظُلُمَاتِ الجَهْلِ والوَهْمِ إلى أَنْوَارِ المَعْرِفَةِ والعِلْمِ، وأَكْرِمْنَا بِنُورِ الفَهْمِ، وافْتَحْ علينا بِمَعْرِفَةِ العِلْمِ، وزَيِّنْ أَخْلاقَنَا بِالحِلْمِ،

اللهم انْشُرْ عَلينا مِن خَزَائِنِ رَحْمَتِكَ، واجْعَلْنا مِمَّنْ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه، وأَدْخِلْنَا بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ،

اللهم أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِنَا، وأَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا التي فيها مَعَاشُنَا، وأَصْلِحْ لَنَا آخِرَتَنَا التي إليها مَعَادُنَا، واجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا مِن كُلِّ خَيْرٍ، واجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِن كُلِّ شَرٍّ،

اللهم إنّا نَسْأَلُكَ مِن الخَيْرِ كُلِّه، عَاجِلِه وآجِلِه، ما عَلِمْنَا منه وما لم نَعْلَمْ، ونَعُوذُ بِكَ مِن الشَّرِّ كُلِّه، عَاجِلِه وآجِلِه، ما عَلِمْنَا منه وما لم نَعْلَمْ، ونَسْأَلُكَ مِن خَيْرِ ما سَأَلَكَ منه عَبْدُكَ ونَبِيُّكَ محمدٌ ﷺ وعِبادُكَ الصَّالِحُونَ، ونَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ ما اسْتَعَاذَكَ منه عَبْدُكَ ونَبِيُّكَ محمدٌ ﷺ وعِبادُكَ الصَّالِحُونَ،

اللهم أَعِنَّا على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِكَ، اللهم يا رَحِيمُ يا حَمِيدُ يا غَنِيُّ.. أَغْنِنَا بِحَلالِكَ عن حَرَامِكَ وبِطَاعَتِكَ عن مَعْصِيَّتِكَ وَاكْفِنا بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ،

اللهم إنّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْضَى عَنَّا وأَنْ تُبَلِّغَنَا مَنْزِلَةَ الرَّاضِينَ عَنْكَ، ونَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وما قَرَّبَ إليها مِن قَوْلٍ أو عَمَلٍ، ونَعُوذُ بِكَ مِن النَّارِ وما قَرَّبَ إليها مِن قَوْلٍ أو عَمَلٍ،

اللهم ثَبِّتْنَا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرةِ، واخْتِمْ لَنَا وَلِآبَائِنَا ولِأُمَّهَاتِنَا، ولِأَوْلادِنَا ومَشايِخِنَا.. بِمَا خَتَمْتَ به لِأَنْبِيائِكَ وأَوْلِيَائِكَ الصَّالِحِينَ، واحْشُرْنَا في زُمْرَتِهِم، تَحْتَ لِوَاءِ سَيِّدِ المُرْسَلِين..

وصَلِّ اللهم على الرَّسُولِ الكَرِيمِ سَيِّدِنَا ونَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ إِمامِ المُرْسَلِين وقَائِدِ المُجاهِدِين، وسَلِّمْ تَسْليماً كَثِيراً، وعلى أَصْحَابِه الفَاتِحِين، وأَتْبَاعِهِ المُهْتَدِين، ومَنْ دَعَا بِدَعْوَتِهِم وجَاهَدَ بِجِهَادِهِم إلى يومِ الدِّين، والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين.

جَمَعَها المُفتَقِرُ إلى عَفوِ رَبِّهِ الحَنَّانِ المَنَّانِ:

خليل بن إحسان أوران

٢٧ رمضان من سنة ١٤٣٥ هـ

بمسجد إسماعيل آغا ـ فاتح ـ إسطنبول.

المُصْطَلَحاتُ الوَارِدَةُ في الكتابِ

معنى الجِهادِ:

الجهاد لغةً: مُشتَقٌّ مِن الجَهْدِ، بِفتح الجِيم، وهو التَّعَبُ والمَشَقَّةُ، لِمَا فيه مِن ارْتِكابِها[1]، أو مِن الجُهْدِ، بالضمّ، وهو الطاقَةُ؛ لأنّ كُلَّ واحدٍ منهما بَذَلَ طاقَتَه في دَفْعِ صاحِبِه.[2] وقِيل هو المُبَالَغَةُ واسْتِفْرَاغُ ما في الوُسْعِ..

واصطلاحاً: فقد عَرَّفَه العلماءُ بِتَعْبِيرَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ أَكْثَرُها تَؤُولُ إلى معنى واحدٍ، قال القَسْطَلانِيُّ رحمه الله في «إرشاد السَّارِي» هو: قتالُ الكُفَّارِ لِنُصْرَةِ الإسلامِ وإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وقال ابنُ حَجَر العَسْقَلانِيُّ رحمه الله في «فَتْح الباري» هو: بَذْلُ الجُهْدِ في قِتالِ الكُفّارِ، ويُطلَقُ أيضاً على مُجاهَدَةِ النَّفْسِ والشَّيْطانِ والفُسَّاقِ. فأمّا مُجاهَدَةُ النَّفْسِ فعلى تَعَلُّمِ أمورِ الدِّينِ ثُمَّ على العَمَلِ بها ثُمّ على تَعلِيمِها، وأمّا مُجاهَدَةُ الشَّيْطانِ فعلى دَفْعِ ما يَأْتِي به مِن الشُّبُهاتِ وما يُزَيِّنُهُ مِن الشَّهَوَاتِ، وأمّا مُجاهَدةُ الكُفّارِ فَتَقَعُ بِالْيَدِ والمالِ واللسانِ والقَلْبِ، وأمّا مُجاهَدَةُ الفُسَّاقِ فَبِالْيَدِ ثُمّ اللسانِ ثم القلبِ. وقال الكَاسَانِيُّ رحمه الله في «بَدَائِع الصَّنَائِع»: الجهادُ في عُرْفِ الشَّرْعِ يُسْتَعْمَلُ في بَذْلِ الوُسْعِ والطَّاقَةِ بِالقِتالِ في سبيلِ اللهِ عزّ وجلّ بِالنَّفْسِ والمالِ واللسانِ أو غيرِ ذلك.. وقال الحَصْكَفِيُّ رحمه الله في «الدر المختار»: الجهاد شرعاً: الدُّعَاءُ إلى الدِّين الحَقِّ وقِتالُ مَن لم يَقبَلْه.. وعَرَّفَه ابنُ الكَمالِ بِأنّه: بَذْلُ الوُسْعِ في القِتال في سبيلِ اللهِ مُباشرَةً، أو مُعاوَنَةً بِمَالٍ أو رَأْيٍ، أو تَكْثِيرِ سَوَادٍ، أو غيرِ ذلك.[3]

---

(١) قال المُنَاوِيّ رحمه الله في فَيْضِ القدير شرح الجامع الصغير (رقم الحديث: ٩٠١٢): «تنبيه: الجِهادُ مِن الجَهْد وهو المَشقّة، فإنه سَفَرٌ عن الوَطَنِ، والسَّفَرُ قِطْعةٌ مِن العَذابِ مع ما فيه مِن المُخَاطَرَةِ بِالنَّفْسِ، فلذلك عَظُمَتْ دَرَجَةُ المُجَاهِدِ لِعَظِيمِ ما يَلْقى، وَكَثُرَتْ حَسَناتُه؛ لأنه يُقاتِلُ عن كلِّ مَنْ وَرَاءَه مِن المُسلِمِين، ولَوْلا الجِهادُ لَوَصَلَ العَدُوُّ إليهم، فكأنّه نَابَ مَنابَ الكُلِّ».

(٢) قاله القسطلاني رحمه الله في «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري».

(٣) قال العَلّامَة ابنُ عابِدِين في حاشيته: «قوله: (وقِتالُ مَن لم يَقبَله) أي: قتالُه مُباشَرَةً أوّلاً، فتَعريفُ ابنِ الكَمالِ تَفصِيلٌ لِإجْمالِ هذا. (في القِتال) أي: في أَسْبَابِه وأَنْوَاعِه مِن ضَرْبٍ وهَدْمٍ وحَرْقٍ.. ونحوِ ذلك. (أو معاونة الخ)=

وإذا أَرَدْنَا أَنْ نُلخِّصَ هذه التَّعْبِيرَاتِ يُمْكِنُنَا أَنْ نَقول: إنّ الجهادَ لا يَخْتَصُّ بِمُبَاشَرَةِ القَتْلِ، وإنّما هو كلُّ جُهْدٍ يُبْذَلُ في سبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وكَسْرِ شَوْكَةِ الكُفْرِ والكُفَّارِ، سواءٌ كان بِالسِّلاحِ أو بِالمَالِ أو بِالعَمَلِ أو بِالقَلَمِ أو بِاللِّسَانِ، ولكنّ كَلِمَةَ «الجهاد» إذا أُطْلِقَتْ فإنّما يُرَادُ بها في الغالِبِ جُهْدٌ يُبْذَلُ في قِتالِ الكُفّارِ، ولا تُطلَقُ على غيرِه إلّا بِقَرِينَةٍ تَدُلُّ على ذلك.

وكذلك تُطلَق أيضاً على جهادِ النفسِ(١) والشيطانِ، ولكنّ هذا الإطلاقَ تَجَوُّزٌ بِالنِّسْبَةِ إلى مَعْنَاهُ المُصْطَلَحِ المَعرُوفِ، فلا يُصَارُ إليه أيضاً إلّا بِقَرِينَةٍ.

معنى الشَّهِيدِ:

الشهيدُ على وَزْنِ فَعِيل بمعنى الفاعِلِ أو المَفعولِ. إنّما سُمِّيَ الشهيدُ شهيداً؛ لأنه حَيٌّ فكأنّ أَرْوَاحَهم شاهِدَةٌ أَيْ حاضِرَةٌ، وقيل لأنّ اللهَ ومَلائِكَتَه يَشْهَدُونَ له بِالجَنّة، وقيل لأنه يَشهَدُ عند خُرُوجِ رُوحِهِ ما أُعِدَّ له مِن الكَرَامَةِ، وقيل لأنه يُشْهَدُ له بالأَمَانِ مِن النّارِ، وقيل لأنه يُشهَد له بالإيمانِ وخاتمةِ الخيرِ بِظاهِرِ حالِه، وقيل لأنّ عليه شَاهِداً بِكَوْنِهِ شهيداً (وهو دَمُهُ، فإنّه يُبْعَثُ وجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَماً -أي يَسِيل ويَجرِي-)، وقيل لأنه لا يَشهَده عند مَوْتِهِ إلّا ملائكةُ الرَّحمةِ، وقيل لأنه الذي يَشهَد يومَ القيامةِ بِإِبْلاغِ الرُّسُلِ، وقيل لأنّ الملائكة تَشهَد له بِحُسْنِ الخاتمةِ، وقيل لأن الأنبياءَ تَشهَد له بِحُسْنِ الاتّباعِ لهم، وقيل لأنّ اللهَ يَشهَد له بِحُسْنِ نِيَّتِهِ وإخلاصِه، وقيل لأنه يُشاهِدُ الملائكةَ عند احتضارِهِ، وقيل لأنه يُشاهِد المَلَكُوتَ مِن دارِ الدنيا ودار الآخرةِ، وقيل لأنّ عليه علامةً شاهِدةً بأنّه قد نَجَا.(٢)

=أي: وإن لم يَخرُج معهم بِدليلِ العَطْفِ. (أو تكثير سواد) السَّوَادُ: العَدَدُ الكَثِيرُ، وسَوَادُ المُسلِمين جَمَاعَتُهم (أو غير ذلك) كَمُدَاوَاةِ الجَرْحَى وتَهْيِئَةِ المَطَاعِمِ والمَشَارِبِ».

(١) كما ورد في الحديث: «..المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الخَطَايَا وَالذُّنُوبَ» (رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢٣٩٥٨)

(٢) قال العسقلاني رحمه الله: بعضُ هذه يَخْتَصُّ بِمَنْ قُتِلَ في سبيلِ الله، وبعضُها يَعُمُّ غيرَه، وبعضُها قد يُنَازَعُ فيه. (فتح الباري، رقم الحديث:٢٨٢٩، وفيض القدير شرح الجامع الصغير»، رقم الحديث: ٣٩٥٥)

أَصْنَافُ الشُّهَدَاءِ:

الشهداءُ ثلاثةُ أصنافٍ: شهيدٌ في حُكْمِ الدنيا والآخرةِ، وشهيدٌ في حكمِ الدنيا، وشهيدٌ في حكمِ الآخرةِ.

فشهيدُ الدنيا والآخرةِ: شهيدُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ[1] ولم يَرْتَكِبْ مَحْظُوراً مِن مَحْظُورَاتِ الجهادِ.

وشهيدُ الدنيا: مَن وَقَعَ في مَحظورٍ مِن مَحظوراتِ الجهادِ، فأَفسَدَ جهادَه _كَغُلولِه مِن الغَنِيمَةِ، أو رِيائِه أو قِتالِه لِغَرَضٍ دُنْيَوِيّ_ لكنّه لو استُشهِدَ لَعُومِلَ مُعامَلَةَ الشهيدِ مِن أنه: لا يُغَسَّلُ، ولا يُكَفَّنُ، بل يُزَمَّلُ ويُلَفَّفُ بِثِيَابِهِ[2]، وعَمَلُه ذاك يُفسِدُ عليه أَجْرَ آخِرَتِه، لذلك لا يُقال له: شَهِيدُ الآخِرَةِ أيضاً.

وشهيدُ الآخرةِ: هم أَصْحابُ الأَنْواعِ الأُخْرَى مِن الشَّهَاداتِ، التي ذُكِرَتْ في عِدَّةِ أَحادِيث، فهؤلاء لا يُسَمَّوْنَ شُهَدَاءَ الدنيا أيضاً، لأنهم ليس لهم أحكامُ الشهداءِ في الجهادِ مِن أنّ الوَاحِدَ منهم لا يُغَسَّلُ ولا يُكَفَّنُ، بل لهم الأَجْرُ العَظِيمُ في الآخِرةِ، فهم شُهَدَاءُ الآخِرَةِ.[3]

ومِن هذا الصِّنْفِ الثَّالِثِ: ما جاءَ ذِكْرُهُ في «صحيح» البُخاري مِن حديثِ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: أنّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: « الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ[4]: المَطْعُونُ،

---

(١) ويَلتَحِقُ به عند الحَنفيةِ غيرُه. (انظر: حاشية ابن عابدين، باب الشهيد).

(٢) لأنّ الشَّهيدَ يُصَلَّى عليه بلا غَسْلٍ ويُدْفَنُ بِدَمِهِ وثِيَابِه. فيُصَلَّى عليه؛ لأن الصلاةَ على المَيّتِ إكرامٌ له، وهم أَحَقُّ بِالإكرام، ولا يُغسَّلُونَ؛ لأن السيفَ أَغْنَى عن الغَسْلِ لِكونه طُهْرَةً، ويُدْفَنُونَ بِثِيَابِهِم التي قُتِلُوا فيها (بعد أن يُنزَعَ منها ما لا يَصْلُحُ لِلكَفَنِ كَالدِّرْعِ والخُفِّ والسِّلاحِ. وإن نَقَصَ ما عليه عن كَفَنِ السُّنَّةِ يُزَادُ ثَوْباً جَدِيداً، تَكْرِيماً لهم)، وفي ذلك إبقاءُ أَثَرِ الشَّهَادةِ عليهم، لأنهم سَيَلقَوْنَ اللهَ تعالى بِجُرُوحِهِم ودِمَائِهِم التي ثَبَتَ أنّها تأتِي كَرِيحِ المِسْكِ يومَ القيامةِ.

(٣) ذَكَر هذا التقسيمَ الإمامُ النَّوَوِيُّ وغيرُه مِن العُلماءِ. (انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، باب بيان الشهداء، رقم الحديث:١٩١٤)

(٤) قال السندي في حاشيته على مسند الإمام أحمد بن حنبل (٨٣٠٥) : «لم يُرِد الحَصْرَ، بل أَرَادَ دَفْعَ تَوَهُّمِ أنّ الشهادةَ مُنحَصِرَةٌ في القَتْلِ في سبيل الله، أي: ليس الشهيدُ المقتولَ في سبيل الله فقط، بل هم كَثِيرُون، وإلّا فقد=

وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله ».[1]

وجَاءَتْ أَحَادِيثُ أُخْرَى تَذْكُرُ أَنْوَاعاً كَثِيرَةً سِوَى هذه الخَمْسَةِ، مِثْلُ مَن مَاتَ في الحَرِيقِ[2]، أو ماتَ مُرابِطاً[3]، أو ماتَتْ بِجُمْعٍ[4]، أو مَن افتَرَسَتْه السِّبَاعُ[5]، أو مَن طَلَبَ الشَّهادَةَ بِنِيَّةٍ صادِقَةٍ..[6] فهؤلاء كُلُّهم مِن شُهداءِ الآخرةِ، أي: لهم في الآخرةِ أجرُ الشهيدِ، أمّا مِن حيث أَحكامُ الدنيا ـ عدمُ التَّغسِيلِ والتَّكْفِينِ ـ: فلا، بل يُغسَّلُونَ ويُكفَّنُونَ كَسَائِرِ الأَمْوَاتِ. قال ابنُ التِّينِ رحمه الله: «هذه كُلُّها مِيتَاتٌ[7]، فيها شِدَّةٌ، تَفَضَّلَ الله على أُمَّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم بِأَنْ جَعَلَها تَمحِيصاً لِذُنُوبِهم، وزِيادَةً في أُجُورِهِم، يُبَلِّغُهم بها مَرَاتِبَ الشهداءِ».[8]

=جاءَ ما يَدُلّ على شهادةِ غيرِ الخمسةِ أيضاً، والله تعالى أعلم».

وقال ابن حجر في «الفتح» (٦-٥٤) : «والذي يَظهر أنه صلى الله عليه وسلم أُعلِمَ بِالأَقَلِّ ثُمّ أُعلِمَ زيادةً على ذلك فذَكَرَها في وقتٍ آخَرَ ولم يَقصِد الحَصْرَ في شيءٍ مِن ذلك».

(١) كتاب الجهاد، باب: الشّهادة سَبْعٌ، رقم الحديث: ٢٨٢٩.

قوله: (المَطْعُونُ) هو الذي ماتَ في الطَّاعُون (وَالمَبْطُونُ) هو الذي مات بِمَرَضِ بَطْنِه كَالاستِسْقَاءِ والإسْهالِ ونحوِه (وَالغَرِقُ) هو الذي مات غريقاً في الماء (وَصَاحِبُ الهَدْمِ) هو الذي انْهَدَمَ عليه جِدارٌ أو نحوُه فماتَ تَحْتَه (وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله) أي المقتولُ فيه..

(٢) هو الذي مات بِحَرِيقِ النَّارِ.

(٣) هو الذي مات حالَ كونِه مُلازِماً ثَغْرَ العَدُوِّ بقصدِ إعزازِ الدِّين ودَفْعِ شَرِّ المُشركِين عن المُسلِمِين.

(٤) الجُمْع بِالضَّمّ بمعنى المَجْمُوعِ كَالذُّخْرِ بمعنى المَذْخُور، وكَسَرَ الكِسَائِيُّ الجِيمَ، والمعنى أنها ماتت مِن شيءٍ مَجموعٍ فيها غيرِ مُنفصِلٍ عنها مِن حَمْلٍ أو بَكارَةٍ، وقد تُفتَح الجيمُ أيضاً على قِلَّةٍ.
قال ابنُ حَجَرٍ رحمه الله: الجُمْع: بِضمِّ الجِيمِ وسُكونِ المِيمِ، وقد تُفتَحُ الجيمُ وتُكسَرُ أيضاً وهي النُّفَساءُ، وقيل التي يَموتُ وَلَدُها في بَطْنِها ثم تَموت بِسَبَبِ ذلك. وقيل التي تَموت عَذْرَاءَ، والأَوَّلُ أَشْهَرُ.

(٥) السِّبَاعُ: كُلُّ حَيوانٍ يَعْدُو على الناسِ والدَّوَابِّ فيَفْتَرِسُها.

(٦) وللاستزادة انظر: «فتح الباري» ج:٦ ص:٥٤ للعَسْقَلانِيّ، رقم الحديث: ٢٨٢٩، و«فيض القدير» للمُنَاوِيّ، رقم الحديث: ٤٩٥٤، و«أبواب السعادة في أسباب الشهادة» و«التثبيت عند التبييت» للسُّيُوطِيّ، و«شرح التثبيت عند التبييت» للأَجْهُورِيّ رحمهم الله تعالى.

(٧) بِكسر المِيم الهَيْئَةُ مِن المَوْت.

(٨) قال العلامة علي القاري رحمه الله في مِرقاةُ المَفاتِيح: «فكلُّ مَن كَثُرَ أَسْبَابُ شَهادَتِه زِيدَ له في فَتْحِ أَبْوَابِ سَعادتِه».

ولا يُسْتَثْنَى مِن هذا العَدَدِ إلّا الأَوَّلُ: الشهيدُ في سبيل الله، فإنه إن اسْتَوْفَى أحكامَ المُجاهِدِين المُخْلِصِين الصَّادِقِين فهو شهيدُ الدنيا والآخرةِ، وإنْ تَلَبَّسَ بِشيءٍ ممّا سِوَى ذلك: فأَمْرُه إلى الله تعالى، لكنّنا نُعْطِيهِ أَحْكامَ الشَّهِيدِ الدُّنْيَوِيَّةِ. [1]

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله بَعْدَما ذَكَرَ شُهَدَاءَ الآخرةِ: «والذي يَظْهَرُ أنّ المَذكُورِينَ لَيْسُوا في المَرتَبَةِ سواءً، ويَدُلُّ عليه ما رَوَى أحمدُ وابنُ حِبّان في صحيحه مِن حديثِ جَابِرٍ، والدَّارِمِيُّ وأحمدُ والطَّحاوِيُّ مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ حَبَشِي، وابنُ ماجَه مِن حديث عَمْرِو بنِ عَنْبَسَة (أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلَ أَيُّ الجهادِ أَفضَلُ؟ قال: مَن عُقِرَ جَوَادُه وَأُهْرِيقَ دَمُهُ)، ورَوَى الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ الحلوانيّ في «كتاب المعرفة» له بإسنادٍ حَسَنٍ مِن حديثِ ابنِ أبي طالِبٍ رضي الله عنه قال: (كُلُّ مَوْتَةٍ يَمُوتُ بها المُسلِمُ فهو شهيدٌ) غيرَ أنّ الشّهادةَ تَتَفَاضَلُ». [2]

فَنسأَلُ اللهَ تعالى حُسْنَ الخاتمةِ والشَّهَادَةَ في سَبيلِه..

* * * * *

(١) ولا يَنبَغِي أن يتوَسَّعَ في إعطاءِ هذا اللقَبِ الكريمِ (الشهيد) لِأَيِّ إنسانٍ كان، كما يَحصُلُ في كثيرٍ مِن البِلادِ إذْ يُطْلِقُونَه.. حتّى على الكافر!!.

(٢) فتح الباري ج:٦ ص:٥٤ (رقم الحديث:٢٨٣٠).

الحديث الأول

عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **الجِهَادُ عَمُودُ الإِسْلامِ وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ**[1] ». رواه الإمام أحمد بن حنبل في مُسنَده (٢٢٠٤٧).

وعن أَبِي أُمامَةَ رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: « **ذُرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلامِ الجِهادُ في سَبِيلِ اللهِ، لا يَنالُهُ إِلَّا أَفْضَلُهُمْ**[2] ». رواه الطَّبَرانِيُّ في المُعجَم الكبير (٧٨٨٥).

---

(١) (وذرْوَةُ سَنامِه) السَّنَامُ: مَا ارْتَفَعَ مِن ظَهْرِ الجَمَلِ، وذُرْوَتُه ـبِالضَّمِّ والكَسْرِـ: أَعْلاهُ، أي بِما هو لِلدِّينِ بِمَنزلةِ ذرْوَةِ السَّنَامِ لِلجَمَلِ في العُلُوِّ والارْتِفاعِ. وقد جاء بيانُ هذا بِأَنّ رأسَ الأمرِ الإسلامُ، وعَمُودَه الصلاةُ، وذرْوَةَ سَنامِه الجهادُ.

والمعنى: (رأس الأمر) أي الدِّينِ (الإسلام) أي الإتيانُ بالشّهادتين، فهو مِن جميع الأعمال بمنزلة الرأس مِن الجسد في احتياجِه إليه، وعدمِ بَقَائِه بِدُونِه، فلا أَثَرَ لِسَائِرِ الأُمُورِ بِدُونِه، كما لا أَثَرَ لِحَيَاةِ الحَيَوَانِ بدون رأسِه. (وعموده) الذي يَقوم به ويَعتمِد عليه هو (الصلاة) يعني الإسلامُ هو أَصْلُ الدِّينِ إلّا أنه ليس له قُوَّةٌ وكَمَالٌ كالبَيْتِ الذي ليس له عَمُودٌ، فإذا صَلَّى ودَاوَمَ قَوِيَ دِينُه (وذروة سنامه الجهاد) وفيه إشعارٌ إلى صُعُوبَةِ الجِهادِ وعُلُوِّ أَمْرِه وتَفَوُّقِه على سائِرِ الأَعْمَالِ.

وفي «المُصَنَّف» لابن أبي شَيْبَة رحمه الله (١٩٦٥٨) : عن مُعاذ بنِ جبل رضي الله عنه قال: **أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَزْوَةِ تَبوكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي عَنْ ذُرْوَتِهِ، فَقَالَ: «أَمَّا ذُرْوَتُهُ: فَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»**. يعني ذُروة الإسلامِ. ووَرَد بلفظ: (**الجهادُ في سبيلِ اللهِ سَنَامُ العَمَلِ**) (انظر: مسند الإمام أحمد: ٧٨٦٣).

الجهادُ مِن أَهَمِّ مَعَالِمِ الدِّينِ، وسَمَّاهُ بعضُ العُلَمَاءِ الرُّكْنَ السَّادِسَ مِن أَرْكانِ الإسلامِ، والمُرَادُ والمَقصُودُ منه نَشْرُ الإسلامِ، وتَبلِيغُ الدَّعْوَةِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً، تَحقِيقاً لقوله تعالى في مُخاطَبَةِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وتَكليفِه وتكليفِ أُمَّتِه مِن بَعْدِه: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقولِه تعالى: ﴿ **قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً** ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، والمقصودُ منه أيضاً دَفْعُ شَرِّ الكَفَرَةِ وكَسْرُ شَوْكَتِهم وإطفاءُ ثَائِرَتِهم، وإعلاءُ كلمةِ الإسلامِ..

(٢) قال المُناوِيُّ رحِمه الله في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٤٣٢١) : (ذروةُ سَنامِ الإسلام الجهادُ في سبيل الله) بِقَصْدِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ. والذروةُ مِن كلِّ شيءٍ أَعْلاهُ، وسَنامُ الشيءِ أعلاهُ، فالجَمْعُ بينهما هنا للمُبالَغَةِ (لا يَنالُه إلّا أَفْضَلُهم) يَعنِي أفضلَ المُسلِمِين المَدلولِ عليه بلفظِ الإسلام، فإِنْ جَادَ بنفسِه لله فهو أفضلُهم بِلا نِزَاعٍ.

الحديث الثاني

عن أَنَسٍ رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: « **جَاهِدُوا المُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ**[1] **وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**[2]». رواه الإمام أحمد (١٢٢٤٦)، وأبو داود (٢٥٠٤).

---

(١) (بِأَمْوَالِكُمْ) أي بِبَذْلِ الأَمْوَالِ ؛ فأَنْفِقُوها على السِّلاحِ وتَجْهِيزِ الغُزَاةِ ورِعَايَةِ أَوْلادِهم وأَهْلِهم ونحوِ ذلك في سبيل الله تعالى لِإعلاءِ كَلِمَتِه، وهو مَطلوبٌ مِن كلِّ مَن يَملِكُ مالاً. وعلينا أن لا نَنْسَى هُنا كيف كان الصحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم يُنفِقُونَ أَمْوَالَهم في سبيل الله تعالى.

(٢) (وَأَنْفُسِكُمْ) أي بِبَذْلِ الأَنْفُسِ ومُقاسَاةِ التَّعَبِ فيه (وَأَلْسِنَتِكُمْ) قيل: بِأَنْ تُخَوِّفُوهم وتُوعِدُوهم بِالقَتْلِ والأَخْذِ والنَّهْبِ وغيرِ ذلك..، وبِأَنْ تدعوا عليهم بِالخِذْلانِ والهَزِيمَةِ، وللمسلمين بِالنَّصْرِ والغَنِيمَةِ، وبِأَنْ تُحَرِّضُوا النَّاسَ على الغَزْوِ ونحوِ ذلك. (بَذْلُ المَجْهُود في حَلِّ سُنَنِ أَبِي دَاوُد)

أَقُولُ: الجِهادُ بِالعِلم واللِّسَانِ نَوْعٌ مِن أَنْوَاعِه. والعِلمُ هُنَا يَشمَلُ التَّعلِيمَ عَامَّةً، ونَشْرَ الْوَعْيِ الإسلاميِّ، وبَيَانَ حقيقةِ الدِّينِ والشَّرْعِ والإيمانِ، ورَدَّ الشُّبَهِ الفِكْرِيَّةِ بِالبَيانِ باللِّسَانِ وبالكِتابَةِ بالقَلَمِ، والمُنَاظَرَةَ مع أهلِ الضَّلالِ، وإقامَةَ الحُجَّةِ على ضَلالَتِهم وبُطْلانِ أَعْمالِهم، ويَدخُلُ في ذلك تعليمُ المُسلمِ للقيامِ بِوَاجِبِه في نَشْرِ الإسلامِ والدِّفاعِ عنه، ومُقاتَلَةِ الأَعْداءِ، وهذا النَّوْعُ أَوَّلُ أَنْوَاعِ الجهادِ دَرَجَةً وأَهَمُّها لِقوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ (الفرقان:٥٢)، أي جاهِدْهم بِالقرآن والعلمِ والدعوةِ، فإنّ مُجاهَدَةَ السُّفَهاءِ بِالحُجَجِ أكبرُ مِن مجاهدةِ الأَعْداءِ بِالسَّيْفِ.

ومعنى: جاهدهم بالقرآن، أي: بِأَنْ تَقرَأَ ما فيه مِن البَرَاهِينِ والقَوَارِعِ والزَّوَاجِرِ والمَوَاعِظِ وتَذكِيرِ أَحْوَالِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ المُكَذِّبَةِ. (انظر: تفسير البَيضاوي، والآلوسي، والبروسوي، وأبي السعود)

قال شَيْخُنَا الشَّيْخُ محمود أفندي (أَطَالَ اللهُ في عُمُرِهِ وأَدَامَ نَفْعَه للإسلام والمُسلِمين): «يجب علينا أَنْ نُؤَسِّسَ في كُلِّ حَيٍّ مَدْرَسَةً شَرْعِيَّةً لِلذُّكُورِ وَأُخْرَى لِلإِنَاثِ، كَيْ يَتَعَلَّمَ النَّاسُ العُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ، والأَخْلَاقَ المُحَمَّدِيَّةَ.. وبهذا يَنْتَشِرُ الدِّينُ، ويُحَكَّمُ شَرْعُ اللهِ تعالى في الأَرْضِ، وتُؤَسَّسُ الأَخْلاقُ المُسْتَقِيمَةُ والآدابُ القَوِيمَةُ، فالجَهْلُ أَكْبَرُ بَلاءٍ أَصَابَ المُسلِمِين، فصَلَاحُ العالَمِ يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ الفَرْدِ..». ومع الأَسَفِ الشَّدِيدِ: لا يَتحدّث المُسلمون عن مُصَابِهم بِكَارِثَةِ فَقْدِ العلماءِ، وكيف تَتَدَارَكُ الأُمَّةُ مُصابَها بِوَفاةِ عُلَمَائِها ومَرَاجِعِهم الدِّينيةِ!!، وذلك يكون بِتَقدِيمِ النُّجَبَاءِ مِن أَبْنَائِهم إلى طلبِ العلمِ الشَّرْعِيِّ، مع تَفْرِيغِهم له عن كلِّ مَشغَلَةٍ، وبغيرِ ذلك مِن الوَسَائِلِ. وإنّ عَدَمَ تَحَدُّثِهم وتفكيرِهم بِتَدَارُكِ كَارِثَةِ فَقْدِ العلماءِ، لَهُوَ كارثةٌ فوقَ كارثةٍ! وإنّا للهِ وإنّا إليه راجعون.

ومِن أَنْوَاعِه الجهادُ بِالقتلِ والحَرْبِ، سواءٌ كان دِفاعياً بِالتَّصدِّي لِأعداءِ اللهِ الذين يَعْتَدُونَ على المسلمين ودِيارِهم..، أَمْ كان هُجُومِياً بِأَنْ يَبْتَدِئَه المسلمون بِالتَّوَجُّهِ بِالدَّعْوَةِ الإسلاميّةِ إلى الأُمَمِ الأُخْرَى لِإعلاءِ كلمةِ اللهِ ودَفْعِ الشَّرِّ عن عِبادِه، ومُقاتَلَتِهم إذا وَقَفُوا في وَجْهِ الدَّعْوَةِ ولم يَقْبَلُوها، وهذا النَّوْعُ هو المَقصودُ عند إطلاقِ الجهادِ والسِّيَرِ والغَزْوِ مِن قِبَلِ المُسلِمِين ضِدَّ أَعْدَاءِ اللهِ تعالى، ويُطْلَقُ عليه الحَرْبُ والقِتَالُ. (وسَنَذكُرُ أحكامَه ص: ٩٤)

الحديث الثالث

عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يُنَجِّي اللهُ بِهِ مِنَ الهَمِّ وَالغَمِّ**[1]». رواه الإمام أحمد (٢٢٦٨٠).

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: « **إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ**[2]**، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ**[3]**، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ**[4]**، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا**[5] **لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**[6]». رواه أبو داود (٣٤٦٢).

(١) لا شَكَّ أنّ الجهادَ وحُضُورَ المَعْرَكَةِ سَبَبٌ لِدُخُولِ الجَنَّةِ ومُقرِّبٌ إليها. وفي الحديث حَثٌّ على الجهادِ في سبيل اللهِ لِمَا فيه مِن إعلاءِ كلمةِ اللهِ، ونَشْرٍ لِدِينِه القَوِيمِ؛ لذا حَشَدَ له حُكَّامُ المسلمين الحُشُودَ والجُمُوعَ، وجَنَّدُوا له الجُيُوشَ والأَجْنَادَ، فَكَثُرَت الفُتُوحاتُ، وامْتَدَّتْ لِتَشْمَلَ مَشارِقَ الأَرْضِ ومَغارِبَها، ناشِرَةً العَدْلَ والمُسَاوَاةَ، ومُزِيلَةً لِلظُّلْمِ والطُّغْيَانِ..

وفي الجهاد مَحْقُ أعداءِ الله، وتَطهِيرُ الأرضِ منهم، واستِنقَاذُ أَسْرَى المسلِمين مِن أَيْدِيهِم، وصَوْنُ دِماءِ المسلِمين وأَمْوَالِهِم، وحُرَمِهم وأَطْفَالِهم، وانتِفاعُ المسلمين بِمَا مَنَحَه اللهُ مِن أَرَاضِي الكُفّارِ وأَمْوَالِهِم..؛ ولذلك عَظَّمَ اللهُ فيه أَجْرَ الطَّالِبِ مِن المسلمين والمَطْلُوبِ، والغَالِبِ والمَغْلُوبِ، والقاتِلِ والمَقتُولِ، وأَحْيَا القَتْلَى في سبيلِه بعد مَمَاتِهم، وعَوَّضَهم عن حَيَاتِهم التي بَذَلُوها لِأَجلِه حياةً أَبَدِيَّةً سَرْمَدِيَّةً، وكذلك لمّا فَارَقُوا الأَهْلَ والأَوْطانَ، أَسْكَنَهم في جِنانِه، وآنَسَهم بِقُرْبِه، بَدَلاً مِن أُنْسِ مَن فَارَقُوه مِن أَحِبَّائهم لِأَجْلِه، فطُوبَى لِمَنْ حَصَلَ على هذا الأَجْرِ الجَزِيلِ. وإنما يَحصُلُ ذلك لِمَنْ قَاتَلَ في سبيلِ اللهِ لِتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيا، وكلمةُ الذين كَفَرُوا السُّفْلَى.

(٢) العِينة: السَّلَفُ. وعَيَّنَ أَخَذَ بِالعينة أي السَّلَفِ أو أَعْطَى بها. وعَيَّنَ التَّاجِرُ: بَاعَ سِلْعَتَه بِثَمَنٍ إلى أجلٍ، ثم اشتراها منه بِثَمَنٍ حَالٍّ أَقَلَّ من ذلك الثَّمَنِ المؤجل. واختَلف العلماءُ في تفسيرِ العِينةِ التي وَرَد النهيُ عنها، ارجِعْ إلى كُتُبِ الفِقه.

(٣) (وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ) كِنايَةٌ عن الاشتِغالِ بِشَقِّ الأَرْضِ وعَنَائِه بَدَلاً مِن مُعاناةِ الجِهاد الواجبِ.

(٤) (وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ) صَارَ هَمَّهُم وهِمَّتَهم، كما يُشِيعُ الإعلامُ في الأُمَمِ هَمَّ المالِ والاقتصادِ.

(٥) (سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا) بِتَسلِيطِ العَدُوِّ عليكم؛ لأنهم لمّا تَرَكُوا الجهادَ في سبيلِ اللهِ الذي فيه عِزُّ الإسلامِ عامَلَهُم اللهُ بِنَقِيضِ صَنِيعِهم، وهو تسليطُ الذُّلِّ عليهم، فصَارُوا يَمْشُونَ وَرَاءَ البَقَرِ أو يَرْكَبُونَ مَقْعَدَ الجَرَّارَاتِ لِلحَرْثِ بَدَلاً مِن رُكُوبِ الخَيْلِ أو قِيادَةِ الدَّبَّابَاتِ والمُدَرَّعَاتِ. ولَقد صَدَقَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه حيث قال عندما بُويِعَ للخِلافةِ: «لا يَدَعُ قَوْمٌ الجهادَ في سبيل الله إلّا خَذَلَهم اللهُ بِالذُّلِّ، ولا تَشِيعُ الفَاحِشَةُ في قومٍ إلّا عَمَّهُم الله بِالبَلاءِ..» (البداية والنهاية، لابنِ كثير، ج:٦ ص:٣٠١). وهو كما قال شَيْخُنَا محمود أفندي: «لا رَاحَةَ للمسلمين بِلا جِهَادٍ».

(٦) (لاَ يَنْزِعُهُ) أي الذُّلَّ (حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ) هذا إرشادٌ لِعِلاجِ هذا الدَّاءِ الخَطِيرِ؛ لِيَأْخُذَ به كُلُّ مُسلمٍ في حَقِّ نَفْسِه ومَن يَستَطِيعُ إرشَادَه. وفيه زَجْرٌ عظيمٌ عن تَرْكِ الجهادِ والتقصيرِ فيه، إذْ سَمَّى العَوْدَ إليه رُجُوعاً إلى دِينِنا، فكأنّ تَرْكَ الجهادِ رِدَّةٌ عن الدِّينِ، عِياذاً بالله.

الحديث الرابع

عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ**[1] **أَوْ رَوْحَةٌ**[2] **خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**[3] ». رواه البخاري (٢٧٩٢)، ومسلم (١٨٨٠).

وعن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: « **غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ** ».

---

(١) (في سبيل الله) أي نَصْرِ دِينِ الله وإعلاءِ كلمتِه.

(٢) الغَدْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدةُ مِن الغُدُوِّ، وهو الخُرُوجُ في أَيِّ وقتٍ كان مِن أوّلِ النَّهَارِ إلى انتِصافِه، وبِعبارةٍ أُخْرَى: هو السَّيْرُ أَوَّلَ النَّهارِ إلى الزَّوَالِ، والرَّوْحَة: مِن الرَّوَاحِ، وهو الخروجُ أَيَّ وقتٍ مِن الزَّوَالِ إلى الغُرُوبِ، والغَدْوَةُ والرَّوْحَةُ الذَّهَابُ مَرّةً واحدةً في هذَيْنِ الوَقْتَيْنِ.

والظاهِرُ أنه لا يَختَصُّ ذلك بِالغُدُوِّ والرَّوَاحِ مِن بَلْدَتِه، بل يَحصُلُ هذا الثَّوَابُ بِكُلِّ غَدْوَةٍ أو رَوْحَةٍ في طريقِه إلى الغَزْوِ، وكذا بِغَدْوَةٍ ورَوْحَةٍ في مَوْضِعِ القِتالِ؛ لأن الجميعَ يُسَمَّى غَدْوَةً ورَوْحَةً في سَبِيلِ الله.

قال الأُبِّيُّ رحمه الله: الغدوةُ والروحةُ ذُكِرَا للغالِبِ، فكذا مَن خَرَجَ في مُنتَصَفِ النَّهارِ أو منتصفِ اللَّيْلِ، وليس المرادُ السَّيْرَ في البَرِّ بل البَحْرِ كذلك، وليس المرادُ السَّيْرَ مِن بَلَدِ الغَازِي بل الذَّهَابَ إلى الغزوِ مِن أَيِّ طريقٍ كان حتّى مِن مَحلِّ القِتالِ. (نَقَله المناوي رحمه الله في فيض القدير)

(٣) والقَصْدُ بهذا الحديثِ وشِبْهِه: تَسهِيلُ أَمْرِ الدنيا وتَعظِيمُ شَأْنِ الجهادِ، ثُمّ هذا مِن تَنزِيلِ المُغَيَّبِ مَنْزِلَةَ المَحْسُوسِ وإلّا فليس شيءٌ مِن الآخرةِ بَيْنَه وبين الدنيا تَوَازُنٌ حتى يَقَعَ فيه التَّفاضُلُ، لأنّ مِن المَعلومِ: أنّ جميع ما في الدنيا لا يُساوِي ذَرَّةً مِمّا في الجَنَّةِ، أو المُرَادُ أنّ إنفاقَ الدنيا وما فيها لا يُوازِنُ ثَوَابُه ثَوَابَ هذا، يعني أنّ هذا القَدْرَ مِن الثَّوَابِ خيرٌ مِن الثوابِ الذي يَحصُلُ لِمَنْ لو حَصَلَتْ له الدنيا كُلُّها لَأَنْفَقَها في طاعةِ الله تعالى، فيكون التَّوَازُنُ بين ثَوَابَيِ العَمَلَيْنِ، فليس تَمْثِيلُ الباقي بِالفاني على ظاهرِ إطلاقِه.

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم: «إنّ فَضْلَ الغَدْوَةِ والروحةِ في سبيل الله وثَوَابَهُما خيرٌ مِن نَعِيمِ الدنيا كُلِّها لو مَلَكَها إنسانٌ، وتُصُوِّرَ تَنَعُّمُه بها كُلِّها؛ لأنه زائِلٌ ونَعِيمُ الآخِرَةِ بَاقٍ. قال القاضي: وقيل في معناه ومعنى نَظائِرِه مِن تَمْثِيلِ أُمُورِ الآخرةِ وثَوَابِها بِأُمُورِ الدنيا: إنّها خيرٌ مِن الدنيا وما فيها لو مَلَكَها إنسانٌ، ومَلَكَ جميعَ ما فيها وأَنْفَقَه في أمورِ الآخرةِ..»

وقال الإمام المناوي في شرح هذا الحديث: «وسبيلُ اللهِ طريقُ التَّقرُّبِ إليه بكلِّ عَمَلٍ خالِصٍ، وأَعلى أنواعِ التَّقَرُّباتِ الجِهادُ، فالغدوةُ أو الروحةُ فيه خيرٌ مِن الدنيا وما فيها؛ لأن بها تَرَتُّبَ ثَوَابُها، وبعضُ الثَّوَابِ لو بَرَزَ إلى الدنيا لَاضْمَحَلَّتْ وتَلَاشَتْ دُونَه». (فيض القدير، رقم الحديث: ٥٧٥٨)

رواه مسلم (١٨٨٣)، والإمام أحمد (٢٣٥٨٦)، والنسائي (٣١١٩).

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قال: « **بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَبْدَ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ فِي سَرِيَّةٍ، فَوَافَقَ ذلِكَ**(١) **يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَغَدَا أَصْحَابُه**(٢) **فَقَالَ**(٣)**: أَتَخَلَّفُ**(٤) **فَأُصَلِّي**(٥) **مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ثمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَلَمَّا صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم رَآهُ، فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَن تَغْدُوَ مَعَ أَصْحَابِكَ؟» فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ مَعَكَ، ثُمَّ أَلْحَقَهُمْ. قَالَ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَدْرَكْتَ فَضْلَ غَدْوَتِهِمْ**(٦)**»**. رواه الترمذي (٥٢٧).

وعن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه أنه قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: « **يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ**». رواه النسائي (٣١٧٠).

---

(١) أي: زَمَنُ بَعْثِ السَّرِيّة.

(٢) أي: ذَهَبَ أصحابُه مِن الغَدَاةِ، يعني أوّلَ النَّهارِ.

(٣) أي: في نفسِه أو لِبَعضِ أصحابِه.

(٤) أي: أَتَأَخَّرُ.

(٥) أي: الجُمُعَة.

(٦) أي: فضيلةَ إسراعِهِم في ذَهابِهم إلى الجهادِ.

قال الطِّيبيُّ رحمه الله: كان الظَّاهِرُ أَنْ يُقال: غَدْوَتُهم أفضلُ مِن صَلاتِك هذه، فعَدَلَ إلى المَذكورِ مُبالَغَةً، كأنّه قيل: لا يُوَازِيها شيءٌ مِن الخَيْرَاتِ، وذلك أنّ تَأَخُّرَه ذاك رُبّما يُفَوّتُ عليه مَصالِحَ كثيرةً، ولذلك وَرَدَ: لَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها. (ذكره عليّ القاري رحمه الله في مِرقاة المَفاتيح)

وعن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: « **رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا** » أخرجه البخاري (٢٨٩٢).

الحديث الخامس

عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: « كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَامَ تَبُوكَ يَخْطُبُ النَّاسَ وَهُوَ مُسْنِدٌ ظَهْرَهُ إِلَى رَاحِلَتِهِ فَقَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ وَشَرِّ النَّاسِ؛ إِنَّ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ رَجُلاً عَمِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ أَوْ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ أَوْ عَلَى قَدَمِهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، وَإِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ رَجُلاً فَاجِراً يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ لا يَرْعَوِي[1] إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ ». رواه النسائي (٣١٠٦).

(١) (لاَ يَرْعَوِي) أي لا يَنْفَكُّ و لا يَنْزَجِرُ، مِن ارْعَوَى عن القَبِيحِ، وقيل الإِرْعِوَاءُ النَّدَمُ على الشيءِ وتَرْكُه. (ذكره السندي رحمه الله في حاشيته على النسائي)

الحديث السادس

عن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عن النَّبي صلى الله عليه وسلم فيما يَحْكِيهِ عن رَبِّه عَزَّ وجَلَّ قال: « **أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي خَرَجَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي: ضَمِنْتُ لَهُ أَنْ أَرْجِعَهُ**[1] **إِنْ أَرْجَعْتُهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**[2]**، وَإِنْ قَبَضْتُهُ غَفَرْتُ لَهُ وَرَحِمْتُهُ** ».

رواه النسائي (٣١٢٦).

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « **انْتَدَبَ اللهُ** [3] **لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ - لا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي**[4] **وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي**[5]**- أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. وَلَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ**[6]». رواه البخاري (٣٦).

---

(١) (أَنْ أَرْجِعَه) مِن رَجَعَه؛ أي رَدَّه، رَجَعَ يَجِيءُ لازِماً ومُتَعَدِّياً، ومِن المُتَعَدِّي قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ (سورة الملك:٤). قال السُّيُوطِيّ رحمه الله في حاشيته على النسائي: (أَنْ أَرْجِعَه) بِفَتْحِ أَوَّلِه مِن رَجَعَ ثُلاثيّ، قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ﴾ (سورة التوبة:٨٣).

(٢) (مِن أجر) أي أَجْرٍ خالِصٍ إنْ لم يَغنَمْ شيئاً (أو غنيمةٍ) أي غنيمةٍ خالصةٍ معها أَجْرٌ. وتقديرُ الكلامِ على ما ذَكَره في «إرشاد الساري» : (من أجرٍ) بِلا غنيمةٍ إن لم يَغْنَمُوا (أو) مِن أجرٍ مع (غنيمةٍ) إن غَنِمُوا. فمعنى الحديثِ: أنّ الله تعالى ضَمِنَ أنّ الخارجَ للجهاد يَنَالُ خيراً بِكُلِّ حالٍ، فإمّا أَنْ يُسْتَشْهَدَ فيُغفَرَ له فيَدخُلَ الجَنَّةَ، وإمّا أن يَرجِعَ بِأَجْرٍ، وإمّا أن يرجِعَ بأجرٍ وغنيمةٍ.

(٣) (انتدب) أي تَكَفَّلَ. واعْلَمْ أنّ ما وَرَد في رِوَايَاتٍ أُخَرَ مِثْلِ لَفْظِ: «تَضَمَّنَ اللهُ» أو «تَكَفَّلَ اللهُ».. كلّها بمعنى واحِدٍ، ومُحَصِّلُه تَحْقِيقُ الوَعْدِ المَذكورِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (سورة التوبة:١١١)، وذلك التَّحَقُّقُ على وجهِ الفضلِ منه سُبحانه وتعالى، وعَبَّرَ صلى الله عليه وسلم عن تَفَضُّلِه تعالى بالثَّوَابِ بِلفظِ الضَّمَانِ ونَحْوِه ممّا جَرَتْ به عادَةُ المُخاطَبِين فيما تَطْمَئِنُّ به نُفُوسُهم. (ذَكَره الزرقاني رحمه الله في شرحه على موطأ الإمام مالك، ونحوُه في فَتْحِ المُلْهِم بشرح صحيح الإمام مسلم)

(٤) (إِيمَانٌ بِي) أي بوعدي.

(٥) (وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي) أي بِأَخْبارِهم وبِنُبُوّتِهم ورسالتِهم.

(٦) فيه فضلُ الجهادِ والشَّهَادَةِ في سبيل الله، وفيه تَمَنِّي الشَّهادةِ وتعظيمُ أجرِها، وفيه تَمَنِّي الخيرِ والنِّيَّةُ فوق ما لا يُطِيقُه الإنسانُ وما لا يُمْكِنُه إذا قَدَرَ له، وفيه استحبابُ طَلَبِ القَتْلِ في سبيل الله، وفيه جوازُ قولِ الإنسانِ=

الحديث السابع

عن أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ فَصَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَاتَ أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ أَوْ وَقَصَهُ فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ هَامَّةٌ أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ أَوْ بِأَيِّ حَتْفٍ شَاءَ اللهُ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ، وَإِنَّ لَهُ الْجَنَّةَ[(١)]».

رواه أبو داود (٢٤٩٩).

=«وَدِدْتُ حُصُولَ كذا» مِن الخيرِ الذي يَعلَم أنه لا يَحصُلُ..

واستُشكِلَ هذا التَّمَنِّي منه عليه الصلاة والسلام مع عِلْمِه بأنه لا يُقتَلُ، وأُجِيبَ: بأنّ تَمَنِّي الفَضْلِ والخيرِ لا يَسْتَلزِمُ الوُقُوعَ، فكأنّه عليه الصلاة والسلام أَراد المُبَالَغَةَ في بيانِ فضلِ الجهادِ وتحريضِ المؤمنين عليه. (إرشاد الساري على صحيح البخاري)

قال ابنُ بَطّال رحِمه الله: في هذا الحديثِ مِن الفقه: أنّ رسول الله كان يَتَمَنَّى مِن أَعْمالِ الخَيْرِ ما يَعلَمُ أنه لا يُعطَاهُ، حِرْصاً منه صلى الله عليه وسلم على الوُصُولِ إلى أَعْلَى دَرَجَاتِ الشَّاكِرِين، وبَذْلاً لِنَفْسِه في مَرْضَاتِ رَبِّهِ، وإعلاءِ كلمةِ دِينِه، ورَغْبَةً في الازدِيادِ مِن ثَوَابِ رَبِّه، ولِتَتأَسَّى به أُمَّتُه في ذلك، وقد يُثَابُ المَرْءُ على نِيَّتِه. (انظر: شرح البخاري لابن بطّال، رقم الحديث: ٢٧٩٧)

(١) قوله: (مَنْ فَصَلَ) أي خَرَجَ مِن مَنْزِلِه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ (سورة البقرة: ٢٤٩) (فِي سَبِيلِ اللهِ عزّ وجلّ) أي للجهادِ ونحوِه (فمات) أي بِدُونِ قَتْلٍ مِن الكُفّار له أو خَطأً مِن المسلمين أو مات بِجِرَاحَةٍ أو غيرِ ذلك (أَوْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ أَوْ وَقَصَهُ) أي صَرَعَه وَدَقَّ عُنُقَه (فَرَسُهُ أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَغَتْهُ) لَسَعَتْهُ (هامّةٌ) أي ذاتُ سُمٍّ تَقْتُلُ، فماتَ بِسَبَبِ ذلك السُّمِّ الذي حَصَلَ بهذه اللَّدْغَةِ. قال الخَطّابِيُّ: الهَامَّةُ إحدى الهَوَامِّ، وهي ذاتُ السُّمُومِ مِن القاتِلَةِ كالحَيَّةِ والعَقرَبِ ونحوِهما. (أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ) أي: مِن غيرِ أن يكون هناك سَبَبٌ يَحصُلُ به مَوْتُه، وإنّما قُبِضَتْ رُوحُه بِدُونِ أن يكون ذلك بِسَبَبٍ مِن الأَسْبابِ الظاهِرةِ كالقَتْلِ أو الوَقْصِ أو لَدْغِ ذَوَاتِ السُّمُومِ أو غيرِ ذلك مِن الأسبابِ، وإنّما ماتَ على فِراشِه (أَوْ بأيِّ حَتْفٍ) أي: أَيِّ نَوْعٍ مِن الهَلاكِ (شَاءَ الله) أي قَدَّرَهُ وقَضَاهُ (فَإِنَّهُ شَهِيدٌ) أي: إمّا حقيقةً أو حكماً (وَإِنَّ لَهُ الْجَنَّةَ) أي دُخُولاً أَوَّلِياً مع الشُّهَداءِ والصَّالِحِين أو يقال: ثَوَابُه عند اللهِ الجَنّةُ.

الحديث الثامن

عن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: « **مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ**[١] **كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**[٢] **وَتَوَكَّلَ اللهُ**[٣] **لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ**[٤] **سَالِماً بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ** ». رواه النسائي (٣١٢٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عنِ النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **ثَلاثَةٌ كُلُّهُمْ حَقٌّ عَلَى اللهِ**[٥] **عَزَّ وَجَلَّ عَوْنُهُ اَلْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ**[٦]، **وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ**[٧]، **وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ**[٨] ». رواه النسائي (٣١٢٠).

---

(١) جُمْلةٌ مُعترِضَةٌ قُصِدَ بها التَّنْبيهُ على شَرْطِيَّةِ الإخلاصِ في نَيْلِ هذا الثوابِ، أي: فيه إشارةٌ إلى أنّ الأَجْرَ للمُخْلِصِ لا لِمَنْ يَظهَرُ منه عند النّاس أنه مُجاهِدٌ.

(٢) أي ما دامَ في الجهاد.

(٣) أي تكَفَّلَ.

(٤) قال السِّندي رحمه الله في حاشيته على النسائي: (أَوْ يَرْجِعهُ) مِن الرَّجْع المُتَعَدِّي، أَيْ يَرُدَّهُ، لا مِن الرُّجُوعِ فإنه لازِمٌ، وجَعْلُه مِن الإرْجَاع بَعِيدٌ، فإنه غيرُ فَصِيحٍ.

(٥) أي واجبٌ بِمُقْتَضَى وَعْدِه.

(٦) لِتكون كلمةُ اللهِ هي العُلْيَا وكلمةُ الذين كَفَرُوا السُّفْلَى.

(٧) (العَفاف) أي الكَفُّ عن المَحارِمِ.

(٨) أي بَدَلَ الكِتابَةِ.

«تنبيه» : قال الشيخ ابنُ عربي رحمه الله: إذا رأيتَ واحِداً مِن هؤلاءِ فَأَعِنْهُ بطائِفَةٍ مِن مالٍ أو قالٍ أو حالٍ، فإنّك إذا أَعَنْتَهم فأنتَ نائِبُ الحَقِّ في عَوْنِهم، فإنّه إذا كان عَوْنُ هؤلاء حَقّاً على اللهِ، فَمَن أَعَانَهم فقد أَدَّى عن اللهِ ما أَوْجَبَه على نَفْسِه، فيَتَوَلَّى اللهُ كَرَامَتَه بِنَفْسِه، فما دامَ المُجاهِدُ مُجاهِداً بما أَعَنْتَه عليه فأنت شَرِيكُه في الأَجْرِ ولا يَنقُصُه شيءٌ، وإذا وُلِدَ لِلنَّاكِحِ وَلَدٌ صالحٌ كان لك في وَلَدِهِ وعَقِبِه أَجْرٌ، وأَقَرَّ به عَيْنُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم يومَ القيامة.. (فيض القدير، رقم الحديث: ٣٤٩٧).

الحديث التاسع

عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **« يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبّاً[١] وَبِالإِسْلامِ دِيناً[٢] وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيّاً[٣] وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ[٤] فَفَعَلَ ثُمّ قَالَ: « وَأُخْرَى[٥] يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ[٦]».**

---

(١) أي: اكْتَفَى به، و لم يَطْلُبْ معه غيرَه.

(٢) أي: لم يَتّبِعْ طريقاً غيرَ طريقِ الإسلامِ.

(٣) أي: لم يَسْلُكْ في دينِ الإسلامِ إلّا ما يُوَافِقُ شَرِيعَتَه صلى الله عليه وسلم.

(٤) اسْتَعَادَ هذا الكلامَ مِن النبيّ صلى الله عليه وسلم لِيَحْفَظَه ويَسْتَبْشِرَ به.

(٥) أي: وعِندِي خَصْلَةٌ أُخْرَى، أو وأُعَلِّمُكَ خَصْلَةً أُخْرَى.

قال العلّامة عليّ القاري رحمه الله: قوله: (مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبّاً) أي مَن رضي بِرُبُوبِيَّتِه على وَفْقِ قَضَائِه وقَدَرِه مِن خَيْرِهِ وشَرِّهِ وحُلْوِهِ ومُرِّهِ (وبالإسلام دِيناً) أي بِشَرَائِعِه وأحْكامِه مِن المَأمُورَاتِ والمَنْهِيَّاتِ (وبمحمدٍ رسولاً) أي وبِرِسالَتِه المُورِثَةِ لِمُتَابَعَتِه في أَقْوَالِهِ وأفعَالِه وأَحْوَالِه المُعَبَّرِ عنها بِالشَّرِيعةِ والطَّرِيقةِ والحَقِيقةِ (وجبت له الجَنَّةُ) أي ثَبَتَتْ وتَحَقَّقَتْ، وعَبّرَ عنه بِالمَاضِي [يعني اللفظ: وَجَبَتْ] مُبَالَغَةً في تَحقُّقِ وُقُوعِه أو حَصَلَتْ له الجَنَّةُ في الدنيا وهو الغَيْبَةُ عن السِّوَى والحُضُورُ مع المَوْلَى، ويُشِيرُ إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (سورة الرّحمن:٤٦) أي جَنَّةٌ في الدنيا وأُخْرَى في الأُخْرَى (فعجب لها) أي لِأَجْلِ هذه الكَلِمَاتِ أو لِهذه القَضِيَّةِ (أبو سعيد فقال: أعدها عَلَيَّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثمّ قال) أي النبيُّ (وأخرى) أي وكلمةٌ أو فائدةٌ أو قَضِيَّةٌ أُخْرَى ممّا يُتَعَجَّبُ لها فيَتَعَيَّنُ أَنْ يُرْغَبَ فيها وهي (يَرفَع اللهُ بها العَبْدَ مِائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال) أي أبو سعيد (وما هي) أي تلك الخَصْلَةُ الأُخْرَى (يا رسول الله؟ قال: الجهادُ) أي هي الجهادُ (في سبيل الله الجهادُ في سبيل الله الجهادُ في سبيل الله) ثلاثَ مَرّاتٍ...

وفي هذا الأُسْلُوبِ تَفْخِيمُ أَمْرِ الجهادِ وتَعْظِيمُ شَأْنِه فإنّ قولَه (مَن رضي بالله ربا وبالإسلام دِيناً) مُشتمِل على جميعِ ما أَمَرَ اللهُ به ونَهَى عنه، ومنه الجهادُ، وكذا إِبْهَامُه بقوله (وأخرى) وإِبْرَازُه في صُورَةِ البِشَارَةِ لِيَسْأَلَ عنها فيُجابَ بما يُجاب، لأنّ التَّبْيِينَ بعد الإبهامِ أَوْقَعُ في النَّفْسِ، وكذا تَكْرَارُه ثلاثَ مَرّاتٍ. ونَظِيرُ الحديثِ قولُه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم﴾ إلى قوله ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الصف: ١٠-١٣). (مِرقاة المفاتيح)

(٦) قوله: (مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) قال القاضي عِياض رحمه الله تعالى: يَحتَمِلُ أنّ هذا على ظاهِرِه، وأنّ الدَّرَجاتِ هنا المَنازِلُ التي بَعْضُها أَرْفَعُ مِن بعضٍ في الظاهر، وهذه صِفَةُ مَنازِلِ الجَنَّةِ، كما جاءَ=

قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: « **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ** ». رواه مسلم (١٨٨٤)، والنسائي (٣١٣١).

=في أهلِ الغُرَفِ أنّهم يَتَرَاءَوْنَ كَالكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ، ويَحتَمِل أَنْ يكون المرادُ الرِّفْعَةَ بالمعنى مِن كَثْرَةِ النَّعِيمِ وعَظِيمِ الإحْسانِ ممّا لم يَخْطُرْ على قَلْبِ بَشَرٍ، ولا يَصِفُه وَاصِفٌ، وأنّ أَنْوَاعَ ما أَنْعَمَ اللهُ به عليه وبَوَّأَهُ مِن البِرِّ والكَرَامَةِ يَتَفَاضَلُ تَفَاضُلاً كثيراً، ويكون تَبَاعُدُه في الفضلِ كما بين السَّمَاءِ والأرضِ في البُعْدِ، قال القاضي: والاحتمالُ الأَوَّلُ أَظْهَرُ، وهو كما قال. والله أعلم. (شرح النووي على صحيح مسلم)

وقال القرطبي رحمه الله: الدَّرَجَةُ: المَنْزِلَةُ الرَّفِيعَةُ، ويُرَادُ بها غُرَفُ الجَنَّةِ ومَرَاتِبُها التي أَعْلاها الفِرْدَوْسُ. ولا يُظَنُّ مِن هذا أَنّ دَرَجَاتِ الجَنَّةِ مَحْصُورَةٌ بهذا العَدَدِ، بل هي أكثرُ مِن ذلك، ولا يَعلَمُ حَصْرَها وعَدَدَها إلّا اللهُ تعالى، أَلَا تَرَى أَنّ في الحديثِ الآخَرِ يُقال لِصاحِبِ القُرْآنِ: (اقْرَأْ وَارْقَ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا). فهذا يَدُلُّ على أنّ في الجنة درجاتٍ على عددِ آيِ القرآنِ، وهي تُنِيفُ على سِتَّةِ آلافِ آيَةٍ، فإذا اجْتَمَعَتْ لِلإنسانِ فَضِيلةُ الجهادِ مع فضيلةِ القُرْآنِ جُمِعَتْ له تلك الدَّرجاتُ كُلُّها، وهكذا كُلَّما زَادَتْ أَعْمَالُه زَادَتْ دَرَجَاتُه. انتهى. (الدِّيبَاجُ على صحيح مسلم، للسُّيوطي رحمه الله)

الحديث العاشر

عن سَعْدٍ رضي الله عنه: «**أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى الصَّلاةِ وَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي، فَقَالَ حِينَ انْتَهَى إِلَى الصَّفِّ: اللهمَّ آتِنِي أَفْضَلَ مَا تُؤْتِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ، قَالَ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم الصَّلاةَ قَالَ: مَنِ الْمُتَكَلِّمُ آنِفاً؟ قَالَ الرَّجُلُ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: إِذاً يُعْقَرُ جَوَادُكَ[1]، وَتُسْتَشْهَدُ فِي سَبِيلِ الله**». رواه النسائي (٩٨٤١)، والحاكم في المُستدرَك (٧٤٨)، (٢٤٠٢).

---

(١) أي: يُجْرَحُ فَرَسُكَ وتُضْرَبُ قَوَائِمُه بِالسَّيْفِ، والمُرَادُ أنه تُقْتَلُ فَرَسُك وتُسْتَشْهَدُ في سبيل الله. وفي مسند الإمام أحمد (١٤٢١٠): عن جابرٍ رضي الله عنه قال: **قالوا: يا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الجهادِ أفضلُ؟ قال: (مَن عُقِرَ جَوَادُهُ، وأُهْرِيقَ دَمُهُ)**.

قال السِّندي رحمه الله: قوله: (مَن عُقِرَ): أي: جهادُ مَن عُقِرَ على تقديرِ المُضافِ، والجَوَادُ الفَرَسُ، أي: جهادُ مَن بَذَلَ مَالَه ونفسَه في اللهِ تعالى.

الحديث الحادي عشر

عن عَبدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**[1]». رواه البخاري (٢٨١٨).

(١) قال الإمام النَّوَوِيُّ رحمه الله: «معنى الحديثِ: ثَوَابُ اللهِ والسَّبَبُ المُوصِلُ إلى الجَنَّةِ عند الضَّرْبِ بِالسُّيُوفِ في سبيل الله، ومَشْيِ المُجاهِدِين في سبيل الله، فاحْضُرُوا فيه بِصِدْقٍ (النِّيَّةِ) واثْبُتُوا». (شرح النووي على صحيح مسلم، رقم الحديث:١٧٤٢)

وقال المُناوِيّ رحمه الله: «أي: الجهادُ مَآلُه الجَنَّةُ، فهو تَشبيهٌ بَلِيغٌ..، يعني أنّ ظِلالَ السُّيُوفِ والضَّرْبَ بها في سبيل الله سَبَبٌ لِلفَوْزِ بِظِلالِ بَسَاتِينِ الجَنَّةِ ونَعِيمِها لِمَا أنه سَبَبٌ مُوصِلٌ إليها، ذَكَره بعضُهم..» (فيض القدير: ٣٦٤٣)

وفي فَتْحِ الباري: «قال القُرطبي رحمه الله تعالى: وهو مِن الكلامِ النَّفِيسِ الجامِعِ المُوجَزِ المُشْتَمِلِ على ضُرُوبٍ مِن البَلاغَةِ مع الوَجَازَةِ وعُذُوبَةِ اللَّفْظِ، فإنه أَفَادَ الحَضَّ على الجهادِ والإخبَارَ بِالثَّوَابِ عليه، والحَضَّ على مُقارَبَةِ العَدُوِّ واستعمالِ السُّيُوفِ والاجتِمَاعِ حِينَ الزَّحْفِ حتى تَصِيرَ السُّيُوفُ تُظِلُّ المُتقاتِلِين، وقال ابنُ الجَوْزِيّ رحمه الله: المرادُ أنّ الجَنَّةَ تَحصُلُ بالجهاد. والظِّلالُ جَمْعُ ظِلٍّ، وإذا تَدَانَى الخَصْمَانِ صارَ كُلٌّ منهما تَحْتَ ظِلِّ سَيْفِ صاحِبِه لِحِرْصِه على رَفْعِه عليه، ولا يكون ذلك إلّا عند التِحامِ القِتالِ».

وقال السِّندي رحمه الله: «قوله: (تحت ظلال السّيوف) أي: في القُرْبِ منها؛ أي: مَتَى ما يكون العبدُ قَرِيباً إلى السُّيُوفِ في الجهادِ في سبيل الله، فهو قريبٌ إلى الجَنَّةِ». (حاشية السندي على مسند الإمام أحمد: ١٩١١٤)

الحديث الثاني عشر

عن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ رضي الله عنه: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَغَّبَ فِي الْجِهَادِ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَأْكُلُ تَمَرَاتٍ فِي يَدِهِ فَقَالَ: إِنِّي لَحَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا إِنْ جَلَسْتُ حَتَّى أَفْرُغَ مِنْهُنَّ فَرَمَى مَا فِي يَدِهِ فَحَمَلَ بِسَيْفِهِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ[1] ». رواه الإمام مالك (١٠٢٩).

---

(١) قوله: (أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رغّب في الجهاد) يومَ بَدْرٍ فقال: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُقاتِلُهم اليَوْمَ رَجُلٌ فيُقْتَلُ صَابِراً مُحْتَسِباً مُقبلاً غيرَ مُدْبِرٍ إلَّا أَدْخَلَه اللهُ الجَنّةَ» كما عند ابنِ إسحاق (وذَكَر الجَنّة) رَوَى مسلم عن أنس بن مالك (رقم:١٩٠١): أنّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال يومَ بَدْرٍ: «قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأَرْضُ». فقال عُمَيْرُ بْنُ الحُمَامِ: يا رَسُولَ اللهِ جَنَّةٌ عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ؟ قال: «نعم» قال: بَخٍ بَخٍ [كلمةُ: بَخْ جاء فيه إسكانُ الخاءِ وكَسْرُها مُنَوَّناً، وهي كلمة تُطلَقُ لِتفخيمِ الأمرِ وتعظيمِه في الخير.]، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟» قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ إلَّا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِن أَهْلِها، قال: «فإنّك مِن أهلِها» ، فأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِن قَرَنِه [وهو وِعَاءٌ مِن جُلُودٍ يُجعَل لِلسِّهَامِ]، فجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنّ، ثُمّ قال: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَرَاتِي هذه، إنّها لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كانَ مِن التَّمْرِ، ثُمّ قَاتَلَهم حتى قُتِلَ». قوله (إنّي لَحَرِيصٌ على الدنيا إن جلست حتّى أفرغ منهن) أي مِن أَكْلِ التَّمَرَاتِ (فرَمَى ما في يَدِهِ) مِن التَّمْرِ وقال: فما بَيْنِي وبين أن أَدْخُلَ الجَنَّةَ إلَّا أَنْ يَقتُلَنِي هؤلاء (فحَمَلَ بِسَيْفِه فقَاتَلَ) القومَ (حتى قُتِلَ) زادَ ابنُ إسحاقَ وهو يَقول:

رَكَضْنَا إلى الله بغَيْرِ زَادِ ***** إلَّا التُّقَى وَعَمَلِ المَعَادِ
وَالصَّبْرِ فِي الله على الجِهادِ ***** وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ
غَيْرَ التُّقَى وَالبِرِّ وَالرَّشَادِ.

(انظر: شرح الزُّرْقاني على موطأ الإمام مالك).

حُكْمٌ فِقهِيّ:

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح حديث مسلم (رقم الحديث:١٩٠١): (...فَرَمَى بِمَا كانَ مِن التَّمْرِ، ثُمّ قَاتَلَهم حتى قُتِلَ): فيه جوازُ الانغِمَارِ في الكُفّارِ وَالتَّعَرُّضِ للشّهادة، وهو جائزٌ بلا كراهةٍ عند جَمَاهِيرِ العلماءِ. اهـ.

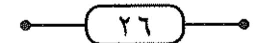
وقال الإمام محمد رحمه الله تعالى في «السير» : لا بَأْسَ بِأَنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ وَحْدَه على المشركين ـ وإن كان غالِبُ رَأيِه أنّه يُقتَلُ ـ إذا كان في غالبِ رَأيه أنّه يَنْكِي فِيهم نِكايَةً بِقَتْلٍ أو جُرْحٍ أو هَزِيمَةٍ، وإن كان غالِبُ رَأْيِه أنّه لا يَنكِي فِيهم أَصْلاً؛ لا بِقَتْلٍ ولا جُرْحٍ ولا هَزِيمَةٍ ويُقتَلُ هو، فإنّه لا يُبَاحُ أن يَحْمِلَ وَحْدَه، والقِياسُ أن يُبَاحَ له في الأَحْوَالِ كلِّها، وإن عَلِمَ أنّه يُقتَلُ؛ لأنّه يَبْتَغِي بما قَصَدَ الحَيَاةَ الدَّائِمَةَ مَعْنىً، فإنّ الشهداءَ أَحْيَاءٌ معنىً، قال الله تعالى: ﴿ بل أحياءٌ عند رَبِّهم ﴾ (آل عمران: ١٦٩) إن كان مُهْلِكاً نَفْسَه صُورَةً، والعِبْرَةُ للمعنى، لكن تَرَكْنا القِيَاسَ فيما إذا كان يَعْلَمُ أنّه يُقْتَلُ، ولا يَنكِي=

=فِيهم نِكايَةً بِالإجماع، ولا إجماعَ فيما إذا كان يَعلَمُ أنّ خُرُوجَه لا يَنكِي فِيهم نِكايَةً، فيَحمِلُ فيهم بِقَضِيَّةِ القِياس.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ **وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ (البقرة: ١٩٥) فَلِأَهْلِ التَّفْسِير في تَأْوِيلِ الآيَةِ ومعناها كلامٌ، فالمُحَقِّقُونَ فِيهم قالوا: معنى الآيَة: أَنْفِقُوا أَرْوَاحَكم في الجهادِ، ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكم إلى المَوْتِ المُعْتَادِ فِرَاراً عن القتلِ في الجهاد، وأَحْسِنُوا تَسْلِيمَ أَنْفُسِكم وأَمْوَالِكم التي اشْتَرَاها اللهُ تعالى مِنكم بِالجَنَّةِ والنَّعِيمِ، وبعضُهم قالوا: معنى الآية ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ بِتَرْكِ الجهادِ، ولها وُجُوهٌ أُخَرُ يُعْرَفُ ذلك في كُتُبِ التَّفْسِير. (المُحيط البرهاني، ج:٨، ص:٧٩)

رُوِيَ أنّ رَجُلاً مِن المسلمين حَمَلَ على جَيْشِ الرُّومِ حتى دَخَلَ فِيهم، فصَاحَ النَّاسُ: سُبحان الله! أَلْقَى بِيَدَيْهِ إلى التَّهْلُكَةِ! فقال أبو أيّوب الأنْصاري رضي الله عنه: لا! إنّما نَزَلَتْ هذه الآيةُ فِينا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، حِينَ أَعَزَّ اللهُ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه فقُلْنَا: لو أَقَمْنَا في أَمْوَالِنا فأَصْلَحْنَا ما ضَاعَ منها فنزلت: ﴿ **وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ فكانت التَّهْلُكَةُ الإقامةَ على الأموالِ وإصلاحِها، وتَرْكِ الجِهادِ في سبيل الله، فما زال أبو أيوب شاخِصاً -أي مُجاهِداً- في سبيل الله، حتى اسْتُشْهِدَ أَمَامَ سُورِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ، ودُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ.

ونَقَلَ العلّامة ابنُ عابدين رحمه الله أيضاً عن شرح السير: «أنّه لا بَأْسَ أنْ يَحمِلَ الرَّجُلُ وَحْدَه وإن ظَنَّ أنّه يُقتَلُ إذا كان يَصْنَعُ شيئاً بِقَتْلٍ أو بجُرْحٍ أو بِهَزْمٍ، فقد فعَل ذلك جماعةٌ مِن الصحابة بينَ يَدَي رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومَ أُحُدٍ، ومَدَحَهم على ذلك، فأمّا إذا عَلِمَ أنه لا يَنكِي فِيهم فإنّه لا يَحِلّ له أن يَحمِل عليهم، لأنّه لا يَحصُلُ بِحَمْلَتِه شيءٌ مِن إعزازِ الدِّينِ، بِخِلافِ نَهْيِ فَسَقَةِ المسلمِين عن مُنكَرٍ إذا عَلِمَ أنهم لا يَمْتَنِعُونَ بل يَقتُلُونَه، فإنّه لا بَأْسَ بِالإقدامِ وإنْ رُخِّصَ له السُّكُوتُ، لأنّ المسلمين يَعْتَقِدُونَ ما يَأْمُرُهم به، فلا بُدّ أن يكون فِعْلُه مُؤَثِّراً في بَاطِنِهم، بِخلافِ الكُفّار». (حاشية ابن عابدين، ج:١٢ ص:٤٧٤-٤٧٥)



الحديث الثالث عشر

عن أَبِي بكرِ بنِ عبدِ الله بنِ قَيْسٍ عن أَبِيهِ قال: سَمِعتُ أَبِي وهو بِحَضْرَةِ العَدُوِّ يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**[1]» **فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ**[2] **فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى! آنْتَ**[3] **سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلامَ، ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ**[4] **فَأَلْقَاهُ، ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ، فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ** ». رواه مسلم (١٩٠٢).

---

(١) قال العلماءُ: مَعناه: أنّ الجِهادَ وحُضُورَ مَعْرَكَةِ الكُفّار طَرِيقٌ إلى الجَنّةِ وسَبَبٌ لِدُخُولِها.

وقال القاضي عِياض رحِمه الله: وهذه استعارةٌ، يعني أنّ الجِهادَ وحُضُورَ المَعْرَكَةِ سَبَبٌ لِدُخُولِها ومُقرِّبٌ إليها. (إكمال المُعلِم شرح صحيح مسلم)

(٢) أي: فَقِيرُ الحالِ كَسِيرُ البالِ. (مرقاة المفاتيح). قال في روضة المُتَّقِين شرح رِياض الصَّالِحِين: قوله: (رثّ الهيئة) أي: خَلِقُ الثِّيابِ تَبْدُو عليه علاماتُ الفاقةِ والفقرِ.

(٣) بِالمَدِّ على الاستفهام.

(٤) (جَفْنَ سَيْفِه) أي غِمْدَ سَيْفِهِ تَنْبِيهاً على أنّه لا يُرِيدُ رَدَّ السَّيْفِ إليه. قال عليّ القاري رحمه الله: قوله: (جَفْنَ سَيْفِه) بفتح الجيم وسكونِ الفاءِ أي غِلافَه (فألقاه) أي الغلافَ، إشعاراً بأنّه لا يُرِيد الرُّجُوعَ إلى الدنيا بعدَ إقبالِه على العُقْبَى.

الحديث الرابع عشر

عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: « غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ(١)، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ(٢)، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ(٣)، قَالَ: اللهمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ(٤)، يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ(٥)، يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ. ثُمَّ تَقَدَّمَ(٦) فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ الْجَنَّةَ(٧) وَرَبِّ النَّضْرِ(٨)،

---

(١) أي لأنّ بَدْراً أَوّلُ غَزْوَةٍ خَرَجَ فيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم بِنَفْسِه مُقاتِلاً، وقد تَقَدَّمَها غَيْرُها لكنْ ما خَرَجَ فيها صلى الله عليه وسلم بِنَفْسِه مُقاتِلاً.

(٢) قال الإمام النووي رحمه الله: ضَبَطُوا قَوْلَه (لَيَرَيَنّ) بِوَجْهَيْنِ أَحَدُهما: (لَيَرَيَنّ) بفتح الياء والراء، أي يَرَاهُ اللهُ وَاقِعاً بَارِزاً، والثاني: (لَيُرِيَنَّ) بضمّ الياء وكسرِ الراء، ومعناه: لَيُرِيَنّ اللهُ النَّاسَ ما أَصْنَعُه ويُبْرِزُهُ اللهُ تعالى لهم. (شرح صحيح مسلم: ١٩٠٣). وقال ابن حجر رحمه الله: عُرِفَ مِن السِّيَاقِ أنّ مُرادَه أنه يُبَالِغُ في القِتالِ وعَدَمِ الفِرَارِ. (فتح الباري شرح صحيح البخاري).

(٣) أي انْهَزَمُوا.

(٤) أي مِن فِرَارِ المسلمِين.

(٥) أي مِن فِعْلِ المُشرِكِين، فَاعْتَذَرَ عن الأولياء وتَبَرَّأَ مِن الأَعْدَاءِ مع أنه لم يَرْضَ الأَمْرَيْنِ جَمِيعاً. (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري)

(٦) أي نحوَ المُشرِكِين.

(٧) أي أُرِيدَ الجَنّةَ وهي مَطْلُوبِي.

(٨) كأنه يُرِيدُ وَالِدَه، ويَحْتَمِلُ أن يُرِيدَ ابْنَه، فإنّه كان له ابنٌ يُسَمّى النَّضْر، وكان إذ ذاك صَغِيراً. (فتح الباري شرح صحيح البخاري)

إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ[1]، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا صَنَعَ[2]. قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعاً وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ[3]، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ[4]. قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ[5]: أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب:٢٣) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ». رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومثله في صحيح مسلم (١٩٠٣).

(١) (أجد) أي أَشُمُّ (مِنْ دُونِ أُحُدٍ) أي عِند أُحُدٍ. قال ابنُ بَطّال وغيرُه: يَحْتَمِلُ أن يكون على الحقيقةِ وأنّه وَجَدَ رِيحَ الجَنَّةِ حَقِيقةً أو وَجَدَ رِيحاً طَيِّبَةً ذَكَّرَه طِيبُها بِطِيبِ رِيحِ الجَنَّةِ،

ويجوز أن يكون أَرَادَ أنه استَحْضَرَ الجَنّةَ التي أُعِدّتْ لِلشَّهِيدِ فتصَوَّرَ أنّها في ذلك المَوْضِعِ الذي يُقَاتِلُ فيه، فيكون المعنى: إنّي لَأَعْلَمُ أنّ الجَنّةَ تُكْتَسَبُ في هذا المَوْضِعِ فأَشْتَاقُ لها. (فتح الباري شرح صحيح البخاري)

وقال الإمام النووي رحمه الله: مَحْمُولٌ على ظاهِرِه، وأنّ الله تعالى أَوْجَدَه رِيحَها مِن مَوْضِعِ المَعْرَكَةِ، وقد ثَبَتتِ الأَحَادِيثُ أنّ رِيحَها تُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ خَمْسمائة عامٍ. (شرح مسلم: ١٩٠٣)

(٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: «قال ابنُ بَطّال: يُرِيدُ ما استَطَعْتُ أَنْ أَصِفَ ما صَنَعَ أَنَسٌ مِن كَثْرَةِ ما أَغْنَى وأَبْلَى في المُشرِكِين.

قلتُ: وقع عند يَزِيد بنِ هَارُون عن حُمَيْدٍ: (فقلتُ أَنَا معك فلم أَستَطِعْ أَنْ أَصْنَعَ مَا صَنَعَ) وظاهِرُه أنه نَفَى إستطاعةَ إقدامِه الذي صَدَرَ منه حتّى وَقَعَ له ما وَقَعَ مِن الصَّبرِ على تلك الأَهْوَالِ بِحَيْثُ وَجَدَ في جَسَدِه ما يَزِيدُ على الثَّمَانِينَ مِن طَعْنَةٍ وضَرْبَةٍ ورَمْيَةٍ، فاعْتَرَفَ سَعْدٌ بأنّه لم يَسْتَطِعْ أن يُقدِمَ إقدَامَه ولا يَصْنَعَ صَنِيعَه، وهذا أَوْلَى مِمّا تَأَوَّلَه ابنُ بَطّال».

(٣) أي قَطَعوا أَعْضَاءَهُ مِن أَنْفٍ وأُذُنٍ وغيرِهما.

(٤) أي بأصابعه أو أطراف أصابعه.

(٥) شَكٌّ مِن الراوي، وهما بمعنى واحد.

الحديث الخامس عشر

عَن أَبِي إِسْحَاقَ قال: سَمِعتُ البَرَاءَ رضي الله عنه يقول: « **أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ**(١) **فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟ قَالَ: أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ**(٢). **فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: عَمِلَ قَلِيلاً وَأُجِرَ كَثِيراً**(٣)». رواه البخاري (٢٨٠٨).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: شَهِيدٌ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ**(٤)**، وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ، وَنَصَحَ لِمَوَالِيهِ**(٥)». رواه الترمذي (١٦٩٢).

---

(١) أي غَطَّى وَجْهَه بِالحَدِيدِ. قال العسقلاني رحمه الله: هو كِنايةٌ عن تَغْطِيَةِ وَجْهِه بِآلَةِ الحَرْبِ.

(٢) أي لأنّ الأعمالَ الصَّالِحَةَ لا يُعْتَدُّ بها إلّا بعد الإسلام.

(٣) (عَمِلَ قَلِيلاً) أي عَمِلَ لله تعالى عَمَلاً لا تَتَجاوَزُ مُدَّتُه وقتَ قِتالِه ثم استشهادِهِ (وَأُجِرَ كَثِيراً) أي أُجِرَ أَجْراً كَثِيراً. وفي هذا الحديثِ إشارةٌ إلى أنّ الأَجْرَ الكثيرَ قد يَحْصُلُ بِالعَمَلِ اليَسِيرِ فَضْلاً مِن اللهِ وإحْسَاناً كما قال عليّ القاري رحمه الله في عُمْدَةِ القاري شرح صحيح البخاري: «وفيه أنّ الله تعالى يُعْطِي الثَّوابَ الجَزِيلَ على العَمَلِ اليَسِيرِ تَفَضُّلاً منه على عِبادِهِ، فاسْتَحَقَّ بهذا نَعِيمَ الأَبَدِ في الجَنَّةِ بِإِسْلامِه وإنْ كان عَمَلُه قَلِيلاً، لأنه اعْتَقَدَ أنه لو عَاشَ لَكَانَ مُؤمِناً طُولَ حَياتِه، فَنَفَعَتْه نِيَّتُه وإنْ كان قد تَقَدَّمَها قَلِيلٌ مِن العَمَلِ، وكذلك الكافِرُ إذا مَاتَ سَاعَةَ كُفْرِه يَجِبُ عليه التَّخْلِيدُ في النّارِ، لأنه انْضَافَ إلى كُفْرِهِ اعتِقادُ أنه يكون كافراً طُولَ حَياتِه لأنّ الأعمالَ بِالنِّيّاتِ».

(٤) (وعفيف) أي عمّا لا يَحِلُّ (متعفّف) أي عن السُّؤَالِ مُكْتَفٍ بِاليَسِيرِ عن طَلَبِ الفُضُولِ في المَطْعَمِ والمَلْبَسِ، وقيل: أي مُتَنَزِّهٌ عمّا لا يَلِيقُ به صَابِرٌ على مُخالَفَةِ نَفْسِه وهَوَاهُ. (مرقاة المفاتيح).

وقيل في شرح حَدِيثِ مسلم (٢٨٦٥): (عفيف متعفّف ذو عيال): العَفِيفُ مَن كانت العِفَّةُ سَجِيَّةً له، والمُتَعَفِّفُ مَن يَتَكَلَّفُ العِفَّةَ، والمُرَادُ مَن يَتَعَفَّفُ عن كَسْبِ الحَرامِ وإن كان ذا عِيالٍ. (فَتح المُلهِم)

(٥) (وعبدٌ) أي مَمْلُوكٌ (أحسن عبادةَ اللهِ) بِأَنْ قامَ بِشَرَائِطِها وأَرْكَانِها، وقال الطِّيبِيّ: أي: أَخْلَصَ عِبَادَتَه مِن قوله: الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، ولا يَخْفَى عَدَمُ مُلاءَمَتِهِ للمَقَامِ، لأن المراد به أنه قامَ بِحَقِّ خَالِقِه ممّا يَجِبُ عليه (ونَصَح لمواليه) أي أَرَادَ الخَيْرَ لهم وقامَ بِحُقُوقِهِم. (مرقاة المفاتيح)

الحديث السادس عشر

عن عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَ جَلَّ مِنْ رَجُلٍ**[١] **غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَانْهَزَمَ** » **يَعْنِي أَصْحَابَهُ** « **فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ**[٢]، **فَرَجَعَ**[٣] **حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ** [٤] **فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي**[٥] **حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ**[٦]». رواه أبو داود (٢٥٣٦).

---

(١) التَّعَجُّبُ يكون مِن أَمْرٍ خَفِيَ سَبَبُه ولم يُعْلَم، واللهُ تعالى يقول: ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ** ﴾ فكيف يَخْفَى عليه سَبَبُ رُجُوعِ هذا المُجَاهِدِ إلى حَلْبَتِه، بل إنّه يقول هنا: «رَجَعَ رَغْبَةً فيما عندي، وشَفَقَةً ممّا عندي»، فالأَمْرُ والسَّبَبُ مَعلُومانِ مَذكُورَانِ، لذلك استَبْعَدَ العلماءُ هذا المعنى بِالنِّسْبَةِ إلى اللهِ عزّ وجلّ. فنَقَلَ المُناوي رحمه الله في «فيض القدير» (٥٣٨٣) عن القاضي البيضاوي رحمه الله قولَه: «إنّ صفاتِ العِبادِ إذا أُطْلِقَتْ على الله أُرِيدَ بها غاياتُها، فغايَةُ التَّعَجُّبِ: الرِّضَا بالشيء واستعظامُ شَأْنِه». فالمعنى: رَضِيَ عنه واسْتَحْسَنَ فِعْلَه وعَظَّمَ شَأْنَه.

(٢) (فعلِم ما عليه) مِن حَقِّ اللهِ تعالى.

(٣) أي: إلى قتالِ الكفّارِ وَحْدَه فقَاتَلَ.

(٤) أي: أُرِيقَ دَمُهُ، يعني حتّى قُتِلَ.

(٥) قوله: (انظروا إلى عبدي) أضافه لِنَفْسِه تعظِيماً لِمَنْزِلَتِه عنده (رجع) إلى القتال (رغبة فيما عندي) مِن الثَّوَابِ (وشفقة) أي خَوْفاً (مما عندي) مِن العِقابِ.

(٦) معناه: يُخْبِرُنَا النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ مِن عبادِ اللهِ جَادَ بنفسه في سبيلِ اللهِ على وجهٍ غيرِ مَأْلُوفٍ مِن قِبَلِ كثيرٍ مِن المُجاهِدِين، فنَالَ هذا العَبْدُ الشَّهِيدُ إعظامَ اللهِ تعالى لِفِعْلَتِه هذه، وإكبارَه لها، فأَكْرَمَه اللهُ عزّ وجلّ بأَنْ بَاهَى به مَلائِكتَه الكِرَامَ وفَاخَرَهم به.! وإخبارُ النبيّ صلى الله عليه وسلم لَنَا بذلك: فيه حَضٌّ لنا وترغيبٌ بهذه المَكْرُمَةِ التي نَالَ بها هذا الشَّرَفَ العظيمَ.

قال المُناوي رحمه الله: وفيه أنّ نِيّةَ المُقاتِلِ في الجهادِ طَمَعاً في الثَّوَابِ وخَوْفَ العِقابِ على الفِرَارِ مُعْتَبَرَةٌ، لأنه عَلَّلَ الرُّجُوعَ لِلرَّغْبَةِ وللإشفاقِ (أي: إنّ هذا الطَّمَعَ و الخَوْفَ لا يُؤَثِّرَانِ على نِيّةِ المُقاتِلِ، ولا يُفسِدَانِ نِيَّتَه الجِهادَ في سبيل الله). (فيض القدير، رقم الحديث: ٥٣٨٤)

حكمٌ فقهي: قال العَلْقَمِيُّ رحمه الله: في الحديثِ دَلِيلٌ على أنّ الغَازِي إذا انْهَزَمَ أَصْحَابُه وكان في ثَبَاتِه للقِتالِ نِكايَةٌ للكُفّار، فيُسْتَحَبُّ الثَّبَاتُ، لكن لا يَجِبُ، كما قاله السُّبْكِيُّ، وأمّا إذا كان الثَّبَاتُ مُوجباً للهلاكِ المَحْضِ مِن غيرِ نِكايَةٍ فيَجِبُ الفِرَارُ قَطْعاً.

الحديث السابع عشر

عن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أنّه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: « **مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ[1] فُوَاقَ نَاقَةٍ[2] وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ سَأَلَ اللهَ الْقَتْلَ[3] مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ[4] صَادِقاً ثُمَّ مَاتَ[5] أَوْ قُتِلَ فَلَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ[6]، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحاً[7] فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً[8] فَإِنَّهَا[9] تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ[10]،**

---

(١) قوله (مِن) بَيَانِيَّةٌ للإبهامِ الذي في مَن.

(٢) قال السِّندي رحمه الله: (فُوَاقَ نَاقَةٍ) بِضمّ الفاء وفتحِها: قَدْرُ مَا بين الحَلْبَتَيْنِ مِن الرَّاحَة، لأنّ النَّاقَة تُحْلَبُ ثُمّ تُتْرَكُ سُوَيْعَةً تُرْضِعُ الفَصِيلَ لِتَدُرَّ ثم تُحْلَبُ، وقيل: يَحتَمِل ما بين الغَدَاةِ إلى المَسَاء، أو ما بين أن تُحْلَبَ في ظَرْفٍ فَامْتَلأَ، ثم تُحْلَبَ في ظَرْفٍ آخَرَ، أو ما بين جَرّ الضَّرْعِ إلى جَرّهِ مَرَّةً أُخْرَى، وهو أَلْيَقُ بالتّرغيبِ في الجهادِ [أي: مَن قاتَل في سبيل الله لَحْظَةً فقد وَجَبَتْ له الجَنَّةُ، كما عَبَّرَ العلماءُ بِعِبَارَةِ: هو كنايةٌ عن قَلِيلِ الجِهادِ]، ونَصْبُه على الظَّرْفِ بِتقدِيرِ «وقت فواق ناقة» أي: وَقْتاً مُقَدَّراً بذلك أو على إجرائِه مَجْرَى المَصْدَرِ أي: قِتالاً قَلِيلاً.

(٣) أي: الشهادةَ في سبيله.

(٤) أي: مِن قَلْبِه، وقولُه (صادِقاً) بِمَنْزِلَةِ التَّأْكِيدِ. وقيل قوله: (من نفسه) أي مُنْبَعِثاً مِن عندِ نَفْسِه (صادقاً) أي بِصِدْقِ قَلْبِه.

(٥) أي: كَيْفَمَا كان ولو على فِرَاشِه. (قاله السندي في حاشيته على سنن النسائي)

(٦) وإن لم يُصِبْه القَتْلُ في سبيل الله تعالى يُعْطَى له ثَوَابُ شَهِيدٍ.

(٧) بضمّ الجيم وبالفتحِ هو المَصْدَرُ، أي: جِرَاحَةٌ كائِنَةٌ في سبيلِ الله بِسِلاحٍ مِن عَدُوّ.

(٨) قوله: (أَوْ نُكِبَ) أي أُصِيبَ (نَكْبَةً) النَّكْبَةُ: الجِرَاحَةُ التي تُصِيبُ الإنسانَ في سبيلِ الله مِن الحَوَادِثِ مِن غيرِ العَدُوّ، مِثْلُ العَثْرَةِ تَدْمَى الرِّجلُ فيها، أو الجِرَاحَةُ بِحَجَرٍ أو شَوْكَةٍ...

(٩) أي النَّكْبَةُ أو الجِرَاحَةَ. قال علي القاري رحمه الله في مِرقاة المَفاتِيح: «قوله: (فإنّها) أي النَّكْبَةَ التي فيها الجِرَاحَةُ (تَجِيءُ يومَ القيامةِ) قال الطِيبِيُّ: قد سَبَقَ شَيْئَانِ الجُرْحُ والنَّكْبةُ، وهي ما أصابَه في سَبِيلِ الله مِن الحِجارَةِ، فَأَعَادَ الضَّمِيرَ إلى النَّكْبَةِ دلالةً على أنّ حُكْمَ النَّكْبَةِ إذا كان بهذه المَثَابَةِ، فما ظَنُّكَ بالجُرْحِ بالسِّنَانِ والسَّيْفِ.. أو يقال إِفْرَادُ الضَّمِيرِ بِاعْتِبارِ أنّ مُؤَدَّاهُما واحدٌ، وهي المُصِيبَةُ الحادِثَةُ في سَبِيلِ الله، فهي تَظهَر وتتصوّر».

(١٠) (كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ) أي: أَكْثَرِ دَماً. قال في علي القاري في مِرقاة المَفاتيح: «(كأَغْزَرِ) أي كَأَكْثَرِ أَوْقاتِ أَكْوَانِها في الدنيا. قال الطيبي: الكافُ زائِدَةٌ وما مَصْدَرِيَّةٌ والوَقْتُ مُقَدَّرٌ، يَعني حينئذٍ تكون غَزارَةُ دَمِه أَبْلَغَ مِن سائِرِ أَوْقاتِه. اهـ. والأَظْهَرُ أنّ الكَافَ غيرُ زائدةٍ، والمُرَادُ أنّ الجِرَاحَةَ والنَّكْبَةَ تكون يومَ القيامة مِثْلَ أكثرِ ما وُجِدَ في الدنيا».

لَوْنُهَا كَالزَّعْفَرَانِ وَرِيحُهَا كَالْمِسْكِ[1]، **وَمَنْ جُرِحَ جُرْحاً فِي سَبِيلِ اللهِ فَعَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ**[2]». رواه النسائي (٣١٤١)، ونحوُه في مسند الإمام أحمد (٢٢٠١٤)، وسُنَنِ أبي داود (٢٥٤١).

وعن عَمْرِو بنِ عَبَسَةَ رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: « **مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فُوَاقَ نَاقَةٍ، حَرَّمَ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ النَّارَ** ». رواه الإمام أحمد (١٩٤٤٤).

وعن أَبِي عَبْسٍ هُوَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ جَبْرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: « **مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ**[3]». رواه البخاري (٢٨١١).

---

(١) أي باعتبارِ ظاهِرِ الصُّورَةِ دمٌ، وفي الحقيقةِ تَفُوحُ منها رِيحُ المِسْكِ.

(٢) أي: خَتْمُهُمْ، يعني أَمَارَةَ الشُّهَدَاءِ وعَلامَتَهم، لِيُعْلَمَ أنّه سَعَى في إعلاءِ الدِّينِ، ويُجَازَى جَزَاءَ المُجاهِدِين. قال القَسْطَلاني رحمه الله في إرشاد الساري: «والحِكْمَةُ في بَعْثِه كذلك أن يكون معه شاهِدٌ بِفَضِيلَتِه بِبَذْلِه نَفْسَه في طاعَةِ اللهِ عزّ وجلّ».

(٣) أي: أنّ المَسَّ يَنْتَفِي بِوُجُودِ الغُبَارِ المَذكورِ، وإذا كان مَسُّ الغُبارِ قَدَمَيْهِ دَافِعاً لِمَسِّ النَارِ إيّاهُ، فكيف إذا سَعَى بهما واسْتَفرَغَ جُهْدَه فقاتَلَ حتى قَتَلَ وقُتِلَ؟.. (إرشاد الساري)

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله في فتح الباري: «والمعنى: أن المَسَّ يَنْتَفِي بِوجودِ الغُبارِ المذكورِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى عَظِيمِ قَدْرِ التَّصَرُّفِ في سبيل الله، فإذا كان مُجرَّدُ مَسِّ الغُبارِ لِلْقَدَمِ يُحَرِّمُ عليها النَّارَ، فكيف بِمَنْ سَعَى وبَذَلَ جُهْدَهُ واستَنْفَذَ وُسْعَه؟

وللحديث شَواهِدُ: منها ما أَخْرَجَه الطبراني في الأَوْسَط عن أبي الدرداء مَرْفُوعاً (**مَن اغبَرّت قَدَمَاهُ في سبيل الله بَاعَدَ اللهُ منه النّارَ مَسِيرَةَ ألفِ عَامٍ لِلرَّاكِبِ المُستعجِلِ**) وأَخْرَجَ ابنُ حِبّان مِن حديثِ جابرٍ أنّه كان في غُزَاةٍ فقال: (سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول) فذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ الباب، قال: فتَوَاثَبَ النَّاسُ عن دَوَابِّهِم فما رُؤِيَ أَكْثَرَ مَاشِياً مِن ذلك اليوم».

الحديث الثامن عشر

عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه يَرْفَعُ الحَدِيثَ إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم، قال: قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: « **لا يَجْمَعُ اللهُ فِي جَوْفِ رَجُلٍ غُبَاراً فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانَ جَهَنَّمَ، وَمَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، حَرَّمَ اللهُ سَائِرَ جَسَدِهِ عَلَى النَّارِ، وَمَنْ صَامَ يَوْماً فِي سَبِيلِ اللهِ، بَاعَدَ اللهُ عَنْهُ النَّارَ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْتَعْجِلِ، وَمَنْ جُرِحَ جِرَاحَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، خُتِمَ لَهُ بِخَاتَمِ الشُّهَدَاءِ، لَهُ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَوْنُهَا**(١) **مِثْلُ لَوْنِ الزَّعْفَرَانِ، وَرِيحُهَا مِثْلُ رِيحِ الْمِسْكِ، يَعْرِفُهُ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، يَقُولُونَ: فُلَانٌ عَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ، وَمَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ** ». رواه الإمام أحمد (٢٧٥٠٣).

وفي سنن ابن ماجه (٢٧٧٤): عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قال: « **لا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ مُسْلِمٍ** ».(٢)

---

(١) كأن الضمير (لونها) للخَاتَم؛ بِاعْتِبارِ كَوْنِ الخاتَمِ عَلامَةً. (ذكره السِّندي في حاشيته على مسند الإمام أحمد)

(٢) قال الشيخ إسماعيل حقي البُروسوي رحمه الله: «واعلَمْ أنّ الجهادَ مِن أعظمِ الطَّاعَاتِ، ولذلك لا يَجتَمِعَ غُبَارُ المُجاهِدِ مع دُخَانِ جَهَنَّم، وبِخَطْوَةٍ مِن المُجاهِدِ يُغفَرُ ذَنْبٌ، وبِأُخْرَى تُكْتَبُ حَسَنَةٌ، ولكن يَنْبَغِي للمُجاهِدِ أنْ يُصَحِّحَ نِيّتَه ويَثْبُتَ في مَواطِنِ الحَرْبِ، فإنّ بِثَبَاتِ القَلْبِ والقَدَمِ تَتَبَيَّنُ أَقْدَارُ الرِّجَال.., ويَجْتَنِبَ عن الظُّلْمِ وارْتِكابِ المَعاصِي، فإن الغَلَبَةَ على الأَعْدَاءِ بِالقُوَّةِ القُدْسِيَّةِ والتَّأْيِيدِ الإلهِيّ، لا بِالقُوّةِ الجِسْمانِيَّةِ وكَثْرَةِ العَدَدِ والعُدَدِ، أَلَا يُرَى كيف أَنّ اللهَ تعالى أَيَّدَ المُؤمنين بالمَلائكة في غَزْوَةِ بَدْرٍ مع قِلَّتِهم وكَثْرَةِ الكافِرين، فَالّذِين جَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ بِالتُّقَى والصَّبْرِ والثَّباتِ فقد غَلَبُوا على الأَعْدَاءِ ووَصَلُوا إلى الدَّرَجات». (روح البيان، سورة الأنفال:٤٥)

وقال السِّندي رحمه الله في حاشيته على النسائي (٣١٠٧) : «وفيه أنّ المُسلِمَ الحَقِيقِيَّ إذا جَاهَدَ لله خالِصاً لا يَدخُلُ النَّارَ، وعلى هذا فمَن عُلِمَ في حَقِّهِ خِلافُه فلا بُدّ أن لا يكون مُسلِماً بِالتَّحقِيقِ أو لم يُجاهِدْ بِالإِخْلاصِ. واللهُ تعالى أعلم».

الحديث التاسع عشر

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **اَلشَّهِيدُ**[١] **لا يَجِدُ مَسَّ الْقَتْلِ**[٢] **إلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمُ الْقَرْصَةَ يُقْرَصُهَا**[٣]». رواه النسائي (٣١٦١).

وفي رِوَايَةٍ عنه أيضاً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مَسَّ الْقَتْلِ، إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مَسَّ الْقَرْصَةِ**[٤]». رواه الإمام أحمد (٧٩٥٣)، والترمذي (١٦٦٨)، وابن ماجه (٢٨٠٢).

---

(١) أي الحَقِيقِيُّ، وفي مَعْنَاهُ الحُكْمِيُّ. (ذكره علي القاري في مرقاة المفاتيح)

(٢) أي شِدّةَ المَوْتِ عند الشَّهادَةِ وخُرُوجِ الرُّوحِ.

(٣) قوله: (يُقْرَصُهَا) على بناءِ المَفعولِ، وضَمِيرُها لِلْقَرْصَةِ، ونُصِبَ الضَّمِيرُ على أنه مَفعولٌ مُطلَقٌ، ونائِبُ الفَاعِلِ ضميرُ الأَحَدِ. (قاله السندي في حاشيته على النسائي)

القَرْصَة: هي المَرَّةُ مِن القَرْصِ، وهو عَضُّ النَّمْلَةِ الإنسَانَ، وقِيل أَخْذُ الجِلْدِ بِنَحْوِ ظُفْرٍ. قال الطِّيبِيّ: القَرْصُ الأَخْذُ بِأَطْرَافِ الأَصَابِعِ.

وعَبَّرَ صلى الله عليه وسلم بِأَدَاةِ الحَصْرِ دَفْعاً لِتَوَهُّمِ تَصَوُّرِ: أنّ أَلَمَه يَفضُلُ على أَلَمِها، وهذه تَسْلِيَةٌ لهم عن هذا الحادِثِ العظيمِ والخَطْبِ الجَسِيمِ، وتَهْيِيجُ الصَّبْرِ على وَقْعِ السُّيُوفِ واقْتِحامِ الحُتُوف.

نعم.. شهيدٌ يَتَلَذَّذُ بِبَذْلِ مُهْجَتِه في سبيل اللهِ طَيِّبَةً به نَفْسُه كَعُمَيْرِ بنِ الحُمَام وإلقاءِ تَمَرَاتِه ولِقَائِه المَوْتَ كما مَرَّ.

وأَنْشَدَ خُبَيْب الأَنْصَارِيّ حِينَ قُتِل:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لله مَصْرَعِي

وَذلك فِي ذَاتِ الإلهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمزَّع.

والمعنى: يُبارك على أَعْضاءِ جِسْمٍ مُقَطَّعٍ.

قال عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه: «إنّ أَكْرَمَ المَوْتِ القَتْلُ، والذي نفسُ ابنِ أبي طالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بالسَّيْفِ أَهْوَنُ مِن موتٍ على فِراشٍ». (نَقَلَه البُروسوي في روح البيان، سورة الأحزاب: ١٧).

(٤) يعني أنه تعالى يُهَوِّنُ عليه الموتَ ويَكْفِيهِ سَكَرَاتِه وكَرْبَه، بل رُبَّ شَهِيدٍ يَتلَذَّذُ بِبَذْلِ نَفْسِه في سبيلِ اللهِ طَيِّبَةً بها نفسُه كما مرّ. (انظر: فيض القدير، رقم الحديث:٤٩٦٢)

الحديث العشرون

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: ذُكِرَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: « **لا تَجِفُّ الأَرْضُ مِنْ دَمِ الشَّهِيدِ حَتَّى تَبْتَدِرَهُ**[١] **زَوْجَتَاهُ، كَأَنَّهُمَا ظِئْرَانِ**[٢] **أَضَلَّتَا فَصِيلَيْهِمَا**[٣] **فِي بَرَاحٍ**[٤] **مِنَ الْأَرْضِ، وَفِي يَدِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا حُلَّةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**[٥] ». رواه ابن ماجه (٢٧٩٨).

وفي المُصَنَّف لِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ (١٩٦٧٤): « **مَا تَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ خَطْوَةٍ إِلَّا تَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْحُورُ الْعِينُ، فَإِنْ تَأَخَّرَ اسْتَتَرْنَ مِنْهُ، وَإِنِ اسْتُشْهِدَ كَانَتْ أَوَّلُ نَضْحَةٍ**[٦] **كَفَّارَةَ خَطَايَاهُ، وَتَنْزِلُ إِلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فَتَنْفِضَانِ عَنْهُ التُّرَابَ، وَتَقُولانِ لَهُ: مَرْحَباً قَدْ أَنَى لَكَ**[٧]**، وَيَقُولُ: مَرْحَباً قَدْ أَنَى لَكُمَا** ».

وفيه أيضاً (١٩٦٩٧) عن يَزِيدَ بنِ شَجَرَةَ رضي الله عنه قال: « **السُّيُوفُ مَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ، فَإِذَا تَقَدَّمَ الرَّجُلُ إِلَى الْعَدُوِّ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ: اللهمَّ انْصُرْهُ، وَإِنْ تَأَخَّرَ قَالَتْ: اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ، فَأَوَّلُ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِ السَّيْفِ يُغْفَرُ لَهُ بِهَا مِن كُلِّ ذَنْبٍ، وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ حَوْرَاوَانِ**[٨] **تَمْسَحَانِ الْغُبَارَ عَنْ وَجْهِهِ وَتَقُولانِ: قَدْ أَنَى لَكَ، وَيَقُولُ لَهُمَا: وأَنْتُمَا قَدْ أَنَى لَكُمَا** ».

---

(١) أَيْ تُسَارِعُ إليه.

(٢) الظِّئْرُ: المُرْضِعَةُ غَيْرَ وَلَدِهَا.

(٣) أي أَضَاعَتَا رَضِيعَيْهِمَا.

(٤) البَرَاحُ: هُوَ المُتَّسَعُ مِن الأَرْضِ الذي لا زَرْعَ فيه ولا شَجَرَةَ.

(٥) شَبَّهَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إسراعَ الحُورِ العِينِ إلى الشَّهِيدِ، كإسراعِ المُرضِعَةِ إلى رَضِيعِها الذي أَضَاعَتْه في مَكانٍ لا زَرْعَ فيه ولا شَجَرَةَ.

(٦) المراد مِن النَّضْحَة: أَوَّلُ دُفْعَةٍ مِن دَمِهِ.

(٧) أَنَى: مِن قَوْلِك مَثَلاً: أَنَى الوَقْتُ: بمعنى: حَانَ الوَقْتُ.

(٨) قوله (حَوْرَاوَانِ) تَثْنِيَةُ حَوْرَاء. وجَمْعُه الحُورُ.

الحديث الحادي والعشرون

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: « **لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ**[1] **مِنْ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ**[2] **-يَعْنِي سَوْطَهُ- خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا**[3] **وَلَمَلَأَتْهُ رِيحاً**[4] **وَلَنَصِيفُهَا**[5] **عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** ». رواه البخاري (٢٧٩٦).

وفي رِوَايَةٍ للإمام أحمد بن حنبل (١٢٦٠٣): « **لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ خَيْرٌ مِن الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الدُّنْيَا، لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحَ الْمِسْكِ، وَلَطَيَّبَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** ».

---

(١) أي قَدْرُ طُولِ قَوْسِ أَحَدِكم. فَالْقَابُ بمعنى القَدْرِ، يُقال: بَيْنِي وبَيْنَه قابُ قَوْسٍ: أي مِقْدَارُها.

(٢) أي مِقْدَارُ قِيدٍ، وهو السَّوْطُ المُتَّخَذُ مِن الجِلْدِ الذي لم يُدْبَغْ. وفي ذلك إشارةٌ لِاحْتِقارِ الدنيا وما عليها أَمَامَ عِظَمِ ثَوَابِ المُجاهِدِ في سبيلِ الله تعالى.

(٣) أي ما بين السَّمَاء والأرضِ.

(٤) أي عِطْراً.

(٥) يعني خِمَارَها، وهو ما تُغَطِّي به رَأْسَها.

الحديث الثاني والعشرون

عَنِ المِقْدَامِ بنِ مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ**(١)**: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ**(٢)**، وَيُرَى مَقْعَدَهُ**

---

(١) لا يُوجَدُ مَجْمُوعُها لِأَحَدٍ غَيْرَه. الخِصال: صِفات، والمُرَادُ هنا صفاتٌ طيبةٌ أي فَضَائِلُ.

(٢) أي يُغفَرُ لِلشَّهِيدِ وتُمْحَى ذُنُوبُه في أَوَّلِ صَبَّةٍ مِن دَمِه.

رَوَى الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَل في مُسْنَدِه: « **الْقَتْلُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ، فَذَلِكَ الشَّهِيدُ.. لَا يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بِدَرَجَةِ النُّبُوَّةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ، فَمَصْمَصَةٌ مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ، إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاءُ الْخَطَايَا، وَأُدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ..، وَرَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يُقْتَلَ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِي النَّارِ، السَّيْفُ لَا يَمْحُو النِّفَاقَ** ». (انظر لِتَمامِ الحديث: مسند الإمام أحمد: ١٧٦٥٧)

وقوله: (قَرَف على نفسِه مِن الذّنوبِ) أي: كَسَبَها، قَرَفَ الذَّنْبَ واقْتَرَفَه: إذا عَمِلَه. (فمصمصة) ففِعْلُه ذاك مَصْمَصَةٌ؛ أي: تَمْحِيصٌ مِن الذّنوبِ، ومَطْهَرَةٌ مِن دَنَسِ الخَطَايَا.

وقد صَحَّ في مسلم (١٨٨٦) : عن عبدِ الله بنِ عَمْرِو بنِ الْعَاصِ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « **يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ** »، وعنه أيضاً: « **اَلْقَتْلُ فِي سَبِيلِ الله يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْنَ** ».

قال السِّندي في حاشيته على مسند الإمام أحمد (٧٠٥١) : (يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ) أَيْ إِلَّا تَرْكَ وَفَاءِ الدَّيْنِ؛ إِذْ نَفْسُ الدَّيْنِ لَيْسَ مِنْ الذُّنُوب، وَالظَّاهِر أَنَّ تَرْك الوَفَاءِ ذَنْبٌ إِذَا كَانَ مَعَ القُدْرَة عَلَى الوَفَاءِ، فلَعَلّه المُرَادُ، والله أعلم.

وذَكَر السّيوطي عن بعضِ العلماءِ في حاشية الترمذي: فيه تَنْبِيهٌ على أنّ حُقُوقَ الآدَمِيِّينَ لا تُكَفَّرُ؛ لِكونِها مَبْنِيَّةً على المُشَاحَّةِ وَالتَّضْيِيقِ، وَيُمكِنُ أَنْ يقال: إنّ هذا مَحمُولٌ على الدَّيْنِ الذي هو خَطِيئَةٌ، وهو الذي اسْتَدَانَه صاحِبُه على وَجْهٍ لا يَجوز؛ بِأَنْ أَخَذَهُ بِحِيلَةٍ، أو غَصَبَهُ، فَثَبَتَ في ذِمَّته البَدَلُ، أو ادَّانَ غَيْرَ عَازِمٍ على الوَفَاء؛ لأنّه صلى الله عليه وسلم اسْتَثْنَى ذلك مِن الخَطَايَا، والأَصْلُ في الاسْتِثْنَاءِ أَنْ يكون مِن الجِنْسِ، فيكون الدَّيْنُ المَأْذُونُ فيه مَسْكُوتاً عنه في هذا الاستثناء، فلا يَلزَمُ المُؤَاخَذَةُ به؛ لِجَوَازِ أَنْ يُعَوِّضَ الله صاحِبَه مِن فَضْلِه. انتهى كلام السندي.

وقال المُناوي في شرحِ حديثِ: (**يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ**) والمُرَادُ به جَمِيعُ حُقُوقِ العِبادِ مِن نَحْوِ دَمٍ ومَالٍ وعِرْضٍ، فإنّها لا تُغفَرُ بِالشَّهَادَةِ. وذا في شَهِيدِ البَرّ، أمّا شهيدُ البَحْرِ فيُغفَرُ له حَتّى الدَّيْنُ، لِخَبَرٍ فيه [لأنّ البَحْرَ أعظمُ خَطَراً ومَشَقَّةً، فإنه بين العَدُوّ وخَطَرِ الغَرَقِ، ولا يَتَمَكَّنُ مِن الفِرَارِ إلّا مع أَصْحابِه، فكان أَفْضَلَ مِن غيرِه]. والكلامُ فِيمَنْ عَصَى بِاسْتِدَانَتِه، أمّا مَن اسْتَدَانَ حيث يَجوز ولم يُخَلِّفْ وَفَاءً فلا يُحبَسُ عن الجَنّةِ شَهِيداً أو غيرَه. (فيض القدير شرح الجامع الصغير، رقم الحديث: ١٠٠١٦) =

مِنَ الْجَنَّةِ[1]، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ[2]، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ[3]، وَيُزَوَّجُ[4] مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ[5] فِي سَبْعِينَ إِنْسَاناً مِنْ أَقَارِبِهِ ». رواه ابن ماجه (٢٧٩٩)، ونحوُه في مُسند الإمام أحمد (١٧١٨٢، ١٧٧٨٣).

= وقال الزُّرْقاني في شرح موطأ الإمام مالك: (إلّا الدَّيْنَ) فلا يُكَفِّرُه إلّا عَفْوُ صَاحِبه أو اسْتِيفاؤُه. قال ابنُ عَبْدِ البَرّ: فيه أنّ الخَطايا تُكفَّر بالأعمالِ الصَّالِحَةِ مع الاحتسابِ والنِّيَّةِ في العَمَل، وأنّ أعمالَ البِرّ المَقْبُولَةِ لا تُكفِّرُ مِن الذّنوبِ إلّا ما بَيْنَ العَبْدِ وبين رَبِّهِ، فأمّا التَّبِعَاتُ فلا بُدّ فيها مِن القِصاص، قال: وهذا في دَيْنٍ تَرَكَ له وَفاءً ولم يُوصِ به أو قَدَرَ على الأَدَاءِ فلم يُؤَدِّ أو أنه في غيرِ حَقٍّ أو سَرَفٍ وماتَ ولم يُوفِه، أمّا مَن ادَّانَ في حَقٍّ واجِبٍ لِفَاقَةٍ وَعُسْرٍ وماتَ ولم يَتْرُكْ وَفاءً فلا يُحبَسُ عن الجَنَّة، لأنّ على السُّلْطانِ فرْضاً أَنْ يُؤَدِّيَ عنه دَيْنَه مِن الصَّدَقاتِ أو سَهْمِ الغانِمين أو الفَيْءِ، وقد قِيل إنّ تَشْدِيدَه صلى الله عليه وسلم في الدَّيْنِ كان قَبْلَ الفُتُوحِ. انتهى.

وقال القُرْطُبِيّ والنَّوَوِيّ: فيه تنبيهٌ على جميعِ حقوقِ الآدَمِيّينَ، وأنّ الجهادَ والشَّهَادَةَ وغيرَهما مِن أَعْمالِ البِرّ لا تُكَفِّرُ حُقُوقَ الآدميين وإنّما تُكفِّرُ حُقُوقَ اللهِ تعالى(، قال عليّ القاري في مرقاة المفاتيح: إلّا شهيد البحر، فإنه يُغفَرُ له الذُّنُوبُ كُلُّها والدَّيْنُ كما ورد في حديث)، وقال الحافظ: ويُستَفَادُ منه أنّ الشَّهَادَةَ لا تُكفِّر التَّبِعاتِ، وهي لا تَمنَعُ دَرَجَةَ الشّهَادةِ، وليس لِلشَّهَادَةِ مَعْنىً إلّا أنّ اللهَ يُثْبِتُ لِمَنْ حَصَلَتْ له ثَوَاباً مَخْصُوصاً ويُكرِمُه كَرَامَةً زَائِدَةً، وقد بَيَّنَ الحَدِيثُ أنه يُكفَّرُ عنه ما عدا التَّبِعاتِ، فإن كان له عَمَلٌ صالِحٌ كَفَّرَتْ الشّهادةُ سَيِّئَاتِه غيرَ التَّبِعَاتِ ونَفَعَه عَمَلُه الصّالِحُ في مُوازَنَةِ ما عليه مِن التَّبِعاتِ، ويَبْقَى له دَرَجَةُ الشَّهَادَةِ خَالِصَةً، فإن لم يكن له عملٌ صالحٌ فهو تحتَ المَشِيئَةِ. انتهى. (شرح الزرقاوي على موطأ الإمام مالك، رقم الحديث: ١٠١٨)

(١) قوله: (مقعده) مَنصوبٌ على أنه مفعولٌ ثانٍ، والمفعولُ الأوّلُ نائِبُ الفاعِلِ أو على أنه مفعولٌ به وفاعِلُه مُسْتَكِنٌّ في يُرَى [أي مُسْتَتِرٌ فيه]. وقوله (مِن الجَنَّةِ) مُتعلِّقٌ به. الظَّاهِرُ أَنّ المراد أنّه يُرَى قَبْلَ المَوْتِ. (قاله السِّنْدي في حاشيته على مسند أحمد بن حنبل: ١٧١٨٢)

وقال عليّ القاري رحمه الله: «وينبغي أن يُحمَلَ قَوْلُه: (ويرى مقعده) على أنّه عَطْفُ تَفسِيرٍ لِقولِه (يغفر له) لِئَلّا يَزِيدَ الخِصَالُ على سِتٍّ، ولِئَلّا يَلزَمَ التَّكْرَارُ في قولِه (ويُجارُ مِن عذاب القبر) أي يُحْفَظُ ويُؤْمَنُ، إذ الإجارةُ مُنْدَرِجَةٌ في المَغْفِرَةِ إذا حُمِلَتْ على ظاهِرِها».

(٢) قال عليّ القاري رحمه الله: «فيه إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ (الأنبياء: ١٠٣)، قيل هو عذابُ النّارِ، وقيل العَرْضُ عليها، وقيل هو وَقْتٌ يُؤمَرُ أَهْلُ النّارِ بِدُخولِها، وقيل ذَبْحُ المَوْتِ فيَيْأَس الكُفّارُ عن التَّخَلُّصِ مِن النّار بِالمَوْتِ، وقيل وَقْتُ إطْبَاقِ النّارِ على الكُفّار، وقيل النَّفْخَةُ الأَخِيرَةُ لقوله تعالى:﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّموات وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ (النمل: ٨٧).

(٣) يُحَلَّى مِن التَّحْلِيَةِ، واللهُ تعالى يَعلَمُ حَقِيقَةَ حُلَّةِ الإيمانِ.

(٤) أي يُعْطَى بِطَرِيقِ الزَّوْجِيَّةِ.

(٥) أي تُقبَلُ شَفَاعَتُه.

وفي رواية الترمذي (١٦٦٣): «... **وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ**[١]، **اَلْيَاقُوتَةُ مِنْهَا**[٢] **خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً**[٣] **مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**».

(١) أي تاجٌ هو سَبَبُ العِزَّةِ والعَظَمَةِ. وفي النِّهايَة: هو ما يُصَاغُ لِلمُلُوكِ مِن الذَّهَبِ والجَوَاهِرِ.

(٢) أي مِن التَّاجِ، والتَّأنِيثُ بِاعْتِبارِ أنّه عَلامَةُ العِزِّ والشَّرَفِ أو بِاعتبارِ أنّه مَجْمُوعٌ مِن الجَوَاهِرِ وغيرِها.

(٣) في التقييد بِالثِّنْتَيْنِ والسَّبْعِين إشارةٌ إلى أنّ المُرَادَ به التَّحْدِيدُ لا التَّكْثِيرُ، ويُحْمَلُ على أنّ هذا أَقَلُّ ما يُعْطَى، ولا مَانِعَ مِن التَّفَضُّلِ بِالزِّيادَةِ عليها. (مِرقاة المَفاتيح)

الحديث الثالث والعشرون

عن أَنَسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه: « أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ، وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ، أَتَتْ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ! أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ[1] وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ[2]. فَإِنْ كَانَ[3] فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ[4]، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ[5] اجْتَهَدْتُ[6] عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ؟[7]، قَالَ: « يَا أُمَّ حَارِثَةَ! إِنَّهَا[8] جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ[9] الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى[10] ». رواه البخاري (٢٨٠٩).

وفي المُصَنَّف لابن أبي شَيْبَةَ رحمه الله (١٩٦٩٤): عن عَلْقَمَةَ بنِ مَرْثَدَ رضي الله عنه قال: « حدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ: مَرَّتِ امْرَأَةٌ بِابْنِهَا وَزَوْجِهَا قَتِيلَيْنِ، فَأَتَتِ

---

(١) أي عن حَالِه ومَآلِه.

(٢) لا يُدْرَى مَن رَمَى به.

(٣) أي حَارِثَةُ.

(٤) أي عن إظهارِ البُكاءِ شُكْراً لِمَا أُنْعِمَ عليه.

قال ابنُ المُنير: إنّما شَكَّتْ فيه؛ لأنّ العدوّ لم يَقتُله قَصْداً، وكأنّها فَهِمَتْ أَنّ الشَّهِيدَ هو الذي يُقتَلُ قَصْداً لأنّه الأَغْلبُ، فنَزَّلَتِ الكلامَ على الغالِبِ حتى بَيَّنَ لها الرسولُ العُمُومَ. (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري)

(٥) أي وإن كان في النَّار، إذ ليس ثَمَّةَ سِوَى المَنْزِلَتَيْنِ.

(٦) بَذَلْتُ وُسْعِي وطاقَتِي.

(٧) أي كما هو دَأْبُ النِّساءِ، وأَقَرَّها النبيُّ صلى الله عليه وسلم على البُكاءِ فهو جائزٌ بخلافِ النَّوْحِ، فإنه غيرُ جائزٍ كما في سائر الأحاديث.

(٨) والضَّميرُ في قوله (إنّها) مُبْهَمٌ يُفَسِّرُه ما بعده مِن الخَبَرِ كقولهم: هي العَرَبُ تَقول ما تَشاءُ، ويَجوز أن يكون الضميرُ لِلشَّأْنِ، وجنانٌ مبتدأٌ والتَّنْكِيرُ فيه لِلتَّعظِيمِ، والمرادُ بها: دَرَجَاتٌ فيها لِمَا وَرَدَ: (**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا**)، وهذا معنى قوله: (وإنّ ابْنَكَ أَصابَ الفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى). (انظر: مِرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري)

(٩) كان نَصِيبَه.

(١٠) أي رُزِقَ أَعْلَى الجَنَّةِ. فرَجَعَتْ وهي تَضْحَكُ وتقول: بَخْ بَخْ لَكَ يا حَارِثَةُ. (كلمةُ «بخ بخ» فيه لُغتانِ: إسكانُ الخاءِ وكَسْرُها مُنَوَّناً، وهي كلمةٌ تُطلَقُ لِتَفْخِيمِ الأَمْرِ وتَعْظِيمِه في الخَيْرِ).

النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: **أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْوَحْيَ، فَإِنْ كَانَ هَذَانِ مُنَافِقَيْنِ لَمْ نَبْكِهِمَا وَلَمْ نُنْعِمْهُمَا عَيْناً[١]، وَإِنْ كَانَا غَيْرَ مُنَافِقَيْنِ قُلْنَا فِيهِمَا مَا نَعْلَمُ،** قَالَ: « **أَجَلْ! لَمْ يَكُونَا مُنَافِقَيْنِ، لَقَدْ تُلُقِّيَا بِثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَلَقَدْ تَبَاشَرَتْ بِهِمَا الْمَلائِكَةُ** ». قَالَ: **تَقُولُ الْمَرْأَةُ: الْآنَ حَقٌّ أَنْ لا أَبْكِيَهُمَا،** قَالَ: « **أَلَا إِنَّكِ مَعَهُمَا** ».

وعن جابر رضي الله عنه أنّ أَبَاهُ[٢] قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ[٣] قَالَ: فَجَعَلْتُ أَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ[٤] وَأَبْكِي، وَالنَّاسُ يَنْهَوْنِي، وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لا يَنْهَانِي، وَجَعَلَتْ عَمَّتِي[٥] تَبْكِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: « **لا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ الْمَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ[٦]** ».
رواه النسائي (١٨٤٤).

---

(١) نُعْمَةُ عَيْنٍ: قُرَّةُ عَيْنٍ.
(٢) هو عبدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ حرام رضي الله عنه.
(٣) وقَدْ مُثِّلَ بِهِ كما في روايةٍ أُخْرَى.
(٤) لأنه كان مُغَطَّى الجَسَدِ والرَّأْسِ.
(٥) هي فاطمة بنت عمرو.
(٦) أي فقد حَصَلَ له مِن الكَرَامَة هذا وغيرُه، فلا يَنبغِي البُكاءُ على مِثْلِ هذا، وفي هذا تسليةٌ لها. قال القاضي عِياض رحمه الله: يَحتَمِلُ أنّ ذلك لِتَزاحُمِ المَلائكةِ عليه؛ لِبِشارَتِهِ بِفَضْلِ الله ورِضاهُ عنه وما أَعَدَّ له مِن الكرامةِ ازْدَحَمُوا عليه، إكراماً له وفَرَحاً به، أو لِتَظْليلِه مِن حَرِّ الشَّمْسِ لِئلّا يَتَغَيَّرَ جِسْمُه أو رِيحُه. (شرح النووي على صحيح مسلم، رقم الحديث: ٢٤٧١ بتصرّف يسير)

وفيه مَنقِبَةٌ عظيمةٌ لِعبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه، وروى مالك في الموطأ (١٠٣٨) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عَمْرَو بنَ الجَمُوحِ، وَعَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو الأَنْصَارِيَّيْنِ، ثُمَّ السَّلَمِيَّيْنِ كَانَا قَدْ حَفَرَ السَّيْلُ قَبْرَهُمَا، وَكَانَ قَبْرُهُمَا مِمَّا يَلِي السَّيْلَ، وَكَانَا فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ، وَهُمَا مِمَّنِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَحُفِرَ عَنْهُمَا لِيُغَيَّرَا مِنْ مَكَانِهِمَا، فَوُجِدَا لَمْ يَتَغَيَّرَا، كَأَنَّهُمَا مَاتَا بِالأَمْسِ (لأن الأرض لا تأكل جسدَ الشَّهِيدِ)، وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَدْ جُرِحَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى جُرْحِهِ، فَدُفِنَ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَأُمِيطَتْ يَدُهُ عَنْ جُرْحِهِ ثُمَّ أُرْسِلَتْ، فَرَجَعَتْ كَمَا كَانَتْ، وَكَانَ بَيْنَ أُحُدٍ وَبَيْنَ يَوْمَ حُفِرَ عَنْهُمَا سِتٌّ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً.

الحديث الرابع والعشرون

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ، لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللهُ تَعالى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً ﴾ . إِلَى آخِرِ الآيَةِ**[1]». رواه أبو داود (٢٥٢٠).

(١) قوله: (لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ) أي مِن سَعادَةِ الشَّهادةِ (بأُحُدٍ) اسمُ الجَبَلِ الذي كانت عنده غَزوَةُ أُحُدٍ، وعنده كانت الوَقعَةُ الفَظِيعَةُ التي قُتِلَ فيها حَمْزَةُ عَمُّ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وسَبْعُون مِن المسلمِين، وكُسِرَتْ رَباعِيَتُه صلى الله عليه وسلم، وشُجَّ وَجْهُه الشّريفُ وكُلِمَتْ شَفَتُه، وفيه قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: [أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّه، وهو على تُرْعَةٍ مِنْ تُرَعِ الْجَنَّة] (جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ) أي في أَجْوَافِ طُيُورٍ خُضْرٍ خَالِيَةٍ مِن الأَرْوَاحِ، على أَشْبَاحٍ مُصَوَّرَةٍ بِصُوَرِ الطُّيُورِ، حتى تَتَلَذَّذَ الأَرْوَاحُ بِنَسَبِ الأَشْبَاحِ (تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ) تَشرَبُ مِن مائِهَا ولَبَنِها وعَسَلِها وشَرَابِها الطَّهُورِ (تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي) أي تَرْجِعُ (إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ) أي بِمَنْزِلَةِ أَوْكَارِ الطُّيُورِ، كما تَتَنَقَّلُ طَيْرُ الدنيا و بَلابِلُها على أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ. والمُشابَهَةُ في الأَسْماءِ فقط، فقَنادِيلُ الآخِرَةِ غيرُ قناديلِ الدنيا، والطَّيْرُ غيرُ الطَّيْرِ (فَلَمَّا وَجَدُوا) أي الشُّهَدَاءُ (طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ) أي مَأْوَاهُم ومُسْتَقَرِهِم، قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَراً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ [سورة الفرقان:٢٤]، والثَّلاثَةُ مَصادِرُ مِيمِيَّةٌ ولا يَبْعُدُ أن يُرَادَ بها المَكانُ أو الزَّمانُ، ثُمَّ أَصْلُ المَقِيلِ المَكانُ الذي يُؤْوَى إليه لِلاسْتِراحَةِ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ والنَّوْمِ فيه (قَالُوا) جوابُ لمّا (مَنْ يُبَلِّغُ) أي مَن يُوصِلُ (إِخْوَانَنَا) مِن المسلمين الذين هم في الدنيا (عَنَّا) أي عن قِبَلِنا (أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ) مِن أَنْوَاعِ اللَّذَّةِ (لِئَلَّا يَزْهَدُوا) أي لئلّا يَغفَلُوا (فِي الجِهادِ) ولا يَرْغَبُوا عنه، عِلَّةٌ لقوله: مَن يُبَلِّغُ عنا. (وَلا يَنْكُلُوا) أي لا يَجْبُنُوا (عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً ﴾ أي ولا تَظُنَّنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أَمْوَاتاً بل هم أحياءٌ عند رَبِّهِم يُرْزَقُونَ مِن ثَمَرَاتِ الجَنَّةِ.. (إِلَى آخِرِ الآيَةِ) يعني﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران :١٦٩-١٧١]. (انظر: بذل المجهود في حلّ سنن أبي داود، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)

ولا يَخْفَى أنّ في الحديث المَذكورِ بِشارَةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِأنّ رُوحَ الشَّهِيدِ تكون في الجَنَّةِ، تَسرَحُ أيضاً فيها، وتَأْكُلُ مِن ثِمارِها، وتَرَى ما فيها مِن النَّضْرَةِ والسُّرُورِ، وتُشاهِدُ ما أَعَدَّهُ الله لها مِن الكرامة.. (انظر: تفسير فخر الدين الرازي، الأية المَذكورة)

=

= وتفسير الآية: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمّدُ أو مُخاطِباً ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بل﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في دارِ كَرَامَتِه وقُرْبِ مَكانَتِه ﴿يُرْزَقُونَ﴾ مِن نَعِيمِ جَنَّتِه في أَجْوَافِ طُيُورٍ خُضْرٍ، حالَ كَوْنِهم ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو شَرَفُ الشَّهَادَةِ، والفَوْزُ بِالحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، والقُرْبُ مِن الله تعالى، والتَّمَتُّعُ بِنَعِيمِ الجَنَّةِ.. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ بِالمَوْتِ مِن إخوانِهم المؤمِنِين؛ باقِين ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي يَسْتَبْشِرُونَ بِمَا تَبَيَّنَ لهم مِن حُسْنِ حالِ إخوانِهم الذين تَرَكُوهم أحياءً، وهو أنّهم عند قَتْلِهم في سبيل الله تعالى يَفُوزُونَ كما فَازُوا ويَحُوزُونَ مِن النَّعِيم كما حَازُوا، يعني: يَسْتَبْشِرُونَ بِإخوانهم المُجاهِدِين الذين لم يَمُوتُوا في الجهاد بما سَيَكُونُونَ عليه بعد الموتِ إن اسْتُشهِدُوا، فهم لذلك فَرِحُونَ مُسْتَبْشِرُونَ ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي يَفْرَحُونَ بِأَنْ لا خَوْفٌ عليهم في الآخرة، ولا هم يَحْزَنُونَ على مُفَارَقَةِ الدنيا، لأنّهم في جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

قال الآلوسي رحمه الله: «لأنّ الخَوْفَ غَمٌّ يَلحَقُ الإنسانَ ممّا يَتوَقَّعُه مِن السُّوءِ، والحُزْنَ غَمٌّ يَلْحَقُه مِن فَوَاتِ نافِعٍ أو حُصُولِ ضَارٍّ. فمَنْ كان مُتَقَلِّباً في نعمةٍ مِن الله تعالى وفَضْلٍ منه سبحانه، فلا يَحزُنُ أبداً، ومَن جُعِلَتْ أعمالُه مَشكُورَةً غيرَ مُضَيَّعَةٍ فلا يَخافُ العاقِبَةَ».

وقال البُروسوي رحمه الله: «الخوفُ يكون بِسَبَبِ تَوَقُّعِ المَكْرُوهِ النَّازِلِ في المُسْتَقْبَلِ، والحزنُ يكون بسببِ فَوْتِ المَنافِعِ التي كانت مَوْجُودَةً في الماضِي، فبَيَّنَ الله أنّه لا خوفٌ عليهم ممّا سَيَأْتِيهم مِن أَهْوَالِ القيامة وأَحْوَالِها، ولا حزنٌ لهم مما فاتَهم مِن نِعَمِ الدنيا ولَذّاتِها».

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمةٍ لهم ولإخوانهم، أي ثوابِ عَمَلِهم ﴿مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ زيادةٍ عليه، كقوله: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كافّةً. أي لا يُضِيعُ مِن حَسَنَاتِهم وخَيْرَاتِهم شيئاً وإنْ قَلَّ وصَغُرَ.

قال النَّسَفِيّ رحمه الله: «وفي ذِكْرِ حالِ الشُّهَداءِ واسْتِبْشارِهم بِمَنْ خَلْفَهم بَعْثٌ لِلبَاقِينَ بَعْدَهم على الجِدِّ في الجهاد، والرَّغْبَةِ في نَيْلِ مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ».

ومثلُ الآيةِ قولُه تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة : ١٥٤].

ومعناها: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ﴾ أي في حَقِّه ﴿يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي في طاعَتِه وإعلاءِ كَلِمَتِه كَشُهَدَاءِ بَدْرٍ.. هم ﴿أَمْوَاتٌ﴾ فَوَّتُوا نَعِيمَهم ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ بِالرُّوحِ والجَسَدِ ﴿وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ بما هم فيه مِن الكرامة ونعيمِ الجَنَّةِ، أي لا تُدْرِكُونَ ذلك بِحَوَاسِّكم، لأنّ هذه الحياةَ لَيْسَتْ كَحياةِ الدنيا. فهم يَتَنَعَّمُونَ في البَرْزَخِ أيضاً، أي كالدنيا بل أَحْسَنَ، لكنّنا لا نُدْرِكُها ولا نَعلَمُ حَقِيقَتَها، لأنّها مِن أحوالِ البرزخِ التي لا يُطَّلَعُ عليها، ولا طريقَ لِلعِلْمِ بها إلّا بِالوَحْيِ. (تفسير أبدع البيان، وتفسير علي القاري، والآلوسي، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)

الحديث الخامس والعشرون

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ! كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! خَيْرَ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ سَلْ وَتَمَنَّ، فَيَقُولُ: أَسْأَلُكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ**[1] ». رواه النسائي (٣١٦٠).

---

(١) في هذا الحديثِ إعلانٌ مِن الله سُبحانه وتعالى لِفضل الشَّهَادَةِ في سبيله عن طريقِ الحِوارِ مع رَجُلٍ مِن أهلِ الجَنّةِ، ولم يُوصَفْ في الحديث بأنّ هذا الرَّجُلَ مِن زُمْرَةِ الشُّهَداءِ، فَمِن المُحتَمَلِ أَنْ يكون منهم، فيكون سُؤَالُه اللهَ تعالى أن يَرُدَّه إلى الدنيا سُؤَالَ مَن ذَاقَ كَرَامَةَ الشَّهادةِ، فلذلك يَطلُبُها أن تَتَكَرَّرَ له عَشْرَ مَرّاتٍ ـ ولَرُبَّمَا كان العَدَدُ هنا غيرَ مُرَادٍ، بل لِلكَثْرَةِ ـ، ومِن المُحتَمَلِ أن يكون الرَّجُلُ ليس منهم، إنّما سَأَلَ ذلك لِمَا رَآهُ مِن إكرامِ اللهِ تعالى للشُّهَدَاءِ، فأَحَبَّ أن يُرَدّ إلى الدنيا لِيُقاتِلَ في سبيلِ اللهِ فيُقتَلَ، ثم يُرَدَّ ثانِيَةً وثالِثَةً، وهكذا، لِيَتَكَرَّرَ له تَذَوُّقُ فضلِ الشَّهِيدِ. ومع أنّ مَنْزِلَتَه التي هو فيها الآنَ في خيرٍ عظيمٍ، وقد شَكَرَ رَبَّه عليها، وقال له: إنّها يا ربِّ خَيْرُ مَنْزِلٍ، لكنّه ظَنَّ أنّ له مَجَالاً لِلرُّجُوعِ إلى الدنيا التي بها يكون التَزَوُّدُ لِلدَّرَجَاتِ العَالِيَةِ في الجَنَّةِ، فرَغِبَ إلى الله تعالى أن يَرُدَّه إلى الدنيا لِيَفُوزَ فيها بالشهادةِ مَرّةً تِلْوَ مَرّةٍ، وليس ذلك إلّا لِمَا يُريدُ الله تعالى لِأهلِ الجَنَّةِ مِن فضلِ الشَّهادةِ والشُّهَدَاءِ.

وفي حديث البخاري: (٢٧٩٧) وغيره: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ** »، قال صلى الله عليه وسلم هذا لِبَيانِ فَضْلِ الجِهادِ في سبيل الله وتَحْرِيضِ المسلِمِين عليه.

ولَئِنْ كانت هذه الرَّغْبَةُ مِن غيرِ الشهيدِ -بناءً على الاحتِمالِ الثاني- فإنها مِن الشَّهيدِ مُتَوَقَّعَةٌ مِن باب أَوْلى. لكنْ يُضعِفُ الاحتمالَ الثاني حديثُ البخاري (٢٨١٧): « **مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ** ». فهذا الحَصْرُ الذي في قوله «مَا أَحَدٌ... إِلَّا الشَّهِيدُ» يَدُلُّ على أنّ الشَّهِيدَ هو الذي يَرَى الكرامةَ، وأنّ غيرَه لا يُحِبُّ الرُّجُوعَ إلى الدنيا. والله أعلم.

قال السِّندي رحمه الله في حاشيته على النسائي: «قوله: (يؤتى بالرَّجُلِ) أي الشَّهيدِ أو غيرِه فإنه يَتمنّى الرُّجُوعَ إذا رَأَى فَضْلَ الشَّهِيدِ، لكنّ المُوافِقَ للحديثِ المُتَقَدِّم هو الأوّلُ (يعني حديثَ: مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ وَلَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ تُحِبُّ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكُمْ وَلَهَا الدُّنْيَا إِلَّا الْقَتِيلُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى)، ويُمكِنُ التَّوْفِيقُ بِحَمْلِ الحديثِ السَّابِقِ على أَيَّامِ البَرْزَخِ، وهذا على ما بعد دُخُولِ الجَنَّةِ يومَ القيامة، وهو مَبْنِيٌّ على إمكانِ غُفُولِ بعضِ النَّاسِ عن فَنَاءِ الدنيا (أن تردني إلى الدنيا) أي عَشْرَ مَرَّاتٍ أو مَرَّةً، وعلى الثاني فمَعنى فأُقْتَلَ في سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ أن يُقتَلَ ثم يَحْيَا مِن سَاعَتِه في مَكانِه. واللهُ تعالى أعلم».

وفي مسند الإمام أحمد (١٣١٦٢) عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ! كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! خَيْرَ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ، فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَأَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا، فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**[1]**، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ! كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! شَرَّ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ لَهُ: أَتَفْتَدِي مِنْهُ بِطِلَاعِ الْأَرْضِ**[2] **ذَهَباً؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! نَعَمْ، فَيَقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ، فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ** ».

---

(١) المراد بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ: الكافرُ.

(٢) (بطِلَاعِ الأرض) أي: بِمِلْئِها.

الحديث السادس والعشرون

عن أَنَسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه عنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « **مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ**[١] **يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلاَّ الشَّهِيدَ**[٢] **لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى** ». رواه البخاري (٢٧٩٥).

وأيضاً في رواية أُخرى عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: « **مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ**[٣] **مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى**[٤] **أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ**[٥] **لِمَا يَرَى مِنْ الْكَرَامَةِ**[٦] ». رواه البخاري (٢٨١٧).

---

(١) أي ثَوَابٌ.

(٢) مُستثنى مِن قولِه: (يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ)

(٣) أي والحال أنّ له ما على الأرضِ مِن شيءٍ...

(٤) أي بعد دُخُولِه الجَنَّةَ.

(٥) أي في سبيلِ الله.

(٦) أي لِأَجْلِ ما يَرَاهُ مِن الكَرَامَةِ لِلشُّهَدَاءِ.

قال ابنُ بَطّال رحمه الله في شرحه على البخاري: «هذا الحديثُ أَجَلُّ ما جاءَ في فضلِ الشَّهَادَةِ والحَضِّ عليها والتَّرْغِيبِ فيها، وإنّما يَتَمَنَّى أَنْ يُقتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ ـوالله أعلمـ لِعِلْمِه بِأَنّ ذلك مِمّا يُرضِي الله ويُقرِّبُ منه؛ لأنّ مَن بَذَلَ نَفْسَه ودَمَه في إعزازِ دِينِ اللهِ ونُصْرَةِ دِينِه ونَبِيِّه، فلم تَبْقَ غايَةٌ وَرَاءَ ذلك، وليس في أعمالِ البِرِّ ما تُبْذَلُ فيه النَّفْسُ غيرَ الجهادِ، فلذلك عَظُمَ الثَّوَابُ عليه، والله أعلم».

الحديث السابع و العشرون

عن أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قال: « **جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: الرَّجُلُ[1] يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ[2]، وَالرَّجُلُ[3] يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ[4]، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ[5]، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ[6]** ». رواه البخاري (٢٨١٠).

---

(١) أي جنسُ الرَّجُلِ بِمعنى الشَّخْصِ.

(٢) أي لِأَجْلِ الغَنِيمَةِ. وفي مسند الإمام أحمد (٧٩٠٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ فقال: يَا رَسُولَ اللهِ! الرَّجُلُ يُرِيدُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضَ الدُّنْيَا (أي: مَتَاعَ الدُّنْيا)؟ فأَجَابَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لا أَجْرَ لَهُ». حتى عَادَ السُّؤَالَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فقال صلى الله عليه وسلم في كُلِّ مَرَّةٍ: «لا أَجْرَ لَهُ».

وفيه أيضاً (٢٢٦٩٢) أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَهُوَ لَا يَنْوِي فِي غَزَاتِهِ إِلَّا عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى». قال السِّندي رحمه الله في حاشيته على المُسند: «فله ما نوى» أي: بَطَلَ أَجْرُهُ. (العِقال: هو الحَبْلُ الذي تُشَدُّ به يَدُ البَعِيرِ مع ذراعِه حتى لا يَشْرُدَ.)

(٣) أي الآخَرُ.

(٤) أي لِيُذكَرَ بين النَّاسِ ويَشْتَهِرَ بالشَّجَاعَةِ والذِّكْرِ والشَّرَفِ والفَخْرِ.. وهذا سُمْعَةٌ.

(٥) أي لِأَجْلِ أَنْ يَرَى النَّاسُ مَنْزِلَته ومَرْتَبَته في الشَّجَاعَةِ، وهو الرِّياءُ.

ذُكر في «إحياءُ عُلُومِ الدِّين» : أنّ رجلاً قال لِعُبَادَة بنِ الصَّامِتِ: أُقاتِلُ بِسَيْفِي في سبيل اللهِ، أُرِيدُ به وَجْهَ اللهِ تعالى ومَحْمَدَةَ النَّاسِ؟ قال: لا شيءَ لك. فسَأَلَه ثلاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذلك يقول: لا شيءَ لك، ثُمّ قال في الثالثة: إنّ اللهَ يقول: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ).. (صحيح مسلم:٢٩٨٥)

وقال الإمام النووي رحمه الله: معناه: أَنَا غَنِيٌّ عن المُشارَكَةِ وغيرِها، فمَنْ عَمِلَ شيئاً لِي ولِغيرِي لم أَقْبَلْه، بل أَتْرُكْه لِذلك الغيرِ، والمرادُ أنّ عَمَلَ المُرَائِي باطِلٌ لا ثَوَابَ فيه، ويَأْثَمُ به.

(٦) قال الإمام القسطلاني رحمه الله: «قوله: (مَن قاتَل لتكون) أي لِأَنْ تكونَ (كلمة الله) أي دَعْوَتُه إلى الإسلام أو كلمةُ التوحيدِ (هي) ضميرُ فَصْلٍ أَتَى به لِإفادةِ الحَصْرِ (العليا فهو) المقاتل (في سبيل الله) عزّ وجلّ، لا طالِبُ الغَنِيمَةِ والشُّهْرَةِ ولا مُظهِرُ الشَّجاعَةِ ولا لِلحَمِيَّةِ ولا لِلغَضَبِ، فلو أَضافَ إلى الأوّلِ غيرَه أَخَلَّ بذلك. نَعَمْ لو حَصَلَ ضِمْناً لا أَصْلاً ومَقْصُوداً لا يُخِلُّ».

وقال في مَكانٍ آخَرَ: (فهو في سبيل الله عزّ وجلّ) ويَدخُلُ فيه مَن قاتَلَ لِطَلَبِ الثَّوَابِ ورِضَاءِ اللهِ، فإنه مِن إعلاءِ كلمة اللهِ. (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، رقم الحديث: ١٢٣، ٢٨١٠)

وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «قوله: (مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) المرادُ بكلمةِ اللهِ دَعْوَةُ اللهِ إلى الإسلام، ويَحتمِلُ أن يكون المرادُ أنه لا يكون في سبيل اللهِ إلّا مَن كان سَبَبُ قِتالِه طَلَبَ إعلاءِ=

=كلمةِ اللهِ فقط؛ بمعنى أنّه لو أَضافَ إلى ذلك سَبَباً مِن الأسباب المَذكورةِ أَخَلَّ بذلك، ويَحتَمِل أن لا يُخِلَّ إذا حَصَلَ ضِمْناً لا أَصْلاً ومَقْصُوداً، وبذلك صَرَّحَ الطَّبَرِيُّ فقال: إذا كان أصلُ الباعِثِ هو الأَوَّلُ -أي إعلاءُ كلمةِ الله- لا يَضُرُّه ما عَرَضَ له بعد ذلك (مِن حُبِّ الظّهورِ والمَغْنَم..)، وبذلك قال الجمهورُ، لكن رَوَى أبو داود والنسائي مِن حديثِ أبي أُمَامَةَ بإسنادٍ جَيِّد قال: «جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ رَجُلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟ قال: لا شَيْءَ له، فَأَعَادَهَا ثَلَاثاً كُلّ ذلك يقول: لا شيء له، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كان له خَالِصاً وَابْتُغِيَ به وَجْهُهُ». ويُمكِنُ أن يُحْمَلَ هذا على مَن قَصَدَ الأَمْرَيْنِ مَعاً على حَدٍّ واحِدٍ، فلا يُخَالِفُ المُرَجَّحَ أَوّلاً، فتَصِيرُ المَرَاتِبُ خَمْساً: أن يَقصِدَ الشَّيْئَيْنِ مَعاً أو يَقصِدَ أَحَدَهما صِرْفاً أو يَقْصِدَ أَحَدَهما ويَحصُلَ الآخَرُ ضِمْناً، فالمَحْذُورُ أنْ يَقصِدَ غيرَ الإعلاءِ، فقد يَحصُلُ الإعلاءُ ضِمْناً، وقد لا يَحصُلُ ويَدخُلُ تَحْتَه مَرتَبَتانِ، وهذا ما دَلَّ عليه حديثُ أبي موسى، ودُونَه أن يَقصِدَهما مَعاً فهو مَحذورٌ أيضاً على ما دَلَّ عليه حديث أبي أمامة، والمَطْلُوبُ أن يَقصِدَ الإعلاءَ صِرْفاً، وقد يَحصُلُ غيرُ الإعلاءِ وقد لا يَحصُلُ، ففيه مَرْتَبَتانِ أيضاً، قال ابنُ أَبِي جَمْرَةَ: ذَهَبَ المُحقِّقون إلى أنه إذا كان الباعِثُ الأَوّلُ قَصْدَ إعلاءِ كلمةِ الله لم يَضُرَّهُ ما انْضافَ إليه اهـ. ويَدُلُّ على أنّ دُخُولَ غيرِ الإعلاءِ ضِمْناً لا يَقدَحُ في الإعلاءِ إذا كان الإعلاءُ هو الباعِثُ الأَصْلِيُّ ما رواه أبو داود بإسنادٍ حَسَنٍ عن عبدِ الله بنِ حَوَالَةَ قال: «بَعَثَنا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على أَقْدَامِنا لِنَغْنَمَ، فرَجَعْنا ولم نَغْنَمْ شيئاً، فقال اللهم لا تَكِلْهُم إِلَيَّ» الحديثَ.

وفي إجابةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بما ذَكَرَ غايةُ البَلاغَةِ والإيجازِ، وهو مِن جَوَامِعِ كَلِمِه صلى الله عليه وسلم، لأنه لو أَجَابَه بأنّ جَمِيعَ ما ذَكَرَه ليس في سَبِيلِ الله احْتَمَلَ أَنْ يَكون ما عَدَا ذلك كُلّه في سبيل الله وليس كذلك، فعَدَلَ إلى لَفْظٍ جامِعٍ عَدَلَ به عن الجوابِ عن مَاهِيَةِ القِتالِ إلى حال المقاتل فتَضمَّنَ الجَوَابَ وزيادةً،

ويَحتَمِلُ أن يكون الضَّمِيرُ في قوله: «فهو» راجعاً إلى القتالِ الذي في ضِمْنِ قَاتَلَ، أي فقِتَالُه قِتالٌ في سبيل الله. واشْتَمَلَ طَلَبُ إعلاءِ كلمة الله على طَلَبِ رِضاه وطَلَبِ ثَوَابِه وطَلَبِ دَحْضِ أَعْدَائِه، وكُلُّها مُتلازِمَةٌ. والحاصِلُ ممّا ذُكِرَ أنّ القِتالَ مَنْشَؤُهُ القُوّةُ العَقْلِيّةُ والقوةُ الغَضَبِيَّةُ والقوةُ الشَّهْوَانِيَّةُ، ولا يكون في سبيل الله إلّا الأَوَّلُ.

وقال ابنُ بَطّال: إنما عدل النبي صلى الله عليه وسلم عن لفظِ جوابِ السَّائِلِ؛ لأنّ الغَضَبَ والحَمِيَّةَ قد يَكُونانِ لله [والحديثُ الذي وَرَدَ فيه السُّؤَالُ عَمَّنْ يُقاتِلُ غَضَباً وحَمِيَّةً سَيَأتِي بعد صَفْحَةٍ]، فعَدَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك إلى لَفْظٍ جامِعٍ فأَفَادَ دَفْعَ الإلباسِ وزيادةَ الإفهامِ (يعني لو كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَسَّمَ له في جَوَابِه وُجُوهَ الغَضَبِ والحَمِيَّةِ لَطَالَ ذلك، ورُبَّمَا الْتَبَسَ على السَّائِلِ جَوَابُه صلى الله عليه وسلم، لأنّ مِن المُحتَمَلِ أَنْ يُفسَّرَ القِتالُ للحمية بِدَفْعِ المَضَرَّةِ، والقِتالُ غَضَباً بِجَلْبِ المَنْفَعَةِ..).

وفيه بيانُ أنّ الأعمالَ إنّما تُحْتَسَبُ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحةِ، وأنّ الفَضْلَ الذي وَرَدَ في المجاهِدِ يَخْتَصُّ بِمَنْ ذُكِرَ.. وفيه جَوَازُ السُّؤَالِ عن العِلَّةِ وتَقَدُّمِ العلمِ على العَمَلِ، وفيه ذَمُّ الحِرْصِ على الدنيا وعلى القِتالِ لِحَظِّ النَّفْسِ في غيرِ الطَّاعَةِ». (فتح الباري)

الحديث الثامن والعشرون

عن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قال: « **سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً[١]، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً[٢] وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ[٣]** »».

وفي رواية أُخرى عنه: « **أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ غَضَباً[٤]، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً. قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ -وَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِماً- فَقَالَ: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله** ». رواه مسلم (١٩٠٤).

---

(١) أَيْ لِيَذْكُرَهُ النَّاسُ وَيَصِفُوهُ بالشَّجَاعَةِ. قال السِّندي رحمه الله في حاشيته على مسند الإمام أحمد (١٩٥٤٣) : قوله (شجاعة) أي إنّ مَلَكة الشّجاعة تَحمِله على القتال مِن غيرِ أَنْ يَنوِيَ به أمراً، أو أنه يُقاتِلُ إظهاراً لِلشَّجاعَةِ بين النّاس، لكن على هذا يَرجِعُ إلى الرِّياءِ.

(٢) الحَمِيَّةُ: هي الأَنَفَةُ والغَيْرَةُ والمُحَامَاةُ عن عَشِيرَتِه، أي يُقَاتِلُ مُرَاعَاةً لِعَشِيرَتِه والقِيَامِ لِأَجْلِهم. قال في فَتْحِ المُلْهِم بشرح صحيح الإمام مسلم: «حميةً أي: تعصُّباً لِأَهْلِه وعَشِيرَتِه أو قَوْمِه». وقال السِّندي: (حَمِيَّة) أي: استِنْكافاً مِن أَنْ يُقالَ له: جَبَانٌ ونَحْوُه، أو استنكافاً مِن أنْ يكونَ قَوْمُه مَغْلُوبِينَ.

(٣) قال الإمام النووي رحمه الله: «فيه بيانُ أنّ الأَعْمَالَ إنّما تُحْسَبُ بِالنِّيَّاتِ الصَّالِحَةِ، وأنّ الفَضْلَ الذي وَرَدَ في المُجاهِدِين في سبيلِ اللهِ يَخْتَصُّ بِمَنْ قاتَلَ لِتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيَا».

وقال السِّندي رحمه الله: قوله: (فهو في سبيل الله) أي: مقاتل فيها، أي: لا بُدّ في كون القتال في سبيل اللهِ مِن حُسْنِ النِّيَّةِ. (حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم الحديث: ١٩٤٩٣)

(٤) أي: لِأَجْلِ حَظِّ نفسِه. وقوله: (شَجَاعَةً، حَمِيَّةً، رِيَاءً، غَضَباً) نُصِبَتْ على أَنَّها مَفعُولٌ له لِيُقاتِل.

الحديث التاسع والعشرون

عن أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رضي الله عنه قال: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لا شَيْءَ لَهُ»[1]، فَأَعَادَهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لا شَيْءَ لَهُ»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصاً وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ[2]». رواه النسائي (٣١٤٠).

---

(١) أي لا أَجْرَ له.

(٢) قال الشيخ السيد أحمد الرِّفاعي رحمه الله في بِدايةِ كِتابه البُرهان المُؤَيَّد: «فمِن هذا الحديثِ ومِثْلِه عَلِمْنَا أنّ نَتائِجَ العَمَلِ تَحْسُنُ وتَقْبُحُ بالنِّيّةِ، فعَامِلُوا اللهَ بحُسْنِ النِّيّاتِ، واتَّقُوهُ في الحَركاتِ والسَكناتِ».

فالنِّيَّةُ رَأْسُ الأَمْرِ وعَمُودُه، وأَساسُه وأَصْلُه الذي يُبْنَى عليه، فإنّها رُوحُ العَمَلِ، وقائدُه وسائِقُه، والعَمَلُ تابعٌ لها يُبْنَى عليها، يَصِحُّ بِصِحَّتِها، ويَفْسُدُ بفَسَادِها، وبها يُسْتَجْلَبُ التَّوْفِيقُ، وبِعَدَمِها يَحْصُلُ الخِذْلانُ، وبِحَسَبِها تَتَفاوَتُ الدَّرَجاتُ في الدنيا وفي الآخرةِ، كما قيل: رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُكَبِّرُهُ النِّيّةُ، ورُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُه النِّيَّةُ.

قال عبدُ الله بنُ أحمدَ بنِ حنبل رحمهما الله: «قلتُ لِأَبِي يوماً: أَوْصِنِي يَا أَبَهْ، فقال: يا بُنَيَّ اِنْوِ الخَيْرَ، فإنّكَ لا تَزَالُ بِخَيْرٍ ما نَوَيْتَ الخَيْرَ».

وقال يوسف بن أَسْبَاط رحمه الله: «تخليصُ النِّيّةِ مِن فَسادِها أَشَدُّ على العامِلِين مِن طُولِ الاجتهادِ». ولذا قال سُفْيَان الثَّوْرِيّ رحمه الله: «ما عالَجْتُ شيئاً أَشَدَّ عَلَيَّ مِن نِيَّتِي! لأنّها تَنْقَلِبُ عَلَيَّ».

ذَكَر الشَّيْخُ أبو طالِبِ المَكِّيّ رحمه الله في قُوتِ القُلوبِ (ص:١٣٥٠-١٣٥٣) قِصّةً مُهِمَّةً فقال: «وقد حَدَّثُونَا في الإسْرَائِلِيّاتِ: أنّ عابداً عَبَدَ اللهَ تعالى دَهْراً طَوِيلاً، فجاءَهُ قومٌ فقالوا: إنّ هاهُنا قوماً يَعبُدُون شَجَرَةً مِن دونِ اللهِ تعالى، فغَضِبَ لِذلك، فأَخَذَ فَأْسَه على عاتِقِه وقَصَدَ الشَّجَرَةَ لِيَقْطَعَها، فاسْتَقْبَلَه إبْليسُ في صُورَةِ شَيْخٍ فقال: أَيْنَ تُرِيدُ رَحِمَكَ اللهُ؟ قال: أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ هذه الشَّجَرَةَ التي تُعْبَدُ مِن دون اللهِ. قال: وما أنت وذاك؟ تَرَكْتَ عِبادَتَك والاشتِغالَ بِنَفْسِكَ وتَفَرَّغْتَ لِغيرِ ذلك؟ فقال: إنّ هذا مِن عِبادَتِي. فقال له: إنِّي لا أَتْرُكُكَ تَقْطَعُها. قال: فقَاتَلَه فأَخَذَه العابدُ فطَرَحَه إلى الأرضِ وقَعَدَ على صَدْرِهِ، فقال له إبليسُ: أَطْلِقْنِي حتّى أُكَلِّمَكَ، فقام عنه، فقال له إبليسُ: يا هذا إنّ اللهَ تعالى قد أَسْقَطَ عنك هذا ولم يَفْرِضْهُ عليك. أَنَبِيٌّ أنت؟ قال: لا. قال: فلا عليك مِمَّنْ كان يَعْبُدُها، فلو اشْتَغَلْتَ بِعِبادَتِك وتَرَكْتَها، فإنّ لله تعالى في أَرْضِه أنبياءَ لو شَاءَ لَبَعَثَهم إلى أَهْلِها و أَمَرَهم بِقَطْعِها. فقال العابِدُ: لا بُدَّ لي مِن قَطْعِها. قال: فنَابَذَهُ إبليسُ القِتالَ فغَلَبَه العابدُ فأَخَذَه وصَرَعَه وقَعَدَ على صَدْرِه.

فلمّا رَأَى إبليسُ أنّه لا طَاقَةَ له به ولا سُلطانَ له عليه قال: يا هذا هل لك في أَمْرٍ فَصْلٍ بيني وبينك وهو خَيْرٌ لك،=

=وأَنْفَعُ مِن هذا الأَمْرِ الذي جِئْتَ تَطْلُبُه؟ قال: وما هو؟ قال: قُمْ عَنِّي حتى أُخْبِرَكَ به، فأَطْلَقَه العابِدُ، فقال له إبليسُ: أنت رَجُلٌ فَقِيرٌ لا شيءَ لك، إنّما أنت كَلٌّ على النّاسِ يَعُولُونَك، ولَعَلَّكَ تُحِبُّ أَنْ تَفَضَّلَ على إِخْوَانِك، وتُوَاسِي جِيرانَك، وتَتَّسِعَ في حالك، وتَسْتَغْنِيَ عن النَّاسِ. قال: نَعَمْ. قال: فارْجِعْ عن هذا الأمرِ الذي جِئْتَ فيه وَلَكَ عَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَ عند رَأْسِك في كُلِّ لَيْلَةٍ دِينارَيْنِ، إذا أَصْبَحْتَ أَخَذْتَهُما فصَنَعْتَ بهما ما شِئْتَ، وأَنْفَقْتَ على نَفْسِك وعِيالِك وتَصَدَّقْتَ على إخوانِك، فيكون لك أَفْضَلَ مِن ذلك وأَنْفَعَ للمسلمين مِن قَطْعِ هذه الشَّجَرَةِ، التي يُغرَسُ مَكَانَها ولا يَضُرُّهم قَطْعُها شيئاً، ولا يَنْفَعُ إِخْوَانَك المؤمِنِين قَطْعُك لَها.

قال: فتَفَكَّرَ العابدُ فيما قال له، وقال: صَدَقَ الشَّيْخُ، لَسْتُ بِنَبِيٍّ فيَلزَمَنِي قَطْعُ هذه الشَّجَرَةِ، ولا أَمَرَنِي اللهُ تعالى أن أَقْطَعَها فأَكُونَ قد عَصَيْتُ بِتَرْكِها، وإنّما هو شيءٌ تَفَضَّلْتُ به، وماذا يَضُرُّ المُوَحِّدِين مِن بَقائِها، وهذا الذي ذَكَرَه أكثرُ مَنْفَعَةً لِعُمُومِ النَّاسِ.

قال: فعَاهَدَهُ على الوَفاءِ بذلك، وحَلَفَ له، فرَجَعَ العابدُ إلى مُتَعَبَّدِهِ فباتَ لَيْلَتَه فأَصْبَحَ فإذا دِينَارَانِ عند رَأْسِه فأَخَذَهما، ثُمَّ كذلك الغَدُ، ثُمّ أَصْبَحَ اليومَ الثالثَ فلم يَرَ شيئاً، ثم أَصْبَحَ بعد ذلك فلم يَجِدْ، فغَضِبَ، وأَخَذَ فَأْسَه على عاتِقِه، فخَرَجَ يَؤُمُّ الشَّجَرَةَ لِيَقْطَعَها، وقال: إنْ فَاتَنِي أَمْرُ الدنيا لا أَتْرُكَنَّ أَمْرَ الآخرةِ.

قال: فاسْتَقْبَلَه إبليسُ بصورةِ شيخٍ فقال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قال: أَقْطَعُ تلك الشَّجَرَةَ. قال: كَذَبْتَ، واللهِ ما أنت بِقادِرٍ على ذلك، ولا سَبِيلَ لك إليها. قال: فتَنَاوَلَه العابدُ لِيَأْخُذَه كما فَعَلَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فقال: هَيْهَات. قال: فأَخَذَه إبليسُ فصَرَعَه فإذا هو كَالعُصْفُورِ بين يَدَيْه. قال: وقَعَدَ إبليسُ على صَدْرِه وقال: لَتَنْتَهِيَنَّ عن هذا الأمرِ أو لَأَذْبَحَنَّكَ. فنَظَرَ العابدُ فإذا لا طاقَةَ له به. قال: يا هذا قد غَلَبْتَنِي فخَلِّ عَنِّي، وأَخْبِرْنِي عنك كيف قد غَلَبْتُك أَوَّلَ مَرَّةٍ فَصَرَعْتُك، والآنَ غَلَبْتَنِي فَصَرَعْتَنِي؟ فكيف ذلك؟ قال له إبليسُ: لِأَنّك أوَّلَ مَرَّةٍ غَضِبْتَ لله تعالى، وكانت نِيَّتُك الآخرةَ، فسَخَّرَنِي اللهُ لك فغَلَبْتَنِي، وهذه المَرَّةُ جِئْتَ مُغاضِباً لِنَفْسِك، وكانت نِيَّتُك الدنيا، فسَلَّطَنِي اللهُ تعالى عليك فصَرَعْتُك».اهـ

تنبيه: الإسْرَائِيلِيَّاتُ إنْ وَافَقَتْ شَرْعَنَا أَخَذْنَا بها، وإن خَالَفَتْ رَدَدْنَاها، وإن لم تُوَافِقْ ولم تُخالِفْ كُنَّا بالخِيارِ.. وهذه القِصَّةُ قد لا تكون حقيقةً واقعةً، ولكنّها رَمْزِيَّةٌ تُوَضِّحُ المَقْصُودَ بِشَكْلٍ بَيِّنٍ، وهو أَهَمِّيَّةُ النِّيَّةِ في أَعْمَالِنا.. كما قال شَيْخُنَا الشَّيْخُ محمود أفندي (حفظه الله): «ينبغي للإنسانِ أن يكون هَمُّه الوَحِيدُ أن يَنالَ رِضا اللهِ عزّ وجلّ، وعندئذٍ يُوَفَّقُ الإنسانُ». فنسأل اللهَ تعالى الإخلاصَ في أعمالنا، ونَسأله أَنْ يَرْضَى عَنَّا ويُبَلِّغَنا مَنْزِلَةَ الرَّاضِينَ عنه.

قال عبدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ رحمه الله: ما جاءَ فَسَادُ هذه الأُمَّةِ إلّا مِن قِبَلِ الخَوَاصِّ، وهم خَمسة: العُلَماءُ، والغُزَاةُ، والزُّهَّادُ، والتُّجّارُ، والوُلَاةُ. أمّا العُلَماءُ فهم وَرَثَةُ الأنبياءِ، وأمّا الزُّهَّادُ فعِمادُ أهلِ الأرضِ، وأمّا الغُزاةُ فجُنْدُ اللهِ في الأرضِ، وأمّا التُّجّارُ فأُمَناءُ اللهِ في أرضه، وأمّا الوُلاةُ فهم الرُّعاةُ. فإذا كان العالِمُ لِلدِّينِ وَاضِعاً ولِلمالِ رافِعاً فبِمَنْ يَقتَدِي الجاهلُ، وإذا كان الزاهِدُ في الدّنيا راغِباً فبِمَنْ يَقتَدِي التَّائِبُ، وإذا كان الغَازِي طامِعاً مُرائِياً فكيف يَظفَرُ بِالعَدُوِّ، وإذا كان التَّاجِرُ خائِناً فكيف تَحصُل الأَمَانَةُ، وإذا كان الرَّاعِي ذِئباً فكيف تَحصُل الرِّعَايَةُ؟؟!!
(ذكره فخر الدين الرازي رحمه الله في تفسيره، ج:٢، ص: ٤٠٣).

الحديث الثلاثون

عن سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قال: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[١]، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ[٢]: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنَا حَدِيثاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ[٣] رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ كَذَبْتَ[٤]، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ[٥]. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ[٦]. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِىءٌ، فَقَدْ قِيلَ.

---

(١) و المرادُ مِن تَفرُّقِ النّاسِ أنّهم كانوا مُجْتَمِعِين حَوْلَ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) هو نَاتِلُ بنُ قَيْس الجُذَامِيُّ الشَّامِيُّ الفِلَسْطِينِيُّ تَابِعِيٌّ. (انظر: تهذيب التهذيب للعَسقلاني، وتهذيب الكمال للمِزّيّ) قال المَازَرِيُّ رحمه الله: «النَّاتِلُ: المُتَقَدِّمُ.. ونَتَلَ الرَّجُلُ، أي تَقَدَّمَ، ومنه سُمِّيَ الرَّجُلُ نَاتِلاً». (فَتْح المُلهِم)

وقال الإمام النووي رحمه الله: «وفي الرواية الأخرى: فقال له نَاتِلٌ الشَّامِيُّ، وهو ناتِلُ بنُ قَيْسٍ الجُذَامِيُّ الشَّامِيُّ مِن أهلِ فِلِسْطِين، وهو تابِعِيٌّ، وكان أَبُوه صَحَابِيّاً، وكان ناتِلٌ كَبِيرَ قَوْمِهِ».

(٣) قال القرطبي: ليس بِمُعارِضٍ لِحَدِيثِ: (أَوَّلُ ما يُحاسَبُ به العبدُ المُسلِمُ مِن عَمَلِه الصَّلاةُ) ولا لِحدِيثِ (أوّلُ ما يُقْضَى فيه الدِّماءُ) لِاخْتِلافِ أَنْوَاعِ ما أُسْنِدَتْ الأَوَّلِيَّةُ إليه.

فالمعنى في هذا: أَوَّلُ ما يُحاسَبُ به فاعِلُه مِن نوعِ ما انْتَشَرَ به صِيتُ فاعِلِه هذه الثّلاثَةُ، والمعنى في الثاني: أوّلُ ما يُحاسَبُ به مِن نوعِ أركانِ الدِّينِ الصّلاةُ، والمعنى في الثالث: أوّلُ ما يحاسَب به مِن نوع المَظالِمِ الدِّمَاءُ. وإنّما تُتَوَهَّمُ المُعَارَضَةُ لو كانت الأَوَّلِيَّةُ في الجميعِ مُسْنَدَةً إلى نوعٍ واحِدٍ. (فتح الملهم)

(٤) يعني في قولك: إنّك ابْتَغَيْتَ في ذلك مَرْضَاةَ اللهِ، واسْتَشْكَله الأُبِّيُّ بِأَنّ الكَذِبَ مَعْصِيةٌ، ولا معصيةَ في الآخرةِ، ثُمّ نَقَلَ جواباً عن شَيْخِه: أنّ الكَذِبَ يَقَعُ تَارَةً عَمْداً، وتَارَةً هَوْلاً، ودَهَشاً، وهذا دَهَشٌ. والله أعلم. (فتح الملهم)

(٥) قال السِّندي في حاشية النسائي: «هذا مَبْنِيٌّ على أنّ العادَةَ حُصُولُ هذا القولِ، وإلّا فَحَبْطُ العَمَلِ لا يَتَوَقَّفُ على هذا القولِ، بل يَكْفِي فيه أنّه نَوَى الرِّيَاءَ».

(٦) فيه وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يَفعَلُ الحَسَنَاتِ، ويَبْتَغِي بها وَجْهَ غيرِ اللهِ تعالى، أَعَاذَنَا اللهُ تعالى منه. قيل: الإخلاصُ لله عزّ وجلّ: أن تَعملَ العَمَلَ لله تعالى، ولا تُحبُّ أَنْ يَحْمَدَكَ عليه أحدٌ مِن النَّاسِ.

ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ[1]». رواه مسلم (١٩٠٥).

---

(١) قوله صلى الله عليه وسلم في الغازي والعالِم والجَوَادِ وعِقَابِهم على فِعْلِهم ذلك لِغيرِ الله وإدْخَالِهم النّارَ دَلِيلٌ على تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الرِّياءِ وشِدَّةِ عُقُوبَتِه، وعلى الحَثِّ على وُجُوبِ الإخلاصِ في الأعمالِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وفيه: أنّ العُمُومَاتِ الوارِدَةَ في فَضْلِ الجِهادِ إنّما هي لِمَنْ أَرَادَ اللهَ تعالى بذلك مُخلِصاً، وكذلك الثَّنَاءُ على العلماءِ وعلى المُنفِقِين في وُجُوهِ الخَيْرَاتِ.. كُلُّه مَحْمُولٌ على مَن فَعَلَ ذلك لله تعالى مُخلِصاً. (شرح النووي على صحيح مسلم)

قال ابنُ المُبارَكِ رحمه الله: رُبَّ عَمَلٍ صَغِيرٍ تُعظِّمُه النِّيَّةُ، ورُبَّ عَمَلٍ كَبِيرٍ تُصَغِّرُهُ النِّيَّةُ. ولِذَا مَشَايِخُنَا (جَزَاهُمُ الله عَنَّا خَيْرَ الجَزَاءِ) يُنَبِّهُونَنَا دائماً إلى ضَرُورَةِ جَعْلِ النِّيَّةِ خالِصَةً لِوَجْهِ الله سُبحانه وتعالى في كُلِّ عَمَلٍ مِن الأعمالِ التي نَقُومُ بها، لكي تكونَ نَتِيجَتُها حَسَنَةً.

قال الشيخ أبو طالب المَكِّيُّ رحمه الله: «حقيقةُ الإخلاصِ: سَلامَتُه مِن وَصْفَيْنِ؛ وهما الرِّياءُ والهَوَى؛ ليكون خالِصاً كما وَصَفَ الله تعالى الخالِصَ مِن اللَّبَنِ، فكان بذلك تَمَامُ النِّعْمَةِ علينا، وقال تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ (النحل: ٦٦)، فلو وُجِدَ فيه أَحَدُ الوَصْفَيْنِ مِن فَرْثٍ أو دَمٍ لم يكن خالِصاً، ولم تَتِمَّ النِّعْمَةُ به علينا، ولم تَقْبَلْه نُفُوسُنَا. فكذلك مُعَامَلَتُنَا لله عزّ وجلّ إذا شابَها رِياءٌ بِخلق، أو هَوًى مِن شَهْوَةِ نَفْسٍ، ولم تكن خالِصةً، لم يَتِمَّ بها الصِّدْقُ والأَدَبُ في المُعامَلَةِ، ولم يَقْبَلْها الله تعالى مِنّا، فاعْتَبِرُوا». (قُوتُ القُلُوبِ في مُعامَلَةِ المَحْبُوبِ، ص:١٣٤٢)

الحديث الحادي والثلاثون

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ[1] مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ[2]». رواه مسلم (١٩١٠). ونحوُه في سُنَنِ أبي داود (٢٥٠٢).

(١) أي لم يُكَلِّمْ بِالغَزْوِ نفسَه. قوله: (نَفْسَهُ) بِالنَّصْبِ على أنه مَفعولٌ به أو بِنَزْعِ الخافِضِ، أي: في نفسه.

(٢) أي: على خُلُقٍ مِن أخلاقِ المنافِقِين.

أَفادَ الحديثُ: أن مَن لم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ نفسَه به فقد أَشْبَهَ المُنافِقِين في تَخَلُّفِهم عن الجهادِ وإنْ لم يكن كافراً.

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم: «المراد: أن مَن فَعَلَ هذا فقد أَشْبَهَ المنافقين المُتَخَلِّفِين عن الجهاد في هذا الوَصْفِ، فإنّ تَرْكَ الجِهادِ أَحَدُ شُعَبِ النِّفاقِ».

وقال العلّامة عليّ القاري رحمه الله تعالى في مِرقاة المَفاتِيح: «المعنى: لم يَعْزِمْ على الجهادِ، ولم يَقُلْ: يا لَيْتَنِي كُنْتُ مُجاهِداً.. وقيل معناه: ولم يُرِد الخُرُوجَ، وعَلامَتُه في الظّاهِرِ إعدادُ آلَتِه، قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾** (سورة التوبة: ٤٦). ويُؤَيِّدُهُ قولُه: (ماتَ على شعبةٍ مِن نِفاقٍ) أي نَوْعٍ مِن أنواعِ النِّفاقِ. يعني: مَن مات على هذا فقد أَشْبَهَ المُنافِقِين المُتخلِّفِين عن الجِهاد.. وقيل هذا كان مَخصُوصاً بزَمانِه، والأَظْهَرُ أنه عَامٌّ، ويَجِبُ على كلِّ مُؤمِنٍ أَنْ يَنْوِيَ الجهادَ إمّا بِطريقِ فَرْضِ الكفايةِ أو على سبيلِ فرضِ العَيْنِ إذا كان النَّفِيرُ عَامّاً. انتهى.

وقال القرطبي رحمه الله: «فيه ما يَدُلّ على أنّ مَن لم يَتَمَكَّنْ مِن عَمَلِ الخيرِ فيَنبغِي له أن يَعزِمَ على فِعْلِه إذا تَمَكَّنَ منه وأَنْ يَنْوِيَه، فيكون ذلك بَدَلاً مِن فِعْلِه في ذلك الحالِ. فأَمّا إذا أَخْلَى نفسَه عن ذلك العَمَلِ ظاهراً وباطناً عن نِيَّتِه، فذلك حالُ المُنافِقِ الذي لا يَعمَلُ الخيرَ، ولا يَنْوِيه. وخُصُوصاً: الجِهادُ الذي به أَعَزَّ اللهُ الإسلامَ، وأَظْهَرَ به الدِّينَ حتّى عَلَا على كُلِّ الأَدْيانِ، ولو كَرِهَ الكافِرون».

الحديث الثاني والثلاثون

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **مَنْ لَقِيَ اللهَ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْ جِهَادٍ، لَقِيَ اللهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ**[1] ». رواه الترمذي (١٦٦٦).

وفي روايةِ ابنِ ماجه (٢٧٦٣): « **مَن لَقِيَ اللهَ وَلَيْسَ لَهُ أَثَرٌ**[2] **فِي سَبِيلِ اللهِ، لَقِيَ اللهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ** ».

---

(١) قال المناوي رحمه الله في فيض القدير (٩٠١٢): «(مَن لَقِيَ اللهَ بغير أثر) أي عَلامَةٍ مِن جِرَاحَةٍ أو تَعَبٍ نَفْسَانِيٍّ أو غيرِ ذلك (مِن جهاد) صِفَةُ أَثَرٍ وهي نكِرَةٌ في سِياق النَّفْيِ فتَعُمُّ كُلَّ جِهادٍ مع العَدُوِّ والنَّفْسِ والشّيطانِ (لَقِيَ اللهَ وفيه ثلمة) أي نُقْصَانٌ يومَ القيامة. وأَصْلُها أنْ تُسْتَعْمَلَ في نحوِ الجِدارِ ثمّ اسْتُعِيرَتْ هنا للنَّقْصِ. والأَثَرُ ما بَقِيَ مِن رَسْمِ الشَّيْءِ وحقيقتِه ما يَدُلُّ على وجودِ الشَّيْءِ. ثم قيل إنه خَاصٌّ بِزَمَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وقيل عَامٌّ. تنبيه: الجهاد مِن الجَهْدِ وهو المَشَقَّةُ، فإنه سَفَرٌ عن الوَطَنِ، والسَّفَرُ قِطْعَةٌ مِن العذاب مع ما فيه مِن المُخاطَرَةِ بِالنفس، فلذلك عَظُمَتْ دَرَجَةُ المُجَاهِدِ لِعَظِيمِ ما يَلْقَى وكَثُرَتْ حَسَناتُه، لأنه يُقاتِلُ عن كُلِّ مَن وَرَاءَه مِن المُسلمِين ولَوْلا الجِهادُ لَوَصَلَ العَدُوُّ إليهم، فكأنه نابَ مَنابَ الكُلِّ».

وقال علي القاري في مرقاة المفاتيح: «(مَن لقي الله بغير أثر من جهاد) الأثرُ بِفَتْحَتَيْنِ ما بَقِيَ مِن الشيء دَالًّا عليه، قاله القاضي، والمرادُ به هُنَا العَلامَةُ، أي: مَن مات بغيرِ عَلامَةٍ مِن عَلامَاتِ الغَزْوِ مِن جِرَاحَةٍ أو غُبارِ طريقٍ أو تَعَبِ بَدَنٍ أو صَرْفِ مالٍ أو تَهْيِئَةِ أَسْبابٍ وتَعْبِئَةِ أَسْلِحَةٍ (لقي الله) أي جاءَ يومَ القيامة (وفيه ثلمة) أي خَلَلٌ ونُقْصانٌ بِالنِّسبَة إلى كَمالِ سَعادَةِ الشّهادةِ ومُجاهَدَةِ المُجاهَدَةِ. ويُمكِنُ أن يكون الحَديثُ مُقَيَّداً بِمَنْ فُرِضَ عليه الجهادُ وماتَ مِن غيرِ الشُّرُوعِ في تَهْيِئَةِ الأَسْبابِ المُوصِلَةِ إلى المُرادِ. وقال الطيبي: قوله: (من جهاد) صِفَةُ أَثَرٍ وهي نكِرَة في سِياقِ النفي، فتَعُمُّ كُلَّ جِهادٍ مع العَدُوِّ والنَّفْسِ والشَّيْطانِ، وكذلك الأَثَرُ بِحَسَبِ اختلافِ المُجاهَدَةِ، قال تعالى: ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ (الفتح:٢٩)، والثُّلْمَةُ ههنا مُستَعارَةٌ لِلنُّقْصَانِ، وأَصْلُها أن تُستعمل في نحوِ الجِدار، ولمّا شَبّه الإسلامَ بالبناء في قولِه (بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْسٍ) جَعَلَ كلَّ خَلَلٍ فيه ونُقْصانٍ ثُلْمَةً على سبيلِ التَّرْشِيحِ [الاستعارةُ المُرَشَّحَةُ: ما ذُكِرَ معها مُلائِمُ المُشَبَّهِ به]، وهذا أيضاً يَدُلّ على العُمُومِ، ويَنصُره حديثُ أبي أُمَامَة ـيعني الآتيـ: (ليس شيء أحبَّ إلى الله مِنْ قَطْرَتَيْنِ وأَثَرَيْنِ.. وأمّا الأَثَرانِ فَأَثَرٌ في سبيلِ الله وأَثَرٌ في فريضةٍ مِن فَرَائِضِ الله)».

(٢) أي عَمَلٌ بأنْ غَزَا أو جَهَّزَ غازياً أو خَلَفَه بِخَيْرٍ أو نِيَّةٍ كما تُفيده الأحاديث. (قاله السندي في حاشيته على سنن ابن ماجه)

الحديث الثالث والثلاثون

عن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: « **لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إلى اللهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ ؛ قَطرَة دُمُوعٍ**[١] **مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وقَطْرَةِ دمٍ تُهْرَاقُ في سَبِيلِ اللهِ**[٢]. **وأَمَّا الْأَثَرَانِ فَأَثرٌ في سَبِيلِ اللهِ**[٣]، **وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِن فَرَائِضِ اللهِ**[٤]». رواه الترمذي (١٦٦٩).

وعن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما قال: سمعتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «**عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ**[٥]: **عَيْنٌ بَكَتْ مِن خَشْيَةِ اللهِ**[٦]، **وعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سَبِيلِ اللهِ**[٧] ».

رواه الترمذي (١٦٣٩).

---

(١) أيْ قَطْرَةِ بُكَاءٍ حاصِلَةٍ مِن خَشْيَةِ اللهِ، أي خَوْفِه وعَظَمَتِه المُورِثَةِ لِمَحَبَّتِهِ.

(٢) وهو بِعُمُومِه يَشمَلُ الجِهادَ وغيرَه مِن سُبُلِ الخيرِ.

(٣) كخَطْوَةٍ أو غُبَارٍ أو جِرَاحَةٍ في الجهادِ أو سَوَادِ حِبْرٍ في طَلَبِ العِلمِ..

(٤) كتَشَقُّقِ اليَدِ وَالرِّجْلِ مِن أَثَرِ الوُضُوءِ في البَرْدِ، وبَقاءِ بَلَلِ الوُضُوءِ، وَاحتِراقِ الجَبْهَةِ مِن حَرِّ الرَّمْضاءِ التي يَسْجُدُ عليها، وخُلُوفِ فَمِهِ فِي الصَّوم، واغْبِرارِ قَدَمِه في الحَجّ ونحوِ ذلك.

(٥) أي لا تَمَسُّ صَاحِبَهما، فهو مِن التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الجُزْءِ الأَشْرَفِ عن الكُلِّ.

(٦) وهي مَرْتَبَةُ المجاهِدِين مع النفس التَّائِبِين عن المَعْصِيَةِ سواءٌ كان عالماً أو غيرَ عالِمٍ. (مرقاة المفاتيح) الخَشْيَةُ: الخَوْفُ النَّاشِئُ عن تعظيمٍ ومعرفةٍ.. فكُلَّما ازْدَادَ العبدُ مِن رَبِّهِ مَعرِفَةً كُلَّما ازْدَادَ له خَشْيَةً، قال الله تعالى: ﴿**إنّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِه العلماءُ**﴾. قيل: بُكاءُ العَيْنِ مِن خشيةِ اللهِ يُطْفِئُ بُحُوراً مِن النِّيرَانِ، فإنّ خَشْيَتَه تُحْرِقُ قَلْبَه فتُذِيبُ شَحْمَ فُؤَادِهِ فتُجْرِي دُمُوعَه فتُطْفِئُ نَارَ مَعصِيَتِه..

(٧) شامِلٌ لِمَنْ حَرَسَ الجَيْشَ مِن عَدُوٍّ ومَن حَرَسَ الثَّغْرَ بِالرِّباطِ فيه. قال العلّامة عليّ القاري رحمه الله في مرقاة المفاتيح: (وعين باتت تحرس في سبيل الله) وهي مَرتَبَةُ المجاهدين في العِبادة وهي شَامِلَةٌ لِأَنْ تكونَ في الحَجِّ أو طَلَبِ العِلمِ أو الجهادِ أو العِبادةِ، والأظهرُ أنّ المُرادَ به الحارسُ للمجاهِدِين لِحِفْظِهم عن الكُفَّارِ. قال الطيبي قوله «عين بكت» هذا كنايةٌ عن العالِمِ العابِدِ المُجاهِدِ مع نفسِه لقوله تعالى: ﴿**إنّما يَخشى اللهَ مِن عِبادِه العلماءُ**﴾ حَيْثُ حَصَرَ الخَشْيَةَ فِيهم غيرَ مُتَجَاوِزٍ عنهم، فحَصَلَتْ النِّسْبَةُ بين العَيْنَيْنِ عَيْنِ مجاهِدٍ مع النَّفْسِ والشَّيْطَانِ وعينِ مجاهِدٍ مع الكُفّار.

الحديث الرابع والثلاثون

عن خُرَيْمِ بنِ فَاتِكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً**[1] **فِي سَبِيلِ اللهِ**[2] **كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ**[3]». رواه الترمذي (١٦٢٥)، والنسائي (٣١٨٦).

وعن أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قال: « **جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ**[4] **فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: « لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِئَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ**[5]». رواه مسلم (١٨٩٢).

---

(١) أي صَرَفَ نَفَقَةً صَغِيرةً أو كَبِيرةً.

(٢) أي في جهادٍ أو غيرِه مِن وُجُوهِ القُرَبِ.

(٣) أي مِثلٍ، وهذا أَقَلُّ المَوْعُودِ، واللهُ يُضَاعِفُ لمن يَشَاءُ. قال المناوي رحمه الله: «أَخَذَ منه بعضُهم أنّ هذا نِهايةُ التَّضْعِيفِ، ورُدَّ بِآيَةِ: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة البقرة:٢٦١)».

(٤) معنى (مخطومة): أي: فيها خِطامٌ، وهو قَرِيبٌ مِن الزِّمَامِ، كذا في شرح مسلم للنووي.

(٥) قوله في الذي جاء بِنَاقَةٍ في سبيل الله: (لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة) مُطابِقٌ لِقوله صلى الله تعالى عليه وسلم في تضعيفِ الحَسَناتِ إلى سَبْعمائةِ ضِعْفٍ، وأَصْلُه قولُه تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ (سورة البقرة:٢٦١)، ويَحتَمِل أن يكون على ظاهِرِه، تَكُونُ له في الجَنّةِ يَركَبها حيث شاءَ، كما جاء في خَيْلِ الجَنّةِ ومَجِيئِها، وقد يكون ذلك إشارةً إلى تَضْعِيفِ ثَوَابِه، وتَسْمِيَةِ الثَّوَابِ بِاسْمِ الحَسَنَةِ والطَّاعَةِ، لكن قوله: (مخطومة) يُقَوِّي أنه على ظاهِرِه، ومعناه: عليها خِطامٌ. (قاله القاضي عياض رحمه الله في إكمال المُعلِم شرح صحيح مسلم).

وقال الإمام النووي رحمه الله: «قيل: يَحتَمِلُ أنّ المراد له أَجْرُ سَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ، ويَحتَمِل أن يكون على ظاهره، ويكون له في الجَنّة بها سَبْعُمِائَة، كُلُّ واحِدةٍ مِنْهُنّ مَخْطُومَةٌ، يَرْكَبُهُنَّ حيث شاء لِلتَّنَزُّهِ، كما جاء في خَيْلِ الجَنّةِ ونُجُبِها، وهذا الاحتمالُ أَظْهَرُ. والله أعلم». (شرح النووي على صحيح مسلم)

الحديث الخامس والثلاثون

عن زَيْدِ بنِ خالِدٍ رضي الله عنه أَنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **مَنْ جَهَّزَ**(١) **غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا**(٢)**، وَمَنْ خَلَفَ**(٣) **غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ**(٤) **فَقَدْ غَزَا**(٥) ». رواه البخاري (٢٨٤٣).

وفي روايةٍ عنه أيضاً: « **مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا**(٦) ». رواه مسلم (١٨٩٥)، وأبو داود (٢٥٠٩).

---

(١) قوله: (مَنْ جَهَّزَ) بتشديد الهاء مِن التَّجْهِيزِ، مَعناه: مَن هَيَّأَ له ما يَحتاجُه في سَفَرِه وغَزْوِه مِن شيءٍ قَليلٍ أو كَثيرٍ. والغَزْوُ الجِهادُ.

(٢) كُتِبَ له أَجْرُ الغزوِ وإن لم يَغْزُ، لأنّه ساعَدَ عليه. قال ابنُ حِبّان: معناه: أنّه مِثلُه في الأجر وإن لم يَغْزُ حقيقةً. ثم أَخرَجه مِن وَجهٍ آخرَ عن بُسْر بنِ سَعيد بلفظ: (**كُتِب له مِثلُ أَجرِهِ غيرَ أنّه لا يَنْقُصُ مِن أَجْرِه شَيْءٌ**).

وقال الطَّبَرِيُّ فيه: إنّ مَن أَعَانَ مُؤمِناً على عَمَلِ بِرٍّ فَلِلمُعِينِ عليه مِثلُ أَجْرِ العامِلِ، ومِثلُه المَعُونَةُ على مَعاصِي اللهِ عزّ وجلّ، للمُعِينِ عليها مِن الوِزْرِ والإِثْمِ مِثلُ ما على عامِلِها..

قال الكَشْمِيريُّ رحمه الله في فيض الباري على صحيح البخاري: «واعلَمْ أنَّ الفِعْل قد يَحصُل مِن واحدٍ، وقد يَحصُل من جماعةٍ، فإذا كان يَحصُل مِن الجماعة يَحصل لِكُلِّ منهم أَجْرٌ كَفاعِلِه، سواء كان فَعَلَه بِنَفْسِه، أو أَعَانَ عليه بِنَوْعٍ، كالجهاد، فإنه لا يَحْصُل إلّا مِن جماعةٍ تَغْزُو، وكذا لا بُدَّ له مِمَّن يُعِينُ عليه، ويَقُومُ على الغَازِين، فالمُعِين له، والقائمُ عليه كُلُّهم كالغُزَاةِ في سبيلِ الله..

فالحاصل أنَّ مَن باشَرَ القِتالَ، ومَنْ أعانَ عليه بِنَوْعٍ، كلُّهم مُشتَرِكون في الجهاد، وإن اختَلَفُوا في الأَجْرِ زِيادةً ونُقْصاناً تَفاوُتَ مَرَاتِبِ الخُلُوصِ، وسَماحَةِ الأَنْفُسِ، وصَرْفِ الأموالِ، وَبذْلِ المُهَجِ».

(٣) أي قام مَقامَه في مُراعاةِ أهلِه وقضاءِ حاجاتِهم حالَ غَيْبَتِه. قال القاضي: يقال: خَلَفَه في أهلِه إذا قام مقامَه في إصلاحِ حالِهم ومحافَظةِ أمرِهم، أي مَن تَوَلَّى أمرَ الغازِي ونابَ مَنَابَه في مُرَاعاةِ أهلِه زَمَانَ غَيْبَتِه شارَكَه في الثَّوَابِ، لأنّ فَرَاغَ الغازي له واشتِغالَه به بِسَبَبِ قِيامِه بأمرِ عِيالِه، فكأنه مُسَبِّبٌ عن فِعلِه.

(٤) أي بإحسانٍ وأمانةٍ وإخلاصٍ؛ بأنْ قامَ عنه بما كان يَفعَله..

(٥) قال الإمام القسطلاني رحمه الله في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (رقم الحديث: ٢٨٤٣): «فإن قلتَ: هل مَن جَهَّزَ غازِياً على الكَمالِ ويَخلُفُه بخيرٍ في أهلِه له أجرُ غازِيين أو غازٍ واحدٍ؟ أجاب ابنُ جمرة: بأنّ ظاهرَ اللفظِ يُفِيدُ أنّ له أَجْرَ غازِيين، لأنّه عليه الصلاة والسلام جَعَلَ كلَّ فِعْلٍ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِه غيرَ مُرْتَبِطٍ بِغيرِه».

(٦) أي حُكْماً، وحَصَلَ له ثوابُ الغُزَاةِ. قال الإمام النووي رحمه الله: «أي حَصَلَ له أَجْرٌ بِسَبَبِ الغزو، وهذا الأجرُ يَحصُل بكلّ جهادٍ، وسواء قَليلُه وكَثِيرُه، ولِكُلِّ خالِفٍ له في أهلِه بِخَيْرٍ مِن قَضاءِ حاجَةٍ لهم، وإنفاقٍ عليهم، أو مُساعَدَتِهم في أَمْرِهم، ويَختَلِفُ قَدْرُ الثَّوَابِ بِقِلَّةِ ذلك وكَثْرَتِه. وفي هذا الحديثِ: الحَثُّ على الإحسانِ إلى مَن فَعَلَ مَصْلَحَةً للمسلمين، أو قامَ بِأمرٍ مِن مُهِمَّاتِهِم».

الحديث السادس والثلاثون

عَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **مَنْ أَظَلَّ رَأْسَ غَازٍ أَظَلَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ جَهَّزَ غَازِياً حَتَّى يَسْتَقِلَّ**[1] **بِجَهَازِهِ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ**[2]**، وَمَنْ بَنَى مَسْجِداً**[3] **يُذْكَرُ فِيهِ اسْمُ اللهِ**[4]**، بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً**[5] **فِي الْجَنَّةِ** ». رواه الإمام أحمد (٣٧٦).

وعن سَهْلِ بنِ مُعَاذِ بنِ أَنَسٍ عن أَبِيهِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **لَأَنْ أُشَيِّعَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللهِ فَأَكْنُفَهُ**[6] **عَلَى رَحْلِهِ غَدْوَةً أَوْ رَوْحَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**[7]».

رواه البيهقي في سننه الكبرى (١٨٣٥٩).

---

(١) أي يَرْتَفِعَ عن ذلك المَحَلِّ ويَخرُجَ أو يَسْتَغْنِيَ عن السُّؤَالِ. والاستِقلالُ لا يكون إلّا بِتَمامِ التَّجْهِيزِ.

(٢) قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله في فتح الباري: «..ولابنِ ماجه وابنِ حِبّان مِن حديثِ عُمَرَ نَحْوُهُ بِلَفْظِ: (**مَن جَهَّزَ غازياً حتىّ يَستقِلَّ كان له مثلُ أجرِه حتى يموت أو يَرجِع**). وأَفَادَتْ فَائِدَتَينِ: إحداهما: أنّ الوَعْدَ المَذكورَ مُرَتَّبٌ على تَمامِ التجهيزِ وهو المرادُ بقوله (حتى يَسْتَقِلَّ)، ثانيهما أنه يَسْتَوِي معه في الأَجْرِ إلى أن تَنْقَضِيَ تلك الغَزْوَةُ». (شرح حديث البخاري، الرقم:٢٨٤٤)

(٣) خالِصاً لله تعالى.

(٤) الجُمْلَةُ في مَوْضِعِ التَّعْلِيلِ، أي بَنَى لِيُذكَرَ اللهُ تعالى فيه.

(٥) تَنْكِيرُه للتعظيمِ، أي بَيْتاً عَظِيماً، وإسنادُ البِناءِ إلى الله تعالى مَجازٌ، أو البِناءُ مَجازٌ عن الخَلْقِ، والإسنادُ حقيقةٌ.

(٦) أي فأَحْرُسَ له مَتاعَه إذا غَدَا أو رَاحَ في سبيلِ الله، يقال: كَنَفَه يَكْنُفُه: إذا حَفِظَه وأَعَانَه، ويُقَوِّي هذا التفسيرَ رِوَايَةُ الطَّبَرَانِيّ، ولَفْظُها: «**فَأُعِينَهُ**»، فإنّ فيه مَنْعاً له مِن العَدُوِّ.

(٧) فيه ترغيبٌ للناسِ في خِدْمَةِ المجاهِدِين و مَعُونَتِهم، جاء في الحديث: (**واللهُ في عَوْنِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أَخِيه**). (قاله السندي في حاشيته على مسند الإمام أحمد: ١٥٦٤٣)

الحديث السابع والثلاثون

عن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عنِ النّبي صلى الله عليه وسلم قال: « مَنْ لَمْ يَغْزُ[1] أَوْ يُجَهِّزْ غَازِياً[2] أَوْ يَخْلُفْ غَازِياً فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ[3]، أَصَابَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَارِعَةٍ[4] قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ[5]». رواه ابن ماجه (٢٧٦٢).

---

(١) أي بِالخُرُوجِ له. قال الدِّمَشْقِيُّ رحمه الله في رَوْضَة المُتَّقِين شرح رياض الصالحين (١٣٦٠): قوله (مَن لم يغز) أي مَن لم يُجاهِدْ مع المسلِمين ويَقصِدَ الكُفّارَ مُقاتِلاً لِأَجْلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالى.

(٢) أي يُهَيِّئْ له ما يَحْتاجه في سَفَرِه وغَزْوِه كما مَرّ.

(٣) (أَوْ يَخْلُفْ غَازِياً فِي أَهْلِهِ) أي لم يَقُمْ مَقامَ الغَازي بَعْدَه في مُرَاعاةِ أَهْلِه وقَضَاءِ حَاجَاتِهم وتَدْبيرِ شُؤُونِهم حالَ غَيْبَتِه (بِخَيْرٍ) وشَفَقَةٍ مِن غيرِ خِيانَةٍ ولا خَدِيعَةٍ..

(٤) (بِقَارِعَة) أي دَاهِيَةٍ مُهْلِكَةٍ، يقال: قَرَعَه أَمْرٌ إذا أَتَاهُ فَجْأَةً، وجَمْعُها: قَوَارِع. وقد حَذَّرَ الله تعالى أهلَ الكُفْرِ إذا ما هُمْ استمَرُّوا على كُفْرِهم مِن أنْ تُصِيبَهم قارِعَةٌ، فقال سبحانه وتعالى مُتَوَعِّداً لهم: ﴿..وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ..﴾ دَاهِيَةٌ تَقرَعُهم بِالبَلَايَا كالقَتْلِ والأَسْرِ والجَدْبِ.. (انظر: تفسير سورة الرعد:٣١)

(٥) (قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ) المرادُ به هنا قَبْلَ مَوْتِه. واللفظُ يُشْعِرُ بِأنّ القارِعَةَ لا بُدَّ سَتُصِيبُه لا مَحَالَةَ. هذا إذا لم يُبَادِرْ إلى اسْتِدْرَاكِ ما فَاتَه. والله أعلم. (روضة المتقين شرح رياض الصالحين:١٣٦٠)

وفي الحديث تحذيرٌ مِن تَعْجِيلِ العُقُوبَةِ على تَرْكِ الجهادِ أو تركِ إعانةِ المجاهِدِين بِالمالِ أو بِمُسَاعَدَتِهم في رِعايَةِ أَهْلِهم. وكلُّ أُمَّةٍ تَرْغَبُ عن الجهاد في سبيل الله تعالى سَتَحُلُّ عليها قارِعةٌ تُزَلْزِلُ أَرْكَانَها.

وأَخِيراً: لا بُدَّ للناظر في أحاديثِ الجهادِ مِن أَنْ يَرَى حِرْصَ الإسلامِ على صَوْنِ عِزَّةِ المُسلمِين وحِمايَةِ دِينِهم وأَوْطانِهم، وذلك بِحَمْلِهم على الجهاد وتَرْغِيبِهم في الاستِشهادِ، وما حَلَّ بِالمسلمين اليومَ مِن ضَعْفٍ وذُلٍّ.. ما هو إلّا بِسَبَبِ خُلُودِهم لِلرَّاحَةِ وتَرْكِ الجهادِ وبَذْلِ النَّفْسِ والمالِ في سبيل الله تعالى.

الحديث الثامن والثلاثون

عن سَبْرَةَ بنِ أَبِي فَاكِهٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: « **إِنَّ الشَّيطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ** » فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: « **فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**[1] **أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**[2]». رواه النسائي (٣١٣٤).

وفي روايةٍ أُخْرَى: « **إِنَّ الشَّيطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ**[3]**، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ** ،

---

(١) أي بِطريقِ الفَضْلِ والكَرَمِ، لا بِطريقِ الوُجُوبِ؛ إذ لا يَجِبُ على الله تعالى شيءٌ.

(٢) قوله (بَأَطْرُقِهِ) قال في النِّهاية: الأَطْرُق: جمعُ طَرِيقٍ على التَّأنيثِ، لأنّ الطّريق يُذكَّر وَيُؤَنَّث، فَجَمْعُه على التَّذكِيرِ أَطْرِقَةٌ، كَرَغِيف وَأَرْغِفَة، وعلى التَّأنيثِ أَطْرُقٌ، كَيَمِينٍ وَأَيْمُنٍ. (تُسْلِم) أَيْ كَيْف تُسْلِمُ (وَإِنَّمَا مَثَل المُهَاجِر كَمَثَلِ الفَرَس فِي الطِّوَل) وهو الحَبْلُ الطَّوِيلُ الّذي يُشَدُّ أَحَدُ طَرَفَيْهِ في وَتَدٍ أَوْ غَيْرِه، والطَّرَفُ الآخَرُ فِي يَدِ الفَرَسِ لِيَدُورَ فِيهِ وَيَرْعَى وَلا يَذْهَبَ لِوَجْهِهِ. وهذا مِن كلامِ الشّيطانِ، ومَقصُودُه أنّ المُهاجِرَ يَصِيرُ كالمُقَيَّدِ فِي بِلادِ الغُرْبَةِ لا يَدُورُ إِلّا في بَيْتِه ولا يُخَالِطهُ إِلّا بَعْضُ مَعَارِفِه، فهو كالفَرَسِ في طِوَلٍ لا يَدُورُ ولا يَرْعَى إِلّا بِقَدْرِهِ بِخِلافِ أهلِ البِلادِ في بلادِهم، فإنّهم مَبْسُوطُونَ لا ضِيقَ عليهم، فأَحَدُهُمْ كالفَرَسِ المُرْسَلِ (فَهُوَ جَهْد النَّفْس) بِفَتْحِ الجيم بِمَعْنَى المَشَقَّةِ وَالتَّعْبِ، والمُرَادُ بِالمالِ الجِمَالُ والعَبِيدُ وَنَحْوُهُمَا أَوْ المَالُ مُطْلَقاً، وإطلاقُ الجَهْدِ لِلمُشَاكَلَةِ أَيْ تَنْقِيصِه وَإِضَاعَتِه، والله تعالى أعلم». (انظر: حاشية السندي والسيوطي على النسائي)

(٣) قوله صلى الله عليه وسلم: (بِأَطْرُقِه): الأَطْرُقُ جمعُ طريقٍ، أو جمعُ طَرْقٍ، مِثْلُ عَبْدٍ وأَعْبُدٍ، والطَّرْقُ ويَجوز الكَسْر: حِبالَةٌ يُصَادُ بها الوَحْشُ، تُتَّخَذُ كَالْفَخِّ... وحينئذٍ فالضميرُ في (أطرقه) لِابنِ آدَمَ على المعنى الأوّلِ، وللشيطانِ على المعنى الثاني، وكان استعمالُ الباءِ يُرَجِّحُ معنى الثاني، والله أعلم. (مِن تعليقات الأستاذ محمد عَوَّامَة -حَفِظَه الله- على المُصنَّف لابن أبي شيبة -رحمه الله-)

فَقَالَ: تُسْلِمُ، وَتَدَعُ دِينَك وَدِينَ آبَائِكَ؟ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ، وَتَدَعُ مَوْلِدَك فَتَكُونُ كَالْفَرَسِ فِي طِوَلِهِ؟ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجاهِدُ، فَتُقْتَلُ، فَتَتَزَوَّجُ امْرَأَتُكَ وَيُقْسَمُ مِيرَاثُكَ؟» قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: « فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، ضَمِنَ اللهُ لَهُ الْجَنَّةَ إِنْ قُتِلَ، أَوْ مَاتَ غَرَقاً، أَوْ حَرَقاً، أَوْ أَكَلَهُ السَّبُعُ ».

رواه ابن أبي شيبة في مُصنّفه: (١٩٦٧٥).

الحديث التاسع والثلاثون

عن سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عن أَبِيهِ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ**(١). **وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وُقِفَ لَهُ**(٢) **يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟**(٣)». رواه مسلم (١٨٩٧).

وفي روايةٍ عنه أيضاً: « **حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنْ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ إِلَّا نُصِبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقِيلَ لَهُ: قَدْ خَلَفَكَ فِي أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ** »، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: « **مَا ظَنُّكُمْ؟**(٤)». رواه أبو داود (٢٤٩٦).

---

(١) قال النووي رحمه الله: «هذا في شيئين: أحدهما: تحريمُ التَّعرّضِ لَهُنّ بِرِيبَةٍ مِن نَظَرٍ مُحَرَّمٍ، وخَلوَةٍ، وحديثٍ مُحرَّمٍ وغيرِ ذلك. والثاني في بِرِّهِنّ والإحسانِ إليهنّ، وقَضاءِ حَوائِجِهِنّ التي لا يَتَرَتَّبُ عليها مَفْسَدَةٌ، ولا يَتَوَصَّلُ بها إلى رِيبَةٍ ونحوِها».

(٢) أي جُعِلَ الخائِنُ واقِفاً لِلرَّجُلِ ولِأَجْلِ ما فَعَلَ مِن سُوءِ الخِلافَةِ للغازي في أهلِه.

(٣) معناه: ما تَظُنُّونَ في رَغْبَتِه في أَخْذِ حَسَنَاتِه، والاسْتِكْثارِ منها في ذلك المَقام، أي: لا يُبْقِي منها شيئاً إنْ أَمْكَنَه. كذا في شرح النووي. وقال القرطبي: ودَلَّ الحديثُ على أنّ خِيانَةَ الغازي في أهلِه أعظمُ مِن كُلِّ خِيَانةٍ؛ لأنّ في خِيانةِ غيرِه لا يُخَيَّرُ المَخُونُ في أَخْذِ كُلِّ حَسَناتِ الخائِنِ، وإنّما يَأخُذُ لِكلِّ خِيانَةٍ قَدْراً مَعْلُوماً مِن حَسَناتِ الخائِنِ». كذا في شرح الأُبِّيّ. (فتح الملهم)

(٤) قوله: (كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ) مُبَالَغَةٌ في اجتِنابِهِم عَنهُنّ والمَيْلِ إليهنّ بِسُوءٍ ومُرَاعَاةِ حُقُوقِهِنّ (وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِن القَاعِدِينَ يَخْلُفُ) أي يَعْقُبُ (رجلاً من المجاهدين في أهله) أي امرأتِه أو جاريتِه وقَرابتِه في بَيْتِه فيَخُونُه، كما في مسلم، أي: فيَخُونُ ذلك القاعِدُ في أهلِ ذلك المجاهد (إلّا نُصِبَ) بِصِيغَةِ المَجهولِ، أي وُقِفَ وأُقِيمَ ذلك الرَّجُلُ القاعِدُ (له) أي للمجاهِدِ (يوم القيامة، فقيل له) أي للمجاهد، والقائِلُ المَلَكُ المُوَكَّلُ مِن الله تعالى (قد خلفك) أي هذا القاعِدُ (في أهلك) أي بِسُوءٍ وخِيانَةٍ (فخذ مِن حسناته) أي: مِن حسنات ذلك القاعِدِ (ما شئت) أي: أَيَّ قَدْرٍ شِئْتَ (فالتفت إلينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما ظنّكم؟) .

قال النووي رحمه الله: معناه: فما تَظُنّونَ في رَغْبَةِ المجاهد في أَخْذِ حَسَناتِه، والاسْتِكْثَارِ منها في ذلك المَقامِ؟ أي لا يَبْقَى منها شيءٌ إلّا أَخَذَه، وقال المُظهِر ـوهو مُظهِر الدِّين الحُسَين الزَّيْدَانِيّ العِرَاقِيّـ: أي ما ظَنُّكم بِالله=

=مع هذه الخِيانةِ؟ هل تَشكُّونَ في هذه المُجَازَاةِ أم لا؟ يعني فإذا عَلِمْتُمْ صِدْقَ ما أَقُولُ فَاحْذَرُوا مِن الخِيانَةِ في نِساء المجاهِدِين، وقال التّوربشتِيّ: أي فما ظَنُّكم بِمَنْ أَحَلَّهُ الله بهذه المَنْزِلَةِ، وخَصَّهُ بِهذه الفَضِيلَةِ، فرُبَّما يكون وَرَاءَ ذلك مِن الكَرامَة. (بذل المجهود في حل سنن أبي داود)

وقال عليّ القاري في شرح مُسنَد الإمام أبي حنيفة رحمهما الله: «عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: (جعَل اللهُ حُرْمةَ نساءِ المجاهِدِين) أي: في سَبِيلِ اللهِ مِن الغُزَاةِ الغَائِبِين (على القاعِدِين) أي: مِن الرِّجال المُتخلِّفِين عن عُذْرٍ (كَحُرمة أمّهاتهم) فيَجِبُ عليهم أداءُ خِدْمَتِهِنّ، والقِيامُ بِأُمُورِ مَعِيشَتِهِنّ، وحِفْظُ حُرْمَتِهِنّ، ورِعايَةُ حِشْمَتِهِنّ (وما مِن رَجُلٍ مِن القاعدِين يَخُونُ أحداً مِن المجاهدِين في أهله) أي: مِن نسائِه وجَوَارِيه وأَقارِبه وذَوِيهِ خِيانةً ماليةً، أو غيرَها (إلّا قِيل له يومَ القيامة: اِقْتَصّ) أي: خُذْ حَقَّكَ [منه] بأنْ تُؤْخَذَ حَسَناتُه وَتُوضَعَ عليه سَيِّئاتُك، وفي الحَصْرِ إشارةٌ إلى أنّ هذه الخِيانَةَ لا تُكَفَّرُ في الدنيا، ولا تُغفَرُ في العُقْبَى، ولا يَتَخَلَّص منها إلّا بِالعُقُوبَةِ المُتَضَمِّنَةِ لِلفَضِيحَةِ يومَ القيامة! (فما ظنّكم) أي: فأَيُّ شيءٍ ظَنُّكم (في المجاهدين؟) أَتَظُنُّونَهم كَغيرِهم مِن القاعِدِين!!». (رقم الحديث:٤٢٦)

الحديث الأربعون

عن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ**[1] **ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ: صَانِعَهُ**[2] **يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ**[3]**، وَالرَّامِيَ بِهِ**[4]**، وَمُنَبِّلَهُ**[5]**، وَارْمُوا**

(١) أي بِسَبَبِ صُنْعِه ورَمْيِه وتَنْبِيلِه.

(٢) أي الذي يَبْرِيهِ و يُسَوِّيهِ.

(٣) أي حالَ كونِه يَطلُب ويَنوِي في صَنْعَةِ السَّهْمِ الجِهادَ والثّوابَ مِن الله تعالى.

(٤) أي كذلك مُحتسِباً.

(٥) أي مُنَاوِلَ النَّبْلِ، وهو السَّهْمُ، سواء كان مِلْكَ المُعْطِي أو الرَّامِي، ففي النِّهايَة: يقال: نَبَّلْتُ الرَّجُلَ إذا ناوَلتَه النَّبْلَ لِيَرْمِيَ به، وكذلك أَنْبَلْتُه، ويجوز أَنْ يُرَادَ بِالنَّبْلِ الذي يَرُدُّ النَّبْلَ على الرَّامِي مِن الهَدَفِ.

وفيه دليلٌ على أنّ العَمَلَ في آلاتِ الجهادِ وإصلاحِها وإعدادِها كالجهادِ في استحقاقِ فاعِلِه الجَنَّةَ، ولكنْ بِشَرْطِ أن يكون ذلك لِمَحْضِ التَّقَرُّبِ إلى الله بإعانةِ المجاهِدِين، ولهذا قال: الذي يَحتسِبُ في صَنْعَتِه الخَيْرَ. وأمّا مَن يَصْنَعُ ذلك لِمَا يُعْطاهُ مِن الأُجْرَةِ فهو مِن المَشْغُولِين بِعَمَلِ الدُّنْيا لا بِعملِ الآخرةِ، نَعَمْ يُثابُ مع صَلاحِ النِّيَّةِ كمَن يَعمَل بِالأُجْرَة التي يَسْتَغْنِي بها عن النَّاس أو يَعُولُ بها قَرابَتَه، ولهذا ثَبَتَ في الصحيح أنّ الرَّجُل يُؤْجَرُ حتى على اللُّقْمَةِ يَضَعُها في فَمِ امْرَأَتِه.

قال المُناوي رحِمه الله في فيض القدير (١٩٠٣): « (إن الله تعالى يُدخِل بالسَّهْمِ الواحِدِ) الذي يُرْمَى إلى أعداءِ اللهِ بِقَصْدِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ (ثلاثةَ نَفَرٍ الجَنَّةَ: صانِعَه) دَخَل فيه صانِعُ مُفرَدَاتِه كما يَتناوَلُ صَانِعَ تَرْكِيبِه، فكُلُّ مَن حَاوَلَ مِن أَمْرِهِ شَيْئًا فهو مِن صُنَّاعِه، لكنْ إنّما يَدخُل إذا كان (يَحتسِب في صنعته الخيرَ) أي الذي يَقصِد بِعَمَلِه الإعانةَ على جهادِ أعداءِ الله لإعلاءِ كلمةِ الله، ويَحتمِل أنّ المرادَ المُتَطَوِّعُ بِعَمَلِه للمُجاهِد بِغيرِ أُجْرَةٍ، قال الزَّيْنُ العِرَاقِيّ: والأوّل أَوْلى، وقال ابن حجر رحمه الله: هذا أَعَمُّ مِن كونه مُتَطَوِّعاً أو بِأُجْرَةٍ، لكن لا يَحسُنُ إلّا مِن مُتَطَوِّعٍ (والرامي به) في سَبيلِ اللهِ (ومُنَبِّلَه) بالتشديد مُنَاوِلَه للرَّامِي لِيَرْمِيَ به احتِساباً منه يَقوم بِجَنْبِهِ أو خَلْفَه فيُناوِلُه إيّاه أو يَجمَع له السِّهامَ إذا رَمَاها ويَرُدّها إليه، وفيه فَضْلُ الرَّمْيِ، وأنه أَوْلى ما اسْتُعِدَّ به للعَدُوِّ بعد الإيمانِ».

وقال أيضاً في شرحِ حديثِ (٩٥٥): « (ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمْيَ الرَّجُلِ بِقَوْسِهِ أَوْ تَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ أَوْ مُلَاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِن الحَقِّ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَمَا عَلِمَهُ فَقَدْ كَفَرَ الَّذِي عَلِمَهُ)، قوله: (ارْمُوا) بِالسِّهام ونحوِها نَدْباً، لِتَرْتَاضُوا وتَتَمَرَّنُوا على الرَّمْيِ قَبْلَ لِقاءِ العَدُوِّ ويَصِير لكم به خِبْرَةٌ وقُوّةٌ (وارْكَبُوا) الخَيْلَ ونحوَها ممّا يُرْكَبُ للجهاد ولِتُرَوِّضُوه للقتال. قال الطيبي: عَطْفه يَدُلّ على المُغايَرة وأنّ الرامي يكون رَاجِلاً وَالرَّاكِبَ رَامِحاً (وأَنْ تَرْمُوا) أي والرَّمْيُ بالسِّهام، وخَبَرُهُ (أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا) أي =

وَارْكَبُوا[1]، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا[2]، لَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ[3] إِلَّا ثَلَاثٌ:

=مِن رُكُوبِكُم نحوَ الخَيْلِ لِلطَّعْنِ بالرُّمْحِ، فإنه لا شَيْءَ أَنْفَعُ مِن الرَّمْيِ ولا أَنْكَى لِلعدوّ ولا أَسْرَعُ ظَفَراً منه كما يَعلَمُه مَن بَاشَرَ الحُرُوبَ وخالَطَ الخُطُوبَ، ومِنْ ثَمَّ أَفْتَى ابنُ الصَّلاحِ أنّ الرميَ أفضلُ مِن الضَّرْبِ بِالسَّيْفِ (كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ) أي لا اعتبارَ به، يقال لِلمُشتَغِلِ بِما لا يَعُودُ عليه مِن نَفْعٍ دُنْيَوِيٍّ أو أُخْرَوِيٍّ بَطّالٌ، وهو ذُو بَطالَةٍ. ذَكَرَه الرَّاغِبُ. قال ابن العربي: ولا يُرِيد أنه حَرَامٌ، بل إنه عَارٍ مِن الثَّوَابِ (إِلَّا رَمْيَ الرَّجُلِ بِقَوْسِه) أي العَرَبِيَّةِ وهو قَوْسُ النَّبْلِ، أو الفَارِسِيَّةِ وهو قَوْسُ النُّشَّابِ (أو تَأدِيبَه فَرَسَه) أي رُكوبَها ورَكْضَها والجَوَلانَ عليها بِنِيَّةِ الغَزْوِ وتَعليمَها ما يُحْتَاجُ ممّا يُطلَبُ في مِثْلِها. وفي معنى الفَرَس: كُلُّ مَا يُقاتَل عليه (أو مُلاعبَتَه امْرَأَتَه) أي مِزاحَه حَلِيلَتَه بِالنُّزُولِ لِدَرَجاتِ عَقْلِها لِتَطْيِيبِ القَلْبِ وحُسْنِ العِشْرَةِ، ولذا قال لُقْمَانُ عليه السلام: يَنبغي للعاقِلِ كَوْنُه كالصَّبِيِّ مع أهلِه، ومِثلُها نحوُ وَلَدٍ وخَادِمٍ، لكن لا يَنبَسِطُ في الدُّعَابَةِ لِحَدٍّ يُسقِطُ هَيْبَتَه، بل يُرَاعِي الاعتِدَالَ (فإنهنّ) أي الخِصالَ المَذكُورَاتِ (مِن الحَقّ) أي مِن الأمورِ المُعتَبَرةِ في نَظَرِ الشَّرْعِ، إذا قَصَدَ بِالأَوَّلَيْنِ الجِهادَ وبالثالثِ حُسْنَ العِشْرَةِ صارَ اللهوُ مَطْلُوباً مَنْدُوباً، فهو مِن الحقّ المأمورِ به، ولهذا كان المصطفى صلى الله عليه وسلم مِن أَفْكَهِ النَّاسِ إذا خَلَا بِأَهْلِه، وسَابَقَ عائِشةَ مِرَاراً فسَبَقَها وسَبَقَتْه (ومَن ترك) أي أَهْمَلَ (الرَّمْيَ) بِلا عُذْرٍ (بَعْدَ مَا عَلِمَه).. يعني بَعْدَ عِلمِهِ إِيَّاهُ بالتعليم.. (فقد كفَر الذي عَلِمَه) أي سَتَرَه، فيُكرَه تَرْكُ الرَّمْيِ بعد عِلْمِه، لأنّ مَن تَعَلَّمَه حَصَّلَ أَهْلِيَّةَ الدَّفْعِ عن دِينِ اللهِ ونِكايَةِ العَدوِّ، وتَأهَّلَ لِوَظِيفَةِ الجِهادِ، فتَرْكُه تَفْرِيطٌ في القِيام بِمَا تَعَيَّنَ عليه. قال المَاوَرْدِيّ: وهذا إنْ قَصَد بِتَعَلُّمِه الجهادَ وإلّا مُباحٌ ما لم يَقصِد به مُحَرَّماً. اهـ.

وأقول: الذي يَتَضَمَّنُه التحقيقُ أنّ الرَّمْيَ وتَعَلُّمَ الفُرُوسِيَّةِ وتعليمَ الفَرَسِ تَجْرِي فيه الأحكامُ الخمسة، فأَصْلُه مُباحٌ، ثم قد يَجِبُ إنْ تَعَيَّنَ ذلك طريقاً للجهادِ الواجبِ عَيْناً أو كفايةً، وقد يُندَبُ بِقَصْدِ الغَزْوِ عند عدمِ تَعَيُّنِه، وقد يُكرَهُ إن قَصَدَ به مُجَرَّدَ اللهوِ واللَّعِبِ، وقد يَحرُمُ إنْ قَصَد به نحوَ قَطْعِ الطريقِ أو قتالِ أهلِ العَدْلِ، وعلى حالةِ النَّدْبِ أو الوُجوبِ يُنَزَّلُ الحديثُ».

وقال علي القاري رحمه الله في مِرقاة المَفاتيح: «قوله: (فإِنَّهُنَّ مِن الحَقِّ) أي وليس مِن اللهوِ الباطِلِ فيَتَرَتَّبُ عليه الثَّوَابُ الكامِلُ، وفي معناها كُلُّ مَا يُعِينُ على الحقّ مِن العِلمِ والعَمَلِ إذا كان مِن الأُمُور المُباحَةِ، كالمُسَابَقةِ بالرِّجْلِ والخَيْلِ والإِبِلِ، والتَّمْشِيَةِ لِلتَّنَزُّهِ على قَصْدِ تَقويَةِ البَدَنِ وتَطرِيَةِ الدِّماغ..»

(١) أي لا تَقتَصِرُوا على الرَّمْيِ ماشِياً، واجْمَعُوا بين الرَّمي والرُّكُوبِ.

(٢) والأَظْهَرُ أنّ معناه: أنّ مُعالَجَةَ الرَّمْيِ وتَعَلُّمَه أفضلُ مِن تَأدِيبِ الفَرَسِ وتَمرِينِ رُكُوبِه لِمَا فيه مِن الخُيَلَاءِ، ولِمَا في الرمي مِن النَّفْعِ الأَعَمّ. (بذل المجهود)

(٣) أي ليس المُباحُ منه إلّا ثلاثةً، وعلى هذا فيه حَذْفُ اسمِ ليس، وقال ابنُ معن: يعني مِن اللهوِ المُستحَبّ. (انظر: بذل المجهود في حل سنن أبي داود، رقم الحديث:٢٥١٣).

وقال السِّندي في حاشيته على مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٧٣٢١) : قوله: «وليس مِن اللهو»، أي: اللهوِ المَشرُوعِ أو المُباحِ أو المَندوبِ، فهو على حذفِ الصِّفَةِ، مِثلُ: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي: صالِحَةٍ، أو التَّعريفُ لِلعَهْدِ.

تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ[1]، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ[2]، وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ[3]، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ[4]، فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا[5] ». أَوْ قَالَ[6]: « كَفَرَهَا ». رواه داود (٢٥١٣).

وعن عَمْرِو بنِ عَبَسَة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: « مَنْ رَمَى الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَلَغَ سَهْمُهُ الْعَدُوَّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ يَعْدِلُ رَقَبَةً[7] ».

رواه ابن ماجه (٢٨١٢).

---

(١) أي تعليمَه إيّاه بالرَّكْض والجَوَلانِ على نية الغزو.

(٢) أي امرأتَه، فإنّ مُلاعبة الأهل تُعين على تكثير وِلادةِ الوَلَد، فيَنوي به الإعانةَ على الجهاد بتكثير المجاهدين..

(٣) قوله (ونبله) عَطْفُ تَفْسِيرِيٌّ للفظ «قوسه»، فإنّ الرَّمْيَ لا يكون إلّا بالنَّبْل بواسطة القوس، ولم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرب إلّا رَمْيُ السِّهام، فيَدخُل بل يُعوَّض عنه فيه ما يُرْمَى به مِن الرَّصاص بالبُنْدُقِيَّة والمَدافع وغير ذلك من آلات الحَرْبِ الجَدِيدةِ المُستَعْمَلةِ في هذا الزَّمَانِ، فإنها أَغْنَتْ عن رَمْيِ السِّهامِ بالقَوْس، وعَطَّلَتْه.

(٤) أي إعراضاً عن الرَّمْيِ.

(٥) قوله (فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ) أي مِن الله تعالى أُعْطِيَهَا (ترَكها) أي ترَك شُكْرَها.

(٦) أي الراوي بَدَلَ (تركها) : (كَفَرها) أي سَتَر تلك النِّعْمةَ أو ما قامَ بِشُكرِها مِن الكُفرَانِ ضِدُّ الشُّكرِ.

قال الإمام النووي رحمه الله: «وفي هذه الأحاديث فضيلةُ الرَّمْيِ والمُناضَلةِ والاعتِناءِ بذلك بِنِيَّةِ الجِهَادِ في سبيل الله تعالى، وكذلك المُشاجَعة وسائرُ أنواعِ استعمالِ السِّلاح، وكذا المُسابَقةُ بِالخَيْلِ وغيرِها كما سبق فى بابه، والمُرَادُ بهذا كُلِّه التَّمَرُّنُ على القِتال والتَّدَرُّبُ والتَّحَذّقُ فيه ورِياضَةُ الأَعضَاءِ بذلك». (شرح النووي على صحيح مسلم: ١٩١٧)

(٧) أَيْ فَلَهُ مِنَ الثَّوَابِ عِدْلُ رَقَبَةٍ.

الحديث الحادي والأربعون

عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **ثِنْتَانِ[1] لا تُرَدَّانِ أَوْ قَلَّ مَا تُرَدَّانِ[2]: اَلدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ[3] وَعِنْدَ الْبَأْسِ[4] حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً[5]** ».

رواه أبو داود (٢٥٤٠).

وعن مَكْحُولٍ، عن بعضِ أَصْحَابِ النّبي صلى الله عليه وسلم: « **أَنَّ الدُّعَاءَ كَانَ يُسْتَحَبُّ عِنْدَ نُزُولِ الْقَطْرِ، وَإِقَامَةِ الصَّلاَةِ، وَالْتِقَاءِ الصَّفَّيْنِ** ». رواه ابن أبي شيبة في مُصنّفه (١٩٨٦١).

هذه بِشارَةٌ مِن رسول الله ﷺ: أنّ الله تعالى يَستَجِيبُ دُعاءَ المُجاهِدِين لِمَا لهم مِن فَضْلٍ عَظِيمٍ.. لِذا نَرْجُو منكم يا إخوَانَنا المجاهِدِين الدُّعاءَ لَنَا بِكُلِّ خَيْرٍ، وَإِنّا -مع عَوْنِنا لكم بِأَنْفُسِنا وأَمْوَالِنا وأَلْسِنَتِنا- نَدْعُو لكم غايَةَ وُسْعِنا وطَاقَتِنا، ونَعلَمُ أنّ دُعاءَ المُؤمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابٌ..

ونَسْأَلُ الله ﷻ أَنْ يُعِزَّ الإسلامَ والمسلمين، ويَنصُرَ المُجاهِدِين في كلِّ بِقَاعِ الأَرْضِ على عَدُوِّهِم، وأَنْ يُوَحِّدَ كلِمَتَهم، وَيُثَبِّتَ أَقْدامَهم، ويُقَوِّيَ عَزِيمَتَهم، ويَرْفَعَ رَايَتَهم، ويُوَفِّقَهم لِمَا يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ، وأَنْ يَجْمَعَ أُمّةَ نَبِيِّهِ ﷺ على إعادةِ الخِلافَةِ الإسلاميّةِ المَفْقُودَةِ في رُبُوعِ الأَرْضِ.

اللّهُمّ أَهْلِكِ الكَفَرَةَ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِك ويُقاتِلون أَوْلِيَاءَك، اللهم زَلْزِلْ الأرضَ تحت أَقْدَامِهم، ونَكِّسْ أَعْلامَهم، وبَدِّدْ شَمْلَهم، وفَرِّقْ جَمْعَهم، وقَلِّلْ عَدَدَهم. اللهم مَزِّقْهم كُلَّ مُمَزَّقٍ مَزَّقْتَه لِأَعدائك، وانْتَصِرْ لَنَا انْتِصارَكَ لِأَوْلِيَائِك، وأَنْبِيائِك، اللهم انْصُرْنَا نَصْرَكَ لِأَحِبَّائِك على أَعدائِك، اللهم لا تُمَكِّنِ الأَعْدَاءَ فِينَا، ولا تُسَلِّطْهم علينا بِذُنُوبِنَا، وأَصْلِحْ أَحْوَالَنَا بِالخير، ورُدَّنَا إلى دِينِنَا وسُنَّةِ نَبِيِّنَا رَدّاً جَمِيلاً..

---

(١) أي دَعْوَتَانِ ثِنْتَانِ.

(٢) قوله (أَوْ) لِلشَّكِّ مِنَ الرَّاوِي.

(٣) أي عند الأَذَانِ لِلصَّلاة.

(٤) أي القِتالِ.

(٥) قال في «المجمع»: حين يُلحِمُ بعضُهم بعضاً، أي يَشْتَبِكُ الحَرْبُ بَينهم و يَلزَم بعضُهم بعضاً، قال الطِّيبِيُّ: حين يَلحَمُ بِفَتحِ ياءٍ، أي يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وإن ضُمَّ الياءُ وكُسِر الحاءُ فمَعناه يَخْتَلِط. (بذل المجهود)

كَمَالُ شَجَاعَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

الشَّجَاعة: فضيلةٌ مِن أَسْمَى الفَضائِلِ، ولقد خَصَّ رَبُّنَا سُبحانه وتعالى أنبياءَه -صلواتُ اللهِ وسلامُه على نبيّنا وعليهم أجمعين- بِالحَظِّ الأَوْفَرِ مِن هذه الشَّجَاعَةِ، كما اخْتَصَّهم مِن جميع الأخلاقِ الفاضِلَةِ بِأَعْظَمِ نَصِيبٍ.

ومَن أَحَبَّ أن يَعرِفَ مِقدَارَ شَجاعةِ الأنبياءِ فَلْيَقْرَأْ ما جاءَ في القُرآنِ الكريم مُتعلِّقاً بذلك، فهذا سيّدُنا هُود عليه السَّلامُ يَحْكِي عنه رَبُّنَا تبارَك وتعالى قولَه لِقومه:﴿ **إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ؛ مِنْ دُونِهِ، فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا..** ﴾(١)، وهذا سيدُنا موسى عليه السلام لَمَّا قال له قَوْمُه: ﴿ **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ يقول في شَجاعةٍ: ﴿ **كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾(٢)..

فالأنبياءُ أشجعُ النَّاسِ، وسَيِّدُنَا محمّد المصطفى صلى الله عليه وسلم مِن الأنبياء، فهو إذاً مِثْلُهم أشجعُ الناسِ، بل هو أشجعُ الأنبياءِ، لأنه أُرْسِلَ إلى النَّاسِ كافّةً، وقد كان الأنبياءُ قَبْلَه يُرسَلون إلى أَقْوَامِهم خاصّةً. والحِكمَةُ الإلهِيَّةُ تَأْبَى أنْ تُسَوِّيَ في الشَّجَاعةِ بين مَن يَقِفُ أَمامَ طائِفَةٍ مِن النَّاسِ بِمَنْ يَقِفُ أَمَامَ كُلِّ النَّاسِ.

وقد كان له عليه الصّلاة والسّلام مِن الشّجَاعةِ والإقدامِ والثَّباتِ أَمَامَ الأَهْوَالِ في أَشَدِّها النَّصِيبُ الأَوْفَرُ والمَرْتَبَةُ العُلْيَا التي لا يُدَانِيهِ فيها أحدٌ، ولا يَعلَمُ مِقْدَارَ سُمُوِّها إلَّا مَن وَهَبَها جلّ شأنُه، ولهذا حَضَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما حَضَرَ مِن الغَزَوَاتِ وما حُفِظَ عنه مَرَّةً أنه هَمَّ بِالتَّأَخُّرِ عن مَقامِه قَدَماً أو إصْبَعاً. الأمرُ الذي جَعَلَه بين أصحابِه مِلْءَ العُيُونِ والصُّدُورِ قائِداً مُطَاعاً يَبْتَدِرُ الصَّغيرُ منهم والكَبِيرُ إشارَتَه، لا لأنّه رَسُولُ اللهِ فحَسْبُ، بل لِمَا كانوا يَرَوْنَ منه مِن الشَّجَاعةِ الّتي كانوا يَرَوْنَ

(١) سورة هود: ٥٤-٥٥.

(٢) سورة الشعراء: ٦١-٦٢.



أَنْفُسَهم بِالنِّسْبَةِ لها عَدَماً صِرْفاً، وفيهم الأَبْطالُ الذين كانت تُضرَبُ بِشَجاعَتِهم الأَمْثَالُ.

قال حُجّة الإسلام الإمام الغَزالي رحمه الله في إحياء علوم الدين (٤٤٩/٢): «كان صلى الله عليه و سلم أَنْجَدَ النَّاسِ وأَشْجَعَهم، قال عليٌّ رضي الله عنه: لقد رَأَيْتَنِي يومَ بَدْرٍ ونَحْنُ نَلُوذُ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وهو أَقْرَبُنَا إلى العدوّ، وكان مِن أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْساً، وقال أيضاً: كُنَّا إذا احْمَرَّ البَأْسُ[1]، ولَقِيَ القومُ القومَ اتّقَيْنا بِرسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحدٌ أَقْرَبَ إلى العدوِّ منه[2].

قيل: وكان صلى الله عليه وسلم قليلَ الكلامِ، قليلَ الحديثِ، فإذا أَمَرَ النَّاسَ بِالقِتال تَشَمَّرَ، وكان مِن أَشَدِّ الناسِ بَأْساً، وكان الشُّجَاعُ هو الذي يَقرُبُ منه في الحَرْبِ لِقُرْبِه مِن العدوّ. وقال عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: ما لَقِيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَتِيبَةً إلّا كان أَوَّلَ مَن يَضرِبُ، وقالوا كان قَوِيَّ البَطْشِ، ولمّا غَشِيَه المُشرِكون[3] نَزَلَ عن بَغْلَتِه، فجَعَلَ يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِب»[4]، فما رُؤِيَ يومئذٍ أحدٌ كان أَشَدَّ منه».

---

(١) أي اشْتَدَّ الكَرْبُ في الحرب. لأن قوله: (احمرّ البأس) كنايةٌ عن اشتدادِ الحربِ واحمِرارِها، إمّا لِحَمْرَةِ الدَّمِ وجَرَيَانِه مِن الجِرَاحِ والقَتْلِ، أو لِاستِعارِ الحربِ واشتِعالِها كاحْمِرارِ الجَمْرِ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «حَمِيَ الْوَطِيسُ».

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد: (١٣٤٧). ومِثلُه قولُ البَراء رضي الله عنه: «كُنّا واللهِ إذا حَمِيَ البَأْسُ نَتَّقِي به، وإنّ الشُّجَاعَ مِنّا لَلَّذِي يُحاذِي به. يعني النبيَّ صلى الله عليه و سلم». (صحيح مسلم: ١٧٧٦)

(٣) يوم حُنَين.

(٤) قال الزَّبِيدِيّ رحمه الله في شرحه على إحياء علوم الدين: «معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبَ) أي حَقّاً فلا أَفِرّ ـ لا أَخافُ ـ ولا أَزَالُ، أي: صِفَةُ النُّبُوَّةِ يَستحِيلُ معها الكَذِبُ، فكأنه قال: أَنَا النَّبِيُّ والنبيُّ لا يَكذِبُ، لَسْتُ بِكاذِبٍ فيما أَقُولُ حتّى أَنْهَزِمَ، بل أَنَا مُتَيَقِّنٌ أنّ ما وَعَدَنِي الله تعالى مِن النَّصْرِ حَقٌّ، فلا يَجوز عَلَيَّ الفِرارُ أَنَا ابنُ عبدِ المُطَّلِب... انْتَسَبَ لِجَدِّه عبدِ المُطَّلِب دون أَبِيهِ لأنه تُوُفِّيَ شَابًّا في حياةِ أَبِيهِ عبدِ المُطَّلِب فلم يَشْتَهِر كاشتِهارِ أَبِيهِ، وكان عبدُ المطّلبِ سَيِّدَ قُرَيْش وسَيِّدَ أهلِ مَكَّة، ومِن ثَمَّ نُسِبَ إليه صلى الله عليه وسلم في نحوِ قولِ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ: أَيُّكُم ابنُ عبدِ المُطَّلِب».

قال العلّامة المُناوي في فيض القدير: «قد ثَبَتَتْ أَشْجَعِيَّتُه بِالتَّوَاتُرِ النَّقْلِيِّ، قال المُصَنِّفُ -يَعنِي الإمامَ السُّيوطِيَّ-: بل يُؤْخَذُ ذلك مِن النَّصِّ القُرْآنِيِّ لِقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ** ﴾[1] فَكَلَّفَه وهو فَرْدٌ جِهادَ الكُلِّ و﴿ **لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلَّا وُسْعَهَا** ﴾[2]، ولا ضَيْرَ في كونِ المرادِ: هو ومَن معه، إذ غايَتُه أنه قُوبِلَ بالجَمْعِ، وذلك مُفِيدٌ للمَقصودِ».[3]

ومِن ذلك ما أَخْبَرَه جابر بنُ عبد الله رضي الله عنهما : إذ يقول: أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَحْتَ سَمُرَةٍ، وعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، ونِمْنَا نَوْمَةً، فإِذَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَدْعُونَا، وإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: **إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عليّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فقُلْتُ: اللهُ** -ثلاثاً-. ولَمْ يُعاقِبْهُ وجَلَسَ[4].

ومِن ذلك ما رُوِيَ عن أنسٍ رضي الله عنه أنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ. وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُم النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ: (لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا) وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ؛

---

(١) سورة التوبة: ٧٣، وسورة التحريم:٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) انظر: فيض القدير، رقم الحديث: ٦٤٧٧.

(٤) رواه البخاري: ٢٩١٠. قوله: (قفل) رَجَع (اَلْقَائِلَةُ) النَّوْمُ وقتَ الظَّهِيرَةِ (العضاه) شَجَرٌ عَظِيمٌ له شَوْكٌ (تحت سمرة) السَّمُرَةُ واحدةُ السَّمُرِ، وهو مِن شَجَرِ الطَّلْحِ (اخترط علي سيفي) كَشَفَه وسَلَّه مِن غِمْدِه (صلتا) مُصْلَتاً مَكْشُوفاً مُجَرَّداً عن غِمْدِه (من يمنعك مني) استفهامٌ يَتَضَمَّنُ النَّفْيَ، كأنّه قال: لا مانِعَ لك مِنِّي. (فقلتُ: الله) أي يَمْنَعُنِي مِنك (ثلاثًا) أي قال له ذلك ثلاثَ مَرَّاتٍ (ولم يعاقبه) ولم يُعاقِب النبيُّ صلى الله عليه وسلم الأَعْرَابِيَّ المَذْكُورَ (وجلس) حالٌ مِن المَفعولِ.

فَقَالَ: (لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْراً.) أَوْ (إِنَّهُ لَبَحْرٌ.)[1]

قال اللهُ سُبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[2] أي يَحسُنُ الاقتِداءُ به صلى الله عليه وسلم في ثَبَاتِه ومُقَاسَاتِه الشَّدَائِدَ في سَبِيلِ اللهِ تعالى، بل سَائِرِ أَحْوَالِه، فاقْتَدُوا به فيها.

فإذاً ينبغي على المُسلِم أن يُقْدِمَ على الحَرْبِ بِقَلْبٍ جَرِيءٍ لا يُبالِي بِشيءٍ مِن شِدَّةِ الحربِ ومَعَرَّةِ القتالِ، ويَدفَعَ عن قَلْبِه وَسْوَاسَ الشَّيْطَانِ بِقِراءَةِ هذه الآيَةِ: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[3]، ويَعلَمَ أنّ الجُبْنَ لا يُؤَخِّرُ أَجَلَه، والإقدَامَ على القِتالِ لا يُعَجِّلُ مَوْتَه.

* * * * *

---

(١) رواه البخاري: ٦٠٣٣.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في «فتح الباري» : (كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أحسن النّاس) أي أحسنَهم خَلْقاً وخُلُقاً (وأجود النّاس) أي أكثرَهم بَذْلاً لِمَا يَقدِرُ عليه (وأشجع النّاس) أي أكثرَهم إقداماً مع عدمِ الفِرار.. واقتصارُ أَنَسٍ على هذه الأَوْصافِ الثَّلاثِ مِن جَوَامِعِ الكَلِمِ، لأنها أُمَّهاتُ الأخلاقِ، فإنّ في كلِّ إنسانٍ ثلاثَ قُوًى: أحدها: الغَضَبِيّةُ وكَمالُها الشَّجاعَةُ، ثانيها: الشَّهْوَانِيّةُ وكَمالُها الجُودُ، ثالثها: العَقْلِيّةُ وكَمالُها النُّطْقُ بِالحِكْمَةِ، وقد أشارَ أنسٌ إلى ذلك بقوله (أحسن النّاس) لأن الحُسْنَ يَشمَلُ القولَ والفعلَ، ويَحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بِأحسن النّاس حُسْنَ الخِلْقَةِ وهو تابعٌ لِاعتدالِ المِزاجِ الذي يَتْبَعُ صَفَاءَ النَّفْسِ الذي منه جَوْدَةُ القَرِيحَةِ التي تَنْشَأُ عنها الحِكمَةُ قاله الكَرْمَانِيُّ، وقوله (فزع أهل المدينة) أي سَمِعُوا صَوْتاً في الليلِ فخَافُوا أنْ يَهْجُمَ عليهم عدوٌّ، وقوله (فاستقبلهم النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، قد سبق النّاس إلى الصوت) أي أنّه سَبَقَ فاسْتَكْشَفَ الخَبَرَ، فلم يَجِدْ ما يُخافُ منه فرَجَعَ يُسَكِّنُهم، وقوله: (لن تراعوا) هي كلمةٌ تُقال عند تَسكِينِ الرَّوْعِ تَأْنِيساً، وإظهاراً للرِّفْقِ بالمُخَاطَبِ (عُرْي) أي بِغَيْرِ سَرْجٍ.

(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

(٣) سورة التوبة: ٥١.

أُعْطِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مع النُّبوّة فضيلةَ الشّهَادَةِ

ذَكَرَ الإمامُ السيوطي رحمه الله في كتابه «الخَصائِص الكُبْرَى» في (باب إعطائه صلى الله عليه وسلم مع النبوّةِ فضيلةَ الشّهادَةِ) الأَحادِيثَ، فمِنْهَا ما رَوَتْهُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها قالتْ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ « يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ(١) وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ ».(٢)

وما أَخْرَجه الحاكِمُ وصَحَّحَه عن أُمِّ مُبَشِّرٍ رضي الله عنها قالتْ: دَخَلْتُ على رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآلِه وسلم في وَجَعِه الذي قُبِضَ فيه فقُلْتُ: بِأَبي أنت يا رَسُولَ اللهِ ما تَتَّهِمُ بنَفْسِك؟ فَإِنِّي لا أَتَّهِمُ بِابْنِي إلّا الطَّعَامَ الذي أَكَلَه مَعَك بِخَيْبَرَ -وكان ابنُها بِشْرُ بنُ البَرَاءِ بنِ مَعرُورٍ ماتَ قَبْلَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم-، فقال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: «**وأنا لا أَتَّهِمُ غيرَها، هذا أَوَانُ انقِطَاعِ أَبْهَرِي**».

---

(١) (فهذا أوان) مبتدأٌ وخبرٌ، وقيل أَوَانَ بالفتح على الظرفية وبُنِيَتْ على الفتح لِإضافَتِها إلى مَبْنِيٍّ وهو المَاضي، لأنّ المُضافَ والمُضافَ إليه كالشَّيْءِ الواحِدِ.

(٢) رواه البخاري: ٤٤٢٧. قوله: (مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعامِ) أي أَحُسُّ الأَلَمَ في جَوْفِي بِسَبَبِ الطَّعامِ المَسْمُومِ، وهو الشّاةُ المَسْمُومَةُ التي أُهْدِيَتْ له (أوان) وقت وحين (وجدت) شَعَرْتُ (انقطاع أبهري) قُرْبَ انقِطَاعِهِ. الأَبْهَرُ: عِرْقٌ مُرْتَبِطٌ بِالقَلْبِ إذا انْقَطَعَ مَاتَ الإنسانُ.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ، أُهْدِيَتْ للنبيّ صلى الله عليه وسلم شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النبيّ صلى الله عليه وسلم: (**اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِن يَهُودَ**)، فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ (لهم): (**إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟**)، قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُمْ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (**مَنْ أَبُوكُمْ؟**)، قَالُوا: فُلانٌ، فقالَ: (**كَذَبْتُمْ، بل أَبُوكُم فُلانٌ**)، قَالُوا: صَدَقْتَ. قَالَ: (**فَهَلْ أَنْتُم صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟**)، فقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لهم: (**مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟**)، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيراً، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (**اخْسَؤُوا فيها، واللهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَداً**)، ثُمَّ قَالَ: (**هَلْ أَنْتُم صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟**)، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: (**هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمّاً؟**)، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: (**مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟**) قَالُوا: (أَرَدْنَا) إِنْ كُنْتَ كَاذِباً أَنْ نَسْتَرِيحَ (مِنْكَ)، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيّاً لَمْ تَضُرَّكَ. (رواه البخاري: ٣١٦٩).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: « لَأَنْ أَحْلِفَ تِسْعاً أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قُتِلَ قَتْلاً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ وَاحِدَةً أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ جَعَلَهُ نَبِيّاً، وَاتَّخَذَهُ شَهِيداً..»(١)

وذكر السيوطي رحمه الله أَحَادِيثَ أُخَرَ فَرَاجِعْ هُنَاكَ إِنْ شِئتَ.(٢)

* * * * *

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (٣٦١٧-٣٨٧٣-٤١٣٩)، والحاكم في مستدركه (٤٣٩٤)، وأبو داود في سُنَنه (٤٥١٣).

قوله: (قُتِلَ قتلاً) بِسُمّ ما تَنَاوَلَ مِن الذِّرَاعِ؛ بِأَنْ ظَهَرَتْ آثارُهُ عند الوَفاةِ، ولا يُنَافِي ذلك قولَه تعالى: ﴿واللهُ يَعصِمُكَ مِن النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧)؛ إذ يَكْفِي فيه العِصْمَةُ عن القَتْلِ على الوَجْهِ المُعْتَادِ فيه، وقد عُصِمَ منه صلى الله عليه وسلم بِلَا رَيْبٍ. وقولُه: (وذلك بأنّ اللهَ..) أي: ذلك لِمَا فيه مِن إظهارِ شَرَفِه ومَكانَتِه عند اللهِ بأنّه نَبِيٌّ وشَهِيدٌ، ولا شَكَّ أنّ غَايَةَ الاجتهادِ في إظهارِ شَرَفِه خَيْرٌ مِن قِلَّةِ الاجتهادِ. (ذَكَرَه السِّندي في حاشيته على مسند الإمام أحمد بن حنبل)

(٢) الخصائص الكبرى، للسيوطي ج:٢ ص:٤٧٣-٤٧٤.

كمال قيادته الحربية

والنَّاظِرُ في سِيرَتِه صلى الله عليه وسلم وفي غَزَوَاتِه ومُعَامَلاتِه لِأَعْدَائِه يَرَى مَوَاقِفَ كثيرةً تَدُلّ على عَظِيمِ قِيادَتِه، وكَمالِ مَعرفتِه، وخِبْرَتِه بِأَسَالِيبِ الحُرُوبِ، وإدَارَتِه للجُيُوشِ، مع أنّه لم يَتَعَلَّم الفُنُونَ الحَرْبِيَّةَ ولا الهَنْدَسَةَ العَسْكَرِيَّةَ في مَدْرَسَةٍ أو كُلِّيَّةٍ، وتَتَجَلَّى تلك الصُّوَرُ في المَعارِكِ الحَرْبِيَّةِ التي خَاضَها، وفي الخُطَطِ الدِّفَاعِيَّةِ التي رَسَمَها، والنُظُمِ الحَرْبِيَّةِ التي سَنَّها.

ولم تكن سِياسَتُه سياسةَ اعتِداءٍ وقَهْرٍ وظُلْمٍ، وإنّما كانت سِياسَةَ جهادٍ ورَحْمَةٍ وعَدْلٍ، وإيصالِ نُورِ الإسلامِ لِلأُمَمِ المَقْهُورَةِ، وكَسْرِ شَوْكَةِ الكُفْرِ، وإقامَةِ حكمِ اللهِ في الأَرْضِ.. وبذلك جَمَع الله له بين كَمالِ الأَخْلاقِ وحُسْنِ السِّياسَةِ وتَصْرِيفِ الأُمورِ ووَضْعِها في مَوَاضِعِها.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يَرْعَى بِنَفْسِه تَنظِيمَ الجَيْشِ واستِعْرَاضَ الجُنُودِ وتَعدِيلَ الصُّفُوفِ وتَرْتِيبَ الأَجْنِحَةِ، ويَضَعُ الحَامِيَةَ في مُؤَخِّرَةِ المُسلِمين، فكان في مُقَدِّمَةِ المُخَطِّطِين لِفُنُونِ القِتالِ وطَرَائِقِه آخِذاً بِالأسباب التي تُسَاعِدُ على خِذْلانِ الأَعْداءِ وهَزِيمَتِهم بإيقاعِ الفِتْنَةِ بينهم وتَشتِيتِ شَمْلِهم وكَسْرِ ظَهْرِهم والتَّضْيِيقِ عليهم..

ومِن مَوَاقِفِه القِيادِيّة المَشهُورَةِ في هذا المَيْدَانِ إرسالُه مَن يُخَذِّلُ بين صُفُوفِ أعدائِه مُخادَعَةً لهم كما قال صلى الله عليه وسلم: «**الحَرْبُ خَدْعَةٌ**».(١)

(١) رواه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩) وغيرهما.

قال الإمام النووي رحمه الله: «قوله: (خدعة) فيها ثلاثُ لُغاتٍ مَشهُورَاتٍ، اتّفَقُوا على أنّ أَفْصَحَهنّ خَدْعَةٌ، قال ثَعْلَب وغيرُه: وهي لُغَةُ النبيّ صلى الله عليه و سلم».

خَدْعَةٌ: وهي المَرّةُ الواحدةُ مِن الخِداع، والمرادُ على ذلك أنّ الحَرْب يَنْقَضِي أَمْرُها بخدعةٍ واحدةٍ، فإنّها قد تَقُومُ مَقامَ الحربِ. وقِيل: أنّ مَن خُدِعَ فيها مرّةً واحدةً عُطِبَ وهَلَك ولا عَوْدَةَ له، وقِيل: أي الحربُ خَدْعةٌ واحدةٌ مَن تَيَسَّرَتْ له حُقَّ له الظَّفَرُ، وقيل معناه: استَعمِل الحِيلةَ في الحربِ ما أَمْكَنَكَ ولو مَرَّةً، فإذا أَعْيَتْكَ الحِيَلُ فَقَاتِلْ. وذَكَر بعضُهم:أن الحِكْمَةَ في الإتيانِ بالتاء الدّلالةُ على الوَحْدَةِ، فإنّ الخِداعَ إن كان مِن المُسلِمين فكأنه حَضَّهُم على ذلك ولو مَرّةً واحدةً، وإن كان مِن الكُفّار فكأنه حَذَّرَهم مِن مَكْرِهم ولو وَقَعَ مَرّةً واحدةً، فلا ينبغي التَّهَاوُنُ بهم لِمَا يَنْشَأُ عنه مِن المَفسَدَةِ ولو قَلّ. =

وكان يَلبِسُ الدِّرْعَ والْبَيْضَةَ[1]، ويَتَقَلَّدُ السَّيفَ، ويَحمِلُ الرُّمْحَ والقَوْسَ العَرَبِيَّةَ، وكان يَتَتَرَّسُ بِالتُّرْسِ.. وكان يُشَاوِرُ أَصْحَابَه في أمرِ الجهادِ، وأمرِ العَدُوِّ..

وقد كان صلى الله عليه وسلم يُلَبِّسُ أُمُورَ الحربِ على أعدائِه ويُعَمِّيها عنهم كيلا يَتَفَطَّنُوا لها ويَسْتَعِدُّوا لِلدَّفْعِ أو يَزِيدُوا في الجَمْعِ، وفي ذلك حَقْنٌ لِلدِّماءِ.

يقول كَعْبُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُرِيدُ غَزْوَةً

= خُدْعَةٌ: وهي اسمٌ مِن الخِداع، والمراد حينئذٍ أنّ الحربَ تَشتَمِل على الخِداع، فيَخدَعُ كلُّ فريقٍ مُقابِلَه، كأنها عبارةٌ عن الخِداع. قال الشيخ التوربشتي رحمه الله: أي مُعظَمُ ذلك المَكْرُ والخَدِيعةُ.

خُدَعَةٌ: وهي مُبالَغةٌ مِن الخِداع، مِثلُ هُمَزَة، ولُمَزَة، وضُحَكَة، للذي يُكثِر الضَّحِكَ، والمعنى على هذا: أنّ الحرب تُكثِرُ مِن الخِداع، فتَخدَعُ الرِّجالَ وتُمَنِّيهم، ولا تَفِي لهم.

وزاد بعضُ العلماء لُغَتَينِ سِوَى ما ذُكِرَ، وهما: «خَدَعَةٌ» و«خِدْعَةٌ»، وللاستزادة ارجع إلى فتح المُلهِم بشرح صحيح الإمام مسلم.

ورجّح الخَطّابِيّ وابنُ الأَثِير والنووي وأكثرُ العلماء الوَجْهَ الأَوَّلَ (يعني: خَدْعَة)، ورَجَّحَ الشيخُ الكَشْمِيرِيّ رحمه الله الوَجْهَ الثالِثَ (يعني: خُدَعَة)، فقال: «الأبلغُ فيه أن يكونَ صِيغةَ مُبالغةٍ مِن اسمِ الفاعل. والمرادُ أَنَّ الحربَ لا تُدْرَى عاقِبتُها، ولا يَتَأَتَّى فيها الاعتِمادُ على الأسباب، فإنَّه قد تَبْدُو النُّصْرَةُ في أَوَّلِ الأَمْرِ، ثُمّ تَنقلِبُ هَزِيمَةً، وقد تَنعكِسُ». (فيض الباري شرح صحيح البخاري: ٣/٤٥)

وقال العسقلاني رحمه الله: «وفيه التحريضُ على أَخْذِ الحَذَرِ في الحرب، والنَّدْبُ إلى خِداعِ الكفّار، وأنّ مَن لم يَتَيَقّظ لذلك لم يَأْمَنْ أن يَنعكِسَ الأمرُ عليه، قال النووي: واتَّفَقُوا على جوازِ خِداعِ الكفّارِ في الحرب كَيْفَما أَمْكَنَ، إلّا أن يكون فيه نَقْضُ عَهْدٍ أو أَمَانٍ فلا يجوز.

قال ابن العربي: الخِداع في الحرب يَقَعُ بالتعريضِ وبالكَمِينِ ونحوِ ذلك. وفي الحديث الإشارةُ إلى استعمالِ الرَّأْيِ في الحرب، بل الاحتياجُ إليه آكَدُ مِن الشَّجاعة، ولهذا وقع الاقتصارُ على ما يُشِيرُ إليه بهذا الحديث، وهو كقوله «الحَجُّ عَرَفَةٌ»، قال ابنُ المنير: معنى «الحربُ خدعةٌ» أي الحربُ الجَيِّدَةُ لِصاحِبِها الكامِلةُ في مَقصُودِها إنّما هي المُخادَعَةُ لا المُوَاجَهَةُ، وذلك لِخَطَرِ المُوَاجَهَةِ وحُصُولِ الظَّفَرِ مع المُخَادَعَةِ بغيرِ خَطَرٍ» [لذا نَرَى الكُفّارَ مُنذ زَمَنٍ طَوِيلٍ يَزْرَعُونَ بُذُورَ الفِتْنَةِ بين المسلمين لِيَقتُلَ بعضُهم بعضاً، ومع هذا يَهْتَمُّونَ بِصِناعةِ الطَّائِرَاتِ بِدُونِ طَيّارٍ، والصَّوَارِيخِ التي تُرْمَى مِن مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ..، وكلُّ ذلك لِعِلْمِهم خَطَرَ المُوَاجَهَةِ لِلمسلمين]. (انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم الحديث: ٣٠٣٠، وصحيح مسلم بشرح النووي، رقم الحديث: ١٧٣٩، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، رقم الحديث:١٣٥٢)

(١) البَيْضَةُ: هي الخُوذَةُ مِن الحديد يَضَعُها المُقاتِلُ على رَأْسِه لِيَحْمِيَهُ مِن الضَّرباتِ .

إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا(١) حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ(٢) غَزَاهَا..»(٣)

وكان صلى الله عليه وسلم أيضاً يَهْتَمُّ بِمعرفةِ حالةِ أَعْدَائه وعَدَدِهم واستِعدادِهم وأَخْبارِهِم قَبْلَ لِقَائِهم، وكان يَبْعَثُ العُيُونَ يَأْتُونَه بِخَبَرِ عَدُوِّهِ، ويطلع الطَّلَائِع، ويبيت الحرس..

وكان صلى الله عليه وسلم يُحَرِّضُ الجَيْشَ على القِتال كما في قوله: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ هَذِهِ أَوْبَاشُ قُرَيْشٍ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَداً فَاحْصُدُوهُمْ حَصْداً..»(٤).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا لَقِيَ عَدُوَّهُ وَقَفَ ودَعَا واسْتَنْصَرَ الله(٥)، وأَكْثَرَ هو وأصحابُه مِن ذِكرِ الله، وخَفَضُوا أَصْوَاتَهم..

ومِن سِياسته صلى الله عليه وسلم أَخْذُه بِالتَّهْدِيدِ والتَّخْوِيفِ لِأَعْدَائِه قَبْلَ لِقائِه بهم، فمِثالُ ذلك أنه لمّا وَصَلَ إلى وَادِي فَاطِمَة يومَ الفَتْحِ أَمَر أن يُوقِدَ كلُّ مُسلمٍ ناراً لِتَرَاهَا قُرَيْشٌ فتُرْعَبَ مِن كَثْرَتِها، فَأَوْقَدُوا النِّيرَانَ، فأُوقِدَتْ عَشرَةُ آلافِ نَارٍ، وأَضَاءَ مِنها الوادي، حتى أنّ أبا سُفْيَانَ لمّا أَبْصَرَ هذه النَّارَ الكثيرةَ دَخَلَ قَلْبَه الرُّعْبَ فقال: ما رأيتُ كالليلةِ نِيرَاناً قَطُّ ولا عَسْكَراً..(٦)

فهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قُدْوَةً لِأُمَّتِه يُهْتَدَى به إلى يوم القيامة، وهذا الذي ذكرْنَاه آنِفاً نُبْذَةٌ يَسِيرَةٌ مِن سِيرَتِه صلى الله عليه وسلم، ومِن بابِ:

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّداً بِمَقَالَتِي لكنْ مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّدٍ. ﷺ

---

(١) أي أَوْهَمَ غَيْرَها. فيَقول مَثَلاً إِذَا أَرَادَ غَزْوَةَ حُنَيْن: كيف طَرِيقُ نَجْدٍ ومِيَاهُها، ومَن بها مِن العَدُوِّ ونحو ذلك. قال في النِّهاية: وَرَّى بِغَيْرِه أي سَتَرَه، وكَنَّى عنه، وأَوْهَمَ أنّه يُرِيدُ غيرَه، وأَصْلُه مِن الوراء، أي أَلْقَى البَيانَ وَرَاءَ ظَهْرِه. قال ابنُ المَلَك: أي سَتَرَها بِغَيْرِها، وأَظْهَرَ أنّه يُرِيدُ غيرَها، لِمَا فيه مِن الحَزْمِ وإغفالِ العَدُوّ والأَمْنِ مِن جَاسُوسٍ يَطَّلِعُ على ذلك فيُخبِرُ به العدوَّ.. (مرقاة المفاتيح)

(٢) أي غزوةُ تَبُوك.

(٣) صحيح البخاري: ٤٤١٨. (المائدة : ٣٢)

(٤) الأوباش: الجماعات والأخلاطُ مِن قَبَائل شتّى. وقوله: (فاحصدوهم) أي استأصلوهم بالقتل.

(٥) ومِن دُعَائِهِ صلى الله عليه وسلم: «اللهمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أُقَاتِلُ»، «اللهمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، هَازِمِ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ»، «اللهمّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ»، «اللهمّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ».. إلى غير ذلك مِن الأدعية والأذكار.

(٦) لِمعرفة تَفاصِيلِ فَتْحِ مَكَّة ارجِع إلى كُتُبِ السِّيَر.

ما هو واجِبُنَا لِمُوَاجَهَةِ أعداءِ الإسلامِ والمُسلمين؟:

فإذا أَرَدْنا أن نَنجَحَ اليومَ في قِتالِ الكُفّار يَجِبُ أن نكون أَقْوِيَاءَ مِن كلِّ النَّوَاحِي؛ دِيناً وخُلُقاً ودَوْلةً وسِياسَةً واقتِصاداً وصِناعَةً...

ويجب أن نَعرِفَ مَن هو عدوُّنا وما مَدَى قُوَّتِه، وأن نَعرِفَ أَسَالِيبَ الحَرْبِ معه، وهذا يَختلِفُ باختِلافِ الزَّمانِ والمَكانِ، فعَلَى سَبِيلِ المِثالِ: مُنذ زمنٍ قريبٍ كانت الغَاباتُ والمَغارَاتُ مَخْبَأً يَحْتَمِي به بعضُ المجاهدين مِن أَعْيُنِ أَعدائِهم، ولكنْ في زَمَانِنَا لم يَعُدْ هذا الشيءُ مُمكِناً، فقد أَصْبَحَ الأعداءُ يَرَوْنَهم مِن الفَضَاءِ بِوَاسِطَةِ الأَقْمارِ الصِّناعِيَّةِ أو الطَّائِراتِ بِدُونِ الطَّيَّار التي يَتَحَكَّمُونَ بها مِن قَوَاعِدِهم ـولو كانت بَعِيدَةًـ، فيَقْتُلُونَهم دُون أن يَعرِف المُجاهِدون أَيْنَ العَدُوُّ؟ ومِن أَيْنَ جاءَتِ الصَّوَارِيخُ![1].

ومثالٌ آخَر: الكفّارُ في جميعِ أَنْحاءِ العالَمِ يُقاتِلُونَنا مُجْتَمِعِينَ ومُتَّفِقِينَ -فَمِن المَعلومِ: أنّ الكُفْرَ مِلَّةٌ واحدةٌ-، ويَزْرَعُونَ بين المسلمين بُذُورَ الفِتْنَةِ والعَدَاوَةِ، ونَرَاهم أَحْيَاناً يُمِدُّون بعضَ المسلمين بالأَسْلِحَةِ، مع جَهْلِهم بِأَنّ هذه الأَسْلِحَةَ قد أُعْطِيَتْ لهم لِيَقتُلَ بعضُهم بعضاً، لأنّ الكفّارَ لمّا عَرَفُوا أنّ بِقِتالِهم المُسلمِين يَمُوتُ عَدَدٌ مِن أَفْرَادِ شَعْبِهم بَدَّلُوا أُسْلُوبَهم مِن القِتالِ وَجْهاً لِوَجْهٍ إلى القِتَالِ بِالصَّوَارِيخ مِن بَعِيدٍ وبالطَّائِرَاتِ بِدُونِ الطَّيَّارِ و..و..

وعَرَفُوا أنّ الأَفْضَلَ مِن كُلِّ هذا ضَرْبُ المسلمين بَعضِهم بِبَعضٍ بِإِشْعالِ الفِتْنَةِ بينهم، ولِتحقيقِ هذا الهَدَفِ يُسَخِّرُونَ ويَستَغِلُّونَ العَصَبِيَّاتِ والقَوْمِيَّاتِ والنَّعَرَاتِ الطَّائِفِيَّةِ.. فبهذه الطَّرِيقَةِ يَقتُلُ المسلمون بعضُهم بعضاً بِدُونِ أنْ يَمُوتَ أَحَدٌ مِن الكُفّار، كما نُشاهِدُه اليومَ في سُورِيّة والعراق وغيرِهما مِن البِلاد[2].

(١) هُمْ يَتَفَوَّقُونَ على المُسلِمين بهذه الوَسَائِلِ المُتَطَوِّرَةِ، فَهُمْ جُبَنَاءُ، بِدُونِها قَدْ لا يَقْوَوْنَ على لِقَاءِنَا وَجْهاً لِوَجْهٍ.

(٢) ومِن أَكْبَرِ بُذُورِ الفِتْنَةِ التي يَزْرَعُونَها بين المُسلِمين هي فِتْنَةُ التَّكْفِيرِ!!. لِذا نُرِيدُ أَنْ نَتَكَلَّمَ عن مَسْأَلَةِ التَّكْفِيرِ بِإِخْتِصَارٍ شَدِيدٍ: يَجِبُ أَنْ نَعلَمَ: أَنّ التَّكْفِيرَ الذي لا يَقوم على الأدلّةِ الشَّرْعِيَّةِ إنّما هو ذَنْبٌ عَظِيمٌ، مُهلِكٌ لِصاحِبِه. فالوَاجِبُ الاحتياطُ والتَّأَنِّي والتَّثَبُّتُ وعَدَمُ التَّسَرُّعِ في التَّكفِيرِ إلّا بعد انْجِلاءِ الحقيقةِ. ولِذلك نُحَذِّرُ المُسلِمِين مِن الذين يُكَفِّرُونَ إِخوَانَهم المُسلِمين لِأَهْوَنِ الأَسْبابِ، فَيَسْتَبِيحُونَ دِمَائَهم وأَعْرَاضَهم وأَمْوَالَهم.. ونُذَكِّرُ هؤلاء التَّكْفِيرِيِّينَ بِقولِه تعالى: ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾. ونَسأَلُ اللهَ تعالى أَنْ يَحفَظَ الأُمَّةَ مِن شَرِّهِم.

جاءَ في الدر المختار: «واعلَمْ أنه لا يُفْتى بِكُفْرِ مُسْلِمٍ أَمْكَنَ حَمْلُ كَلامِه على مَحْمَلٍ حَسَنٍ، أو كان في كُفْرِه خِلافٌ، ولو كان ذلك رِوَايَةً ضَعِيفَةً، وفي «الدُّرَر» وغيرِها: إذَا كَانَ فِي الْمَسْأَلَةِ وُجُوهٌ تُوجِبُ الكُفْرَ وَوَجْهٌ وَاحِدٌ يَمْنَعُهُ فعلى المُفْتِي أَنْ يَمِيلَ لِمَا يَمنَعُه». (للاستزادة ارجِعْ إلى حاشية ابن عابدين، باب المُرْتَدّ). وسيأتي التفصيل ص:١٢٦ =

وهناك أَمْثِلَةٌ أُخْرَى لِحِيَلِ الكُفّارِ ومَكْرِهِم بالمسلمين، لكنَّنَا لا نُرِيدُ أن نُطِيلَ الكلامَ، فنقول: اللّهُمَّ احْفَظْنَا مِن شَرّهِم، ورُدَّنا إلى دِينِنا رَدًّا جَمِيلاً..

إنّنا اليومَ لَفِي أَمَسِّ الحاجَةِ إلى الوَحْدَةِ والتَّجَمُّعِ لِكَيْ تَتَخَطَّى أُمَّتُنَا عَصْرَ الظُّلُمَاتِ الذي تَتَخَبَّطُ فيه. قال البُرُوسَوِيُّ: «يَنبغي لِلنَّاسِ أَنْ يَكونوا على التَّآلُفِ والتَّوَافُقِ دون التَّبَاغُضِ والتَّفَرُّقِ؛ لأنّ يَدَ اللهِ مع الجَماعة، وإنّما يَأكُلُ الذِّئْبُ الشَّاةَ المُنْفَرِدَةَ. وأَوْصَى حكيمٌ أَوْلادَه عند مَوْتِه، وكانوا جماعةً فقال لهم: ائْتُونِي بِعِصِيٍّ فجَمَعَها، وقال: اكْسِرُوها وهي مَجْمُوعَةٌ، فلم يَقْدِرُوا على ذلك، ثُمَّ فَرَّقَها وقال لهم: خُذُوا وَاحِدَةً واحدةً فاكْسِرُوها، فكَسَرُوها، فقال لهم: هكذا أنتم بَعْدِي لَنْ تُغْلَبُوا ما اجْتَمَعْتُم، فإذا تَفَرَّقْتُم تَمَكَّنَ منكم عَدُوُّكم فأَهْلَكَكُم».

ومِن هنا تَظهَرُ أَهَمِّيَّةُ قولِ شَيْخِنا الشَّيْخ محمود أفندي (حفِظه الله): «يَجِبُ علينا أنْ نُؤسِّسَ في كلِّ حَيٍّ مَدْرَسَةً شَرْعِيَّةً لِلذُّكُورِ وأُخْرَى لِلإناثِ»؛ لأنّ إزالةَ الجَهْلِ عن النَّاسِ يكون سبباً لِسَدِّ أَبْوَابِ الفِتْنَةِ، واجتماعِ صُفُوفِ الأُمَّةِ على مَذْهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ فلا يَقَعُونَ -بإذن اللهِ تعالى- في شِبَاكِ الكُفّارِ، وهذا هو الإعدادُ المَطلوبُ لِتَحقِيقِ النَّصْرِ.

وَيَجِبُ علينا أَنْ نَعلَمَ أيضاً: أن تَربِيَتَنا لِأَوْلادِنَا وشَبَابِنا على العَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ والأَخْلاقِ القَوِيمَةِ، وتَكْثِيرَنا عَدَدَ عُلَمَاءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في بِقَاعِ الأَرْضِ أَقْوَى وأَشَدُّ على الكافِرِين ومَكْرِهم مِن أنْ نَضْرِبَهم بِالقُنْبُلَةِ النَّوَوِيَّةِ، لأنّ ذلك يُفسِدُ كُلَّ مُخَطَّطَاتِهم. لِذا قال كثيرٌ مِن العلماء: «**أعظمُ الجهادِ في هذا العصرِ أَنْ تُنشِئَ طالِبَ العلمِ**». ولا نَعْنِي بهذا أن نَتْرُكَ قِتالَ الكُفَّارِ بالكُلِّيَّةِ، بل نَقْصِدُ أنْ نَعْمَلَ بِأَقْوَى الطُّرُقِ لِنَنْتَصِرَ على الكافِرِين لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا، وكلمةُ الذين كَفَرُوا السُّفْلَى. ومع الأَسَفِ الشَّدِيدِ: لا يَتحدّث المسلمون عن مُصابِهم بِكَارِثَةِ فَقْدِ العلماءِ، وكيف تَتَدَارَكُ الأُمَّةُ مُصَابَها بِوَفاةِ عُلَمَائِها ومَرَاجِعِهم الدِّينيةِ!!، وذلك يكون بتقديمِ النُّجَبَاءِ مِن أَبْنَائِهم إلى طَلَبِ العلمِ الشَّرْعِيِّ، مع تَفرِيغِهم له عن كلِّ مَشغَلَةٍ، وبغيرِ ذلك مِن الوَسائل. وإنّ عَدَمَ تَحَدُّثِهم وتفكيرِهم بِتَدَارُكِ كَارِثَةِ فَقْدِ العلماءِ، لَهُوَ كارثةٌ فوقَ كارثةٍ! وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

= قال حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ الغزالي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد (ص:٣٠٥): «والذي ينبغي أن يَمِيلَ المُحصِّلُ إليه: الاحتِرَازُ مِن التَّكْفِيرِ ما وَجَدَ إليه سَبِيلاً؛ فإنّ استباحةَ الدِّماءِ والأَمْوالِ مِن المُصلِّين إلى القِبْلَةِ المُصَرِّحِينَ بقوله: (لا إله إلّا الله محمد رسول الله) خَطِيرٌ، والخَطأُ في تَرْكِ أَلْفِ كافِرٍ في الحَياةِ أَهْوَنُ مِن الخَطَأِ في سَفْكِ مِحْجَمَةٍ مِن دَمِ مُسلِمٍ».

ولقد رَأَيْنا أَنّ بعضَ المسلمين مِن أَبْنَاءِ بَلَدِنَا ـتُرْكِيّا_ قد ذَهَبُوا إلى أَفْغَانِسْتَان والشِّيشَان وإلى العِراق وسُورية.. للجهاد، وبعضُهم هُنَا ما زَالُوا يُعلِّمُونَ النَّاسَ شَرِيعَةَ اللهِ تعالى وسُنَّةَ نَبِيّه صلى الله عليه وسلم لَيْلاً ونَهاراً، ويَأْمُرُونَهم بِالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَهم عن المُنْكَرِ، وما زَالُوا يَفْتَحُونَ المَدَارِسَ الشَّرْعِيَّةَ في كُلِّ مَكانٍ[1]، ويُدرِّسُون النَّاسَ كُتُبَ علماءِ أهلِ السنةِ والجماعةِ، فيُعَلِّمُونَهم العقيدةَ، والفقهَ، والتفسيرَ، والحديثَ والأخلاقَ وغيرَها مِن العلومِ الشرعيةِ، وكانوا يَخْلُفُونَ فِي أَهْلِ المجاهِدِين بِخَيْرٍ..

فشَاهَدْنَا ثَمَرَةَ هذا الأُسْلُوبِ في إصلاحِ كثيرٍ مِن النّاسِ وعَوْدَتِهم إلى الله تعالى، وصارَتْ ثَمَرَةُ صلاحِ النَّاسِ صلاحَ كثيرٍ مِن رِجالِ الحُكُومَةِ والعَسْكَرِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ للماضي[2]، فحَالُ تُرْكِيّا اليومَ ومَوْقِفُها السِّيَاسِيُّ يَتَحَسَّنُ يوماً بعد يومٍ، لأن النَّاسَ يَعُودُونَ إلى دِينِهم، فيَكْثُرُ فيها عَدَدُ المُتَدَيِّنِينَ، ويَظْهَرُ يوماً بعد يومٍ حقيقةُ حَرَكَةِ أَتَاتُورك اللَّادِينِيَّةِ، وضَرَرُها في المسلمين، ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

وممّا يَجعَل الدُوَلَ الكافِرَةَ في حالةِ خَوْفٍ وذُعْرٍ مِن عَوْدَةِ الخِلافَةِ العُثْمَانِيَّةِ، لِذا يَسْعَوْنَ بِكلّ جُهْدِهم لِإفسَادِ أَهْلِ تركيا ـخاصّةً_ بِإبْعادِهم عن دِينِهم بِاسْمِ التَّطَوُّرِ والتَّحَضُّرِ..و..و.. كما يَفعَلونه في كلِّ بِلادِ الإسلامِ، ولكن هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ.

نَسْأَلُ اللهَ سُبحانه وتعالى أن تُشْرِقَ شَمْسُ الإسلامِ، وأَنْ تَعُودَ الخِلافةُ العُثْمَانِيَّةُ على أَيْدِي أَحْفادِها، ويُحكَمَ في العالَمِ بِما أَنْزَلَ اللهُ تعالى كما كان.. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة الصف: ٨)، ونُذَكِّرُ إخوانَنَا قولَ شَيخِنا (حفظه الله): «العلمُ والعملُ كَجَسَدِ الإنسانِ، والإخلاصُ كرُوحِهِ، فَاجْمَعُوا بين العلمِ والعملِ والإخلاصِ، تَفْتَحُوا الدنيا».[3]

(١) رَسْمِيَّةً كانت أو غيرَ رَسْمِيَّةٍ، حتى أنّهم يَجْعَلُونَ مِن بُيُوتِهم مَدْرَسَةً لِتعليمِ النَّاسِ.

(٢) قال الشّيخ إسماعيل حَقّي البُرُوسَوِيُّ رحمه الله: « إنْ كُنْتُم مِن أهلِ الطَّاعَةِ يُوَلَّ عليكم أهلُ الرَّحمةِ، وإن كُنتم مِن أهلِ المَعصِيَةِ يُوَلَّ عليكم أهلُ العُقُوبَةِ.. قال الحَجَّاجُ بنُ يُوسُف حِينَ قِيل له: لِمَ لا تَعْدِلُ مِثْلَ عُمَرَ رضي الله عنه وأنت قد أَدْرَكْتَ خِلافَتَه، أَفَلَمْ تَرَ عَدْلَه وصَلاحَه؟ فقال في جَوَابِهم: تَبَذَّرُوا أَتَعَمَّرْ لكم، أي: كُونُوا كَأَبِي ذَرٍّ في الزُّهْدِ والتَّقْوَى أُعامِلْكم مُعَامَلَةَ عُمَرَ في العَدْلِ والإنصَافِ. وفيه إشارةٌ إلى أنّ الوُلاةَ إنّما يَكونون على حَسَبِ أَعمالِ الرَّعَايَا وأَحْوَالِهم صَلاحاً وفَساداً..» كما سنذكره مفصلا ص:١١١-١١٢.

(٣) Hikmetli Sözler: 383-384

نَصائِحُ مِن بعضِ الصَّحَابَةِ والمَشَايِخِ للمُجَاهِدِين

كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رضي الله عنه لِسَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنهما ومَن معه مِن الأَجْنادِ وَصِيّةً عُمَرِيّةً، ظَلَّتْ مَحْفُوظةً وكانت مِن أَفضَلِ وَصَايا أُعْطِيَتْ لِجَيْشٍ مِن جُيُوشِ المسلمين، وظَلَّ الأُمَرَاءُ بعد ذلك يُوصُونَ بها جُيُوشَهم، ونحن في أَيّامِنا هذه بِأَمَسِّ الحاجَةِ لِتَطبِيقِ هذه الوَصايا:

«أما بعد: فإنّي آمُرُك ومَن معك مِن الأَجْنادِ بِتَقْوَى اللهِ على كُلِّ حالٍ، فإنّ تقوى اللهِ أفضلُ العُدَّةِ على العَدُوِّ، وأقوى المَكِيدَةِ في الحَرْبِ[1]، وآمُرُك ومَن معك أن تَكونوا أَشَدَّ احْتِرَاساً مِن المَعاصِي مِنكم مِن عَدُوِّكم، فإنّ ذُنُوبَ الجيشِ أَخْوَفُ عليهم مِن عدوِّهم.. وإنّما يُنصَر المسلمون بِمَعْصِيَةِ عَدُوِّهِم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوّةٌ؛ لأن عَدَدَنا ليس كَعددِهم، ولا عُدَّتَنا كعُدَّتِهم، فإن اسْتَوَيْنا في المَعصِيَةِ كان لهم الفَضْلُ علينا في القُوّةِ، وإلّا نُنْصَرْ عليهم بِفَضْلِنَا لم نَغْلِبْهم بِقُوَّتِنَا.

واعلَمُوا أنّ عليكم في سَيْرِكم حَفَظَةً مِن اللهِ، يَعلَمون ما تَفعَلون، فاستَحْيُوا منهم، ولا تَعمَلوا بِمَعاصِي اللهِ وأنتم في سبيل اللهِ[2]، ولا تَقولوا إنّ عَدُوَّنَا شَرٌّ مِنّا فلَنْ يُسَلَّطَ علينا وإنْ أَسَأْنَا؛ فرُبَّ قومٍ قد سُلِّطَ عليهم شرٌّ منهم، كما سُلِّطَ على بَنِي إسرائيلَ ـ لَمَّا عَمِلُوا بِمَسَاخِطِ اللهِ ـ كفّارُ المَجُوسِ ﴿ **فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً** ﴾. واسْأَلُوا اللهَ العَوْنَ على أَنفُسِكم كما تَسْأَلُونَه النَّصْرَ على عدوِّكم، أَسْأَلُ اللهَ ذلك لَنَا ولكم..»[3]

---

(١) في هذا المعنى قال بعضهم: **إذا غَابَتِ التَّقْوَى فالنَّصْرُ لِلأَقْوَى**.

(٢) وكان الفُضَيْلُ بنُ عِياض (رحِمه الله) يقول للمجاهدين إذا أَرَادُوا أَنْ يَخرُجوا إلى الجهاد: «عليكم بِالتَّوْبَةِ؛ فإنّها تَرُدُّ عنكم ما لا تَرُدُّه السُّيُوف».

(٣) العقد الفَريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي، ج:١ ص:١١٧-١١٨.

قال الشيخ إسماعيل حَقِّي البُروسَوِيّ رحمه الله: «واعْلَمْ أنّ الجهادَ مِن أَعظمِ الطَّاعاتِ، ولِذلك لا يَجْتَمِعُ غُبارُ المُجاهِدِ مع دُخَانِ جَهَنَّم، وبِخَطْوَةٍ مِن المُجاهِدِ يُغْفَرُ ذَنْبٌ، وبِأُخْرَى تُكْتَبُ حَسَنَةٌ، ولكنْ يَنبغِي للمُجاهِدِ أَنْ يُصَحِّحَ نِيّتَه ويَثْبُتَ فى مَوَاطِنِ الحَرْبِ، فإنّ بِثَباتِ القَلْبِ والقَدَمِ تَتبَيَّنُ أَقْدَارُ الرِّجالِ..، ويَجْتَنِبَ عن الظُّلْمِ وارْتِكابِ المَعاصِي، فإنّ الغَلَبَةَ على الأَعْداءِ بِالقوّةِ القُدْسِيَّةِ والتَّأْيِيدِ الإلهِيّ، لا بالقوّةِ الجِسْمَانِيَّةِ وكَثْرَةِ العَدَدِ والعُدَدِ، أَلَا يُرَى كيف أَنّ اللهَ تعالى أَيّدَ المُؤمِنِين بِالمَلائِكةِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ مع قِلَّتِهم وكَثْرَةِ الكافِرِين، فَالّذِين جاهَدُوا في سبيلِ اللهِ بِالتُّقَى والصَّبْرِ والثَّباتِ فقد غَلَبُوا على الأعداءِ ووَصَلُوا إلى الدَّرَجاتِ».[١]

كَتَب الإمامُ أحمدُ الفارُوقي السرهندي (رحِمه الله) مَكْتُوباً لِمُحَمَّد مُراد البَدَخْشِيّ في بيانِ لُزومِ تصحيحِ النِّيَّةِ عند الذَّهَابِ إلى مُحارَبَةِ الكُفّارِ فقال: «أَيُّهَا السَّعِيدُ: العَمَلُ إنّما يَصِحُّ بِالنِّيَّةِ، وحيث ذَهَبْتُم إلى جِهادِ كُفّارِ دارِ الحربِ ينبغي أوّلاً تصحيحُ النِّيّةِ حتى يَتَرَتَّبَ عليه النَّتِيجَةُ،

ينبغي أَنْ يكون المَقصودُ مِن الحرب والجِدالِ إعلاءَ كلمةِ اللهِ وتَوْهِينَ أعداءِ الدِّينِ وتَخْرِيبَهم، فَإنّا مَأمُورُون في الجهادِ بِذلك المَقصُودِ فقط، فلا تُبْطِلُوا نِيّاتِكم بِأُمُورٍ أُخَرَ[٢]..

ونحن نَغبِطُ حالَكم حيث إنّكم مَشْغُولُونَ في الباطِنِ بِالحَقِّ سُبحانه وفي الظَّاهِرِ تُؤَدُّونَ الصّلاةَ مع جَماعَةٍ كثيرةٍ، ومع ذلك تَشرَّفْتم بِجِهادِ الكُفّارِ، فَمَنْ سَلِمَ فهو غازٍ ومَن هَلَكَ فهو شَهِيدٌ، ولكنْ كُلُّ ذلك إنّما يُتَصَوَّرُ بعدَ تَصحِيحِ النِّيّةِ، فإنْ لم تَتَحقَّقْ حَقِيقةُ النِّيَّةِ

---

(١) روح البيان، تفسير سورة الأنفال، الآية:٤٥.

(٢) يُرْوَى عن مُجاهِدٍ أنّه قال: غَزَوْتُ في البَحْرِ، فعَرَضَ بَعْضُنَا مِخْلاةً، فقلتُ: أَشْتَرِيها، وأَنْتَفِعُ بها في غَزَاتِي، فإذا دخلتُ مَدِينةَ كذا بِعْتُها فرَبِحْتُ فيها. فاشْتَرَيْتُها فرَأَيْتُ تلك الليلةَ في النَّوْمِ كأنّ شَخْصَيْنِ نَزَلاَ مِن السَّماء، فقال أحدُهما لِصاحِبِه: اكْتُبْ الغُزَاةَ، فأَمْلَى عليه: اكتُبْ: خَرَجَ فُلانٌ مُتنزِّهاً، وفلانٌ مُرائِياً، وفلانٌ تاجِراً، وفلانٌ في سبيل الله، ثم نَظَر إليّ فقال: اكتُبْ: خَرَج فلانٌ تاجِراً. فقلتُ: اللهَ اللهَ فِيَّ، واللهِ ما خرجْتُ أَتَّجِرُ، ولا معي تجارةٌ أَتَّجِرُ فيها، ما خرجتُ إلّا لِلغَزْوِ. فقال لي: يا شيخُ، قد اشتريتَ أَمْسِ مِخلاةً تُرِيدُ أن تَربَحَ فيها. فبَكَيْتُ، وقلتُ: لا تَكتُبُونِي تاجِراً. فنَظَر إلى صاحِبِه وقال: ما تَرَى؟ فقال: اكْتُبْ: خَرَجَ فلانٌ غازِياً، إلّا أنه اشتَرى في طريقِه مِخلاةً لِيَربَحَ فيها، حتّى يَحكُمَ اللهُ عزّ وجلّ فيه ما يَشاءُ. (قُوت القلوب في مُعاملة المَحبوب، للمَكّيّ، ص:١٣٦٤)

يَنبغي تَحصِيلُها بِالتَّكَلُّفِ، وأنْ يكون مُلتَجِئاً ومُتَضَرِّعاً إلى اللهِ تعالى لِتَتَيَسَّرَ حقيقةُ النِّيَّةِ، **رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ».[١]

حُكِيَ أنه لمّا دَنَا قُتَيبَةُ بنُ مُسلِمٍ مِن بَلْدَةِ بُخارَى لِيَفتَحَها فانْتَهَى إلى جَيْحُون أَخَذَ الكُفّارُ السُّفُنَ حتى لا يَعبُرَ جيشُ المسلمين عليها، فقال قتيبة: اللهم إن كنتَ تَعلَمُ أَنِّي ما خرجتُ إلّا للجهادِ في سَبِيلِك ولِإعزازِ دِينِك ولِوَجهِك فلا تُغرِقْنِي في هذا البَحرِ، وإن خرجتُ لِغيرِ هذا فأَغْرِقْنِي في هذا البَحْر، ثم أَرْسَلَ دَابَّتَه في جَيْحون فعَبَرَه مع أصحابِه بإذنِ الله.[٢]

قال الشيخ عبدُ الوَهّابِ الشَّعْرَانِيّ (رحِمه الله) : «أُخِذَ علينا العَهْدُ العامُّ مِن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنْ نَسأَلَ رَبَّنَا أنْ نَموتَ شُهَدَاءَ في سبيلِ اللهِ لا على فُرُشِنَا، فإن لم يَحصُل لَنَا مُباشَرَةُ ذلك حَصَلَ لَنَا النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ.. ومَن نَوَى ولم يُباشِر الجهادَ حتّى مات على فِرَاشِه رُبَّما أَعْطَاهُ الله تعالى ذلك الأَجْرَ كامِلاً مِن غيرِ مُناقَشَةٍ، كما وَرَدَ مثلُ ذلك فِيمَنْ عَزَمَ على قِيامِ اللَّيْلِ فأَخَذَ اللهُ بِرُوحِه إلى الصَّباحِ، وقد وَسَّعَ اللهُ تعالى على هذه الأُمَّةِ بإعطائِهم الأَجْرَ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، فكلُّ فِعلٍ لم يَقسِم اللهُ تعالى لهم مُباشَرَتَه يُحرِزُونَ فَضْلَه بِالنِّيَّةِ، قال صلى الله عليه وسلم: (**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى**). ولم يَقُلْ إنّما لِكلِّ امْرِىءٍ ما عَمِلَ، مع أن النية أيضاً عَمَلٌ قَلْبِيٌّ، فَافْهَمْ واشْكُرِ الله تعالى على ذلك».

وقال: «سَمِعتُ شَيْخِي عَلِيّاً الخَوّاص رحِمه الله يقول: في قُدْرَةِ مَن وَفَّقَه اللهُ تعالى أَنْ لا يَترُكَ عَمَلاً مِن أعمالِ أهلِ الإسلامِ إلّا وله فيه نصيبٌ، وذلك أَنْ يَنْوِيَ فِعْلَ كُلِّ خيرٍ بنيةٍ جازمةٍ، فإذا لم يَحصُل له فِعلُه حَصَل له أجرُه مِن حيث النِّيَّةُ، **وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».[٣]

---

(١) انظر: مكتوبات الإمام الرباني، ج:٢، م:٦٩، ص:١٢١

(٢) ذكره الشيخ إسماعيل حقي البروسوي رحمه الله في تفسير سورة التوبة، الآية:٤١.

فقد كَتَبَ سالِمُ بنُ عبدِ اللهِ إلى عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ: اعْلَمْ يا عُمَرُ أنّ الله تعالى عَوْنٌ للعبد بِقَدْرِ النِّيَّةِ، فمَن تَمَّتْ نيتُه تَمَّ عَوْنُ اللهِ تعالى إيّاه، ومَن قَصُرَتْ عنه نيتُه قَصُرَ عنه مِن عونِ اللهِ تعالى بقدرِ ذلك.

(٣) انظر: لَواقِح الأنوار القُدسيّة في بيان العُهود المحمديّة ص:١٨٦،١٨٧.

أهميّةُ النِّيَّةِ والإخلاصِ في أعمالنا:

ذَكَر العلماءُ في شرح حديثِ (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِيءٍ مَا نَوَى) : أنّ هذا الحديثَ مِن الأَحاديثِ الهَامَّةِ، التي عليها مَدارُ الإسلام، فهو أصلٌ في الدِّين، وعليه تَدُورُ غالِبُ أحكامِه. قال كثيرون -منهم الشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى- إنّه ثُلُثُ العِلْمِ.. ووَجَّهَ البَيْهَقِيُّ كونَه ثُلُثاً؛ بأنّ كَسْبَ العبدِ إمّا بِقَلبِه وإمّا بِلِسانِه وإمّا بِجَوارِحِه، فالنِّيَّةُ أحدُها وأَرْجَحُها، لأنّهما تابعانِ لها صِحّةً وفساداً، وثَواباً وحِرْمَاناً، ولا يَتَطَرَّقُ إليها رِياءٌ ونحوُه بِخلافهما، ومِن ثَمَّ وَرَدَ: (نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ) أي نِيَّةٌ بلا عَمَلٍ خيرٌ مِن عملٍ بلا نِيَّةٍ..[1]

ولِذا اسْتَحبَّ العلماءُ أن تُسْتَفتَحَ به الكُتُبُ والمُصَنَّفَاتُ. قال ابنُ مَهْدِي الحافظ: «مَن أَراد أن يُصَنِّفَ كِتاباً فلْيَبْدَأْ بهذا الحديثِ». وفائدةُ هذا البَدْءِ تنبيهُ طالِبِ العِلمِ أن يُصَحِّحَ نِيَّتَه لِوجه الله تعالى في طلبِ العلمِ وعملِ الخير، لأنّ الشَّخْصَ يُجْزَى بِقَدْرِ نِيّتِه، فإن كانت نِيَّتُه وَجْهَ اللهِ تعالى يُجْزَى بِالثَّوَابِ والخيرِ في الدَّارَيْنِ، وإن كانت نِيَّتُه وَجْهاً مِن وُجُوهِ الدنيا فليس له حَظٌّ مِن الثَّوَابِ ولا مِن خيرِ الدّنيا والآخرةِ (أي: لا ثَمَرَةَ له في الدّنيا ولا في الآخرةِ).

وقد وَرَدَ أنّ اللهَ تعالى يقول لِلحَفَظَةِ يومَ القيامة: اكْتُبُوا لِعبدي كذا وكذا مِن الأَجْرِ، فيقولون: رَبَّنَا لم نَحْفَظ ذلك عنه، ولا هو في صَحِيفَتِنا! فيقول اللهُ تعالى: إنّه نَوَاهُ.[2] وقيل: إنّه يُؤْتَى بِالعبد يومَ القيامة فيُدْفَع له كِتابٌ فيأْخُذُه بيَمِينِه، فيَجِدُ فيه حَجّاً وجهاداً وصدقةً.. وما فَعَلَها، فيقول: هذا ليس بكِتابي، فإنِّي ما فَعَلْتُ شيئاً مِن ذلك، فيقول اللهُ تعالى:

---

(١) وقال بعضُهم وإنّما كانت خيراً مِن العَمَلِ؛ لأنها تَحتمِلُ التَّعَدُّدَ والتَّكَثُّرَ في العملِ الواحدِ فيتضاعَفُ أجرُ العملِ بقدرِ النيّاتِ فيه، ولا يَتَأَتَّى ذلك في العملِ -كما سنَذْكُرُه في المَتْنِ-. وقال بعضُهم إنما كانت خيراً من العمل؛ لأنه لا يَتَعَدّدُ إلّا بِطاقتِه ووُسْعِه كما إذا نَوَى أن يُعتِقَ عبداً أو يَتَصدَّقَ بِمالٍ كثيرٍ وهو لا يَملِكُ شيئا في الحال. (شرح الشبرخيتي على الأربعين النووية، ص:٥١-٥٢، وقد ذَكَر الشيخ أبو طالب المكيّ وجوهاً أُخرى فارجِع إلى قوت القلوب، ص:١٣٤٥)

(٢) وجهُ الدّلالة منه: أنّ اللهَ تعالى لم يُظهِرْهَا لِلحَفَظَةِ ولم يُطلِعْهم عليها، وجَعَل لِصَاحِبِها أَجْراً عظيماً وفضلاً جَسِيماً فامْتَازَتْ عن سائرِ الأعمالِ بِكَوْنِ اللهِ تعالى يَحْفَظُها لِصاحِبِها بِغيرِ واسِطةِ المَلائكةِ فكانت أَشْرَفَ، وفيه دلالةٌ أيضاً على أنّ العبد إذا نَوَى خيراً أُثِيبَ عليه وإن لم يَفعَلْه.

هذا كِتابُك، لِأنّك عِشْتَ عُمْراً طويلاً وأنت تقول: لو كان لي مالٌ حَجَجْتُ منه، لو كان لي مالٌ تَصَدَّقْتُ منه، فعَرَفْتُ ذلك مِن صِدْقِ نيتك وأَعْطَيْتُك ثَوَابَ ذلك كُلَّه.

وفي الحديث: (نِيّةُ المُؤْمِنِ أَبْلَغُ مِن عَمَلِه، ونِيّةُ الفاجِرِ شَرٌّ مِن عَمَلِه) وفي روايةٍ: (وإنّ اللهَ عزّ وجلّ لَيُعطِي العَبْدَ على نيته ما لا يُعطِيه على عَمَلِه) أي لأنّ النِّيّةَ لا رِياءَ فيها، والعَمَلُ يُخالِطُه الرِّياءُ، ولأنها تَحتمِلُ التَّعَدُّدَ والتَّكَثُّرَ في العمل الواحد، فيَتضاعَفُ أَجْرُه بِقَدْرِ النِّيّات فيه، كما إذا جَلَس شخصٌ في المَسجِد بِنِيّةِ الاعتِكافِ وانتِظارِ الصّلاةِ والعُزْلَةِ وقِراءَةِ القُرآنِ وحِفْظِ السَّمْعِ والبَصَرِ واللِّسانِ عمّا لا يَعْنِيهِ وعِمارَةِ المَسجِدِ بِالذِّكْرِ.. فإنه لا يكون كَمَنْ جَلَسَ لِأَحَدِها فقط. فينبغي للعاقِلِ أن يُكثِرَ مِن النيّاتِ الصالحةِ لِيَحُوزَ ثَوابَها.[1]

قال الجُنَيْد البغدادي رحمه الله: «يُمكِنُ أن تَصِيرَ أَوْقاتُ العبدِ كُلُّها مَصْرُوفَةً إلى الطّاعاتِ وإن كان وَقْتَ الأَكْلِ والشُّرْبِ والنَّوْمِ والمُضاجَعَةِ مع الزّوجةِ والوِقاعِ والكلامِ وسائِرِ الحَرَكاتِ والسَّكَنَاتِ، فإنّما الأعمالُ بِالنِّيّاتِ، فإذا نَوَى بِالأكلِ والشّربِ العونَ على العبادةِ لا الاستلذاذَ وحَسْبُ، وكذا بِالنَّوْمِ دَفْعَ المَلالِ والكَلالِ حتى يَكونَ نَشِيطاً في العبادةِ لا رَاحَةَ النفسِ وتَفْرِيغَها، وبالمُضاجَعَةِ مع حَلِيلَتِه قَضاءَ حَقِّها المُتَعَيِّنِ في الشَّرْعِ، وبالوِقاعِ تَسْكِينَ شَهْوَتِه وتَوْطِينَ نَفْسِهِما حتى لا يَقَعَانِ في حرامٍ، ولَعَلّه يكون سَبَباً لِظُهُورِ وَلَدٍ يَعبُدُ اللهَ تعالى، وكذلك كُلُّ ما يُعمَلُ مِن الحِرَفِ والصِّناعاتِ لِأَكْلِ الحَلالِ ولِلعَوْنِ على الطَّاعَاتِ.. فكُلُّ هذه العَادَاتِ بِصالِحِ النِّيّاتِ تَنْقَلِبُ عِباداتٍ يُؤْجَرُ عليها العبدُ ويَثْقُلُ مِيزَانُ حَسَناتِه يومَ القيامة».[2]

فعَلِمْنَا أنّ كلَّ عملٍ مُباحٍ للعبد فيه نِيّةٌ فهو مَأجُورٌ عليه. قال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله[3]: «وأفضلُ النِّيّاتِ أن لا تُرِيدَ بِعَمَلِكَ إلّا وَجْهَ اللهِ تعالى وَحْدَه[4]، حُبّاً لِوَصْفِ الإلهية، وتعظيماً لِحقّ الرُّبُوبِيَّةِ، وإلزاماً لِلنَّفْسِ وَصْفَ العُبُودِيَّةِ..».

---

(١) الجَوَاهر اللُّؤْلُؤِيَّة في شرح الأربعين النووية، ص:٣٥

(٢) شرحُ شِرعة الإسلام، لِسَيّد علي زاده، ص: ٣٠.

(٣) في «قوت القلوب» ص:١٣٥٥.

(٤) كما قال الإمام الغزالي في «الإحياء» ١٠٣:٥: الحقيقة أن لا يُراد بالعمل إلّا وجه الله تعالى، وهو إشارة إلى إخلاص الصِّدِّيقِين، وهو الإخلاص المطلق.

ذَكَر شارحُ الرسالة القُشيرية[1] أنّ «درجات الإخلاص ثلاثٌ: عُلْيَا ووُسْطَى ودُنْيَا، فالعليا أن يَعمَل العبدُ لله وحدَه امتثالاً لِأمره، وقياماً بحقِّ عبوديّته[2]، والوسطى أن يَعمَل لِثواب الآخرةِ[3]، والدّنيا أن يَعمل للإكرام في الدّنيا والسَّلامَةِ مِن آفاتِها[4]».

قال عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رضي الله تعالى عنه: «أفضلُ الأعمالِ أداءُ ما افتَرَضَ اللهُ تعالى، والوَرَعُ عمّا حَرَّمَ اللهُ تعالى، وصِدْقُ النِّيّةِ فيما عند اللهِ عزّ وجلّ».[5]

وقال الثَّوْرِيّ رحمه الله: كانوا يَتَعَلَّمُون النِّيّةَ للعملِ كما يَتَعَلّمون العلمَ. وقال بعضُ العلماء: اطْلُبُو النِّيّةَ للعملِ قَبلَ العملِ، وما دُمْتَ تَنْوِي الخيرَ فأنت بخيرٍ، لأنّ صلاحَ الأعمالِ وفَسادَها بِصلاحِ النِّيّاتِ وفسادِها.

وقال أبو بَكْرِ بْنُ دَاسَةَ: سمعتُ أبا داود يقول: يَكْفِي الإنسانَ لِدِينِه أربعةُ أَحادِيثَ: **«إنّما الأعمالُ بِالنِّيّاتِ»** و **«الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرَامُ بيِّنٌ»** و **«مِن حُسْنِ إسلامِ المَرْءِ تَرْكُه ما لا يَعنِيهِ»** و **«لا يكون المؤمنُ مؤمناً حتى يَرْضَى لِأَخِيهِ ما يَرْضَى لِنَفْسِه»**.[6]

كَتَبَ أحدُ الأولياءِ إلى أَخِيهِ فقال: «أَخْلِص النِّيّةَ في أَعْمَالِك يَكْفِكَ القَلِيلُ مِن العَمَلِ».

والإخلاصُ: قال في تعريفه علماءُ السُّلُوكِ والطّرِيقِ إلى الله أقوالاً كثيرةً، ومنهم الإمام الغَزاليّ رحمه الله، وإنه بعدما نَقَل في «الإحياء»[7] أَقَاوِيلَ الشُّيُوخِ في الإخلاص ذَكَرَ حديثَ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ به،

---

(١) ج:٣ ص:٢٣٢.

(٢) قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله: وأعلى منها أن يعمل محبّةً له تعالى وإجلالا. (نتائج الأفكار القدسية)

(٣) وأعلى منها أن يعمل امتثالاً لأمره وقياماً بحقّ عبوديّته.

(٤) أي وأعلى منها أن يَعمَل لِثواب الآخرة.

(٥) قوت القلوب، للشيخ أبو طالب المكيّ، ص:١٣٤٥.

(٦) للاستزادة انظر: عمدة القاري ج:١ ص:٥١، وجامع العلوم والحكم للحنبلي، الحديث الأول.

(٧) ج:٥ ص:١٠٤.

قال: «قُلْ: رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»، فقال الغزالي تمهيداً وشرحاً لهذا الحديث: «وإنّما البيانُ الشّافي بيانُ سيّدِ الأوّلين والآخِرين صلى الله عليه وسلم» وشَرَحَه بقوله: «أي: لا تَعبُدْ هَوَاك ونفسَك، ولا تَعبُدْ إلّا رَبَّك، وتستقيمُ في عبادتِه كما أُمِرْتَ، وهذا إشارةٌ إلى قطعِ ما سوى اللهِ عن مجرى النّظرِ، وهو الإخلاصُ حقاً».

قال ذُو النُّون المِصري رحمه الله[1]: «ثلاثٌ مِن علاماتِ الإخلاصِ[2]: استواءُ المَدْحِ والذَّمِّ مِن العَامَّةِ[3]، ونِسْيَانُ رُؤيةِ الأعمالِ في الأعمال[4]، ونسيانُ اقتضاءِ ثوابِ العملِ في الآخرة[5]».

ومِن الأقوال التي ذكرها الإمام القشيري في «الرسالة»[6] قولُ حذيفة المرعشي رحمه الله، أنّه قال: «الإخلاصُ أَنْ تَسْتَوِيَ أفعالُ العبدِ في الظّاهر والباطن[7]».

قال الشيخ أبو طالب المَكِّيُّ رحمه الله: «حقيقةُ الإخلاصِ: سَلامَتُه مِن وَصْفَيْنِ؛ وهما الرِّياءُ والهَوَى؛ لِيكون خالِصاً كما وَصَفَ اللهُ تعالى الخالِصَ مِن اللَّبَنِ، فكان بذلك تَمَامُ النِّعْمَةِ علينا، وقال تعالى: ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً ﴾ (النحل: ٦٦)، فلو وُجِدَ فيه أَحَدُ الوَصْفَيْنِ مِن فَرْثٍ أو دَمٍ لم يكن خالِصاً، ولم تَتِمَّ النِّعْمَةُ به علينا، ولم تَقْبَلْه نُفُوسُنَا. فكذلك مُعَامَلَتُنَا لله عزّ وجلّ إذا شابَها رِياءٌ بِخلق، أو هَوًى مِن شَهْوَةِ نَفْسٍ، ولم تكن خالِصةً، لم يَتِمَّ بها الصِّدْقُ والأَدَبُ في المُعامَلَةِ، ولم يَقْبَلْهَا اللهُ تعالى مِنّا، فاعْتَبِرُوا»[8].

---

(١) ذكره القُشيري في «الرسالة» ص:٣٣١.

(٢) أي الكامل منه.

(٣) أي جميع الناس.

(٤) بِأَنْ لا يَنظُر إلى نَفْعِها ولا إلى ضَرَرِها حتى تَنْسَى مَدْحَ الخَلْقِ لك أو ذَمَّهُم على عَمَلِكَ لِكَمَالِ شغلِك بإخلاصك. فنسيانُ مدحِ الخلقِ وذَمِّهِم يَتَرَتَّبُ على نِسيانِ رؤيةِ الأعمالِ في الأعمال.

(٥) بأن لا يَخطُرَ لك على عَمَلِكَ جَزَاءٌ دنيويٌّ ولا أُخْرَوِيٌّ. ولذا قيل: مِن فَضْلِه عليك أَنْ خَلَقَ ونَسَبَ إليك، والمصنّف يُشِير إلى هذا المعنى كما لا يَخفى. (نتائج أفكار القدسية في بيان معاني الرسالة القشيرية، ٣:٢٣٥)

(٦) ص: ٣٣٢.

(٧) بأن يَكونَ عَمَلُه لله في الظّاهِر كَعَمَلِه له في الباطِن، فلا يَتغيَّرُ بوُجُودِ الخَلْقِ ولا بِعَدَمِهم. وهو قَرِيبٌ مِن قولِ أبي عُثمان رحمه الله: الإخلاصُ نسيانُ رؤيةِ الخَلْقِ في العمل بِدوامِ النّظرِ إلى فضلِ الخالِقِ.

(٨) قُوتُ القُلُوبِ في مُعامَلَةِ المَحْبُوبِ، ص:١٣٤٢.

وقال الشيخ إبراهيم البَاجُوري (رحمه الله): «الإخلاصُ: قَصْدُ اللهِ بالعبادةِ وَحْدَه (وبِعِبارةٍ أُخْرَى: تَمْحِيصُ الطَّاعَةِ لله تعالى)، وهو سَبَبٌ للخَلاصِ مِن أَهْوَالِ يومِ القيامة، وهو واجبٌ عَيْنِيٌّ على كُلِّ مُكَلَّفٍ في جميعِ الطَّاعَاتِ. قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله لا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إلا مَا كان له خَالِصاً وَابْتُغِيَ به وَجْهُهُ»[2]...

وممّا يُعِينُ على الإخلاص: استِحْضَارُ أنّ ما سِوَى اللهِ لا شيءَ بِيَدِهِ، وأنّ كلَّ شيءٍ بِيَدِ اللهِ تعالى.

والصّادِقُ في إخلاصِه لا يُحِبّ اطّلاعَ النّاسِ على حُسْنِ عَمَلِه، ولا يَكرَهُ أن يَطَّلِعَ الناسُ على سَيِّءِ عَمَلِه، ولا يُبَالِي بِخُرُوجِ قَدْرِه مِن قُلُوبِ الخَلْقِ.

رُئِيَ بعضُهم في المَنامِ بعد المَوْتِ يقول: «الجَنّةُ أَرْضُها الإِيمَانُ، وشَجَرُها الأَعمَالُ، وثَمَرُها الإخلاصُ»..

والرِّيَاءُ: أن يَعمَلَ القُرْبَةَ لِيَرَاهُ النّاسُ (وبعبارَةٍ أُخْرَى: إيقاعُ القُرْبَةِ بِقَصْدِ الناسِ)، وأمّا التَّسمِيعُ فهو: أن يَعمَل العَمَلَ وَحْدَه ثُمّ يُخبِرُ الناسَ لِأَجْلِ تَعْظِيمِهم له أو لِجَلْبِ خيرٍ منهم. وكلٌّ مِن الرِّياءِ والتّسميعِ مُحبِطٌ للثوابِ مع صِحَّةِ العَمَلِ، خِلافاً لِمَا نَصّ عليه السَّادَةُ المالِكيّة مِن أنه مُبطِلٌ للعبادة.

وفي الحديث القدسي: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ)[3].. (صحيح مسلم:٢٩٨٥)

---

(١) سورة البيّنة: ٥.

(٢) قال العلّامة المناوي رحمه الله: (إنّ اللهَ لا يقبل مِن العَمَلِ إلّا ما كان خالصاً) بأن لا يُشْرِكَ العامِلُ في عِبادةِ ربِّه أحداً (وابتغى به وجهه) فمَن أراد بِعَمَلِه الدّنيا وزِينَتَها دون اللهِ والآخرةِ فحَظُّه ما أراد، وليس له غيرُه.. (فيض القدير، رقم الحديث: ١٨٢٨)

(٣) ومعناه: أَنَا غَنِيٌّ عن المُشارَكةِ وغيرِها، فمَن عَمِلَ شيئاً لي ولِغيري لم أَقبَلْه، بل أَترُكُه لذلك الغيرِ، والمرادُ أنّ عَمَلَ المُرائِي باطِلٌ لا ثوابَ فيه، ويَأثَم به. (شرح النووي على صحيح مسلم) =

والرِّياءُ قِسْمَانِ: جَلِيٌّ، وخَفِيٌّ. فالأوّل: أن يَفعَل الطّاعاتِ بِحَضرَةِ النّاسِ لا غيرُ، فإنْ خَلا بِنَفْسِه لا يَفعَلُ شيئاً منها. والثاني: أن يَفعَلَها مُطلَقاً؛ حَضَرَ النّاسُ أو لا، لكنْ يَفرَحُ عند حُضورِهم.

قال الفُضَيْلُ بنُ عِياض: تَرْكُ العَمَلِ مِن أَجْلِ النّاسِ رِياءٌ، والعَمَلُ مِن أَجْلِ النّاسِ شِرْكٌ[1]، والإخلاصُ: أَنْ يُعافِيَكَ اللهُ منهما. فمَن عَزَمَ على عِبادةٍ فتَرَكَها خَوْفَ النّاسِ فهو مُرَاءٍ، إلّا إِنْ تَرَكَها لِيَفعَلَها في الخَلْوَةِ فهو مُستَحَبٌّ».[2]

=وفي حديثٍ آخَرَ قال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عز وجلّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً».

(١) معنى قوله: (ترك العمل إلخ) أي: مِن حيث يَتَوَهَّمُ مِنهم أنّهم ينسبونه بالعمل إلى الرّياء فَيَكرَهُ هذه النِّسْبَةَ، ويُحِبُّ دوامَ نَظَرِهم له بالإخلاص، فيكون مُرَائِياً بِتَرْكِهِ للعمل مَحَبَّةً لدوام نسبته إلى الإخلاص لا للرياء، أي: لم يكن تركه لِلعَمَلِ لِخوفِ وُقُوعِه في الرّياء. والحاصل: أنّ ثبوت الرّياء في حقّه إنما هو من تركه محبّة في دوام نظر الخلق له بالإخلاص لا للرّياء، لأنّه لم يصدر منه ما يرائي به كما هو ظاهر. وقوله: (والعمل إلخ) أي لكونه أَشْرَكَ في عملِه غيرَه، [يعني: المراد الشرك العملي لا الاعتقادي، أَعَاذَنا الله منهما]، وهذا يرجع إلى قول مَن قال: الإخلاصُ تصفيةُ العملِ مِن الرّياءِ والهَوَى. (انظر: إتحافُ السَّادَةِ المُتّقِين ١٠:٥٦، نَتائج أفكار القدسية ٣:٢٣٨)

نَقَلَ الشيخُ أبو طالب المَكّيّ رحمه الله نصيحةَ أبي سَعِيد الخرّاز لأحدِ الفُقَرَاءِ، الذي كان يخفّ بين يديه في حَوَائِجِه، يَخدُمُ الفُقَرَاءَ، ويُسَارِعُ في قَضَاءِ حَوَائِجِ أبي سعيدٍ وأصحابِه.. فأراد يوماً أَنْ يَترُكَ العَمَلَ فَقال له أبو السعيد: «يا بُنَيَّ، قد كنتَ تَسْعَى في حوائج إخوانِك ثم قَطَعْتَ ذلك، فما السَّبَبُ؟ فقال: يا أستاذ، إنّك تَكَلَّمْتَ في الإخلاص وأَنِّي خَشِيتُ أن تكون أَفعالي مَدْخُولةً فتَرَكْتُها. قال أبو سعيد: لا تَغفَل، إنّ الإخلاصَ لا يَقطَع المُعَامَلَةَ، ولا يَنبغي للعَاقِلِ أَنْ يَترُكَ العَمَلَ لِأَجْلِ الإخلاصِ، فيَفُوته الإخلاصُ والعملُ، ولم أَقُلْ لك: اتْرُكْ ما أنت عليه، إنما قلتُ لك: أَخلِصْ فيه، فإنّ طَلَبَك للإخلاص قد قَطَعَك عن عَمَلِ البِرِّ، وقد أَضَرَّ ذلك بِنَا، فارْجِعْ إلى ما كنتَ فيه، وأَخلِصْ فيه لله تعالى».

فيَنبغي للعبد أَنْ يكونَ له نيّةٌ خالصةٌ في جميعِ تصرّفِه في حَرَكتِه وسُكُونِه، وسَعْيِه وتَرْكِه، فإنّ الحركةَ والسّكونَ اللّذَيْنِ هُما أصلُ الأفعالِ هما مِن أعمالِه التي يُسأل عنها، فيحتاج إلى النِّيَّة والإخلاص فيهما، فليجعل جميع ذلك لله تعالى...

ولا يترك العمل الصّالح أيضاً خشيةَ دخولِ الآفةِ عليه، ولا يَدَعَنَّه إنْ كان داخلاً فيه لما يَعترِيه....

ولا يَدَعَنَّ عملاً لأجلِ الخَلْقِ حَيَاءً منهم أو كراهةَ اعتقادِهم فَضْلَه، فإنّ العمل لأجلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وتَرْكَه لأجلهم رياءٌ. وتَرْكُ العملِ لأجل دخولِ الآفةِ فيه جَهْلٌ، وتَرْكُه عند دخولِ العِلّةِ عليه ضعفٌ ووَهَنٌ...

(٢) تُحْفَةُ المُرِيد على جوهرة التوحيد، لِلبَاجُوري ص:٥٠٦-٥٠٨.

مَحَبَّةُ الجِهَادِ والشَّهَادَةِ عند الصَّحَابَةِ الكِرَام والتَّأْيِيدَاتُ الإلهيَّةُ للمُجاهِدِين في زَمَنِهِم:

قِصَّةُ الصَّحَابِيّ الجَلِيلِ خَيْثَمَةَ رضي الله عنه:

صحابيٌّ جَلِيلٌ.. طَاعَنَ في السِّنِّ، سَكَنَ حُبُّ الجهادِ في قَلْبِه وتَمَلَّكَ عليه فِكْرَهُ، يُقال له خَيْثَمَةُ أبو سَعْدِ بنِ خَيْثَمَةَ، وكان ابْنُه قد استُشهِدَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في يومِ بَدْرٍ، وقال يومَ أُحُدٍ لِرسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: لَقَدْ أَخْطَأَتْنِي وَقْعَةُ بَدْرٍ، وكُنْتُ وَاللهِ عليها حَرِيصاً حتّى سَاهَمْتُ ابْنِي في الخُرُوجِ، فخَرَجَ سَهْمُه فرُزِقَ الشّهادَةَ، وقد رأيتُ ابْنِي البارِحَةَ فِي النَّوْمِ في أَحْسَنِ صُورَةٍ، يَسْرَحُ فِي ثِمَارِ الجَنّةِ وأَنْهارِها ويقول: اِلْحَقْ بِنَا تُرَافِقْنَا في الجَنّةِ، فقد وَجَدْتُ ما وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً، وقد واللهِ يا رَسُولَ اللهِ أَصْبَحْتُ مُشْتَاقاً إلى مُرَافَقَتِهِ فِي الجَنَّةِ، وقد كَبُرَتْ سِنّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَأَحْبَبْتُ لِقَاءَ رَبِّي، فَادْعُ اللهَ يَا رَسُولَ الله أَنْ يَرْزُقَنِي الشّهَادَةَ وَمُرَافَقَةَ سَعْدٍ فِي الجَنَّةِ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بذلك فقُتِلَ بِأُحُدٍ شَهِيداً.[1]

قِصَّةُ الصَّحَابِيّ الجَلِيلِ عَمْرِو بنِ الجَمُوحِ رضي الله عنه:

إنّ عَمْرَو بنَ الجَمُوحِ كان رَجُلاً أَعْرَجَ شديدَ العَرَجِ، وكان له بَنُونَ أَرْبَعَةٌ مِثْلَ الأُسْدِ[2]، يَشْهَدُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم المَشاهِدَ، فلَمَّا كان يومُ أُحُدٍ أَرَادُوا حَبْسَهُ وَقَالُوا لَهُ: إنّ اللهَ عَزّ وَجَلّ قَدْ عَذَرَك، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: إنّ بَنِيّ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْبِسُونِي عن هذا الوَجْهِ والخُرُوجِ مَعَك فِيهِ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطَأَ بِعَرْجَتِي هذه في الجَنَّةِ، فقال له رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أمّا أنت فقد عَذَرَكَ اللهُ فلا جِهادَ عليك، وقال

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي: ١١٠٧.
(٢) الأُسْد: جمعُ الأَسَد.

لِبَنِيهِ: ما عليكم أن لا تَمْنَعُوهُ لَعَلّ اللهَ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ فخَرَجَ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ.(١)

قِصَّةُ الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ أبي طَلْحَة الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه:

لمّا قَرَأَ سَيِّدُنا أبو طَلْحَةَ رضي الله عنه هذه الآيَةَ: ﴿ **اِنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾(٢) قال: أَلاَ، أَرَى رَبِّي يَسْتَنْفِرُنِي شَابًّا وشَيْخاً، جَهِّزُونِي، فقال له بَنُوهُ: قد غَزَوْتَ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى قُبِضَ، وغَزَوْتَ مع أبي بكرٍ حتى ماتَ، وغَزَوْتَ مع عُمَرَ.. فنَحْنُ نَغْزُو عنك، فأَبَى، فقال: جَهِّزُونِي، فجَهَّزُوهُ ورَكِبَ البَحْرَ، فمات(٣)، فلم يَجِدُوا له جَزِيرَةً يَدْفِنُونَه فيها إلاّ بعدَ سَبْعَةِ أَيّامٍ فلم يَتَغَيَّرْ، فدَفَنُوهُ فيها.(٤)

قِصَّةُ الصَّحَابِيِّ عُمَيْرِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه:

عُمَيْرُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ يقول عنه أَخُوهُ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ: رَأَيْتُ أخي عُمَيْراً قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِلخُرُوجِ إلى بَدْرٍ يَتَوَارَى فقُلْتُ: ما لك يا أَخِي، فقال: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَيَسْتَصْغِرَنِي فَيَرُدَّنِي، وأَنَا أُحِبُّ الخُرُوجَ لَعَلّ اللهَ يَرْزُقُنِي الشَّهَادَةَ، قال: فعُرِضَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فَاسْتَصْغَرَهُ فقال: ارْجِعْ، فبَكَى عُمَيْرُ، فأَجَازَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم. قال سَعْدٌ: فكُنْتُ أَعْقِدُ له حمائِلَ سَيْفِه مِن صِغَرِه، فقُتِلَ بِبَدْرٍ وهو ابنُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً.(٥)

---

(١) سِيرة ابن هِشام، والسيرة النبويّة لِابن كثير.

(٢) سورة التوبة: ٤١

(٣) في رواية: فغَزَا في البحر فمات في البحر.

(٤) انظر: صحيح ابن حبان: ٧١٨٤، والمستدرك للحاكِم: ٢٥٠٣.

(٥) انظر: الإصابة في تَمْييزِ الصَّحابَة (٦٠٦١) للعسقلاني.

قِصَّةُ الصَّحَابِيّ الجَلِيلِ سارِيَةَ بنِ زُنَيْمٍ رضي الله عنه:

كان سَيِّدُنا عُمَرُ رضي الله عنه قد أَمَّرَ سَارِيَةَ[1] على جَيْشٍ مِن جُيُوشِ المُسلِمِين وأَرْسَلَهم إلى نَهَاوَنْد[2]، فاشْتَدَّ عليهم الحالُ على باب نَهاوَنْد، وكاد المُسلِمون أن يَنْهَزِمُوا.. فبَيْنَمَا عُمَرُ رضي الله عنه يَخْطُبُ في مَسْجِدِ المَدِينَةِ على رُؤُوسِ الأَشْهادِ مِن أَكَابِرِ الصَّحابَةِ والتَّابِعِين [منهم عثمانُ وعليٌّ رِضْوَانُ اللهِ عليهم أجمعين]، فجَعَلَ عُمَرُ يَصِيحُ في أَثْنَاءِ خُطْبَتِه: يا سَارِيَةُ الجَبَلَ! يا سَارِيَةُ الجَبَلَ![3]، فأَسْمَعَ الله عزّ وجلّ سَارِيَةَ وجُيُوشَه أجمعين وهم على بابِ نَهاوَنْد صَوْتَ عُمَرَ، فلَجَأُوا إلى الجَبَلِ، وقالوا: هذا صَوْتُ أَمِيرِ المُؤمِنين، فنَجَوْا وانْتَصَرُوا.[4]

وهكذا نَجِدُ في قِصَصِ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ مِن الصَّحابَةِ الكِرامِ حُبّاً للجهادِ والشّهادةِ في سبيل اللهِ لإعلاءِ كَلِمَتِه ونَشْرِ دِينِ الحَقّ الذي ارْتَضَاهُ لَنَا رَبُّ العالَمِين. أَكْرَمَنَا اللهُ وإيّاكم بهذه المَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، ورَزَقَنَا الشَّهَادَةَ في سَبِيلِه مع صِدْقِ النِّيَّةِ.

* * * * *

(١) أي جَعَلَه أَمِيراً.

(٢) بَلَدٌ مِن بِلادِ الجَبَلِ جَنُوبِيّ هَمَذَان.

(٣) أي الْزَمْ الجَبَلَ وَاجْعَلْه وَرَاءَ ظَهْرِكَ.

(٤) قال عليّ القاري رحمه الله في مِرقاة المَفاتيح: فيه أَنْوَاعٌ مِن الكَرَامَةِ لِعُمَرَ: كَشْفُ المَعْرَكَةِ، وإِيصَالُ صَوْتِه، وسَمَاعُ كُلٍّ منهم لِصَيْحَتِه، وفَتْحُهُم ونَصْرُهم بِبَرَكَتِه.

حكم الجهاد في الإسلام

الجهادُ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، ثَبَتَتْ فَرْضِيَّته بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمَّةِ. وأمّا بَيانُ كَيْفِيَّةِ فَرْضِيَّةِ الجِهادِ، فالأَمْرُ فيه لا يَخْلُو مِن أَحَدِ وَجْهَيْنِ:

١- إمّا أَنْ يَكونَ النَّفِيرُ عامّاً،

٢- وإمّا أَنْ لا يَكُون..

١- فإنْ كان النَّفِيرُ عامّاً، أي: إنْ هَجَمَ[1] العَدُوُّ على بَلْدَةٍ مِن بِلادِ المُسْلِمِينَ أو ناحِيَةٍ مِن نَوَاحِيها بَغْتَةً[2]، ولا يَتَهَيَّأُ دَفْعُهم إلاّ بِقِتالِ المسلِمين جَمِيعاً، فيَصِيرُ الجِهادُ فَرْضَ عَيْنٍ[3]، فَيَجِبُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ تِلكَ البَلْدَةِ النَّفْرُ[4] (أي الخُرُوجُ إلى الحَرْبِ)، وَكَذَا على مَنْ يَقْرُبُ مِنْهُمْ إنْ لَمْ يَكُنْ بِأَهْلِهَا كِفَايَةٌ، فإنْ عَجَزُوا أو قَدَرُوا إلّا أَنَّهم تَكَاسَلُوا فَعَلَى مَن يَلِيهِم[5] حتى يُفتَرَضَ -على هذا التَّدْرِيجِ- على كلِّ المُسلِمِين شَرْقاً وَغَرْباً.[6]

قال في الفَتَاوَى الهِنْدِيَّةِ: «الجِهَادُ بَعْدَ النَّفِيرِ فَرْضُ عَيْنٍ، وَمَعْنَى النَّفِيرِ: أَنْ يُخْبَرَ أَهْلُ مَدِينَةٍ أَنَّ العَدُوَّ قَد جَاءَ يُرِيدُ أَنْفُسَكُمْ وَذَرَارِيَّكُم وَأَمْوَالَكُمْ، فَإِذَا أُخْبِرُوا عَلَى هَذَا الوَجْهِ افْتُرِضَ عَلَى كُلِّ

(١) الهُجُومُ: الإِتْيَانُ بَغْتَةً والدُّخولُ مِن غَيْرِ استِئْذَانٍ.

(٢) هذه الحالَةُ تُسَمَّى النَّفِيرَ العَامَّ. قال في «الاختيار» : والنَّفِيرُ العامُّ أن يُحتاجَ إلى جميعِ المسلِمِين. (حاشية ابن عابدين)

(٣) حُكْمُه أَنْ يَلزَمَ كُلَّ أَحَدٍ إقامَتُه، ولا يَسْقُطُ بِأَدَاءِ البَعْضِ، فالمعنى: فَرْضُ كُلِّ ذاتٍ بِشَرْطِه. (جامِعُ الرُّمُوز للقُهِسْتَاني ج:٢ ص:٣١٠)

(٤) شُرِطَ للفَرْضِيَّةِ القُدْرَةُ على السِّلاحِ والقِتالِ وغيرِها. (انظر: حاشية ابن عابدين:ج:١٢ ص:٤٧٣).

وذكر في «الفتح» وغيرِه أنه: يُشتَرَطُ للفرضيّة الاستِطاعةُ على القتالِ والدَّفْعِ (أي دَفْعِ العَدُوّ)، فَمَنْ قَدَرَ على الخُرُوجِ دون الدَّفْعِ يَنبَغِي له أن يَخرُجَ تَكثِيراً لِلسَّوَادِ؛ لأنّ فيه إرْهَاباً.

(٥) أي فعلى مَنْ يَقْرُبُ مِمَّنْ يَقْرُبُ..

(٦) قال في «فتح القدير» ج:٤ ص:٢٨١: وَكَأَنَّ مَعْنَاهُ: إذَا دَامَ الحَرْبُ بِقَدْرِ مَا يَصِلُ الأَبْعَدُونَ، وَبَلَغَهُمْ الخَبَرُ وَإِلَّا فَهُوَ تَكْلِيفٌ بِمَا لا يُطَاقُ..

مَنْ قَدَرَ عَلَى الجِهَادِ مِنْ أَهْلِ تِلكَ البَلْدَةِ أَنْ يَخْرُجَ لِلجِهَادِ، وَقَبْلَ هذا الخَبَرِ كَانُوا فِي سَعَةٍ مِنْ أَنْ لا يَخْرُجُوا[١]، ثُمَّ بَعْدَ مَجِيءِ النَّفِيرِ العَامّ لا يُفْتَرَضُ الجِهَادُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الإِسْلامِ شَرْقاً وَغَرْباً فَرْضَ عَيْنٍ وَإِنْ بَلَغَهُمْ النَّفِيرُ، وَإِنَّمَا يُفرَضُ فَرْضَ عَيْنٍ عَلَى مَنْ كَانَ يَقْرُبُ مِنْ العَدُوّ، وَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الجِهَادِ، أَمَّا عَلَى مَنْ وَرَاءَهُمْ مِمَّنْ يَبْعُدُ مِن العَدُوّ، فَإِنَّهُ يُفْتَرَضُ عليهم فَرْضَ كِفَايَةٍ لا فَرْضَ عَيْنٍ، حَتَّى يَسَعهُمْ تَرْكُهُ. فَإِذَا أُحْتِيجَ إِلَيْهِمْ، بِأَنْ عَجَزَ مَنْ كَانَ يَقْرُبُ مِن العَدُوّ عَنْ المُقَاوَمَةِ مَعَ العَدُوِّ أَوْ تَكَاسَلُوا وَلَمْ يُجَاهِدُوا، فَإِنَّهُ يُفْتَرَضُ عَلَى مَنْ يَلِيهِمْ فَرْضَ عَيْنٍ ثُمَّ وَثُمَّ إِلَى أَنْ يُفْرَضَ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الأَرْضِ شَرْقاً وَغَرْباً عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ».[٢]

٢- وإن لم يكن النَّفِيرُ عَامّاً ؛ ففَرْضُ كِفَايَةٍ[٣] ابْتِدَاءً[٤]، وهو أَنْ يَبْتَدِأَ المسلمون بِمُحَارَبَةِ الكُفَّارِ كُلَّ سَنَةٍ وإِنْ لم يُقاتِلُونَا، فيَجِبُ على الإمامِ أَنْ يَبْعَثَ سَرِيّةً إلى دارِ الحَرْبِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ، وعلى الرَّعِيَّةِ إعانَتُهُ.. فإن لم يَبْعَثْ كان كُلُّ الإِثْمِ عليه، وهذا إذا غَلَبَ على ظَنِّه أنه يُكافِئُهم[٥] وإلاّ فلا يُباحُ قِتالُهم[٦]، بِخلافِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ.[٧]

(١) وإنّما كانوا في سَعَةٍ قَبْلَ مَجيءِ النَّفيرِ؛ لأنّ الجِهادَ قَبْلَ مَجيءِ النَّفِيرِ فَرْضُ كِفايَةٍ.. وما كان فَرْضَ كِفايَةٍ يَسَعُ للإنسانِ تَرْكُهُ إذا لم يُحْتَجْ إليه في الإقامَةِ كصَلاةِ الجِنَازَةِ. (انظر: المُحِيط البُرْهاني: ج:٧ ص:٩٠)

(٢) الفتاوى الهندية ج:٢ ص:١٨٨، والفتاوى التَاتَارْخَانِيّة ج:٧ ص:٨.

(٣) ومعنى كَوْنِ الجهادِ فَرْضَ كِفايَةٍ: أَنْ يُفْتَرَضَ على جَمِيعِ مَنْ هو مِن أهلِ الجهادِ، لكنْ إذا قامَ به بعضُ المسلِمين في كُلِّ سَنَةٍ سَقَطَ عن البَاقِينَ، وإن لم يَقُمْ به البعضُ بل خَلَا الزَّمَانُ عن الجهادِ في دِيارِ المسلِمين أَثِمَ بِتَرْكِهِ الكُلُّ مِن المُكَلَّفِين به، لأنه فَرْضٌ عليهم.

(٤) أي أَنّ فَرْضِيّتَه علينا كِفايَةً لا يَتَوَقَّفُ على شُرُوعِهم القِتالَ أَوّلاً.

اعلَمْ أنّ الكُفّارَ الذين امْتَنَعُوا عن قَبُولِ الإسلامِ وعن أداءِ الجِزْيَةِ يَجِبُ قِتالُهم وإنْ لم يَبْدَؤُوا بِالقِتالِ لِلنُّصُوصِ العَامَّةِ مِن الآياتِ والأَخْبارِ.

(٥) يعني أنّ الإمامَ يَرْجُو الشَّوْكَةَ والقُوَّةَ للمسلمين.

(٦) لأنّ مِن شُرُوطِ إباحَةِ الجهاد: أَنْ يَرْجُوَ الشَّوْكَةَ وَالقُوَّةَ لأهلِ الإسلامِ بِاجْتِهادِهِ أَوْ بِاجتِهادِ مَنْ يُعْتَقَدُ فِي اجتِهَادِهِ وَرَأْيِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَرْجُو القُوَّةَ وَالشَّوْكَةَ لِلمُسْلِمِينَ فِي القِتَالِ، فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَهُ القِتَالُ لِمَا فِيهِ مِن إِلْقَاءِ نَفسِهِ فِي التَّهْلُكَةِ. (الفتاوى الهندية: ج:٢ ص:١٨٨)

(٧) نَقَلَه ابن عابدين (١٢- ٤٥٤) عن «الدر المنتقى» هامش «مجمع الأنهر» (١- ٦٤٠).

قال صاحِبُ المُغنِي مِن الحنابلة: «أَقَلُّ ما يَفعَلُ[1] الجهادَ مَرَّةً في كلِّ عامٍ، فيَجِبُ في كلِّ عامٍ مَرَّةً إلّا مِن عُذْرٍ، مِثْلِ أَنْ يكونَ بِالمُسلِمِين ضعفٌ في عَدَدٍ أو عُدَّةٍ أو يكونَ يَنتَظِرُ المَدَدَ يَستَعِينُ به أو يكونَ الطَّرِيقُ إليهم فيها مانِعٌ أو ليس فيها عَلَفٌ أو ماءٌ أو يَعلَمُ مِن عَدُوِّه حُسْنَ الرَّأْيِ في الإسلامِ فيَطمَعُ في إسلامِهم إِنْ أَخَّرَ قِتالَهم ونحوِ ذلك ممّا يَرَى المَصْلَحَةَ معه في تَرْكِ القِتَالِ فيَجُوزُ تَرْكُه بِهُدْنَةٍ... وإنْ دَعَتِ الحَاجَةُ الى القِتالِ في عامٍ أكثرَ مِن مرّةٍ وَجَبَ ذلك لأنّه فَرْضُ كفايةٍ، فوَجَبَ منه ما دَعَتِ الحَاجَةُ إليه»[2].

وقال الإمام الشّافعي رحمه الله: «..فإنْ كانتْ بالمسلمين قُوَّةٌ لم أَرَ أَنْ يَأْتِيَ عليه عَامٌ إلّا وله (أي الإمامِ) جَيْشٌ أو غَارَةٌ في بِلادِ المُشرِكِين.. وإن كان يُمْكِنُه في السَّنَةِ بِلا تَغْرِيرٍ بِالمُسلِمِين[3] أَحْبَبْتُ له أَنْ لا يَدَعَ ذلك كُلَّما أَمْكَنَه، وأَقَلُّ ما يَجِبُ عليه أَنْ لا يَأْتِيَ عليه عَامٌ إلّا وله فيه غَزْوٌ حتّى لا يَكُونَ الجِهَادُ مُعَطَّلاً في عامٍ إلّا مِن عُذْرٍ».[4]

وقد جاء في كتابِ «مغني المحتاج» للعلّامة محمدِ بنِ أحمدَ الشّرْبِينيّ الخَطِيبِ الشَّافِعِيّ رحمه الله -مُلَخَّصاً-: جهادُ الكفّارِ على حَالَيْنِ:

«أحدُهما: أن يكونَ الكفّارُ بِبِلادِهِم مُستَقِرّينَ بها غيرَ قاصِدِين شيئاً مِن بِلادِ المُسْلِمِينَ. فالجهادُ في هذه الحالةِ فَرْضُ كفايةٍ، إذَا فَعَلَهُ مَن فيهم كِفايَةٌ سَقَطَ الحَرَجُ عَن البَاقِينَ، فإِنْ تَرَكَهُ الجَمِيعُ أَثِمَ كُلُّ مَنْ لا عُذْرَ لَهُ مِن الأَعْذَارِ الآتِي بَيانُها. وأَقَلُّ الجِهادِ مَرَّةٌ في السَّنَةِ.. فَإِنْ زَادَ على مَرَّةٍ فهو أَفضَلُ.

ووُجُوبُ الجِهَادِ وُجُوبُ الوَسَائِلِ لا المَقَاصِدِ، إذ المَقصُودُ بِالقِتَالِ إِنَّمَا هُوَ الهِدَايَةُ وَمَا سِوَاهَا مِن الشَّهَادَةِ، وأَمَّا قَتْلُ الْكُفَّارِ فَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ، حَتَّى لَوْ أَمْكَنَ الهِدَايَةُ بِإِقَامَةِ الدَّلِيلِ بِغَيْرِ جِهَادٍ كَانَ أَوْلَى مِن الجِهَادِ..

---

(١) أي الإمام.

(٢) المغني، لابن قدامة المقدسي رحمه الله، ٣٤٨/٨ -باختصار-.

(٣) التَّغريرُ مَصْدَرُ غَرَّرَ به، أي: عَرَّضَه للخطَرِ والهَلَاكِ.

(٤) الأم: ج:٤ ص:٩١.

والثاني: أَنْ يَدخُلَ الكفّارُ بَلْدَةً لَنَا(١)، فالجهادُ في هذه الحالةِ فَرْضُ عَيْنٍ فيلزَمُ أَهْلَهَا الدَّفْعُ(٢) بِالمُمْكِنِ منهم(٣)، لِأَنَّ دُخُولَهُمْ دَارَ الإِسْلامِ خَطْبٌ عَظِيمٌ لا سَبِيلَ إلى إِهْمَالِهِ، فلا بُدَّ مِن الجِدّ في دَفْعِهِ بِما يُمكِنُ»(٤).

تنبيهٌ: إِنّي لَأَحْسَبُ أَنّ قِرَاءَةَ هذا المَوْضُوعِ في كُتُبِ المَذَاهِبِ (الحَنَفِيّ والشَّافِعِيّ والمَالِكِيّ والحَنْبَلِيّ) ودِرَاسَتَها على أهلِ العِلمِ أمرٌ ضَرُورِيٌّ نُوصِي به شَبَابَ المسلِمِين، ولا يُغْنِي عنه الرُّجُوعُ إلى كِتاباتٍ كثيرٍ مِن المُعاصِرين؛ لأنّ كثيراً منهم مُصَابُونَ بِالهَزِيمَةِ الدَّاخِلِيَّةِ، فتَرَاهم يُجَامِلُونَ ويُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مَوَاضِعِهِ ابْتِغَاءَ رِضَا الطَّوَاغِيتِ أو رِضَا الكُفَّارِ، وإنّا لله وإنّا إليه رَاجِعُونَ.

(١) الدُخُولُ ليس بِقَيْدٍ، فمِثلُه ما لو صارَ بينهم وبين البَلْدَةِ دون مَسَافَةِ القَصْرِ. (إعانة الطالبين)

(٢) قال الدِّمْيَاطِيُّ رحمه الله في إعانة الطالِبين: (وللدَّفعِ مَرْتَبَتَانِ: أَحَدُهما أَنْ يَحْتَمِلَ الحالُ اجْتِمَاعَهم) أي: يُمْكِنُ اجْتِمَاعُهم، بِأَنْ لم يَهْجُمْ عليهم العَدُوُّ (وتَأَهُّبُهم للحربِ) أي: استِعْدَادُهم له (فوَجَبَ الدَّفْعُ) أي: فَفِي هذه المَرْتَبَةِ يَجِبُ الدفعُ مُطلَقاً مِن غيرِ تَقْيِيدٍ بِشَيْءٍ (على كلٍّ منهم) أي: على كلِّ واحدٍ واحدٍ مِن أهلِ البَلَدِ.. (وثانِيَتُهما: أَنْ يَغْشَاهم الكفّارُ) أي: يَهْجُمُوا عليهم ويُحِيطُوا بهم (ولا يَتَمَكَّنُونَ) أي: المسلمون (مِن اجتماعٍ) أي اجتماعِهم (وتَأَهُّبٍ) أي: تَأَهُّبِهِم للقِتالِ (فمَنْ قَصَدَه كافرٌ أو كُفّارٌ وعَلِمَ أنّه) أي مَن قَصَدَه كافرٌ.. ومِثْلُ العِلْمِ غَلَبَةُ الظَّنِّ (يُقتَلُ إن أَخَذَه) أي أَخَذَه الكافرُ (فعليه) أي فيَجِبُ على مَن قَصَدَه كافرٌ (أن يَدفَعَ عن نفسِه بما أَمْكَنَ، وإن كان مِمَّنْ لا جِهادَ عليه؛ لِامتِناعِ الاستِسْلامِ لِكافِرٍ) أي لأنه ذُلٌّ دِينِيٌّ. (فإنْ لم يَعلَمْ أنه يُقتَلُ، بِأَنْ جَوَّزَ أَسْراً) أي مِن غيرِ قتلٍ (وقَتْلاً) أي بَعْدَ الأَسْرِ (فله قِتالٌ واستسلامٌ) أي: فيَجوز له إذا جَوَّزَ الأَسْرَ، وجَوَّزَ القتلَ، أَنْ يُقاتِلَ، ويَجوز له أن يَسْتَسْلِمَ لهم (إن عَلِمَ أنه إن امْتَنَعَ منه قُتِلَ) قَيْدٌ في الاستسلامِ، أي: مَحَلُّ جَوَازِه له، إن عَلِمَ أو ظَنَّ ظَنّاً قَوِيّاً أنه إن امْتَنَعَ مِن الاستسلامِ يُقتَلُ يَقِيناً (وأَمِنَت المَرْأَةُ فاحِشَةً إن أُخِذَتْ) أي: وإنْ أَمِنَتْ المَرْأَةُ التي قَصَدَها كافرٌ فِعْلَ الفاحِشَةِ فيها إن أُسِرَتْ (وإلّا تَعَيَّنَ) أي: وإنْ لم يَعلَمْ أنه إن امْتَنَعَ مِن الاستسلامِ يُقتَلُ، ولم تَأْمَن المرأةُ فِعْلَ الفاحِشَةِ فيها تَعَيَّنَ الجهادُ، ولا يجوز الاستسلامُ؛ لأنه حينئذٍ ذُلٌّ دِينِيٌّ (فمن عَلِمَ أو ظَنَّ أنّه إنْ أُخِذَ قُتِلَ عَيْناً امْتَنَعَ عليه الاستسلامُ كما مَرَّ آنِفاً).. انتهى النَّقْلُ مِن إعانةِ الطالبين على حَلِّ ألفاظِ فَتْحِ المُعِين -مُلَخَّصاً-.

وقال الشِّرْبِينِيّ رحمه الله في مُغني المُحتاج: (وَإِنْ جَوَّزَ) المُكَلَّفُ المَذكُورُ (الأَسْرَ) والقَتْلَ (فَلَهُ) أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَ (أَنْ يَسْتَسْلِمَ) لِقَتْلِ الكُفَّارِ إنْ كَانَ رَجُلاً؛ لِأَنَّ المُكَافَحَةَ حِينَئِذٍ اسْتِعْجَالٌ لِلقَتْلِ، والأَسْرُ يَحتَمِلُ الخَلاصَ، هَذَا إنْ عَلِمَ أَنَّهُ إنْ امْتَنَعَ مِن الاِسْتِسْلامِ قُتِلَ، وَإِلَّا امْتَنَعَ عَلَيْهِ الاِسْتِسْلَامُ.

أَمَّا المَرْأَةُ فَإِنْ عَلِمَتْ امْتِدَادَ الأَيْدِي إلَيْهَا بِالفَاحِشَةِ فَعَلَيْهَا الدَّفْعُ وَإِنْ قُتِلَتْ؛ لِأَنَّ الفَاحِشَةَ لا تُبَاحُ عِندَ خَوْفِ القَتْلِ وَإِنْ لَمْ تَمْتَدَّ الأَيْدِي إليهَا بِالفَاحِشَةِ الآنَ، وَلَكِنْ تَوَقَّعَتْهَا بَعْدَ السَّبْيِ أُحْتُمِلَ جَوَازُ اسْتِسْلاَمِهَا ثُمَّ تَدْفَعُ إذَا أُرِيدَ مِنْهَا [أي: ولو قُتِلَتْ، لأنّ مَن أُكْرِهَ على الزِّنَى لا يَحِلّ له المُطاوَعَةُ لِدَفْعِ القَتْلِ]..

(٣) أي: بِأَيِّ شيءٍ أَطاقُوهُ، ولو بِحِجَارَةٍ أو عَصاً. (إعانة الطالبين)

(٤) انظر: مغني المحتاج، كتاب الجهاد والسِّيَر، وإعانة الطالبين، باب الجهاد.

مَشْرُوعِيَّةُ الجِهادِ لَيْسَتْ لِإِكْرَاهِ النَّاسِ على قَبُولِ الإسلامِ:

واعلَمْ أنّ الجِهادَ لم يُشْرَعْ لِإكْرَاهِ النَّاسِ على قَبُولِ الإسلامِ، ولكنّه إنّما شُرِعَ لِإقامَةِ حُكْمِ اللهِ تعالى في الأرضِ ولِكَسْرِ شَوْكَةِ الكُفْرِ والكُفّارِ التي لم تَزَلْ في التّارِيخِ أَقْوَى سَبَبٍ لِشُيوعِ الظُّلْمِ والفِتْنَةِ والفَسادِ والفُجورِ..، وأَكْبَرَ مَانِعٍ عن قَبُولِ الحَقّ والإصْغَاءِ إلى الدَّعْوَةِ الإسلامِيَّةِ[1]. ولو كان هَدَفُ الجهادِ الإكرَاهَ على الدِّينِ لَمَا شُرِعَتْ الجِزْيَةُ لإنهاءِ الحَرْبِ، وإنّ مَشْرُوعِيَّتَها مِن أَوْضَحِ الدَّلائِلِ على أنّ الجِهادِ ليس إكراهاً على قَبُولِ الدِّينِ، ولم يُرْوَ في أَيٍّ مِن حُرُوبِ الجِهادِ الإسلاميّ ـعلى كَثْرَتِها عَبْرَ التَّارِيخِ ـ أنّ أَحَداً مِن الكفّارِ أُكْرِهَ على قَبُولِ الإسلامِ بعدما افْتَتَحَ المُسْلِمُون بَلَداً مِن البلاد، وإنّما تَرَكُوهم وما يَدِينُونَ به، ثُمَّ جاءَتْ الدَّعْوَةُ الإسلاميَّةُ مَصْحُوبَةً بِالحُجَجِ والبَرَاهِينِ، والأَخْلاقِ الفاضِلَةِ، والأَعْمَالِ الحَسَنَةِ.. فتَسَارَعَ الكفّارُ إلى اعْتِناقِ دِينِ الإسلامِ بعد اقتِناعِهم بِحَقِّيَّتِه، واسْتِيقَانِهم بِحُسْنِ تَعالِيمِه دُونَ أَنْ يُكْرِهَهم أَحَدٌ على ذلك.!!

فلذلك جَعَلَ الإسلامُ هَدَفَ جِهَادِ الابتِدَاءِ أَحَدَ الأَمْرَيْنِ: إمّا أَنْ تَعْتَنِقَ البِلَادُ الكَافِرَةُ الإسْلامَ، وإمّا أَنْ يُؤَدُّوا الجِزْيَةَ، وحينئذٍ يُتْرَكُونَ على عَقِيدَتِهِم، ولكنّهم لا يُتْرَكُونَ لِيُنفِّذُوا في الأَرضِ قَوَانِينَهم على عِبَادِ الله، وإنّما تكون الأرضُ تَابِعَةً لِحُكْمِ اللهِ وأَحْكَامِ الإسلامِ، ثُمّ يُتْرَكُ الكُفّارُ ومَا يَدِينُونَ به، وإنّما يَدْفَعُونَ الجِزْيَةَ لِبَيْتِ مَالِ المُسلِمِين ـوهي مَبْلَغٌ يَسِيرٌ مِن المَالِ[2]ـ لأنّ الحُكُومَةَ الإسلاميَّةَ تَقُومُ بِحِفْظِ أَنْفُسِهم وأَمْوَالِهم وأَعْرَاضِهم.. فإنْ قَبِلَ الكفّارُ إقامَةَ حُكْمِ اللهِ في الأرضِ، وخَضَعُوا له بِأَدَاءِ الجِزْيَةِ فقد حَصَلَ مَقْصُودُ الجِهادِ، وحينئذٍ لا يُكْرَهُونَ على قَبُولِ الإسلامِ على حَدِّ السَّيْفِ والسِّلَاحِ، وإنّما يُتْرَكُونَ على عَقِيدَتِهم حتى يَقتَنِعُوا بِحَقِّيَّةِ الإسلامِ ويَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهم إلى اعتِناقِهِ بعدَ قَنَاعَةٍ تَامَّةٍ.

(١) إنّ هذا الهَدَفَ هو الذي بَيّنَه اللهُ تعالى في كِتابه العزيز: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله ﴾ سورة البقرة: ١٩٣.

(٢) ثَبَتَتْ مَشْرُوعِيَّةُ الجزيةِ بِالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ.

والحاصِلُ: أنّ الجهادَ إنّما شُرِعَ لِتَعلُوَ كلمةُ اللهِ على أرضِ اللهِ، ويَكُونَ لها العِزَّةُ والمَنَعَةُ، ولِيَكْسِرَ شَوْكَةَ الظَّالِمِين الذين يَسْتَعْبِدُونَ عِبادَ اللهِ بِأَحْكَامِهم الجَائِرَةِ الخَاطِئَةِ وقَوَانِينِهم المُنْبَثِقَةِ مِن أَهْوَائِهِم، ويَأْبَوْنَ أَنْ يُقامَ حُكْمُ اللهِ تعالى في أَرْضِه، ويُشِيعُونَ بِقُوَّةِ حُكْمِهم كُلَّ ظُلْمٍ ومُنكَرٍ وفَسَادٍ..

قال الإمام السَّرَخْسِيّ رحمه الله في المَبْسُوط (كتاب السِّيَر): «فالواجبُ دُعاءُ المُشرِكِين إلى الدِّينِ وقتالُ المُمْتَنِعِين منهم مِن الإجابَةِ، لأنّ صِفَةَ هذه الأُمَّةِ في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ الأَمْرُ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنكَرِ، وبها كانوا خَيْرَ الأُمَمِ[1]»، قال الله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[2] الآية، ورَأْسُ المَعْرُوفِ الإيمانُ باللهِ تعالى، فعلى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يكون آمِراً به داعِياً إليه، وأَصْلُ المُنْكَرِ الشِّرْكُ، فهو أَعْظَمُ ما يكون مِن الجَهْلِ والعِنادِ لِمَا فيه مِن إنكارِ الحَقِّ مِن غيرِ تَأْوِيلٍ، فعلى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَنْهَى عنه بِما يَقدِرُ عليه».

* * * * *

(١) قال ابنُ المُبارَك: ما جاء فَسَادُ هذه الأُمَّةِ إلّا مِن قِبَلِ الخَوَاصِّ، وهم خَمسة: العُلَمَاءُ، والغُزَاةُ، والزُّهَّادُ، والتُّجَّارُ، والوُلَاةُ. أمّا العلماءُ فهم وَرَثَةُ الأنبياءِ، وأمّا الزُّهَّادُ فعِمَادُ أهلِ الأرضِ، وأمّا الغزاةُ فجُنْدُ اللهِ في الأرض، وأمّا التُّجّارُ فأُمَنَاءُ اللهِ في أرضه، وأمّا الوُلاةُ فهم الرُّعَاةُ. فإذا كان العالِمُ لِلدِّينِ وَاضِعاً وللمالِ رافِعاً فَبِمَنْ يَقتَدِي الجاهِلُ، وإذا كان الزَّاهِدُ في الدّنيا راغِباً فبِمَنْ يَقتَدِي التَّائِبُ، وإذا كان الغَازِي طامِعاً مُرَائِياً فكيف يَظفَرُ بالعَدُوِّ، وإذا كان التَّاجِرُ خائِناً فكيف تَحصُل الأَمَانَةُ، وإذا كان الرَّاعِي ذِئْباً فكيف تَحصُل الرِّعَايَةُ؟؟!! (ذَكَرَه فَخْرُ الدِّين الرَّازِي رحمه الله في تفسيره، ج:٢، ص: ٢٠٣).

(٢) آل عمران: ١١٠

أهمية نصب الإمام

ويَظهَرُ مِمّا ذَكَرْنا أنّ نَصْبَ الإمَامِ للمسلمين مِن أَهَمِّ الوَاجِبَاتِ الشَّرْعيّةِ، لِتوَقُّفِ كَثِيرٍ مِن الوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيّةِ عليه[1]، ولذا قال عُمَرُ النَّسَفِيُّ رحمه الله في «العَقائِد النَّسَفِيَّة» : والمسلمون لا بُدّ لهم مِن إمامٍ[2] يَقُومُ بِتَنْفِيذِ أَحْكامِهِم، وإقامَةِ حُدُودِهم، وسَدِّ ثُغُورِهم، وتَجْهِيزِ جُيُوشِهم، وأَخْذِ صَدَقاتِهم، وقَهْرِ المُتَغَلِّبَةِ[3] والمُتَلَصِّصَةِ[4] وقُطَّاعِ الطّرِيقِ، وإقامةِ الجُمَعِ[5] والأَعْيادِ، وقَطْعِ المُنَازَعاتِ الوَاقِعَةِ بين العِبادِ، وقَبُولِ الشَّهاداتِ القائِمَةِ على الحُقُوقِ، وتَزْوِيجِ الصِّغَارِ والصَّغَائِرِ[6] الّذِين لا أولياءَ لهم، وقِسْمَةِ الغَنائِمِ، ونحوِ ذلك مِن الواجبات الشَّرْعِيَّةِ التي لا يَتَوَلَّاهَا[7] آحَادُ المُسلِمين[8].انتهى كلامُه.[9]

ولِأَهَمِّيّتِه قَدَّمَ الصَّحابَةُ رضي الله عنهم نَصْبَ الإمامِ على دَفْنِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم[10]، وكذا بعد موتِ كُلِّ إمامٍ مِن الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين ومن بعدهم.

وهنا نُرِيدُ أَنْ نُنَبِّهَ إِخْوَانَنا الذين يُرِيدُونَ الذَّهَابَ إلى الجِهَادِ أَنْ يَسْأَلُوا أَنْفُسَهم قَبْلَ ذَهَابِهِم: تحت قِيَادَةِ مَن سَأُقَاتِلُ؟ يعني: مَن هُمْ؟ وأَيْنَ دَرَسُوا؟ ومِن أَيْنَ تَخَرَّجُوا؟ وما هي عَقِيدَتُهم؟

(١) أي على نَصْبِ الإمام، وقد تَقَرَّرَ في أصولِ الفقهِ أنّ ما يَتَوَقَّفُ عليه الواجبُ الشَّرْعِيُّ فهو واجبٌ شرعاً.

(٢) الإمَامَةُ خِلافَةُ الرَّسُولِ عليه الصلاة والسلام في إقامةِ قَوَانِينِ الشَّرْعِ وحِفْظِ حَوْزَةِ المِلَّةِ، أي نَاحِيَتِها، على وَجْهٍ يَجِبُ اتّباعُه على كافَّةِ الأُمَّةِ. (نشر الطوالع: ٥٦٧).

(٣) أي الغالِبِين بلا حَقٍّ مِن الظَّلَمَةِ والغاصِبِين: كالبُغَاةِ.

(٤) أي السَّارِقِين المُبَالِغِين في السَّرِقَة.

(٥) أي إقامَةِ صَلاةِ الجُمُعَةِ.

(٦) (الصِّغار) جمعُ صَغِيرٍ، و(الصَّغائِر) جمعُ صَغِيرَةٍ.

(٧) أي لا يكون وَلِيّاً.

(٨) أي فَرْدٌ مِن أَفْرَادِ المُسلِمين.

(٩) انظر: شرح «العقائد النسفية» للتفتازاني ص:٢٣٤، وشرح «الفقه الأكبر» لعلي القاري ص:٤١٠.

(١٠) فقد تُوُفِّيَ صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين، ودُفِنَ يومَ الثُّلاثاءِ أو ليلةَ الأَرْبِعاءِ أو يومَ الأربِعاءِ بعد أَنْ تَمَّ اختيارُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه خَلِيفَةً له. وهذه السُّنَّةُ باقِيَةٌ إلى الآنَ، لم يُدْفَنْ خليفةٌ حتى يُوَلَّى غيرُه. (ابن عابدين: ٣-٤٨٦ بتصرف يسير).

وما هو مَنهَجُهم؟ وما هو هَدَفُهم؟ هل هو إعلاءُ كَلِمَةِ اللهِ أو..؟؟!!، وتَحْتَ أيِّ رَايَةٍ يُقاتِلون؟ وعن أيِّ مَبدأٍ يُدافِعون؟..

ويَجِبُ الحَذَرُ أيضاً مِن مَكْرِ الأَعْدَاءِ، فإنّهم قد يَصْنَعُونَ القِيادَاتِ الوَهْمِيَّةَ لِيُجَنِّدُوا الشَّبَابَ تَحْتَ إمْرَتِهِم فَيَغْدِرُوا بِهِمْ، فلِذلك نَقول لإخْوانِنا المُجاهِدين: لا تَغْتَرُّوا بِكُلِّ كَتِيبَةٍ أو جَيْشٍ أو جَمَاعَةٍ.. تَحمِلُ شِعَارَ الإسلامِ، فإنّهم قد يَكُونُونَ أَبْعَدَ النَّاسِ عن الإسلامِ!!!.

وإنَّ حالَ العالَمِ الإسلاميِّ في هذه الأيَّامِ وما أَصابَ الإسلامَ والمُسلمين مِن ضَعْفٍ وذُلٍّ وتَدَهْوُرٍ.. ما هو إلّا نَتِيجَةُ ابْتِعادِنا عن أَوَامِرِ الله تعالى، وسُنَّةِ نَبِيِّه صلى الله عليه وسلم، وعَدَمِ اجْتِنَابِنَا نَوَاهِيهِ.. فَاغْتَنَمَ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ مِن المُلحِدين والإِبَاحِيِّين منذ سَنَوَاتٍ طويلةٍ فُرْصَةَ تَفَرُّقِ الأُمَّةِ الإسلاميّةِ بِسَبَبِ تَلاشِي الخِلافَةِ الإسلاميَّةِ وغِيَابِ الخَلِيفَةِ المُسلِمِ[1]، واغْتَنَمُوا أيضاً غَفْلَتَنا عن قولِه تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[2]، وقولِه تعالى: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾[3]، وقولِه تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾[4]،

(١) يقول شيخُنا محمود أفندي (حفِظه الله): «المُسلِمون أكْثَرُ النّاسِ عَدَداً في الدّنيا، ولكن بِسَبَبِ سُقُوطِ الخِلافَةِ الإسلاميّةِ صَارُوا كأنّهم في حُكْمِ المَعدومِ فليس لهم اعتبارٌ». فلا شَكَّ أنّنا اليَوْمَ لَفِي أَمَسِّ الحاجَةِ إلى الوَحْدَةِ والتَّجَمُّعِ لِكَيْ تَتَخَطَّى أُمَّتُنا عَصْرَ الظُّلُماتِ الذي تَتَخَبَّطُ فيه. قال الشيخ إسماعيل حقي البُروسوي في روح البيان: «ينبغي لِلنَّاسِ أَنْ يكونوا على التَّآلُفِ والتَّوافُقِ دون التَّباغُضِ والتَّفَرُّقِ؛ لأنّ يَدَ اللهِ مع الجَماعة، وإنّما يَأكُلُ الذِّئْبُ الشَّاةَ المُنْفَرِدَةَ. وأَوْصَى حكيمٌ أَوْلادَه عند مَوْتِه، وكانوا جماعةً فقال لهم: ائْتُونِي بِعِصِيٍّ فجَمَعَها، وقال: اكْسِرُوها وهي مَجْمُوعَةٌ، فلم يَقْدِرُوا على ذلك، ثُمَّ فَرَّقَها وقال لهم: خُذُوا وَاحِدَةً واحدةً فاكْسِرُوها، فكَسَرُوها، فقال لهم: هكذا أنتم بَعْدِي لَنْ تُغْلَبُوا ما اجْتَمَعْتُم، فإذا تَفَرَّقْتُم تَمَكَّنَ منكم عَدُوُّكم فأَهْلَكَكُم».

وقال ابن عربي رحمه الله في هذا المِضْمَارِ: «اعْلَمْ أَنَّ يَدَ الله ـ التي هي القُوَّةُ ـ مع الجماعةِ، وما غُلِبَتْ قَطُّ جماعةٌ إلّا عند افتِراقِهم». (الفتوحات المكية، الباب: ٥٦١).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**اثْنَانِ خَيْرٌ مِنْ وَاحِدٍ، وَثَلَاثَةٌ خَيْرٌ مِن اثْنَيْنِ، وَأَرْبَعَةٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلاثَةٍ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَجْمَعَ أُمَّتِي إِلَّا عَلَى هُدًى**) رواه الإمام أحمد: ٢١٢٩٣.

(٢) سورة الحجرات : ١٠.

(٣) سورة الأنفال: ٤٦. ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ فيما يَأْمُرانِ به، فإنّ الطَّاعَةَ مِفتاحُ الخَيْرَاتِ ﴿**وَلا تَنَازَعُوا**﴾ فيه ﴿**فَتَفْشَلُوا**﴾ أي: فتَجْبُنُوا عن عَدُوِّكم، وتَضْعُفُوا عن قِتالِهم ﴿**وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ أي قُوَّتُكم ودَوْلَتُكم. (انظر: تفسير الجلالين، والآلوسي، والبَحر المَديد)

(٤) سورة آل عمران: ١٠٣. ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ**﴾ أي بِدِينِه الذي ارْتَضَاهُ أو بِكتابِه المُشْتَمِلِ على أحكامِه=

وقولِه تعالى: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾(١).

فصار الكُفّارُ يَجْتَرِئُونَ علينا، ويُغِيرُونَ على بِلادِنَا، فيَقْتُلُونَ أَبْنَاءَنا ويُذِيقُونَهم شَتَّى أَنْوَاعِ العَذابِ، ويَغتَصِبُونَ أَرَاضِيَنَا ومُقَدَّسَاتِنَا، ويَسْرِقُونَ خَيْرَاتِ بِلادِنا، وقَبْلَ خُرُوجِهم -إِنْ خَرَجُوا- يَنْصِبُونَ رَئِيساً عَبْداً لهم، فيَسْتَعمِلُونَه في إفسادِ أَبْنَاءِ المُسلمِين في بِلادِه عَقِيدَةً وعَمَلاً وعَادَةً وعُرْفاً.. ويَأْمُرُونَه بِتَطْبِيقِ قَوَانِينِهم البَاطِلَةِ، وعَادَاتِهم السَّيِّئَةِ، كما نُشاهِدُه اليومَ أيضاً في كثيرٍ مِن البِلاد، حتى إنّ قِتالَ الكُفّارِ مَعَنَا ليس شرطاً لِاسْتِعبادِهم حُكَّامَ المُسلِمِين، لأنّ مِن المَعلومِ الواقِعِ أَنّهم مُتَّفِقُونَ مع أَكْثَرِ حُكَّامِنَا وقد اشتَرَوْهم بِعَرَضِ الدُّنْيا بِلا قِتَالٍ ولا حَرْبٍ!!!.

ومع الأَسَفِ الشَّدِيدِ أَصْبَحَ جِهادُنا -إن كان هُناكَ جِهادٌ- جِهادَ دَفْعٍ وصَدٍّ لِلعُدْوَانِ، وليس جهادَ طَلَبٍ وفَتْحٍ وتَحْرِيرٍ ونَشْرٍ لِلدَّعْوَةِ الإسلاميّةِ كما كان في العُصُورِ السَّابقةِ

=وما سِواه بِوَصْفِ المُبِينِ ﴿جَمِيعاً﴾ أي حالَ كَوْنِكم مُجْتَمِعِين عليه غيرَ مُتَفَرِّقِين عنه ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾ أي ولا تَتَفَرَّقُوا عن الحقّ بِوُقُوعِ الاختلافِ بَيْنَكم، كما اخْتَلَفَتْ اليَهُودُ والنَّصارى. ويجوز أن يكون مَعْنَاه: ولا تَفَرَّقُوا مُتَابِعِين للهوَى والأَغْرَاضِ المُخْتَلِفَةِ، وكونوا في دِينِ اللهِ إخْوَاناً، فيكون ذلك مَنْعاً لهم عن التَّقَاطُعِ والتَّدَابُرِ، ودَلَّ عليه ما بعده، وهو قولُه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾.
(انظر: تفسير النسفي، والقرطبي، والبيضاوي، وروح البيان، وتفسير علي القاري)

(١) سورة آل عمران: ١٠٥. ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ﴾ أي اليَهود والنّصارى ﴿تَفَرَّقُوا﴾ في الدِّينِ ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ فيه بِسَبَبِ اتّباعِ الهوى وطاعةِ النَّفْسِ والحَسَدِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي الآياتُ والحُجَجُ المُبَيِّنَةُ لِلحَقِّ، المُوجِبَةُ لِاتِّحادِ الكَلِمَةِ.

قال الإمام أبو مَنصور الماتريدي رحمه الله في تفسيره: «التّفرُّقُ هو سبيلُ الشيطانِ، بقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾».

تنبيه: المرادُ مِن الاختلافِ المَذكورِ في الآيةِ: هو الاختلافُ في أُصُولِ الدِّينِ، أمّا الاختلافُ في الفُرُوعِ، كما اختَلَفَ الأَئِمَّةُ المُجتَهِدون فذلك مِن اليُسْرِ في الشّريعةِ السَّمْحَةِ. قال الإمام القرطبي في تفسيره: «الاختلافُ في الفُرُوعِ ليس اختلافاً، إذ الاختلافُ ما يَتَعَذَّرُ معه الائتِلافُ والجَمْعُ، وأمّا حُكْمُ مَسائِلِ الاجتهادِ، فإنّ الاختلافَ فيها بِسَبَبِ استِخراجِ الفَرَائِضِ ودَقَائِقِ مَعَانِي الشَّرْعِ؛ وما زالت الصّحابَةُ يَختَلِفون في أحكام الحوادِثِ، وهم مع ذلك مُتَآلِفُونَ... وإنّما مَنَعَ اللهُ اختلافاً هو سببُ الفَسادِ». نعم.. الاختلافُ والتّفرُّقُ المَنْهِيُّ عنه إنما هو المُؤَدِّي إلى الفِتنَةِ والتَّعَصُّبِ، أمّا الاختلافُ في الفُرُوعِ فَمِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعةِ. (انظر: البَحْر المَدِيد، وتفسير العِزّ بن عبد السَّلام)

ـعَصْرِ الصَّحابةِ ومَن بعدهمـ الذين وَصَلُوا في فُتُوحَاتِهم إلى أَقَاصِي الأَرْضِ، ودَانَتْ لهم الدُّنْيا بِأَسْرِها[1]، فلا بُدَّ لَنَا كَيْ يَصْلُحَ حالُ أُمَّتِنَا اليومَ مِن العَوْدَةِ إلى دِينِنَا وسُنَّةِ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم مع التَّوْبَةِ النَّصُوحِ. وسَنَذْكُرُ تَفاصِيلَها في «رسالة النَّجاة إلى إخواننا المسلمين» التي ستأتي بعد عِدَّةِ صَفَحَاتٍ.

نَسْأَلُ اللهَ سُبحانه وتعالى أَنْ يَنصُرَ الإسلامَ والمسلمين، ويُوَحِّدَ كَلِمَتَهم، ويُزِيلَ أَسْبَابَ الشِّقَاقِ المَزْرُوعَةِ بينهم، ويُوَفِّقَهم لِإعادَةِ الخِلافَةِ الإسلاميَّةِ المَفْقُودَةِ في رُبُوعِ الأَرْضِ، وأَنْ يُخَلِّصَ بِلادَنا مِن الحُكَّام الظَّالِمِين، الضَّالِّين المُضِلِّينَ الذين بَاعُوا أَنْفُسَهم لِلكَفَرَةِ مِن الغَرْبِيِّينَ وصَارُوا دُمْيَةً في أَيْدِيهِم يُحرِّكُونَهم كَيْفَمَا شَاءُوا..

وندعو اللهَ تعالى أن يَرُدَّنَا إلى دِينِنَا رَدّاً جَمِيلاً، ويَهْدِيَنَا جَمِيعاً إلى ما يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ، ونَسْأَلُه أَنْ لا يُسَلِّطَ علينا بِذُنُوبِنَا مَن لا يَرْحَمُنَا، لِأَنَّنا إذا كُنَّا مِن أهلِ الطَّاعَةِ يُوَلَّ علينا أهلُ الرَّحْمَةِ، وإذا كُنَّا مِن أهلِ المَعصِيَةِ يُوَلَّ علينا أهلُ العُقُوبَةِ..[2] فإنّ الوُلاةَ إنّما يَكونون على حَسَبِ أعمالِ الرَّعَايَا وأَحْوَالِهم صَلاحاً وفَساداً، فعلى كُلِّ واحدٍ مِن المسلمين التَّضَرُّعُ لله تعالى والإنابةُ إليه بالتّوبة والاستغفارِ عند فَشْوِ الظُّلْمِ وشُمُولِ الجَوْرِ..

* * * * *

(١) أَقْرَبُ مِثالٍ لَنَا الخِلافةُ العُثمانيّة التي أَسَّسَها أَجْدَادُنا، وحَكَمُوا ثُلُثَ العالَمِ أكثرَ مِن سِتّمائة عامٍ.

(٢) قال ابنُ عَبّاس رضي الله عنه: «إذا رضي اللهُ عن قومٍ وَلّى أَمْرَهم خِيَارَهم، وإذا سَخِطَ اللهُ على قومٍ وَلَّى أَمْرَهم شِرَارَهم». فعلى هذا القول: إنّ الرَّعِيَّةَ مَتَى كانوا ظالِمِين سَلَّطَ اللهُ عليهم ظالِماً مِثْلَهم، فمَنْ أَرَادَ أن يَتَخَلَّصَ مِن ظُلْمِ ذلك الظالِمِ فلْيَتْرُكِ الظُّلْمَ. وفي هذا المَقام أَنْشَدَ بعضُهم:

بِذُنُوبِنَا دَامَتْ بَلِيَّتُنَا والله يَكشِفُها إذا تُبْنَا.

فائدة في قوله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ... ﴾[1]

قال شِهابُ الدِّينِ الآلُوسِيُّ (رحِمه الله) في تفسير هذه الآيةِ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم ﴾ خِطابٌ لِكافّةِ المؤمنين؛ لِمَا أنّ المَأْمُورَ به مِن وَظائِفِ الكُلِّ، أي: أَعِدُّوا لِقِتَالِ الذين نُبِذَ إليهم العَهْدُ، وهَيِّئُوا لِحِرَابِهم، كَمَا يَقتَضِيه السِّبَاقُ، أو: لِقتالِ الكُفّارِ على الإطلاقِ، وهو الأَوْلَى كما يَقتَضِيه ما بعده. ﴿ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أي: مِن كُلِّ ما يُتَقَوَّى به في الحَرْبِ كَائِناً ما كان[2]، وأَطْلَقَ عليه القُوَّةَ مُبالَغةً... وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: تَفْسِيرُ القُوّةِ بِأَنْوَاعِ الأَسْلِحَةِ، وقال عِكْرِمَة: هي الحُصُونُ والمَعاقِلُ. وفي روايةٍ أُخرى عنه: أنّها ذُكُورُ الخَيْلِ.

وأَخرج أحمد ومسلم وغيرُهما عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، وهو على المِنبَرِ، يقول: «﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أَلاَ إنّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» قالَها ثَلاثا[3]. والظّاهِرُ مِن الآيَةِ العُمُومُ. إلاّ أنّه عليه الصلاة والسلام خَصَّ الرَّمْيَ بِالذِّكْرِ لأنه أَقْوَى ما يُتَقَوَّى به، فهو مِن قَبِيلِ قولِه صلى الله عليه وسلم: «اَلْحَجّ عَرَفَة»[4].

(١) سورة الأنفال: ٦٠

(٢) مِن خَيْلٍ وسِلاحٍ وقِسِيٍّ وغيرِها، ويَختَلِف هذا بِاختلافِ الزّمانِ والمَكانِ، فالواجبُ على المسلمين في هذا العَصْرِ صُنْعُ المَدَافِعِ والطّائِرَاتِ والقَنَابِلِ والدَّبَّابَاتِ والرَّصَاصِ، وإنشاءُ السُّفُنِ الحَرْبِيّة والغَوّاصَاتِ ونحوِ ذلك..

(٣) مسند الإمام أحمد (١٧٤٣٢)، وصحيح مسلم (١٩١٧). صَدَقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم!! أَلَا يُرَى أنّ الأعداءَ يَرْمُونَ بِصَوَارِيخِهم وقَنَابِلِهم الذَّكِيَّةِ مِن وَرَاءِ المُحِيطَاتِ، فيُصِيبُونَ أَهْدَافَهم بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، وبذلك سَيْطَرُوا على العالَمِ، وقَهَرُوا الشُّعُوبَ، ونَالُوا الظَّفَرَ في الحُرُوبِ، وأَحْرَزُوا النَّصْرَ.

قال الإمام النووي رحمه الله: «وفيه وفي الأحاديثِ بَعْدَه فَضِيلةُ الرَّمْيِ والمُناضَلَةِ والاعْتِنَاءِ بذلك بِنِيَّةِ الجِهادِ في سبيل الله تعالى، وكذلك المُشَاجَعَةُ وسَائِرُ أَنْوَاعِ استعمالِ السِّلاحِ، وكذا المُسَابَقَةُ بِالخَيْلِ وغيرِها، كما سَبَقَ في بابه، والمرادُ بهذا كُلِّه التَّمَرُّنُ على القِتالِ والتَّدَرُّبُ، والتَّحَذُّقُ فيه، ورِياضَةُ الأَعْضَاءِ بذلك».

(٤) قال فخر الدين الرازي في التفسير الكبير: قولُه عليه الصلاة والسلام: «القُوَّةُ هي الرَّمْيُ»، لا يَنْفِي كَوْنَ غيرِ الرَّمْيِ مُعتَبَراً، كما أنّ قوله عليه الصلاة والسلام: «الحَجُّ عَرَفَةٌ» و «النَّدَمُ تَوْبَةٌ» لا يَنفِي اعتِبَارَ غيرِه، بل يَدُلّ على أنّ هذا المَذكورَ جُزْءٌ شَرِيفٌ مِن المَقصُودِ، فكذا ههنا. وهذه الآية تَدُلّ على أنّ الاستعدادَ للجهاد بِالنَّبْلِ والسِّلاحِ وتعليمِ الفُرُوسيّةِ والرَّمْيِ فَرِيضَةٌ، إلّا أنه مِن فُرُوضِ الكِفَايَاتِ. اهـ

وقال الإمام القرطبي: إنما فسّر القوة بِالرمي، و إن كانت القُوَّةُ تَظهَرُ بإعدادِ غيرِه مِن آلاتِ الحربِ؛ لكون الرمي=

وقد مَدَحَ عليه الصلاة والسلام الرَّمْيَ وأَمَرَ بِتَعَلُّمِه في غيرِ ما حَدِيثٍ...

وأنت تَعلَمُ أنّ الرَّمْيَ بِالنِّبَالِ اليومَ لا يُصِيبُ هَدَفَ القَصْدِ مِن العدوّ؛ لأنهم اسْتَعْمَلُوا الرَّمْيَ بِالبَنَادِقِ والمَدَافِعِ، ولا يَكادُ يَنفَعُ مَعَهما نَبْلٌ، وإذا لم يُقابَلُوا بِالمِثْلِ عَمَّ الدَّاءُ العُضَالُ، وَاشْتَدَّ الوَبَالُ والنَّكَالُ، ومَلَكَ البَسِيطَةَ أَهْلُ الكُفْرِ والضَّلالِ، فالذي أَرَاهُ وَالعِلْمُ عند الله تعالى تَعَيُّنُ تلك المُقابَلَةِ على أَئِمَّةِ المُسلِمين وحُمَاةِ الدِّينِ، ولَعَلَّ فَضْلَ ذلك الرَّمْيِ يَثبُتُ لِهذا الرَّمْيِ؛ لِقيامِه مَقامَه في الذَّبِّ عن بَيْضَةِ الإسلامِ، ولا أَرَى ما فيه مِن النَّارِ لِلضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إليه إلّا سَبَباً لِلفَوْزِ بِالجَنَّةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، ولا يَبْعُدُ دُخُولُ مِثْلِ هذا الرَّمْيِ في عُمُومِ قولِه سُبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ ﴾.[1] انتهى كلامُ الآلوسي.

قال شَيْخُنَا الشيخ محمود أفندي الأُوفِيّ (أطَالَ اللهُ في عُمُرِهِ وأَدَامَ نَفْعَه للإسلام والمسلِمين) في تفسير هذه الآية: «إنّ اللهَ تَعَالَى يُحَذِّرُنَا ويَقول لَنَا: يَا أَيُّهَا المُؤمِنون! إنّ أَعْدَاءَكم يُعِدُّونَ الْعِدَّةَ كَيْ يَهْزِمُوكُم وَيَنتَصِرُوا عليكم..، فَأَعِدُّوا عِدّتكم وَجَهِّزُوا أَنْفُسَكم لِقِتالِهم.. ولكِنَّنَا إلى الآنَ غَافِلُونَ».[2]

والخُلاصَةُ: يَجِبُ أن نَعلَمَ: أنّ اللهَ سُبحانه وتعالى أَمَرَ المؤمنين في هذه الآيةِ بالاستعدادِ للحربِ التي لا بُدَّ منها؛ لِدفْعِ العُدْوَانِ، وحِفْظِ الأَنْفُسِ والحَقِّ والفَضِيلَةِ، ويكون ذلك الاسْتِعدَادُ بِأَمْرَيْنِ:

١. **إعدادُ المُسْتَطَاعِ مِن القوّةِ**؛ ويَختَلِفُ هذا بِاختلافِ الزَّمَانِ والمَكانِ، فالواجِبُ على المسلمين في هذا العَصْرِ صُنْعُ المَدَافِعِ والطَّائِرَاتِ والقَنَابِلِ والدَّبَّابَاتِ والرَّصَاصِ، وإنشَاءُ السُّفُنِ الحَرْبِيَّةِ والغَوَّاصَاتِ ونحوِ ذلك..

=أَشَدَّ نِكايَةً في العدوّ، و أَسْهَلَ مؤُونَةً؛ لأنه قد يُرْمَى رَأْسُ الكَتِيبَةِ؛ فَيُصَابُ؛ فَيَنْهَزِم مَن خَلْفَه» كذا في الفتح. وبه يَظْهَرُ أنّ تَخصِيصَ الرمي بِالذِّكرِ لا يَدُلّ على قَصْرِ معنى القُوَّةِ عليه، وإنما المراد أنّ الرَّمْيَ مِن أَعْلَى أَنْوَاعِ القُوَّةِ في عَهْدِه صلى الله عليه وسلم.

(١) قال الشيخ إسماعيل حقي البُروسوي (رحِمه الله) في تفسيره: «واعْلَمْ أنّ صاحِبَ المُجاهَدَةِ الباطِنَةِ يَتَقَوَّى على قِتالِ النَّفْسِ وهَوَاهَا بِذِكْرِ اللهِ تعالى، فهو القُوَّةُ في حَقِّهِ».

(٢) المَواعظ والنَّصائح من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ؛ ج:٣ ، ص:٤٩٥.

وقد اسْتعمَلَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم المَنْجَنِيقَ[1] مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوَةِ خَيْبَرَ وغيرِها. رَوَى مسلم عن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أنه سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وقد تَلَا هذه الآيَةَ يقول: « أَلاَ إِنّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ » قالَها ثلاثاً، وذلك أنّ رَمْيَ العَدُوِّ عن بُعْدٍ بِما يَقتُلُه أَسْلَمُ مِن مُصَاوَلَتِه على القُرْبِ بِسَيْفٍ أو رُمْحٍ أو حَرْبَةٍ، أو نحوِ ذلك، وهذا يَشْمَلُ السَّهْمَ وقَذِيفَةَ المَنْجَنِيقِ والطَّائِرَاتِ والمَدْفَعِ والبُنْدُقِيَّةِ ونحوِها، فاللفظُ يَشْمَلُها وإنْ لم تكن مَعرُوفَةً في عَصْرِه صلى الله عليه وسلم.

ولا بُدَّ لَنَا أيضاً مِن أَنْ نَصْنَعَ أَسْلِحَتَنا بِأَيْدِينَا؛ لأنّ ما يَصْنَعُه الكُفّارُ لَنَا مِن دَبَّابَاتٍ وطائِرَاتٍ وصَوَارِيخَ.. يَجعَلُونَ فيه وَسَائِلَ التَّجَسُّسِ علينا، وأيضاً يَسْتَطِيعُونَ تَعْطِيلَ هذه الأَسْلِحَةِ في أَيِّ وَقْتٍ شَاءُوا، وذلك مِن خِلالِ قِطْعَةٍ يَضَعُونَها دَاخِلَ السِّلاحِ، ويَتَحَكَّمُونَ بها عن بُعْدٍ، وهذا يَعرِفُه أهلُ الخِبْرَةِ مِن القَادَةِ والعَسْكَرِيِّينَ، ومع هذا كُلِّه يَبِيعُونَنَا إِيّاها بِأَثْمَانٍ بَاهِظَةٍ[2]، ويَقطَعُونَها عَنَّا وَقْتَ الحَرْبِ إِذَا أَرَادُوا هَزِيمَتَنَا، وهم يُرِيدُونَها دَائِماً، إلّا إذا تَقَاطَعَتِ المَصَالِحُ.

٢ـ **مُرَابَطَةُ الفُرْسَانِ في ثُغُورِ البِلادِ وحُدُودِها**[3]؛ إذ هي مَدَاخِلُ الأَعْدَاءِ ومَوَاضِعُ مُواجَهَتِهم لِلبِلادِ. والحِكْمَةُ في هذا: أَنْ يكون لِلأُمَّةِ جُنْدٌ دَائِمٌ مُسْتَعِدٌّ لِلدِّفَاعِ عنها إذا فَاجَأَهَا الْعَدُوُّ على حِينِ غِرَّةٍ..

* * * * *

(١) قال في الصِّحاح: وهي التي يُرْمَى بها الحِجارَة.

(٢) لِذا بَدَأَتْ تُرْكِيَا (بَعْدَ مَجِيءِ الحُكَّامِ المُسلِمِين) بِصِنَاعَةِ وتَطْوِيرِ كَثِيرٍ مِن آلاتِ الحَرْبِ كالطَّائِرَاتِ والسُّفُنِ الحَرْبِيَّةِ والدَّبَّابَاتِ وغيرِها مِن الأَسْلِحَةِ الحديثةِ المُتَطَوِّرَةِ التي لا مَثِيلَ لَها في العالَمِ.

(٣) يَختَلِفُ هذا أيضاً باختلافِ الزَّمانِ والمَكانِ كَمَا ذَكَرْنَا.

رسالة النجاة إلى إخواننا المسلمين كافة

وإنّ حالَ العالَمِ الإسلاميّ في هذه الأيّامِ وما أَصابَ الإسلامَ والمسلمين مِن ضَعْفٍ وذُلٍّ وتَدَهْوُرٍ.. ما هو إلّا نَتيجةُ ابْتِعادِنَا عن أَوَامِرِ الله تعالى، وسُنَّةِ نَبِيّه صلى الله عليه وسلم، وعَدَمِ اجْتِنَابِنَا نَوَاهِيهِ.. فاغْتَنَمَ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ مِن المُلْحِدِين والإِبَاحِيّينَ منذ سَنَوَاتٍ طويلةٍ فُرْصَةَ تَفَرُّقِ الأُمَّةِ الإسلاميّةِ بِسَبَبِ تَلَاشِي الخِلافَةِ الإسلاميّةِ والخَلِيفَةِ المُسلِمِ، وصَارُوا يَجْتَرِئُونَ علينا، ويُغِيرُونَ على بِلادِنا، فيَقتُلُونَ أَبْنَاءَنَا ويُذِيقُونَهم شَتَّى أَنْوَاعِ العَذَابِ، ويَغتَصِبُونَ أَرَاضِينَا ومُقَدَّسَاتِنَا، ويَسْرِقُونَ خَيرَاتِ بِلادِنا، وقَبْلَ خُرُوجِهِم ـ إن خَرَجُوا ـ يَنْصِبُونَ رَئِيساً عَبْداً لهم، فيَسْتَعْمِلُونَه في إفسادِ أَبْنَاءِ المسلمين في بِلادِه، ويَأْمُرُونَه بِتَطْبِيقِ قَوَانِينِهم البَاطِلَةِ، وعَادَاتِهِم السَّيِّئَةِ، كما نُشَاهِدُه اليومَ أيضاً في كثيرٍ مِن بِلادِنا، حتى أنّ قِتالَ الكُفّارِ مَعَنَا ليس شرطاً لِاسْتِعْبَادِهم حُكّامَ المسلِمِين، لأنّ مِن المَعلومِ الواقِعِ أنّهم مُتَّفِقُونَ مع أَكْثَرِ حُكّامِنا وقد اشتَرَوْهم بِعَرَضِ الدُّنْيَا بلا قِتَالٍ ولا حَرْبٍ.. كما ذَكَرْنَاهُ سابِقاً.

السُّؤَالُ المُهِمُّ: ما هو سَبِيلُنَا إلى النَّصْرِ؟؟!!

قال اللهُ تَبَارَكَ وتَعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾[1] وقال أيضاً:

---

(١) سورة الرَّعد:١١. ومعنى الآيةِ: لا يُزِيلُ اللهُ نِعْمَتَه عن قومٍ ولا يَسْلُبُهم إيّاهَا، إلّا إذا بَدَّلُوا أَحْوَالَهم الجَمِيلَةَ بِأَحْوَالٍ قَبِيحَةٍ، وهذه مِن سُنَنِ اللهِ في خَلْقِه، أنّه تعالى لا يُبَدِّلُ ما بقومٍ مِن عَافِيَةٍ ونِعْمَةٍ، وأَمْنٍ وعِزَّةٍ، وفَرَحٍ وسُرُورٍ.. إلّا إذا كَفَرُوا تلك النِّعَمَ، وارْتَكَبُوا المَعاصِي. ونَظِيرُ الآيةِ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ (سورة الأنفال:٥٣).

قال الشيخ إسماعيل حقي البُروسوي رحمه الله في روح البيان: «وفي الآيةِ تَنبيهٌ لِجَمِيعِ النّاسِ لِيَعْرِفُوا نِعْمَةَ اللهِ عليهم ويَشْكُرُوا له كَيْلَا تَزُولَ عنهم النِّعَمُ، فدَوَرَانُ اللِّسانِ بالذِّكْرِ والجَنَانِ بالفِكْرِ مِن الأُمُورِ الجَمِيلَةِ، فإذا تَحَوَّلَ المَرْءُ مِن الذِّكْرِ إلى النِّسْيانِ فقد تَحَوَّلَ إلى الحالةِ القَبِيحَةِ، فإذاً لا يَجِدُ مِن الفَيْضِ الإلهِيّ ما يَجِدُهُ قَبْلُ، وقد غَيَّرَ اللهُ بِشُؤْمِ المَعصِيَةِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً..»

وفي الأثر: (أَوْحَى اللهُ إلى نَبِيٍّ مِن أنبياءِ بَنِي إسرائيلَ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: إنّه ليس مِن أهلِ قَرْيَةٍ، ولا أهلِ بَيْتٍ يَكونون على طاعةِ اللهِ، فيَتَحَوَّلُونَ منها إلى مَعصِيَةِ اللهِ، إلّا حَوَّلَ اللهُ عنهم ما يُحِبُّونَ إلى ما يَكرَهُونَ). (صفوة التفاسير)

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾[1] ..

إذاً يَجِبُ علينا أَنْ نَعلَمَ: أَنَّنَا أَخْطَأنَا مع اللهِ سُبحانه وتعالى، فإذا تُبْنَا إليه توبةً صادِقةً وَعُدْنَا

(١) سورة الشورى: ٣٠. معنى الآية: وما أَصابَكم أيّها الناسُ مُصِيبَةٌ مِن المَصائِبِ في النَّفْسِ أو المالِ، فإنّما هي بِسَبَبِ مَعاصِيكم التي اكْتَسَبْتُمُوهَا، قال في «الجَلالين»: وعَبَّرَ بالأَيْدِي لأنّ أكثرَ الأفعالِ تُزَاوَلُ بها. ﴿ويَعفو عن كثير﴾ أي ويَصْفَحُ عن كثيرٍ مِن الذُّنُوبِ فلا يُعَاقِبُكم عليها، ولو آخَذَكم بِكلِّ ما كَسَبْتُم لَهَلَكْتُم، وفي الحديث: (لا يُصِيبُ ابنَ آدَمَ خَدْشُ عُودٍ، أو عَثْرَةُ قَدَمٍ، ولا اختِلاجُ عِرْقٍ إلّا بِذَنْبٍ، وما يَعْفُو عنه أَكْثَر).

قال القُنَوِيُّ رحمه الله في حاشيته على تفسير البيضاوي: فائِدةُ الخبرِ الزَّجْرُ عن المَعاصي بِأنّها داءٌ سَاقَه إلى المُعاقَبَةِ في الدّنيا فكيف بالآخرةِ. قال عِكْرِمَةُ رحمه الله: ما مِن نَكْبَةٍ أَصابَتْ عَبْداً فما فَوْقَها إلّا بِذَنْبٍ لم يَكن اللهُ لِيَغْفِرَهُ له إلّا بها أو لِيَنَالَ دَرَجَةً لم يكن يُوصِلُه إليها إلّا بها.

ورُوِيَ أنّ رَجُلاً قال لِموسى عليه السلام: يا موسى، سَلِ الله لي حاجَةً يَقْضِيها لي هو أعلمُ بها، ففَعَلَ موسى، فلَمَّا نَزَلَ إذْ هو بِالرَّجُلِ قد مَزَّقَ السَّبُعُ لَحْمَه وقَتَلَه، فقال موسى: ما بَالُ هذا يا رَبِّ؟ فقال الله تَبارك وتعالى له: (يا موسى إنه سَأَلَنِي دَرَجَةً عَلِمْتُ أنه لم يَبْلُغْها بِعَمَلِه فأَصَبْتُه بما تَرَى لِأَجْعَلَها وَسِيلَةً له في نَيْلِ تلك الدرجةِ). فكان أَبُو سُلَيْمان الدَّارَانِيّ إذا ذَكَرَ هذا الحديثَ يقول: سُبحان مَن كان قادِراً على أن يُنِيلَه تلك الدرجةَ بِلا بَلْوَى! ولكنّه يَفعَلُ ما يَشاءُ. (ذَكَرَه القرطبي في تفسيره، والصَّاوي في حاشيته على الجلالين)

قال ابنُ عطاء رحمه الله: مَن لم يَعلَمْ أنّ ما وَصَلَ إليه مِن الفِتَنِ والمَصائِبِ بِاكْتِسابِه، وأنّ ما عَفَا عنه مَوْلاهُ أكثرُ، كان قليلَ النَّظَرِ في إحْسَانِ رَبِّه إليه.

وقال محمد بن حامد: العبدُ مُلازِمٌ للجِناياتِ في كُلِّ أَوَانٍ، وجِناياتُه في طاعَتِه أكثرُ مِن جِناياتِه في مَعاصِيهِ؛ لأنّ جِنايةَ المَعصِيَةِ مِن وَجْهٍ، وجِنايةَ الطاعةِ مِن وُجُوهٍ، واللهُ يُطهِّرُ عَبْدَه مِن جِناياتِه بِأَنْوَاعٍ مِن المَصائِبِ لِيُخَفِّفَ عنه أَثْقالَه في القِيامَةِ، ولولا عَفْوُهُ ورَحْمَتُه لَهَلَكَ في أوّلِ خَطْوَةٍ.

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه: هذه أَرْجَى آيَةٍ للمُؤمنين في القرآنِ، لأنّ الكريمَ إذا عَاقَبَ مَرَّةً لا يُعَاقِبُ ثانِياً، وإذا عَفَا لا يَعُودُ. (ذَكَرَه النسفي وابن عَجِيبَة وغيرهم)

ذُكِرَ في روحِ البيان «أنّ هذه الآيَةَ الكريمةَ داعِيَةٌ لِكلِّ أحدٍ إلى المُبادَرَةِ عند وُقُوعِ المَعْصِيَةِ إلى مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ لِيَعْرِفَ مِن أَيْنَ أُتِيَ، فيُبَادِرُ إلى التوبةِ عنها لِيُنقِذَ نَفْسَه مِن الهَلَكَةِ».

فائدةٌ: قال الآلوسي رحمه الله في روح المَعاني: «والآيَةُ مَخصُوصةٌ بِأَصْحابِ الذُّنُوبِ مِن المسلمين وغيرِهم، فإنّ مَن لا ذَنْبَ له كالأنبياءِ عليهم السلام قد تُصِيبُهم مَصائِبُ، ففي الحديثِ: (أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأنبياءُ ثم الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ)، ويكون ذلك لِرَفْعِ دَرَجاتِهم أو لِحِكَمٍ أُخْرَى خَفِيَتْ علينا، وأمّا الأَطْفالُ والمَجَانِين فقِيلَ غيرُ داخِلِين في الخِطابِ، لأنه للمُكَلَّفِين، وبِفَرضِ دُخُولِهم أَخْرَجَهم التَّخْصِيصُ بِأَصْحابِ الذُّنُوبِ، فما يُصِيبُهم مِن المَصائِبِ فهو لِحِكَمٍ خَفِيَّةٍ، وقيل في مَصائِبِ الطِّفْلِ رَفْعُ دَرَجَتِه ودَرَجَةِ أَبَوَيْه أو مَن يُشْفِقُ عليه بِحُسْنِ الصَّبْرِ».

إلى دِينِنَا وسُنَّةِ نَبِيِّنَا يَتَوَلَّى اللهُ نَصْرَ أُمّتِنَا كما قال في كِتابِه الكريم: ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿..وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[3]...

أمّا إذا لَمْ نَتُبْ إلى اللهِ تعالى، وما زِلْنَا بَعِيدِينَ عن مَعْرِفَةِ خَالِقِنَا الذي خَلَقَنَا مِن العَدَمِ فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[4]، وما زلنا بَعِيدِين عن أَوَامِرِه، ولا نَجْتَنِبُ نَوَاهِيهِ، وما زِلنا بَعِيدِين عن سُنّةِ نَبِيّهِ صلى الله عليه وسلم، وما زلنا لا نَعلَمُ ما هي عقيدةُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وما زلنا لا نَمْلَأُ مَساجِدَنا في الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كما نَمْلَؤُها في صلاةِ الجُمُعَةِ، وما زِلنَا نُفْطِرُ في رَمَضَانَ بِلا عُذْرٍ شرعيّ ونَأكُلُ في الشَّوَارِعِ دُون مُرَاعَاةِ حُرْمَةِ الشَّهْرِ، وما زلنا يَغتابُ بعضُنا بعضاً، ولا يُحِبُّ بعضُنا بعضاً، ويَحسُدُ بعضُنا بعضاً، وما زلنا لا نُبَالِي بِأَمْرَاضِ قُلُوبِنَا مِن الحَسَدِ والكِبْرِ والرِّياءِ وحُبِّ الدّنيا.. ولا نَشْتَغِلُ بِتَدَاوِيها[5]،

---

(١) سُورَة الأنفال: ١٩

(٢) سورة الروم: ٤٧ ﴿وَكَانَ﴾ أزلا ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ تَفَضُّلاً ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾المُخْلِصِين على الكافِرين، فَغَلَبَةُ الكافِرين - إن كانت - لَيسَت إلّا لِنَقْصٍ مّا في المؤمنين. والله أعلم. (تفسير أبدع البيان)

(٣) سُورَة آلِ عِمرَانَ: ١٢٦

(٤) سُورَة الذَّارِيَاتِ: ٥٦

(٥) فإنّ أَشَدَّ ما يَحتاجُه إليه المسلمُ في هذا العَصرِ الذي طَغَتْ فيه المَادَّةُ، هو العِنايَةُ بِالجَانِبِ الرُّوحِيّ، الذي أشارَ إليه الحديثُ الشّريف بِمَقامِ الإحسانِ: وهو أَنْ تَعْبُدَ الله كأنّك تَرَاهُ، فإن لم تكن تَرَاهُ فإنّه يَرَاك. ومَقامُ الإحسانِ هو أَحَدُ مَرَاتِبِ الدِّين الثَّلاثِ وهي: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ، التي يَجِبُ على المُسلم أَنْ يُؤَدِّيَها بِشَكْلٍ مُتَكَامِلٍ، لِيَصِلَ إلى كَمالِ دِينِه.

قال حُجَّةُ الإسلام الإمامُ الغزالي رحمه الله: «اعلَمْ أنه ينبغي للسَّالِكِ شَيْخٌ مُرْشِدٌ مُربٍ، لِيُخْرِجَ الأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ منه بِتَرْبِيَتِه، ويَجْعَلَ مَكَانَها خُلُقاً حَسَناً، ومعنى التربية يُشْبِهُ فِعْلَ الفَلّاحِ الذي يَقلَعُ الشَّوْكَ، ويُخْرِجُ النَّبَاتَاتِ الأَجْنَبِيَّةَ مِن بَيْنِ الزَّرْعِ لِيَحْسُنَ نَبَاتُه ويَكْمُلَ رَيْعُه». (أيها الولد، ص:٢٦)

وقال رحمه الله أيضاً: «وإذا عَلِمْتَ أنّ الزَّرْعَ مُحتاجٌ لِلمُرَبّي، علمتَ أنه لا بُدَّ لِلسَّالِكِ مِن مُرْشِدِ البَتَّةَ، لأنّ اللهَ تعالى أَرْسَلَ الرُّسُلَ عليهم الصلاة والسلام لِلخَلْقِ لِيَكُونُوا دَلِيلاً لهم، ويُرْشِدُوهم إلى الطريقِ المُستَقِيمِ؛ وقَبْلَ انْتِقالِ المُصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدَّارِ الآخِرةِ قد جَعَلَ الخُلفاءَ الرَّاشِدِين نُوَّاباً عنه لِيَدُلُّوا الخَلْقَ إلى طَرِيقِ اللهِ؛ وهكذا إلى يومِ القيامةِ، فالسَّالِكُ لا يَسْتَغْنِي عن المُرْشِدِ البَتَّةَ». (خلاصةُ التَّصانيف في التصوّف، لِحجة الإسلام الغزالي، ص: ١٨).=

وما زلنا نَضَعُ أَمْوَالَنا في البُنُوكِ ونَأْكُلُ الرِّبَا مع أنّ اللهَ أَعْلَنَ الحَرْبَ على الذين يَأكُلُونَ الرِّبَا فقال: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾(سورة البقرة: ٢٧٩)، وما زال الزَّوْجُ يُعَاشِرُ زَوْجَته بَعْدَ أَنْ طَلَّقَها مِئَةَ تَطْلِيقَةٍ، وما زَالَتِ الزّوْجَةُ تَعِيشُ في بَيتِ زَوْجِها بعد أَنْ انْفَسَخَ العَقْدُ بَيْنَهُما بِسَبَبِ كَلِمَةِ كُفْرٍ نَطَقَ بها وتَقول[1]: لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرُكَ أَوْلادِي.. مع أنّ حَيَاتَها مَعَه أَصْبَحَتْ حَرَاماً كَالزِّنَا تَمَاماً، وما زلنا نُشَاهِدُ في التِّلِفَازِ أَفْلامَ ومُسَلْسَلاتِ الفَاسِقِين الضَّالِّين المُضِلّين ونَسْتَمِعُ لِأُغْنِيَاتِهم، مع أنّ هذه الأَفْلامَ والمُسَلْسَلاتِ والأَغَانِي.. غَايَتُها إفسَادُ دِينِ وخُلُقِ المُسلِمِين والمُسلِمَاتِ، وما زَالَتْ فَتَيَاتُنَا ونِسَاؤُنَا يَخْرُجْنَ إلى الشَّارعِ مُتَبَرِّجَاتٍ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ، هَمُّهُنَّ الوَحِيدُ: ما هي آخِرُ صَيْحَاتِ المُوضَةِ والأَزْيَاءِ، وما هي أَحْدَثُ مُسْتَحْضَرَاتِ التَّجْمِيلِ، مع أنّ الحَشْمَةَ والأَدَبَ والتَّقْوَى.. هي الزِّينَةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلمَرْأَةِ، وبهذه الخِصالِ تكونُ المَرْأَةُ المُسلِمَةُ مُقَلِّدَةً لِبَنَاتِ النبيّ صلى الله عليه وسلم وزَوْجَاتِه

= فإذا ثَبَتَ في الطِّبِّ الحديثِ أنّ الإنسانَ لا يَستَطِيعُ أَنْ يُطَبِّبَ نَفْسَه بِنَفْسِه ولو قَرَأَ كُتُبَ الطِّبِّ، بل لا بُدَّ له مِن طَبِيبٍ يَكشِفُ خَفَايَا عِلَلِه، ويَطَّلِعُ على ما عَمِيَ عليه مِن دَقَائِقِ مَرَضِه، فإنّ الأَمْرَاضَ القَلْبِيّةَ، والعِلَلَ النَّفْسِيَّةَ أَشَدُّ احْتِيَاجاً لِلطَّبِيبِ المُزَكِّي، لأنها أَعْظَمُ خَطَراً، وأَشَدُّ خَفَاءً، وأَكْثَرُ دِقَّةً.

ولِهذا كان مِن المُفِيدِ عَمَلِيّاً تَزْكِيَةُ النَّفْسِ والتَّخَلُّصُ مِن عِللها على يَدِ مُرْشِدٍ كامِلٍ مَأْذُونٍ بالإرشادِ، قد وَرِثَ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم العِلْمَ والتَّقْوَى وأَهلِيَّةَ التَّزْكِيَةِ والتَّوْجِيهِ.

وقال الغزالي أيضاً: «إنّ اللهَ عزّ وجلّ إذا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْراً بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِه، فَمَنْ كانت بَصِيرَتُه نَافِذَةً لم تَخْفَ عليه عُيُوبُه، فإذا عَرَفَ العُيُوبَ أَمْكَنَه العِلاجُ. ولكنّ أكثرَ الخَلْقِ جَاهِلُونَ بِعُيُوبِ أَنْفُسِهِم يَرَى أَحَدُهم القَذَى في عَيْنِ أَخِيهِ ولا يَرَى الجِذْعَ في عَيْنِ نَفْسِه، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعرِفَ عُيُوبَ نفسِه فله أربعةُ طُرُقٍ: الأوّلُ: أَنْ يَجْلِسَ بين يدي شيخٍ بَصِيرٍ بعيوبِ النفسِ، مُطَّلِعٍ على خَفَايَا الآفاتِ، ويُحَكِّمَه في نَفْسِه، ويَتْبَعَ إشارَتَه في مُجاهَدَتِه، وهذا شَأْنُ المُرِيدِ مع شَيْخِه، والتِّلمِيذِ مع أُستَاذِه، فيُعَرِّفُهُ أُستَاذُه وشيخُه عُيُوبَ نفسِه، ويُعَرِّفُه طريقَ عِلاجِها...» (إحياء علوم الدين: ٣/٥٥).

وقال رحمه الله أيضاً: «يَحْتَاجُ المُرِيدُ إلى شيخٍ وأُستَاذٍ يَقْتَدِي به لا مَحالَةَ لِيَهْدِيَهُ إلى سَوَاءِ السَّبِيلِ، فإنّ سَبِيلَ الدِّينِ غَامِضٌ، وسُبُلَ الشَّيْطانِ كَثِيرَةٌ ظاهِرَةٌ، فمَنْ لم يكن له شيخٌ يَهْدِيه، قادَهُ الشّيطانُ إلى طُرُقِه لا مَحالَةَ. فمَنْ سَلَكَ سُبُلَ البَوَادِي المُهْلِكَةِ بِغيرِ خَفِيرٍ قد خاطَرَ بِنَفْسِه وأَهْلَكَهَا، ويكون المُسْتَقِلُّ بِنَفْسِه كالشَّجَرَةِ التي تَنْبُتُ بِنَفْسِها، فإنّها تَجِفُّ على القُرْبِ، وإنْ بَقِيَتْ مُدَّةً وأَوْرَقَتْ لم تُثْمِرْ، فمُعْتَصَمُ المُرِيدِ -بعد تَقدِيمِ الشُّرُوطِ المَذكُورَةِ- شَيْخُه، فَلْيَتَمَسَّكْ به تَمَسُّكَ الأَعْمَى على شاطِئِ النَّهْرِ بالقائِدِ..» (إحياء علوم الدين: ج:٣ ص:٨٨).

(١) أو الزَّوْجَةُ نَطَقَتْ بها ويَقول الزَّوْجُ: إنِّي أُحِبُّها، فلا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرُكَهَا، أو عندنا أَوْلادٌ أو غيرَ ذلك.

الكَرِيمَاتِ العَظِيمَاتِ[1]، وما زال شَبَابُنَا يُضَيِّعُون أَوْقَاتَهم في مَقَاهِي الإِنْتَرْنَت ونحوِها، ويُقَلِّدُونَ في لِبَاسِهم وتَصَرُّفَاتِهم غَيْرَ المُسلِمين ويَتْرُكُونَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم[2]، وما زال الزِّنَا وشُرْبُ الخَمْرِ والمُسْكِرَاتِ يَنْتَشِرُ في بِلادنا يوماً بعد يومٍ، مع أنّ المُجْتَمَعَ الإسلاميَّ إنّما يَقُومُ أَوّلَ ما يَقوم على الشَّبَابِ الأَقْوِيَاءِ[3]، وما زال التُّجّار يَغُشُّون

---

(١) ففي آيَةٍ واحِدَةٍ جَمَعَ اللهُ بنَاتِ النَّبِيّ وزَوْجَاتِه مع النِّساءِ المُحْتَشِماتِ المُتَجَلْبِبَاتِ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

(٢) وهذا المَوْضُوعُ على غايَةٍ مِن الأَهَمِّيَّةِ ولا سيما في زَمَانِنا هذا، الذي تَحَقَّقَ فيه ما أَخْبَرَ به رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِن أنّ هذه الأُمَّةَ يَعْتَرِيها الضَّعْفُ فَتَقَعُ في تَقْلِيدِ اليَهُود والنَّصارى شِبْراً بِشِبْرٍ وذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، وهو الحديثُ الآتِي: عن أبي سَعِيد رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ » قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ! الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: « فَمَنْ ». (صحيح البخاري:٣٤٥٦، وصحيح مسلم:٢٦٦٩) وقولُه: (سَنَن) سُبُل ومَناهج وعَادَات. والمُرَادُ بِالشِّبْرِ والذِّرَاعِ وجُحْرِ الضَّبِّ التَّمْثِيلُ بِشِدَّةِ المُوَافَقَةِ لهم في عَادَاتِهم رَغْمَ ما فيها مِن سُوءٍ وشَرٍّ ومَعْصِيَةٍ لله تعالى ومُخَالَفَةٍ لِشَرْعِه، يعني المرادُ المُوَافَقَةُ في المَعَاصِي والمُخَالَفَاتِ لا في الكُفْرِ. وخَصَّ جُحْرَ الضَّبِّ بذلك لِشِدَّةِ ضِيقِه ورَدَاءَتِه، ومع ذلك فإنّهم لإقْتِفَائِهم آثارَهم واتِّبَاعِهم طَرَائِقَهم لو دَخَلُوا في مِثْلِ هذا الضِّيقِ الرَّدِيءِ لَوَافَقُوهم. وما أَرْوَعَ هذا التَّشْبِيهَ الذي صَدَقَ مُعْجِزَةً لِرسول الله صلى الله عليه وسلم فنَحْنُ نُشاهِدُ تَقْلِيدَ أَجْيَالِ الأُمَّةِ الإسلاميّةِ لِأُمَمِ الكُفْرِ في الأرضِ فيما هي عليه مِن أخلاقٍ ذَمِيمَةٍ ومَلابِسَ سَيِّئَةٍ وعَادَاتٍ فَاسِدَةٍ تَفُوحُ منها رائِحَةُ النَّتْنِ وتُمَرِّغُ أَنْفَ الإنسانيّةِ في مُسْتَنْقَعٍ مِن وَحْلِ الرَّذِيلَةِ والإِثْمِ وتُنْذِرُ بِشَرٍّ مُسْتَطِيرٍ. وقوله: (فَمَنْ) أي يَكُونُ غيرُهم إذا لم يَكُونُوا هم، وهذا واضِحٌ أيضاً فإنّهم المُخَطِّطُونَ لِكُلِّ شَرٍّ والقِدْوَةُ في كُلِّ رَذِيلَةٍ. ثم إنّ هذا لفظُ خَبَرٍ مَعناه النهيُ عن اتِّبَاعِهم ومَنْعِهم مِن الالتِفاتِ لِغَيْرِ دِينِ الإسلامِ؛ لأنّ نُورَه قد بَهَرَ الأَنْوَارَ وشِرْعَتَه نَسَخَت الشَّرَائِعَ.

قال العلّامة المُناوي رحمه الله في «فيض القدير» عند شرح قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس مِنَّا) أي مِن العَامِلِينَ بِهَدْيِنا والجَارِينَ على مِنْهَاجِ سُنَّتِنا (مَن تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا) مِن أهلِ الكِتابِ في نحوِ مَلْبَسٍ وهَيْئَةٍ ومَأْكَلٍ ومَشْرَبٍ وكَلامٍ وسَلامٍ أو تَرَهُّبٍ وتَبَتُّلٍ ونحوِ ذلك.. (لا تَشَبَّهُوا) أي لا تَتَشَبَّهُوا (بِاليَهُودِ) الذين هم المَغضُوبُ عليهم (ولا بالنَّصَارَى) الذين هم الضَّالُّون..

وقال عليّ القاري في «مرقاة المفاتيح»: (ليس مِنّا) أي: مِن أهلِ طَرِيقَتِنا ومُرَاعِي مُتَابَعَتَنا (مَن تَشَبَّهَ بغيرنا) أي: مِن غير أهلِ مِلَّتِنا..

(٣) وهكذا كان مُجْتَمَعُ النبيّ صلى الله عليه وسلم والصَّحَابةِ الكِرام، فكان فِيهم عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ وأُسَامَةُ بنُ زَيدٍ وعليُّ بنُ أبي طالِبٍ وعبدُ اللهِ بنُ عبّاس وعُمَرُ بنُ أبي سَلَمَة ومُعاذُ بنُ عَفراء ومُعَاذُ بنُ عَمرو بنِ الجَمُوحِ وأَنَسُ بنُ مالِكٍ وزَيدُ بنُ ثابِتٍ وغيرُهم، ولو رَاجَعْنَا سِيرَةَ هؤلاءِ الشَّبَابِ لَوَجَدْنَاهم قامُوا بِحَمْلِ مَسْؤُولِيَّةِ الإسلامِ؛ فمِنهم مَن جَاهَدَ، ومنهم مَن قادَ الجُيُوشَ، ومنهم مَن جَمَعَ القرآنَ.. وكانوا إذ ذاك في رَيْعَانِ شَبَابِهم.

ويَكْذِبُونَ في تِجارَتِهم ومُعَامَلَتِهم[1]، وما زالت الثِّقَةُ تُفْقَدُ بَيْنَنَا يوماً بعد يومٍ والكَذِبُ يَفْشُو[2]، وما زِلنَا لا نَتعلَّمُ العُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ التي يُفتَرَضُ تَعَلُّمُها على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ، وما زلنا لا نُرْسِلُ أَوْلادَنا إلى المَدارِسِ الشَّرْعِيَّةِ لِكَيْ يَتفقَّهُوا في الدِّينِ ويُعَلِّمُوا النَّاسَ أَحْكامَ الشَّرْعِ، ويَأمُرُوهم بِالمَعْرُوفِ ويَنهَوْهم عن المُنكرِ[3]، وما زلنا نَقُول: تَعَلُّمُ الشَّرِيعَةِ لا يُطْعِمُ الخُبْزَ، مُسْتَقْبَلُ طَالِبِ العِلْمِ ليس جَيِّداً..[4]، وما زلنا نَتْرُكُ مَجالِسَ العُلَماءِ والمَشَايِخِ ونَمْلأُ الشَّوارِعَ والمَقَاهِي ومَلَاعِبَ كُرَةِ القَدَمِ.. فكيف يَأتِينَا نَصْرُ اللهِ مع كلِّ هذه الذُّنُوبِ والمَعَاصِي؟؟!!

الجَوَابُ:

لا بُدَّ لَنَا أَوّلاً أَنْ نَعُودَ إلى دِينِنَا مع التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ، ونَترُكَ اتّبَاعَ العَادَاتِ والتَّقَالِيدِ السَّيِّئَةِ ونَتَّبِعَ سُنَّةَ خيرِ خَلْقِ اللهِ أجمعين، ولا بُدّ لَنَا أيضاً أَنْ نَشتغِلَ بعُيُوبِ أَنفُسِنا وإصلاحِ أَحوَالِنا، لِأَنَّنا إذا كُنَّا ظالِمِين فاللهُ تعالى يُسَلِّطُ علينا ظالِماً مِثلَنَا كما وَرَد: (**كَمَا تكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ**).

قال العلّامة المُناوي رحمه الله: «فإذا اتَّقَيْتُم اللهَ وخِفْتُم عِقَابَه وَلَّى عليكم مَن يَخَافُه فِيكم وعَكْسُه صحيح، وفي بعضِ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ: أَنَا اللهُ مَلِكُ المُلُوكِ، قُلُوبُ المُلُوكِ ونَوَاصِيهم

(١) وَرَد في الحديث: (**إِنَّ التُّجَّارَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّاراً إِلّا مَنِ اتَّقَى وَبَرَّ وَصَدَقَ**). أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٥٤٠).

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكتَبَ صِدِّيقاً. وإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّاباً**). رواه البخاري: (٦٠٩٤)، ومسلم: (٢٦٠٧).

(٣) قال سيدنا عليّ رضي الله عنه: «أفضلُ الجهادِ الأمرُ بِالمعروفِ والنهيِ عن المُنكَرِ». وكان شيخُ شَيْخِنَا العلّامة عليّ حَيْدَر الأَخِسْخَوِيّ (رحمه الله) يقول: «بَقاءُ دِينِ الإسلامِ مُرْتَبِطٌ بِبَقاءِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنكَرِ».

(٤) مع أَنَّنا نَرَى كثيراً مِن أَصحابِ الشَّهاداتِ الدُّنيويّة العُلْيَا يَجلِسون في البُيُوتِ بِلا عَمَلٍ.. فعلينا أَنْ لا نَنْسَى أَنّ الرِّزْقَ على اللهِ تعالى، وهو سبْحانه وتعالى يَرْزُقُ الكافرَ والفاجرَ أفلا يَرْزُقُ عَبْدَه المُؤمِنَ العالِمَ الطائِعَ الناصِرَ دِينَه؟!! قال الله تعالى: ﴿ **إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ** ﴾ (محمد:٧).وإنّ التَّقْوَى ثَمَرَةُ العلمِ النَّافِعِ لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر:٢٨)، وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ (الطلاق:٢-٣).. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ تَكَفَّلَ اللهُ بِرِزْقِهِ**)، وقال: (**مَنْ تَفَقَّهَ فِي دِينِ اللهِ كَفَاهُ اللهُ هَمَّهُ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**)، وقال: (**مَن جَعَلَ الهُمُومَ هَمّاً واحداً هَمَّ آخِرَتِه ـوهُوَ هَمُّ الدِّينِـ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ..**)، وقال: (**مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللهِ كَفَاهُ اللهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ..**)، وقال: (**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً**)..

بِيَدِي، فَإِنْ العِبَادُ أَطَاعُونِي جَعَلْتُهم عليهم رَحْمَةً، وإِنْ هم عَصَوْنِي جَعَلْتُهم عليهم عُقُوبَةً، فلا تَشْتَغِلوا بِسَبِّ المُلُوكِ، ولكن تُوبُوا إليَّ أُعَطِّفْهم عليكم. ومِن دُعاءِ المصطفى صلى الله عليه وسلم: اللّهُمَّ لا تُسَلِّطْ علينا بِذُنُوبِنا مَن لا يَرْحَمُنا. ورَوَى الطَّبَرَانِيّ عن كَعْبِ الأَحْبَار أنّه سَمِعَ رَجُلاً يَدْعُو على الحَجَّاجِ فقال: لا تَفْعَلْ، إنّكم مِن أَنْفُسِكم أُتِيتُم، فقد رُوِيَ: **أَعْمَالُكم عُمَّالُكم، وكما تكُونُوا يُوَلَّى عليكم**».[1]

قال الشيخ إسماعيل حقي البُرُوسَوِيّ رحمه الله: «مَعناه: إِنْ كُنْتُم مِن أهلِ الطَّاعَةِ يُوَلَّ عليكم أهلُ الرَّحمةِ، وإِن كُنتم مِن أهلِ المَعصِيَةِ يُوَلَّ عليكم أهلُ العُقُوبَةِ.. قال الحَجَّاجُ بنُ يُوسُف حِينَ قِيل له: لِمَ لا تَعْدِلُ مِثْلَ عُمَرَ رضي الله عنه وأنت قد أَدْرَكْتَ خِلافَته، أَفَلَمْ تَرَ عَدْلَه وصَلاحَه؟ فقال في جَوَابِهم: تَبَذَّرُوا أَتَعَمَّرْ لكم، أي: كُونُوا كَأَبِي ذَرٍّ في الزُّهْدِ والتَّقْوَى أُعامِلْكم مُعَامَلَةَ عُمَرَ في العَدْلِ والإنصَافِ.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ الوُّلاةَ إنّما يكونون على حَسَبِ أَعمالِ الرَّعَايَا وأَحْوَالِهم صَلاحاً وفَساداً، فعلى كلِّ واحدٍ مِن المسلمين التَّضَرُّعُ لله تعالى والإِنَابَةُ إليه بِالتَّوْبَةِ والاستغفارِ عند فُشُوِّ الظُّلْمِ وشُمُولِ الجَوْرِ، ويَظْهَرُ جَوْرُ الوَالِي وعَدْلُه في الضَّرْعِ والزَّرْعِ والأَشْجَارِ والأَثْمَارِ والمَكَاسِبِ والحِرَفِ، يعني يَقِلُّ لَبَنُ الضَّرْعِ وتُنْزَعُ بَرَكَةُ الزَّرْعِ وتَنْقُصُ ثِمَارُ الأَشْجَارِ وتَكْسُدُ مُعَامَلَةُ التُّجَّارِ وأهلُ الحِرَفِ في الأَمْصارِ التي مَلَكَ فيها ذلك المَلِكُ الجَائِرُ بِشُؤْمِ ظُلْمِه وسُوءِ فِعْلِه، ويكون الأمرُ على العَكْسِ إذا عَدَلَ. ولمّا وَلِّي عُمَرُ بنُ عبدِ العَزِيزِ الخِلافةَ كَتَبَ إليه طَاوُوس: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يكونَ عَمَلُكَ خيراً كُلَّه فاسْتَعْمِلْ أَهْلَ الخيرِ، فقال: كَفَى بها مَوْعِظَةً».[2]

قال الآلوسي رحمه الله: «استُدِلَّ بِآيَةِ ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[3] على أَنّ الرَّعِيَّةَ إذا كانوا ظالِمِين، فالله تعالى يُسَلِّطُ عليهم ظالِماً مِثْلَهم».[4]

(١) فيض القدير، رقم الحديث: ٦٤٠٦.

(٢) تفسير روح البيان.

(٣) سُورَة الأنعام : ١٢٩.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المَثاني: ٤٣٩/٨.

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير الآية المَذكورة: «وهذا تهديدٌ لِلظَّالِمِ؛ إن لم يَمْتَنِعْ مِن ظُلْمِه سَلَّطَ اللهُ عليه ظالِماً آخرَ. ويَدخُلُ في الآيةِ جميعُ مَن يَظلِمُ نفسَه أو يَظلِمُ الرَّعِيَّةَ، أو التَّاجِرُ يَظلِمُ النَّاسَ في تِجارَتِه أو السَّارِقُ وغيرُهم.. قال ابن عَبّاس رضي الله عنه: إذا رَضِيَ اللهُ عن قومٍ وَلَّى أمرَهم خِيارَهم، وإذا سَخِطَ اللهُ على قومٍ وَلَّى أمرَهم شِرَارَهم».(١)

ولِذا ذَكَر الشيخُ عبدُ الوَهَّاب الشَّعْرَانِيّ رحمه الله هذا الدُّعَاءَ: «نَسْأَلُ اللهَ أَنْ لا يُسَلِّطَ علينا بِذُنُوبِنَا مَن لا يَرحَمُنَا» ثم قال: «فإنّ وُلاتَنَا في هذا الزَّمَانِ قد تَحَكَّمُوا فِينَا بِسُوءِ أَعْمَالِنا ونِيَّاتِنا، والأمرُ في زيادةٍ لَنَا ولهم، وإذا كان الشَّاخِصُ أَعْوَجَ فظِلُّهُ أَعْوَجُ، لا يَصِحُّ اسْتِقَامَتُه، ونحنُ شَاخِصٌ، ووُلاتُنَا ظِلُّنَا».(٢)

فعلى هذا القولِ عَلِمْنَا: أنّ الرَّعِيَّةَ متى كانوا ظالِمِين سَلَّطَ اللهُ عليهم ظالِماً مِثْلَهم، فمَن أراد أن يَتَخَلَّصَ مِن ظُلْمِ ذلك الظَّالِمِ فَلْيَتْرُكْ الظُّلْمَ. وفي هذا المَقام أَنْشَدَ بعضُهم:

بِذُنُوبِنَا دَامَتْ بَلِيَّتُنَا　　　　واللهُ يَكْشِفُها إذا تُبْنَا.

فإذاً يَجِبُ علينا أَنْ نَتُوبَ إلى اللهِ سُبحانه وتعالى تَوْبَةً نَصُوحاً، وأَنْ نَتَمَسَّكَ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحمّدٍ صلى الله عليه وسلم في جميعِ أفعالِنا وأعمالِنا، وأنْ نَعُودَ إلى دِينِ الإسلامِ الذي ارْتَضَاهُ لَنَا رَبُّ العالَمِين، وتَكُونُ هذه العَوْدَةُ بِاتِّبَاعِ العلماءِ الرَّبَّانِيِّينَ في السَّيْرِ على طريقِ الكتابِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ، لأنهم وَرَثَةُ الأنبياءِ كما وَرَدَ في الحديثِ(٣)، ولا بُدَّ لنَا أيضاً أنْ نَتْرُكَ تَقلِيدَ غيرِ المسلِمين في حَيَاتِنا وعاداتِنا ومَلابِسِنَا..

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٩/٣٠ ؛ وذُكِر نحوُه في بَحر العُلوم للسَّمرقندي.

(٢) لَطائِفُ المِنَنِ والأخلاقِ، ص:٨٣٤.

(٣) ولكن يَجِبُ علينا الحَذَرُ مِن تقليدِ علماءِ السُّوءِ، لأنّهم لا يُقْتَدَى بهم، بل يَجِبُ علينا الفِرَارُ منهم كَفِرَارِنَا مِن الأَسَدِ.. قال الإمام الرَّبَّانيّ أحمدُ الفاروقي السرهندي (رحِمه الله) في مَكْتُوباتِه: «رَأَى وَاحِدٌ مِن الأَعِزَّةِ إبليسَ اللَّعِينَ قاعِداً على الفَرَاغِ على خِلافِ عادَتِه، فسَأَلَه عن سِرّ ذلك ـ يعني مُتعجِّباً ـ، فقال اللَّعِينُ: إنّ علماءَ هذا الوقتِ قد كَفَوْنِي مُؤْنَتِي وتَكَفَّلُوا لي بالإغوَاءِ والإضْلالِ. فنَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ والعَافِيَةَ مِن شَرِّهِم».

لِذا صَرَّحَ الحافظ الفقيه ابن رجب الحنبلي (رحِمه الله): «أَكْمَلُ العلماءِ وأَفْضَلُهم: العلماءُ بِالله وبِأَمْرِه، الذين جَمَعُوا بين العَمَلَيْنِ، وهؤلاء خُلاصَةُ الخَلْقِ، وهم أفضلُ النَّاسِ بعد الرُّسُلِ». (ورثة الأنبياء ص:٥٦)

قال الله سُبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] أي يَحْسُنُ الاقتداءُ به صلى الله عليه وسلم في ثَباتِه ومُقاسَاتِه الشَّدَائِدَ في سبيلِ اللهِ تعالى، بل سائِرِ أَحْوَالِه، فاقْتَدُوا به فيها. قال الحَكِيمُ التِّرمِذِيّ: الأُسْوَةُ في الرَّسُولِ الاقتداءُ به والاتّباعُ لِسُنَّتِه وتَرْكُ مُخالَفَتِه في قَوْلٍ وفِعْلٍ[2]، فإذاً كَفَانَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِثالًا وقِدْوَةً وإماماً.. في كلِّ شُؤُونِ حَياتِنا، وإنّ اتّباعَه هو الطريق لِحُبِّ رَبّنَا تَبارَك وتعالى لَنَا كما أَخْبَرَ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾[3]. قال أهلُ العِرْفانِ: لو كان في كُلِّ مَنْبتِ شَعْرَةٍ مَحَبَّةٌ تَامَّةٌ له صلى الله عليه وسلم لَكَانَ ذلك بَعْضَ ما يَسْتَحِقُّهُ علينا.

قال الحافظ ابنُ رجب الحنبلي (رحِمه الله) في شرحِ حديثِ (..وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي)[4]: «هذا يَدُلُّ على أَنّ العِزَّ والرِّفْعَةَ في الدنيا والآخرة بِمُتَابَعَةِ أمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لِامْتِثَالِ مُتَابَعَةِ أمرِ الله، قال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلله الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ [فاطر:١٠].

وفي بعضِ الآثارِ: يقول اللهُ تعالى: «أَنَا العَزِيزُ فمَن أَرَادَ العِزَّ فَلْيُطِع العَزِيزَ». قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣]، فالذِّلَّةُ والصَّغَارُ يَحصُلُ بِمُخالَفَةِ أمرِ اللهِ ورسولِه. ومُخالَفَةُ الرَّسُولِ على قِسْمَيْنِ:

أَحَدُهما: مُخالَفَةُ مَن لا يَعْتَقِدُ طاعَةَ أَمْرِه، كمُخَالَفَةِ الكُفَّارِ، وأهلِ الكتابِ، الذين لا يَرَوْنَ طَاعَةَ الرَّسُولِ، فهم تحت الذِّلَّةِ والصَّغارِ، ولهذا أَمَرَ الله بِقِتالِ أهلِ الكِتابِ حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عن يَدٍ وهم صَاغِرُونَ، وعلى اليَهُود الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ لأنّ كُفْرَهم بِالرَّسُولِ كُفْرُ عِنَادٍ.

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

(٢) انظر: أبدع البيان، وروح البيان.

(٣) سورة آل عمران: ٣١. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ أي فهي مُتَرَتِّبةٌ على اتّباعِي فقط. فإنْ اتَّبَعْتُمُوني ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أي كما أَحَبَّني، ويُثِبْكُم أيضاً.

(٤) سبق تخريجه ص:٣.

والثاني: مَن اعْتَقَدَ طاعَتَه ثم يُخالِفُ أَمْرَه، وهذا نَوْعَانِ: أحدُهما: مَن يُخالِفُ أَمْرَه بِالمَعاصِي التي يَعْتَقِدُ أنّها معصيةٌ، فَلَهُ نَصِيبٌ مِن الذِّلَّةِ والصَّغَارِ، وقال الحَسَنُ: إنّهم وإنْ طَقْطَقَتْ[1] بهم البِغَالُ، وهَمْلَجَتْ[2] بهم البَرَاذِينُ، فإنّ ذُلَّ المَعصِيَةِ في رِقَابِهم، أَبَى اللهُ أَنْ يُذِلَّ إلّا مَن عَصَاهُ، كان الإمامُ أحمدُ يَدْعُو: اللهم أَعِزَّنَا بِالطَّاعَةِ ولا تُذِلَّنا بالمَعصية. وقال أبو العَتَاهِيَة:

أَلَا إنّما التَّقْوَى هي العِزُّ والكَرَمُ ... وحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ والسَّقَم

وليس على عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَة ... إذا حَقَّقَ التَّقْوَى وإنْ حَاكَ أو حَجَمَ.

فأهلُ هذا النَّوْعِ خَالَفُوا الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم مِن أجلِ دَاعِي الشَّهَوَاتِ. والنوعُ الثاني: مَن خَالَفَ أَمْرَه مِن أجلِ الشُّبُهاتِ وهم أهلُ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ، فكُلُّهُم لهم نصيبٌ مِن الذِّلَّة والصَّغارِ بِحَسَبِ مُخالَفَتِهم لِأَوَامِرِه.. وأهلُ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ كُلُّهُم مُفْتَرُونَ على الله، وبِدْعَتُهم تَتَغَلَّظُ بِحَسَبِ كَثْرَةِ افْتِرَائِهم عليه، وقد جَعَلَ اللهُ مَن حَرَّمَ ما أَحَلَّه اللهُ، وحَلَّلَ ما حَرَّمَه اللهُ مُفْتَرِياً عليه الكَذِبَ، فمَن قال على اللهِ ما لا يَعلَمُ فقد افْتَرَى عليه الكَذِبَ، ومَن نَسَبَ إليه ما لا يَجُوزُ نِسْبَتُه إليه مِن تَمْثِيلٍ أو تَعْطِيلٍ، أو كَذَّبَ بِأَقْدَارِهِ فقد افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ».[3]

وقال الإمامُ السرهندي في مكتوبه الذي كَتَبَه في بيانِ أَنّ إطاعَةَ الرَّسُولِ عَيْنُ إطاعةِ الحَقّ سُبحانه: «قال الله تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾[4]، فجَعَل الله سُبحانه إطاعة الرَّسُولِ عَيْنَ إطاعَتِه، فإطاعَةُ الحَقِّ عزّ وجلّ بِدُونِ إطاعةِ الرَّسُولِ ليس بِإطاعَةٍ له سُبحانه، ولِذلك أَوْرَدَ كَلِمَةَ «قد» تَأكِيداً لهذا المعنى، وتحقيقاً له، لِئَلّا يُفرِّق مَهْوُوسٌ بين هاتَيْنِ الإطَاعَتَيْنِ، ويَخْتَارَ إِحْدَاهُما دون الأُخْرَى. وقد وَبَّخَ اللهُ سُبحانه في مَحَلٍّ آخَرَ جَمَاعَةً فَرَّقُوا

---

(١) الطقطقة: حكاية صوت الحجارة.

(٢) الهملجة: نوعٌ مِن المَشية تمرَّن عليها الدَّوَابُّ لِلخيلاء.

(٣) ثم قال رحمه الله: «فأمّا مُخالَفَةُ بعضِ أَوَامِرِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم خَطَأً مِن غيرِ عَمْدٍ، مع الاجتهاد على مُتابَعَتِه، فهذا يَقَعُ كثيراً مِن أَعْيَانِ الأُمَّةِ مِن عُلمائِها وصُلَحائِها، ولا إِثْمَ فيه، بل صاحِبُه إذا اجْتَهَدَ فله أَجْرٌ على اجتهادِه، وخَطَأُه مَوْضُوعٌ عنه..» (الحكم الجديرة.. ص:٨٩-٩٠).

(٤) سورة النساء: ٨٠

بين هاتين الإطاعتين حيث قال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾[1] الآية».[2]

فيَنبغِي لِكُلِّ مَنْ مَنَّ اللهُ تعالى عليه بالإسلام أن يكون في جَمِيعِ حالاتِه مُتابِعاً له -عليه الصلاة والسلام- قولاً وفعلاً وتقريراً، ويَعُضّ على سُنَّتِه، وسُنَّةِ الخُلفاءِ الرَّاشِدِين مِن بَعْدِه بالنَّواجِذِ. ولا شَكَّ أنّ مَن أَحَبَّ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم كان لقوله سَمِيعاً، ولِأَمْرِهِ مُطِيعاً، فدَعْوَى مَحبَّتِه مع كَثْرَةِ مُخالَفَتِه مِن دَعاوِي النَّفْسِ المُجَرَّدَةِ عن البَيَانِ، والعَارِيَةِ عن الحُجَّةِ والبُرْهَانِ، ولِله دَرُّ القائِلِ:

تَعْصِي الإلهَ وأنت تُظهِرُ حُبَّه　　　هذا لَعَمْرِي في القِياسِ بَدِيع
لو كان حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَه　　　إنّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيع.

ومَعلومٌ أنّ اللهَ تعالى ما أَرْسَلَ هذا الرَّسُولَ إلّا لِيُطَاعَ، وما بَيَّنَ صلى الله عليه وسلم أحكامَ سُنَّتِه السَّنِيَّةِ إلّا لِأَجْلِ الاتِّبَاعِ. والخَيْرُ كُلُّه لِمَن اهْتَدَى فَاقْتَدَى واتَّبَعَ، والشَّرُّ كُلُّه لِمَنْ زَلَّ فضَلَّ وابتَدَعَ، ولذلك قال صاحبُ الجَوْهَرَة:

فكُلُّ خَيْرٍ في اتِّبَاعِ مَن سَلَف　　　وكُلِّ شَرٍّ في ابْتِدَاعِ مَن خَلَف.[3]

والنَّبِيّ صلى الله عليه وسلم بَلَّغَ الرِّسالَةَ، وأَدَّى الأَمَانَةَ، ولم يَترُك خيراً إلّا دَلَّنا عليه، ولم يَترُك شَرّاً إلّا حَذَّرَنا منه تَحذِيراً، فَمَن أَرَادَ عِزَّ الدّنيا والآخرةِ فشَرْعُه صلى الله عليه وسلم أعظَمُ دليلٍ، ومَن فَارَقَه قِيدَ شِبْرٍ فقد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

والعلماءُ الأعلامُ اجْتَهَدُوا كُلَّ الجُهْدِ في التَّمَسُّكِ بِسُنَنِه صلى الله عليه وسلم، ونَذكُرُ فيما يَلِي نُبْذَةً مِن أقوالِهم في هذا، فإنّهم أُوتُوا الحِكْمَةَ بِبَرَكَةِ مُتابَعَتِه صلى الله عليه وسلم كما قال أَبُو عُثْمَانَ: «مَن أَمَّرَ السُنَّةَ على نَفْسِه نَطَقَ بِالحِكْمَةِ، ومَن أَمَّرَ الهَوَى على نفسِه نَطَقَ بِالبِدْعَةِ».[4]

وقال الإمامُ الشيخ أحمدُ الفاروقي السرهندي (رحِمه الله): «إنّه صلى الله عليه وسلم لمّا كان مَحْبُوبَ رَبِّ العَالَمِين، لا جَرَمَ (أي لا مَحَالَةَ) يَبْلُغُ أَتْبَاعُه صلى الله عليه وسلم مَرْتَبَةَ المَحْبُوبِيَّةِ

(١) سورة النساء: ١٥٠

(٢) مكتوبات الإمام الرباني السرهندي، ج:١ م:١٥٢.

(٣) جوهرة التوحيد لِلَّقَانِيّ رحمه الله، رقم البيت:١٣٧.

(٤) انظر: تفسير المُلّا علي القاري ج:٤ ص:١٩٧.

بِسَبَبِ المُتابَعَةِ؛ فإنّ المُحِبَّ إذا رَأَى شيئاً مِن شَمائِلِ مَحبُوبِه عند شخصٍ يُحِبُّ ذلك الشَّخْصَ بِالضَّرُورَةِ لِمُلابَسَتِه بشمائلِ مَحْبُوبِه وأَخْلاقِه. وقِسْ على ذلك حالَ المُخالِفِين».[1]

قال شيخُنا الشيخُ محمود أفندي (أطَالَ اللهُ في عُمُرِه وأدامَ نَفعَه للإسلام والمسلمين): «لا يُوجَد في السَّماءِ ولا في الأرضِ أَحَدٌ أَحَبُّ إلى اللهِ مِن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ومَن اتَّبَعَه يكون حَبِيبَ اللهِ، فإذَا أَرَدْتَ أَنْ يُحِبَّكَ اللهُ تَمَسَّكْ بِسُنَنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم، لأنّ اللهَ يُحِبُّه ويُحِبُّ مَن يَعمَلُ بِسُنَنِه».[2]

وقال الإمام القُشَيْرِيُّ رحمه الله: «سَعادَةُ الدّارَيْنِ في مُتابَعَةِ السُّنَّة، وشَقاوَتُهما في مُخالَفَتِها، وممّا يُصِيبُ مَن خالَفَها: سُقُوطُ حِشْمَةِ الدِّينِ عن القَلْبِ».[3]

وقال السيد الشيخ أحمد الرِّفاعي رحمه الله: «اطْلُبُوا اللهَ بِمُتابَعَةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، وإيَّاكم وسُلُوكَ طريقِ اللهِ بِالنَّفْسِ والهَوَى، فمَن سَلَكَ الطَّرِيقَ بِنَفْسِه ضَلَّ في أَوَّلِ قَدَمٍ.

بَذَلْتُ نَفْسِي ولم أَتْرُكْ طَرِيقاً إلّا سَلَكْتُه، وعَرَفْتُ صِحَّتَه بِصِدْقِ النِّيَّةِ والمُجَاهَدَةِ، فلم أَجِدْ أَقْرَبَ وأَوْضَحَ وأَحَبَّ مِن العَمَلِ بِالسُّنَّةِ المُحمّديَّةِ، والتَّخلُّقِ بِخُلُقِ أهلِ الذُّلِّ والانْكِسارِ والافْتِقارِ.

أَيْ أَخِي! انْظُرْ كيف كان نَبِيُّك عليه أفضلُ الصّلواتِ والتّسليماتِ؟ وكيف قال؟ وكيف خَالَقَ النّاسَ بَرّاً وفاجِراً ؟ واعْمَلْ بِعَمَلِه، وقُلْ بِقَوْلِه، وتَخَلَّقْ بِخُلُقِه صلى الله عليه وسلم، إنْ كُنْتَ لا تَعْلَم فَاسْأَلِ العُلَمَاءَ، قال تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة النّحل:٤٣).

وأقول لكم: مِفتاحُ السَّعادَةِ الأَبَدِيَّةِ الاقْتِدَاءُ برسول الله صلى الله عليه وسلم في جميعِ مَصادِرِه ومَوَارِدِه، وهَيْئَتِه، وأَكْلِه وشُرْبِه، وقُعُودِه وقِيامِه، ونَوْمِه وكلامِه، حتى يَصِحَّ لكم الاتِّبَاعُ المُطلَقُ.

بَلَغَنا عن بعضِ الأَئِمَّةِ أنه ما أَكَلَ البِطِّيخَ، لأنه لم يُنْقَلْ له كيف أَكَلَه رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم.. وإيَّاكم أَنْ تَقُولُوا هذه الخِصالُ مِن الأُمُورِ التي تَتَعَلَّقُ بِالعِاداتِ فتُهْمِلُوهَا، فإنّ

(١) مكتوبات الإمام الرباني السرهندي، ج:١ م:٤٤.

(٢) Hikmetli Sözler: 319-320

(٣) انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، سورة النور، الآية:٦٣.

إهمالَها يُغلِقُ بَاباً عَظِيماً مِن أبوابِ السَّعادَةِ، وأمَّا العِبادات فلا أَعْرِفُ لِعَدَمِ اتِّبَاعِه عليه الصلاة والسلام فيها مِن عُذْرٍ إلّا أَنْ يَحصُلَ ذلك مِن كُفْرٍ خَفِيٍّ، أو حُمْقٍ جَلِيٍّ، حَمَانَا اللهُ وإيّاكم».[1]

وقال الشيخ أحمد الرّفاعي رحمه الله أيضاً: «لو بَلَغَنا أنّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَمَرَنَا بِقَصِّ الأَعْنَاقِ لَقَصَصْنَا اتِّبَاعاً وامْتِثَالاً لِأَمْرِه صلى الله عليه وسلم».[2]

وفي الحديث الشريف: « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ ».[3]

---

(١) كُلُّ ما نَقَلْنَاه إلى هنا عن الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله مِن كتابه «البرهان المؤيد».

(٢) قلائد الزبرجد، ص:١٢٨.

(٣) جزءٌ مِن حديثٍ رواه عن عِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه: الإمام أحمد في «المسند» رقم: ١٧١٤٥، وأبو داود في «السنن» رقم:٤٦٢٣..

قوله (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي) أي الْزَمُوا التَّمَسُّكَ بِطَرِيقَتِي وسِيرَتِي القَوِيمَةِ التي أَنَا عليها ممّا أَصَّلْتُه لكم مِن الأحكامِ الاعتقاديَّةِ والعَمَلِيَّةِ الوَاجِبَةِ والمَندُوبَةِ وغيرهما (وَسُنَّةِ) أي طريقةِ (الخُلَفَاءِ) فإنهم لم يَعمَلوا إلّا بِسُنَّتِي. والمرادُ بهم الخلفاءُ الأربعةُ والحَسَنُ رضي الله عنهم أجمعين (الرَّاشِدِينَ) جَمْعُ راشِدٍ، وهو مَن عَرَفَ الحَقَّ واتَّبَعَه (المَهْدِيِّينَ) جمعُ مَهْدِيٍّ، وهو مَن هَدَاهُ اللهُ إلى الحَقِّ والصَّوَابِ. قال الشبرخيتي رحمه الله: «الرَّاشِدِينَ والمَهْدِيِّينَ لَفْظَانِ مُتَرَادِفانِ معناهما واحدٌ، يَحتمِلُ أنّهما اسْمَا مَفعولٍ، أي الذين أَرْشَدَهم الله وَهَدَاهم، ويَحتَمِلُ أنّهما اسْمَا فاعِلٍ، أي المُرشِدِين الهَادِين لِغَيْرِهم». وقد قَرَنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم سُنَّةَ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين بِسُنَّتِه، لِعِلْمِه أنَّ طَرِيقَتَهم التي يَسْتَخْرِجُونَها مِن الكتابِ والسُّنَّةِ مَأْمُونَةٌ مِن الخَطَأ. وقد أَجْمَعَ المسلمون على إطلاقِ لَقَبِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِين المَهْدِيِّين على الخلفاء الأربعةِ: أبي بكرٍ، وعُمَرَ، وعُثمَانَ، وعليٍّ رضي الله تعالى عنهم أجمعين. والتَّمَسُّكُ بطريقةِ هؤلاء الخلفاءِ في حَقِّ المُقَلِّدِ الصِّرْفِ في تلك الأَزْمِنَةِ القَرِيبَةِ مِن زَمَنِ الصَّحابَةِ، أمّا فيما بعد ذلك فلا يجوز كما قال ابنُ الصَّلاح تَقْلِيدُ غيرِ الأئمةِ الأربعةِ المَشْهُورِينَ: أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد رحمهم الله تعالى، لا لِنَقْصٍ في مَقامِ أَحَدٍ مِن الصَّحْبِ، ولا لِتَفْضِيلِ أحدِ الأربعةِ على أُولئك، بل لِعَدَمِ تَدْوِينِ مَذاهِبِ الأَوَّلِينَ وضَبْطِها واجْتِماعِ شُرُوطِها، وأمّا مَذاهِبُ الأربعة عُرِفَتْ قَوَاعِدُها، واسْتَقَرَّتْ أَحْكَامُها، وخَدَمَها تَابِعُوهم وحَرَّرُوها فَرْعاً فَرْعاً وحُكْماً حُكْماً. [انظر: شرح الأربعين النووية للشبرخيتي ص:٢٢٦، وللدمياطي ص:٢٧٠، وللهيثمي ص:٢٢١، رقم الحديث في متن النووي:٢٨. وقد بَيَّنَ كثيرٌ مِن العلماء عِلَّةَ المَنْعِ مِن اتِّبَاعِ غيرِ المَذَاهِبِ الأَرْبَعِ، فمِنهم الإمَامُ ابنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ حيثُ أَلَّفَ رِسَالَةً لَطِيفَةً نَفِيسَةً سَمَّاهَا «الرَّدُّ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ غَيرَ المَذَاهِبِ الأَرْبَعِ» فَقَالَ: قد نَبَّهْنَا على عِلَّةِ المَنْعِ مِن ذلك، وهو أنَّ مَذاهِبَ غيرِ هؤلاءِ لم تَشْتَهِرْ ولم تَنضَبِطْ، فرُبَّمَا نُسِبَ إليهم ما لم يَقُولُوهُ أو فُهِمَ عنهم ما لم يُرِيدُوهُ، وليس لِمَذَاهِبِهِم مَن يَذُبُّ عنها ويُنَبِّهُ على ما يَقَعُ مِن الخَلَلِ فيها، بِخِلافِ هذه المَذَاهِبِ المَشْهُورَةِ. اهـ ومِنهم الإمَامُ النَّوَوِيُّ، حيث قال في «المجموع» (١/٩٣): وليس له التَّمَذْهُبُ بِمَذْهَبِ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وغيرِهم مِن الأَوَّلِينَ وإنْ كانوا أعلمَ وأعْلَى دَرَجَةً مِمَّنْ بَعْدَهُم، لأَنَّهُم لم يَتفرَّغُوا لِتَدْوِينِ العِلمِ وضَبْطِ أُصُولِهِ وفُرُوعِهِ فليس لِأَحَدٍ منهم مَذْهَبٌ مُهَذَّبٌ مُحَرَّرٌ مُقَرَّرٌ، وإنَّما قَامَ بذلك مَن جَاءَ بَعْدَهُم=

قال ابنُ عَجِيبَة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾: «قد جَعَلَ اللهُ رَسُولَه ﷺ أَمَاناً لِأُمَّتِه، ما دَامَ حَيّاً، فلمّا ماتَ ﷺ بَقِيَتْ سُنَّتُه أَمَاناً لِأُمَّتِه، فإذا أُمِيتَتْ سُنَّتُه أَتَاهم ما يُوعَدُونَ مِن البَلاءِ والفِتَنِ، وكذلك خَوَاصُّ خُلَفَائِه، وهم العَارِفون الكِبَارُ (والعلماءُ الرَّبَّانِيُّونَ) فوُجُودُهم أَمَانٌ للنّاسِ... خِلافةً عن رسول الله ﷺ».(١)

=مِنَ الأَئِمَّةِ النَّاحِلِينَ لِمذَاهِبِ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ القَائِمِينَ بِتَمْهِيدِ أَحْكَامِ الوَقَائِعِ قَبْلَ وُقُوعِهَا النَّاهِضِينَ بِإِيضَاحِ أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا كَمَالِكٍ وأَبِي حَنِيفَةَ وغيرِهِمَا. انتهى قولُ النَّوَوِيّ. وقولُ بعضِهم في زَمَانِنَا: «نحن أُنَاسٌ نَتَّبِعُ القرآنَ والسُّنَّةَ» كلمةُ حَقٍّ أُرِيدَ بها باطِلٌ، وكأنّ الأئمةَ الأعلامَ أصحابَ المَذَاهِبِ اخْتَرَعُوا هذه المذاهبَ مِن تِلْقَاءِ أَنْفُسِهم دُونَ الرُّجُوعِ للقرآنِ الكريمِ والسنّةِ النبويّةِ، نَعُوذُ بالله، كما أنّ علماء المسلمين مِن فُقهاء ومُحدِّثين قد أَجْمَعُوا على أَنّ الإنسانَ الفاسِقَ المُبتدِعَ غيرُ ثِقَةٍ، وبِالتَّالِي يُرَدّ حديثُه، وكما تَعلَم أَنّ القرآنَ الكريمَ والسنّةَ النَّبوِيّةَ المطهَّرةَ التي يَستشهِدون بها في أقوالهم قد وَصَلَتْ إلينا عَبْرَ هذه القُرُونِ عن طريق المذاهبِ الأربعةِ وأَتْبَاعِهم مِن تَلامِذَتِهم والرُّوَاةِ عنهم، فمَثَلاً: تَجِدُ الإمامَ مُسلماً صاحِبَ «الصحيح» تلميذاً للإمام البخاري صاحِبِ «الصحيح» أيضاً، والاثنانِ رَوَيَا عن الإمام أحمد بن حنبل، والإمام أحمد تلميذٌ للإمام الشافعي، والشافعي تلميذٌ للإمام مالك وهكذا. فإذا طَعَنُوا في هذه الأَسَانِيدِ فأَحْرَى بهم أَنْ يَأْتُوا بِأَسَانِيدَ أُخْرَى غيرِها، وأَنَّى لهم! ولكنّنا نَرَاهُم قد أَغْمَضُوا أَعْيُنَهم عن تلك الحقيقة وقالوا: القرآنُ والسنّة لا اختلافَ فيهما، والمذاهبُ المذكورة أَحْدَثَتْ خلافاً بين الأُمّةِ!

ونُجِيبُهم بِأنّ هذا الذي يَدّعونه باطلٌ لا قيمةَ له في مَوَازِينِ العلمِ، إذ الخلافُ في الفُرُوعِ الفقهيّةِ مَوْجُودٌ مِن زَمَنِ الصّحابةِ رضي الله عنهم كما هو معلومٌ، وكان للصّحابة عدةُ آراءٍ في المَسألةِ الواحدةِ، مع أنّ مَصْدَرَهم في الفقه والفهمِ هو الكتابُ والسنّةُ، لم يُورِثْ ذلك فِيهم فُرْقَةً ولا انقساماً. ولو سَلَّمْنَا جَدَلاً أَنّ ما يَدّعُونَه صحيحٌ فكيف يُفَسِّرُونَ أَنّ أتباعَ المذاهبِ الأربعةِ ظَلُّوا عَبْرَ العُصُورِ مُحافِظِين على كِيَانِهم العقائديّ والفقهيّ وتَوَاتَرَ على ذلك مِئاتُ الأئمّةِ مِن علماء الأُمّةِ؟ وتعليلُ ذلك عندنا: أنّ هذه المذاهبَ الأربعةَ صَدَرَتْ عن أصولٍ علميّةٍ ثابتةٍ، مَرْجِعُها القرآنُ الكريم والسنّةُ النبوية، لِذا نَرَى الاحترامَ والتقديرَ فيما بينهم واضِحاً جَلِيّاً كالشّمسِ المُشرِقةِ، في حين أَنّ ما أَحْدَثَه هؤلاء بادّعائهم اتّباعَ القرآنِ والسنّةِ أَدّى بِالعَوَامِّ والجَهلَةِ بِعُلُومِ الدِّينِ بِأَنْ يَخْرُجُوا لَنَا بآرَاءٍ عديدةٍ مُختلِفةٍ، بل ومُتَنَاقِضَةٍ مع بعضِها البعضِ، وذلك لِجَهْلِهم البَالِغِ وقُصُورِهم عن النَّظَرِ في الأَدِلّةِ الصّادِرَةِ مِن الكتابِ والسنّةِ، فبَدَلاً مِن أَنْ تُوجَدَ أربعةُ مَذاهبَ فقهيّةٍ تَحترِمُ بعضُها البعضَ وُجِدَتْ مِئاتُ الآراءِ والفِرَقِ، والتي اتّفَقَتْ كُلُّها على شيءٍ واحدٍ وهو: أَنْ لا تَتّفِقَ!] (تَمَسَّكُوا بِهَا) أي بالسُّنَّةِ (عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ) جَمْعُ نَاجِذٍ وهو آخِرُ الأَضْرَاسِ، وهو كِنايةٌ عن شِدَّةِ مُلازَمَةِ السُّنَّةِ والتَّمَسُّكِ بها (وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ) أي باعِدُوا أَنْفُسَكم واحْذَرُوا الأَخْذَ بالأُمُورِ المُحْدَثَةِ في الدِّين، وأُرِيدَ بها ما ليس له أصلٌ في الدِّين، وهو المرادُ بقوله: «كلّ محدثة...»، وإنّما الحامِلُ عليه مُجَرَّدُ الشَّهْوَةِ والإِرَادَةِ، فهذا باطِلٌ قَطْعاً، بِخلافِ مُحْدَثٍ له أصلٌ في الشَّرْعِ، إمّا بِحَمْلِ النَّظِيرِ على النَّظِيرِ أو بِغيرِ ذلك، فإنه حَسَنٌ، إذ هو سُنَّةُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِين والأَئِمَّةِ المَهْدِيِّين، يعني الأُمُورَ المُوَافِقَةَ لِأُصُولِ الدِّينِ غيرُ داخِلَةٍ فيها، وإِنْ أُحْدِثَ بَعْدَه صلى الله عليه وسلم (فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) بُعْدٌ عن الحَقِّ، لأنّ الحَقَّ ما جاءَ به الشَّرْعُ، فما لا يَرْجِعُ إليه يكون ضَلالَةً، إذ ليس بَعْدَ الحَقِّ إلّا الضَّلالُ.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد.

وقال الإمامُ أحمدُ الفاروقي السرهندي (رحمه الله): «فعليكم بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ في أَوَامِرِه ونَوَاهِيهِ، والمُتَابَعَةُ فَرْعٌ عن كَمالِ مَحَبَّتِه عليه الصلاة والسلام: إنّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ.

...لذا فينبغي أَنْ يَتأمَّلَ تأَمُّلاً جَيِّداً وأَنْ يُتَدَارَكَ ما مَضَى قَبْلَ فَوْتِ الفُرْصَةِ، فإنّه إذا فَاتَت الفُرْصَةُ لا يَحصُلُ شَيْءٌ غيرُ النَّدَامَةِ.. فإنْ تَيَسَّرَتْ مُتَابَعَةُ سَيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ في هذه الأيَامِ المَعْدُودَةِ فالنَّجَاةُ الأَبَدِيَّةُ مَرْجُوَّةٌ، وإلّا فخَسَارَةٌ في خَسَارَةٍ، كائِناً مَن كان، وأَيَّ عَمَلٍ عَمِلَ مِن الخَيْرِ».[1]

وقال شيخُنا الشيخ محمود أفندي (حفظه الله): «يجب علينا أن نُقَلِّدَ ونَتَّبِعَ خيرَ خَلْقِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في كلِّ شيءٍ، نحن قومٌ أَعَزَّنَا الله بالإسلام، ومتى ابْتَغَيْنَا العِزَّةَ بِغَيْرِه أَذَلَّنَا الله، فعلينا بِمُتابَعَةِ سَيِّدِنَا وشَفِيعِ ذُنُوبِنَا وطَبِيبِ قُلُوبِنَا محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم..

الدّنيا مَدْرَسَةٌ ونحن الطُّلّابِ، فأَوَّلُ وَظِيفَةٍ لَنَا هي أَنْ نَدْرُسَ شَرِيعَتَه صلى الله عليه وسلم على أَيْدِي عُلَمَاءِ أهلِ السُّنّةِ والجَماعةِ، ونَعمَلَ بِعِلْمِنَا مع الإخلاصِ لله تعالى، وأَنْ نُخَلِّيَ قُلُوبَنَا مما سِوَى اللهِ تعالى بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ[2]، وأَنْ نَهْتَمَّ بالأمرِ بالمعروف والنهي عن المُنكَر، وأَنْ نَتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ونَلْبَسَ ما أَرْشَدَنَا بِسُنَّتِهِ إلى لُبْسِهِ، ونُلبِسَ زَوْجَاتِنَا وبَنَاتِنَا مِثْلَ زَوْجَاتِه وبَنَاتِه صلى الله عليه وسلم..»[3] ومع كُلِّ هذا لا بُدَّ لَنَا أَنْ نَشْتَغِلَ بِأُمُورِ دُنْيَانَا غَيْرَ غَافِلِين عن أُمُورِ آخِرَتِنَا، وأَنْ نَستَعِيذَ بِالله مِن العَجْزِ والكَسَلِ، وأَنْ لا نَنْسَى: أَنَّ المُؤْمِنَ القَوِيَّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، ولكنّ المُهِمّ: أَنْ لا نُعلِّقَ قُلُوبَنَا بالدّنيا، لأنّ حُبَّ الدّنيا مَبْدَأُ كُلِّ آفَةٍ كما وَرَد: (حُبَّ الدّنيا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ)[4].

---

(١) مكتوبات الإمام الرباني، ج:١، م:١٦٥.

(٢) فأَفْضَلُ طريقٍ له أَنْ يَسْلُكَ على يَدِ شيخٍ صادِقٍ كامِلٍ.. قد سَلَكَ طريقَ أهلِ الله على يدِ شيخٍ كذلك إلى أَنْ يَنْتَهِيَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٣) الأَقْوَالُ المَذكورةُ مِن الشيخ محمود أفندي (حفظه الله) مَنقولةٌ مِن عِدَّةِ كُتُبٍ له.

(٤) قال المُناوي رحمه الله: «فإنّ حُبَّ الدُّنيا يَدْعُو إلى كُلِّ خطيئةٍ ظاهِرَةٍ وباطنةٍ ولا سيّما خطيئةٌ يَتَوَقَّفُ تَحْصِيلُها عليها، فيُسْكِرُ عاشِقَها حُبُّها عن عِلْمِه بتلك الخطيئةِ وقُبْحِها وعن كَرَاهَتِها واجْتِنَابِها، وحُبُّها يُوقِعُ في الشُّبُهاتِ ثُمَّ في المَكرُوهِ ثم في المُحرَّمِ وطَالَمَا أَوْقَعَ في الكُفرِ.. فكُلُّ خطيئةٍ في العالَمِ أَصْلُها حُبُّ الدنيا، ولا تَنْسَى ذَنْبَ إبليسَ، فإنّ سَبَبَها حُبُّ الرِّيَاسَةِ التي هي شَرٌّ مِن حُبِّ الدنيا، ولا تَنْسَى كُفْرَ فِرْعَوْنَ وهَامَان وجُنُودِهِما، لأنهم بِسَبَبِ حُبِّ الرِّيَاسَةِ كَفَرُوا، فحُبُّ الدُّنْيَا والرياسةِ هو الذي عَمَرَ النَّارَ بأهلها، وبُغْضُها هو الذي عَمَرَ الجَنَّةَ بأهلها، ومِن ثَمَّ قِيلَ: الدّنيا خَمْرُ الشَّيطانِ فَمَنْ شَرِبَ منها لم يُفِقْ مِن سَكْرَتِها إلّا في عَسْكَرِ المَوْتَى خَاسِراً نَادِماً. (فيض القدير، رقم الحديث: ٣٦٦٢ بتصرف يسير)

ويَنبغي علينا أيضاً أن نَنصُرَ دِينَ رَبِّنَا تبارَكَ وتعالى[1] كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[2]، وأَنْ نَجْتَهِدَ لِعَوْدَةِ المُسلِمِين إلى الله تعالى، ولإيقَاظِهم مِن الجَهْلِ بِسَمَاعِ كلامِ عُلَمَاءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ واتِّبَاعِهم لهم، لأنّهم وَرَثَةُ الأنبياءِ كما قال عليه الصلاة والسلام[3]، ويَنبَغِي علينا أن لا نَنْسَى قولَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: (فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ).[4]

= وقيل أيضاً: السُّكرُ بِحُبِّ الدُّنْيَا أعظمُ مِن السُّكرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ بِكَثِيرٍ، وصَاحِبُ هذا السّكرِ لا يُفِيقُ منه إلّا فِي ظُلْمَةِ اللَّحْدِ، ولو انكشف عنه غِطاؤُه في الدّنيا لَعَلِمَ ما كان فيه مِن السّكر، وأنه أشدُّ مِن سكر الخمرِ، والدُّنْيَا تَسْحَرُ العُقُولَ أعظمَ سِحْرٍ، قال مالكُ بنُ دِينار: اتَّقُوا السّحَّارَةَ، اتَّقُوا السّحَّارَةَ، فَإِنَّهَا تَسْحَرُ قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ. يَعني الدّنيا.

(١) وعلينا أَنْ لا نَنْسَى قَوْلَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِعَمِّهِ: (يا عَمُّ، واللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالقَمَرَ فِي يَسَارِي، مَا تَرَكْتُ هذا الأَمْرَ حَتّى يُظهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيه..) وهذا المَوْقِفُ العَظِيمُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَمْرٌ ثابتٌ مِن أَحْدَاثِ حَيَاتِه المُبَارَكَةِ، ومِن صَبْرِه على ما كان يَلْقَى مِن الأَذَى مِن قَوْمِه، ومُضِيِّهِ في الدَّعْوَةِ إلى الله تعالى لا يَتَرَاجَعُ عنها ولو أَعْطُوهُ ما أَعْطُوه.. وكان صلى الله عليه وسلم يُنَادِي: (مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ) (مسند الإمام أحمد: ١٤٤٥٦)

(٢) سورة محمد : ٧. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ﴾ أي دِينَه ورَسُولَه ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على أَعْدَائِكم ﴿وَيُثَبِّتْ﴾ في الحَرْبِ ﴿أَقْدَامَكُمْ﴾ أي يُقَوِّ أَنْفُسَكم مَجَازاً، فلا تَخَافُوا.. وعَبَّرَ بذلك لأنّ الثَّبَاتَ والتَّزَلْزُلَ يَظْهَرَانِ بها، أو ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ على مَحَجَّةِ الإسلامِ. (انظر: تفسير الجلالين والنسفي)

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه «أنّه مَرَّ بِسُوقِ المَدِينة، فوَقَفَ عليها فقال: يا أهلَ السُّوقِ ما أَعْجَزَكُمْ! قالوا: وما ذاكَ يا أبا هريرة؟ قال: ذاكَ مِيرَاثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقسَم وأَنتم هَاهُنَا لا تَذهَبُونَ فتَأْخُذُونَ نَصِيبَكم منه! قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخَرَجُوا سِرَاعاً إلى المَسجد، ووَقَفَ أبو هريرة لهم حتّى رَجَعُوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة فقد أَتَيْنَا المسجدَ فدَخَلْنَا، فلم نَرَ فيه شيئاً يُقسَم! فقال لهم أبو هريرة: أَمَا رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى، رَأَيْنَا قوماً يُصَلُّونَ، وقوماً يَقْرَأُونَ القُرآنَ، وقوماً يَتَذَاكَرُونَ الحَلالَ والحَرَامَ، فقال لهم أبو هريرة: وَيْحَكُمْ، فذاكَ مِيراثُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم». [رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٤٢٩)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٢٤:١] وروى الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص:٤٥) عن الأعمش قال: بينما ابن مسعود يوماً معه نَفَرٌ مِن أصحابه، إذْ مَرَّ به أعرابيٌّ فقال: على ما اجتمع هؤلاء؟ قال ابن مسعود: «على ميراثِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم يقتسمونه»

وممّا حُكي: أنّه قِيل لِعَبْدِ اللهِ بنِ المُبارَكِ: لو أنّ اللهَ تعالى أَوْحَى إليك: أنّك تَمُوتُ العَشِيَّةَ فماذا تَصنَعُ اليومَ؟ قال: أَقُومُ وأَطْلُبُ العلمَ؛ لأنّ اللهَ تعالى أَعْطَى لِنَبِيِّنَا عليه الصلاة والسلام كُلَّ شيءٍ، ولم يَأْمُرْهُ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ، وأَعْطَاهُ العِلمَ وأَمَرَه بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ (يَعني قولَه تعالى: ﴿وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه: ١١٤). (منهاج المتعلّم للغزالي، ص:٥١)

(٤) صحيح البخاري: ٣٠٠٩. (حُمْر النَّعَم) : هي الإِبِلُ الحُمْرُ، وهي أَنْفَسُ أَمْوَالِ العَرَبِ وخِيَارُها.

ولذلك يقول شيخُنا الشيخُ محمود أفندي الأُوفِيّ (أَطَالَ اللهُ في عُمُرِهِ وأَدَامَ نَفْعَه للإسلام والمُسلِمِين): «يجب علينا أَنْ نُؤسّسَ في كُلِّ حَيٍّ مَدْرَسَةً شَرْعِيَّةً لِلذُّكُورِ وَأُخْرَى لِلإِنَاثِ، كَيْ يَتَعَلَّمَ النَّاسُ العُلُومَ الشرعيّةَ، والأخلاقَ المُحَمَّدِيَّةَ.. وبهذا يَنْتَشِرُ الدِّينُ، ويُحَكَّمُ شَرْعُ اللهِ تعالى في الأَرْضِ، وتُؤَسَّسُ الأَخْلَاقُ المُسْتَقِيمَةُ والآدَابُ القَوِيمَةُ، فالجَهْلُ أَكْبَرُ بَلَاءٍ أَصَابَ المُسلِمِين، فصَلَاحُ العالَمِ يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ الفَرْدِ»، وهذا عَيْنُ ما قاله بعضُهم: كُلُّ مَحَلَّةٍ فيها عالِمٌ؛ فهم أَحْيَاءٌ، وكُلُّ مَحَلَّةٍ لا يكون فيها عالِمٌ؛ فهم أَمْوَاتٌ.[1]

وإذا تَأَمَّلْنَا كلامَ شَيخِنا نَجِدُهُ يَهْدِفُ إلى اجْتِمَاعِ صُفُوفِ الأُمَّةِ على مَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، الذي يُمَثِّلُ الفِكْرَ الإسلاميَّ النَّقِيَّ السَّلِيمَ في عَهْدِ رسولِ اللهِ وعهدِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ التي أَعْلَنَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم أنّها امْتِدَادٌ لِسُنَّتِه بقوله: (عليكم بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاءِ الرَّاشِدِين مِن بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بها وعَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ). وهذا التَّمَسُّكُ يكون بِاتِّبَاعِ أَئِمَّتِنَا الكِرَامِ أبي حَنِيفَةَ والشَّافِعِيِّ ومَالِكٍ وأَحْمَدَ[2] (كما قُلْنَا ص:١١٩ ت:٣)،

---

(١) ذَكَره الغزالي في «مِنهاج المتعلم» ص:٤٤.

(١) أَرَدْنَا بهذا الكلامِ أَنْ نُنَبِّهَ إلى ضَرورَةِ اتّباع علماءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، لأَنَّنَا نَرَى في زَمانِنا كثيراً مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلى العِلم مُغْتَرّاً بنَفسِه يَظُنُّ أنه فَوْقَ الثُّرَيَّا وهو في الحَضِيضِ الأَسْفَلِ، فرُبَّما طَالَعَ كِتاباً مِن كُتُبِ السُّنّةِ مَثلاً فيَرَى فيه حَدِيثاً مُخالِفاً لِمَذهبِ أبي حنيفة فيقول: اِضْرِبُوا مذهبَ أبي حنيفة عُرْضَ الحَائِطِ، وخُذُوا بحديث رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقد يكون هذا الحديثُ مَنْسُوخاً أو مُعارَضاً بما هو أَقْوَى منه سَنَداً أو نحو ذلك مِن مُوجباتِ عَدَمِ العملِ به وهو لا يَعلَمُ بذلك! فلو فُوِّضَ لِمِثْلِ هؤلاءِ العَمَلُ بالحديث مُطلَقاً لَضَلُّوا في كثيرٍ مِن المَسائِلِ، وأَضَلُّوا مَن أَتَاهم مِن السَّائِلِين، ودِينُ اللهِ عزّ وجل أَجَلُّ مِن أَنْ يَتركَ أُلْعُوبَةً لِلعَابِثِين بِحُجَّةِ العَمَلِ بِالسُّنَّةِ مِن غيرِ مُتَأَهِّلٍ!.

وإنّ الإنسَانَ الّذي يَغُضُّ مِن شَأْنِ أَئِمَّةِ المَذاهِبِ ويَسْتَطِيلُ على مَكانَتِهم إنْ هو إلّا رَجُلٌ غِرٌّ جاهِلٌ، كَالهِرِّ يَحْكِي انتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ. حتىّ إنّ بعضَ الجَهَلَةِ يُرَدِّدُونَ على أَلْسِنَتِهم كلامَ بعضِ الأئمةِ المُجتَهِدِين في التَّمَسُّكِ بالأحاديث، ولا يَعْرِفُونَ أنه مَحمولٌ على مَن كان أهلاً لِلنَّظَرِ في النُّصُوصِ ومَعرِفَةِ مُحْكَمِها مِن مَنْسُوخِها، وله قُدْرَةٌ على اسْتِنْبَاطِ الأحكامِ مِن الكِتابِ والسُّنّةِ، وغير ذلك، فلا يجوز للجُهَلاءِ أو (أَنْصَافِ) المُتَعَلِّمِين المَغْرُورِين أَنْ يَتَجَرَّؤُوا على هذا المَقَامِ!.

فقد صَرَّحَ العلماءُ بأنّ التقليدَ واجبٌ على العَامّيِّ لِئَلَّا يَضِلَّ عن دِينِه. (انظر: الميزان الكبرى للشعراني، ١:٢١٨) ووَصْفُ «العَامّيِّ» في مُصطَلَحِ علماءِ الأُصولِ يُطْلَقُ على كُلِّ مَن لم يكن مُجْتَهِداً، وليس المرادُ منه ما نُريده نحن: كُلُّ مَن لم يكن طالِبَ العِلْمِ. ولله دَرُّ القائِلِ: **«ولِكُلِّ مَيْدَانٍ رِجالُه، ولا يَجوز لإنسانٍ أَنْ يَتَعَدَّى طَوْرَه، وكُلُّ عِلْمٍ يُسْأَلُ عنه أَهْلُه، والتَّسْلِيمُ للفقهاءِ سَلَامَةٌ في الدِّين».**
=

وأَبِي مَنْصُورٍ المَاتُرِيدِيِّ وأَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ(١)، والجُنَيْدِ البَغْدَادِيِّ ومَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ

= وكلامٌ بعضِ الجَهَلَةِ لم يُغَيِّرْ حقيقةً عَرَفَتْها العُصُورُ كُلُّها وأَجْمَعَ عليها المُسلمون جِيلاً وَرَاءَ جِيلٍ، وهي أَنّ هذه المَذاهِبَ هي لُبُّ الإِسْلامِ وجَوْهَرُهُ، وأنّها هي التي بَصَّرت المُسلِمِين في كُلِّ زَمَنٍ بأحكامِ دِينِهم ويَسَّرَتْ لهم سَبِيلَ التَّمَسُّكِ بِكتابِ رَبِّهم وسُنَّةِ نَبِيِّهم صلى الله عليه وسلم. وهذا هو جَوَابُنَا بالاختصارِ لِمَنْ يَدْعُونَا إلى نَبْذِ فِقْهِ أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رضي الله عنهم، وإلى الأَخْذِ بما يُسَمُّونَه «فِقْه الكتابِ والسنةِ» أو «فقه السنة»، وما إلى ذلك مِن أَلْقَابٍ وشِعَارَاتٍ مُجَرَّدَةٍ عن اعتبارِ فقهِ الأئمّةِ السَّابِقِين! ونقول لهم: لا نَرْضَاكم بَدِيلاً عن أولئك، فإنّهم أَعْلَمُ منكم برسول الله صلى الله عليه وسلم، بل إنّ (أعلم) هنا ليست على بابِها في التفضيلِ، إذْ لا مُناسَبَةَ بينكم وبينهم في العِلم، وإنّ حِرْصَنا على التَّمَسُّكِ بِهَدْيِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يَدْفَعُنَا إلى الأَخْذِ بما فَقِهُوهُ مِن السُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ، لأنّنا نَعرِفُ أنّ كُلًّا منهم كان يَبذُلُ جُهْدَه لِيَقْرُبَ مِن السُّنَّةِ المُشَرَّفَةِ.

وللإمام التقي السُّبْكي كلامٌ طويلٌ في رسالته «الدرة المضية» (ص:٢٠-٢٥) أَنْقُلُ منها مُقْتَطَفَاتٍ يَسِيرَةً لا تَبعُدُ بالقارىء عمّا نحن بِصَدَدِهِ: قال رحمه الله:

«إنّ النّاسَ على قِسْمَيْن: عالِمٍ مُجتهِدٍ مُتَمَكِّنٍ مِن استخرَاجِ الأَحكامِ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ، أو عَامِيٍّ مُقَلِّدٍ لِأهلِ العلمِ. ووَظِيفَةُ المُجتَهِدِ إذا وَقَعَتْ وَاقِعَةٌ أَنْ يَسْتَخرِجَ الحُكْمَ فيها مِن الأدلّةِ الشّرعيّةِ، ووظيفةُ العامِّيِّ أن يَرجِعَ إلى قولِ العلماءِ، وليس لغيرِ المُجتَهِدِ إذا سَمِعَ آيَةً أو حديثاً أَنْ يَترُكَ به قولَ العلماءِ، فإنه إذا رَآهم قد خَالَفُوا ذلك مع عِلْمِهِم به: عُلِمَ أنّهم إنّما خالَفُوهُ لِدليلٍ دَلَّهُم على ذلك. وقد قال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

والقَصْدُ أنّ غيرَ العالِمِ المُجتَهِدِ ـ ولاسيّما العَوَامُّ ـ إذا سَمِعُوا آيةً فيها عُمُومٌ أو إطلاقٌ لم يكن لهم أن يَأخُذُوا بذلك العُمُومِ أو الإطلاقاتِ إلّا بقولِ العلماءِ، ولا يَعمَلُ بالعُمُوماتِ والإطلاقاتِ إلّا مَن عَرَفَ النَّاسِخَ والمَنْسُوخَ، والعَامَّ والخَاصَّ، والمُطْلَقَ والمُقَيَّدَ، والمُجْمَلَ والمُبَيَّنَ، والحَقِيقَةَ والمَجازَ».

وذَكَر الإمام السُّبكي أَمْثِلَةً على ذلك مِن الكتاب الكريم والسّنّةِ الشّريفة ثمّ قال: «وهذا يُوَضِّحُ أنّ العَمَلَ بِمُجَرَّدِه مِن غيرِ نَظَرٍ في أَدِلّةِ التَّخْصِيصِ والتقييدِ خَطَأٌ مِن العامِلِ به.. فإذا اعْتَرَفَ أنه لا يَنبغي له أَنْ يَعمَلَ بِالعُمُومِ حتّى يَعْرِفَ هل له مُخَصِّصٌ، ويَعْرِفَ ما يُعَارِضُه مِن الأدلة: فَوَّضَ الأمرَ إلى أهلِه، وعَلِمَ أنّه فَوْقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَلِيمٌ، وكذلك لا ينبغي أَنْ يَأخُذَ بأدلة الكتابِ حتى يَعْلَمَ ما في السُّنَّةِ مِمّا يُبَيِّنُهُ أو يُخَصِّصُهُ أو يُقَيِّدُهُ، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤).» ثم قال: «فَمَنْ لم يعرف الكِتابَ والسُّنَّةَ وأَقْوَالَ الأئمةِ: لم يكن له أَنْ يَقِفَ عند دليلٍ يَسْمَعُه، مِن غيرِ إمامٍ يُرْشِدُهُ». وأقوالُ العلماءِ في هذا الصَدَدِ كثيرةٌ، وإنّ كُلَّ مَن ليس مُجتَهِداً فهو عَامِّيٌّ مُقَلِّدٌ، فعلينا بِمتابعةِ الأَئِمَّةِ المُجتهِدِين رضي الله عنهم أجمعين. (للاستزادة ارجع إلى: أَثَر الحديث الشّريف، للشيخ محمد عَوَّامَة -حَفِظَه اللهُ وأَدَامَ نَفْعَه للإسلام والمسلمين-)

(١) الإمامانِ أبو منصور الماتُريدي وأبو الحَسَن الأشعري هُمَا اللّذَانِ حَقّقَا أُصُولَ الدِّين، وأَبطَلاَ قواعدَ المُخالِفِين، وأَعْلَنَا مُناظرَتَهم وتَصَدِّيَهُم لِإقامَةِ الحَقِّ في هذه الأُصُولِ العَظِيمَةِ، وبَادَرَا بِحَملِ هذه المُهِمَّةِ مع تَلاَمِيذِهم وأَتْبَاعِهِم، وتَصَدَّيَا لِنَشْرِ الكُتُبِ التي فيها إِحْقَاقُ الحَقِّ وإبطالُ الزَّيْغِ في الآفاقِ، وبَعَثَا تَلاَمِيذَهما بعد اعْتِنَائِهما بِبِنَائِهم بناءً فِكْرِيّاً حَقِيقِيّاً، لا خِطَابِيّاً شِعْرِيّاً. ولمّا رَأَى علماءُ الأُمّةِ مُجاهَدَةَ هؤلاء في إقامةِ أصولِ الدِّينِ وإعلامِها شَهِدُوا لهم بهذه الجُهُودِ العَظِيمةِ واعْتَرَفُوا بِفَضْلِهم ووَافَقُوهم على بَيَانِهم بعد تحقيقِهم له، وأَنْزَلُوهم مَنْزِلَتَهم التي تَلِيقُ بهم،=

=فصارَ أَكْثَرُهم يَنْتَسِبُونَ إلى الإمام الماتريدي والأشعري، لأنّ هذين صارَا عَلَماً على الأصولِ الصَّحيحةِ لِلدين، فبهذا صَارُوا أئمةً لِأهلِ السُّنَّةِ. (ذَكَرَه العلّامة ابنُ كمال باشا في «مسائل الاختلاف..» ص:١٥).

لفظُ الأشاعرةِ أو الماتريديةِ يُطلَقُ على مَن سَلَكَ مَسْلَكَ الإمامِ أبي الحَسَن الأشعري أو الإمام أبو مَنصور الماتريدي في الاعتقادِ، لا تَقليداً بل اهْتِدَاءً، فمَثَلُ الإمامِ أبي الحَسَن وأبي مَنصور رحمهما الله كَمَنْ عَقَدَ على طريق السَّلَفِ لِوَاءً لِيَهْتَدِي به مَن يَرَاهُ، فالانتِسَابُ إليهما بمَنزلةِ الانتسابِ إلى الإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رضي الله عنهم في الفُرُوعِ الفِقهيّةِ، إذ مع كونِهم مُختلِفين في طُرُقِ الاستنباطِ واستخراجِ الأحكامِ إلّا أنّهم مُتَّفِقِين على المَصادِرِ التي يَصْدُرُونَ عنها والمَوَارِدِ التي يَرِدُونَها، وكذلك الإمام أبو الحسن الأشعري والإمام أبو منصور الماتريدي في أبوابِ أصولِ الدين، إنّما هما آخِذَانِ مِن القرآنِ الكريمِ والسُّنّةِ الشريفةِ، وسَائِرَانِ على طريق السَّلَفِ، والانتسابُ إليهما إنما هو مِن حيث كَوْنُهُمَا أَضَاءَا تِلكَ الطَّرِيقَ ونَصَبَا عليها مَناراً وشَهَرَاهَا في الأُمّةِ بعد أَنْ حَاوَلَ طَمْسَها أَصْحَابُ البِدَعِ والأَهْوَاءِ.

قال الإمام المُحدِّث المُرتضى الزَّبِيدِيّ رحمه الله في «إتحاف السَّادة المُتّقِين بشرح إحياء علوم الدين» (ج:٢ ص:٦): «إذا أُطلِق أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فالمُرَادُ بهم الأشاعرةُ والماتيرديةُ». وقال أيضاً (ج:٢ ص:٧): «وَلْيُعْلَمْ أَنّ كُلًّا مِن الإمَامَيْن أبي الحسن وأبي مَنصور رضي الله عنهما وجَزَاهما عن الإسلام خيراً لم يُبدِعَا مِن عندهما رَأْياً ولم يَشْتَقَّا مَذهَباً، إنّما هما مُقَرِّرَانِ لِمَذاهب السّلفِ مُناضِلانِ عمّا كَانَتْ عليه أَصْحَابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم... وناظَرَ كلٌّ منهما ذَوِي البِدَعِ والضَّلالاتِ حتى انْقَطَعُوا ووَلَّوْا مُنْهَزِمِينَ».

ذكر العلماء في حاشِيَتِهم على شرح العقائد للعلّامة سعد الدين التفتازاني رحمهم الله عند قوله (ص:٩) (فَسُمُّوا أهلَ السنةِ والجماعةِ): المَشهُورُ مِن أهل السنة في دِيار خراسان والعِراقِ والشَّامِ وأكثرِ الأَقْطارِ هم الأشاعرةُ أصحابُ أبي الحسن الأشعري، وفي دِيارِ مَاوَرَاء النَّهْر الماتريديةُ أصحابُ أبي منصور الماتريدي رحمهم الله. (انظر: حاشية الكَسْتَلِيّ، وحاشية الخَيَالِيّ، وشرح النِّبْرَاس)

قال العلامة ابنُ عابدين في حاشيته على الدر المختار (١-١٦١): «قَوْلُهُ: (عَنْ مُعْتَقَدِنَا) أي عَمَّا نَعْتَقِدُه مِنْ غَيْرِ المَسَائِلِ الفَرْعِيَّةِ مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ بِلَا تَقْلِيدٍ لِأَحَدٍ، وهو ما عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهم **الأشاعرةُ والماتريديةُ**».

وقال العلّامة الحسن بنُ عبد المحسن في كتابه «الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية» (ص:٣): «اعلم أنّ مَدَارَ جميعِ العقائدِ أهلِ السنّةِ والجماعةِ على كلام قُطْبَيْنِ، أحدهما: الإمام أبو الحسن الأشعري، والثاني: الإمام أبو منصور الماتُريدي، فكلّ مَن اتّبَعَ واحداً منهما اهتدى وسَلِمَ مِن الزَّيْغِ والفَسَادِ في عقيدتِه..»

وسُئِل ابنُ حَجَر الهَيْتَمِيّ رحمه الله عنهم فأَجَابَ: «هم أئمّةُ الدِّين وفُحُولُ علماءِ المُسلِمِين، فيجب الاقتداءُ بهم لِقيامهم بِنُصْرَةِ الشّريعةِ وإيضاحِ المُشكِلاتِ ورَدّ شُبَهِ أهلِ الزَّيْغِ وبَيَانِ ما يَجِبُ مِن الاعتِقاداتِ والدِّياناتِ، لِعِلْمِهم بالله وما يَجِبُ له وما يَسْتَحِيلُ عليه وما يَجوز في حقه.. والواجبُ الاعترافُ بِفَضْلِ أولئك الأئمةِ المَذكُورين وسَابِقَتِهم، وأنّهم مِن جُمْلَةِ المُرَادِين بقوله صلى الله عليه وسلم: (يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ)، فلا يَعتَقِدُ ضَلالَتَهم إلّا أَحْمَقُ جاهِلٌ أو مُبْتَدِعٌ زَائِغٌ عن الحَقِ، ولا يَسُبُّهم إلّا الفاسِقُ، فينبغي تَبْصِيرُ الجاهلِ وتَأْدِيبُ الفاسِقِ واسْتِتَابَةُ المُبْتَدِعِ». (الفتاوى الحديثية ص:٢٠٥)

ولقد وَصَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ بِأَنّهم السَّوَادُ الأعظمُ مِن الأُمّةِ، وهذا الوصفُ=

=مُنطبِقٌ على الأشاعرة والماتريدية، إذ هم غالبُ أُمّةِ الإسلامِ، والمَنفِيُّ عنهم الاجتماعُ على الضّلالةِ بنَصِّ الحديثِ المَشهورِ: (**لا تَجْتَمِعُ أُمّتِي على ضَلالَةٍ**). فعلينا بِمُتابَعَةِ جُمهُورِ العلماءِ مِن أهلِ السّنّة والجماعة، وعلينا بلُزُومِ السَّوَادِ الأعظمِ، فإنّ مَن شَذَّ شَذَّ إلى النّار.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ..) (مسند الإمام أحمد: ٢٢٠٢٩. قوله: «كذئب الغنم» أي مُفسِدٌ للإنسان؛ أي بإغْوَائِه ومُهْلِكٌ له كَذِئْبٍ أُرْسِلَ في قطيعٍ مِن الغَنَمِ، و«القاصية»: أي البَعِيدَة عن الجَماعة، و«الناحية»: التي في الطَّرَف..)

والسَّلَفُ في الاصطلاح هم أهلُ القُرُونِ الثلاثةِ الأُولَى: الصّحابةُ والتابعون وأتباعُ التابعين. وإنّما مَصْدَرُه قولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فيما رَوَاه الشّيخان مِن روايةِ عبدِ الله بنِ مَسعود رضي الله عنه: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ..) قال الشيخ إبراهيم اللَّقَانِيُّ رحمه الله: «إنّ الخَيْرَ كُلَّه في اتّباعِ طريقِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِن الأنبياءِ والصّحابةِ والتّابِعِين وتابِعِيهم؛ خُصُوصاً الأَئِمَّةَ الأربعةَ المُجتهِدِين أَرْبَابَ المَذَاهِبِ المَشهورةِ، الذين انعَقَدَ الإجماعُ اليَوْمَ على امتناعِ الخُرُوجِ عن مَذهَبِهم..» (شرح اللَّقَانِي على جوهرة التوحيد، رقم البيت:١٣٧)

تنبيه: وقد عَمَدَ بعضُ المُبتَدِعَةِ في زَمَانِنَا إلى كلمةِ «السّلف» فَصَاغُوا منها مُصطَلَحاً جَدِيداً جَعَلُوهُ عُنْوَاناً مُمَيِّزاً تَندرِجُ تَحْتَه فِئَةٌ مُعَيَّنَةٌ مِن المُسلِمِين، ونحن في هذا الكتاب لَسْنَا بِصَدَدِ عَرْضِ آرَائِهم والرَدِّ عليها، لأنّ ذلك يَطُولُ، وقد أَلَّفَ علماءُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ في القَرْنِ المَاضِي والحَالِي الكُتُبَ الكثيرةَ في ذلك، وإنّما نَقول باختصارٍ شديدٍ: لهم مُخَالَفَاتٌ خطيرةٌ في علمِ التوحيدِ والعقيدةِ الإسلاميّةِ، حيث تَكَلَّمُوا في الآياتِ المُتَشَابِهاتِ بما أَفْضَى بهم إلى التّشبيهِ والتّجسيمِ في ذاتِ اللهِ تعالى وصفاتِه، وزَادُوا على ذلك إساءةً بِأَنْ نَسَبُوا أقوالَهم تلك إلى الإمامِ أحمد بن حنبل رحمه الله وهو مِنها بَرِيءٌ، وقد قامَ بِالرَّدِّ على ذلك وتَبْرِئَةِ الإمامِ أحمد منه شيخُ الحنابلةِ العلّامةُ الإمامُ ابنُ الجَوْزِيّ رحمه الله في كتابه «دَفْعُ شُبَهِ التّشبيهِ بِأَكُفِّ التّنزيه»، وغيرُه مِن العلماء. ولهم أيضاً أقوالٌ شاذَّةٌ مَرْدُودَةٌ، كَتَوْسِيعِهم لِمَفهومِ البِدْعَةِ بِشَكْلٍ خارجٍ عمّا دَوَّنَه الأئمّةُ، حتى صارَ دَيْدَنُهُم إطلاقَ هذه الكلمةِ على كلِّ ما خالَفَ أقوالَهم، ونَبْزَ المُخالِفِ لهم بأنّه مُبتَدِعٌ!. وخَالَفُوا إجماعَ المُسلِمِين في مسائل الطّلاق، وذلك بِقَوْلِهم إنّ الطّلاقَ الثلاثَ بلفظٍ واحدٍ يقع طلقةً واحدةً، وأنّ تعليقَ الطّلاقِ بِمَثَابَةِ اليَمِين فقط ولا يَقَعُ به طلاقٌ.. فهم يَدّعُونَ اتّبَاعَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ ثُمّ يَتْرُكُونَ قَوَاعِدَ التَّفْسِيرِ الحَقِّ لَهُمَا، ويُفَارِقُونَ ويُخَالِفُونَ السَّوَادَ الأعظمَ!.

كما أَنَّهُم طَعَنُوا في أئمّةِ أهلِ السنّةِ والجماعةِ مِن الأشاعرة والماتريدية وأَتْبَاعِهم، وطَعَنُوا في الطُّرُقِ الصُّوفِيّةِ الشَّرْعِيّةِ وشُيُوخِها الأكابِرِ وشَنَّعُوا عليهم، حتى أَنّ بعضَهم قد كَفَّرَهُم! مع أَنّ التّكفِيرَ مَسألةٌ خَطِيرَةٌ، ويَتَرَتَّبُ عليها آثارٌ عَظِيمَةٌ. وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ لا يُكَفِّرُ بعضُهم بعضاً، وليس بينهم خِلافٌ يُوجِبُ التَّبَرِّي والتَّكْفِيرَ، فهم إِذَنْ أهلُ الجَمَاعةِ القَائِمُونَ بِالحَقِّ، واللهُ تعالى يَحفَظُ الحَقَّ وأَهْلَه، فلا يَقَعُونَ في تَنَابُذٍ وتَنَاقُضٍ.. ولكنّ هؤلاء الذين يَدَّعُونَ أنّهم أَتْبَاعُ السّلفِ يُكَفِّرُونَ كثيراً مِن المُسلِمِين بلا قَوَاعِدَ شرعيّةٍ ولا أَدِلّةٍ مُعتبَرَةٍ. والحقيقةُ أَنّ هذا التّكفِيرَ الذي لا يَقوم على الأَدِلّةِ الشّرعيّةِ إنّما هو مَهْلَكَةٌ لِأَصْحَابِه، لأنهم يُكَفِّرُونَ النّاسَ بغيرِ حقٍّ، وهذا ذَنْبٌ عظيمٌ كبيرٌ مُهلِكٌ لِصاحبه. فالواجبُ الاحتياطُ والتَّأَنِّي والتَّثَبُّتُ وعدمُ التَّسَرُّعِ في التّكفِيرِ إلّا بعد انْجِلاءِ الحقيقةِ كما قُلنا ص:٧٩ ت:٢.

جاءَ في الدُّرّ المُختار: «واعلَمْ أنه لا يُفتَى بِكُفْرِ مُسْلِمٍ أَمْكَنَ حَمْلُ كَلامِه على مَحْمَلٍ حَسَنٍ، أو كان في كُفْره خِلافٌ، ولو كان ذلك رِوَايَةً ضَعِيفَةً». (للاستزادة ارجعْ إلى حاشية ابن عابدين، باب المُرْتَدّ). قال حُجّةُ الإسلامِ الإمامُ الغزالي في كتابه الاقتِصاد في الاعتِقاد (ص:٣٠٥): «والذي ينبغي أن يَمِيلَ المُحَصِّلُ إليه: الاحترازُ=

=مِن التَّكفِير ما وَجَدَ إليه سَبيلاً؛ فإنّ استباحةَ الدِّماءِ والأَموالِ مِن المُصلِّين إلى القِبْلَةِ المُصرِّحين بقوله: (لا إله إلّا الله محمد رسول الله) خَطِيرٌ، والخَطأُ في تركِ ألفِ كافرٍ في الحياةِ أَهْوَنُ مِن الخطأ في سَفْكِ مِحْجَمَةٍ مِن دم مسلمٍ».

فيَجِبُ الحَذَرُ والتَّحذيرُ مِن هؤلاء كما قال الإمام عبد الوهّاب الشّعراني رحمه الله في كتابه «الكَوْكَب الشّاهِق..» (ص:١١٥): «يجب على كلِّ مسلمٍ أَنْ يُعَرِّفَ النّاسَ أحوالَ أهلِ البِدعةِ؛ لِيأْخُذُوا منهم حِذْرَهم مِن بابِ الرَّحمةِ بهم وبالمُسلِمين، فإنّ على المُبتَدِعِ وِزْرُ كُلِّ مَن تَبِعَه زيادةً على إثْمِه هو، وهذا مَعْدُودٌ مِن جُمْلَةِ إمَاطَةِ الأَذَى عن الطّريق، إذ لا فَرْقَ بين إماطتِه عن الطّريق الظّاهر أو البَاطِنِ».

والتّحقيق: أنّ «السّلفيّة» مَرْحَلَةٌ زمنيةٌ مُبارَكةٌ لا مَذهبٌ إسلاميٌّ، وإذا قَصَدْنا مِن «السّلفيّة» اتّباعَ السَّلَفِ الصَّالِحِ فلا شَكَّ أيضاً أَنّ المَاتريديّةَ والأشاعرةَ هم السَّلَفِيّونَ الحَقِيقِيُّونَ، لِأنّنا عندما نَقول: «ماتريديّة» أو «أشعريّة» نَحن لا نَتَعَلَّقُ بالأَشْخَاصِ، بل نَنْتَسِبُ إلى مَذهَبٍ عَرِيقٍ وإلى طريقةٍ قويمةٍ سابِقَةٍ للإمامَيْنِ أبي مَنصور الماتريدي وأبي الحسن الأشعري، ولاحِقَةٍ عليهما، ومُسْتَمِرَّةٍ -بإذنِ اللهِ تعالى- إلى يوم الدّين. نَعْنِي: المَذهَبُ هو أَعْظَمُ مِن أبي مَنصور الماتريدي وأبي الحسن الأشعري وأكبرُ منهما، لأنّ المذهب بالخلاصة: هو عِبارةٌ عن طريقةٍ سَدِيدةٍ قَويمَةٍ في الفَهْمِ الصَّحيحِ للإسلام، وأحكامٍ رَشِيدَةٍ يُتَوَصَّلُ إليها بهذه الطريقةِ والأُسْلُوب.

مع الأَسَف الشّديد فهؤلاء يَنْتَشِرُونَ بِكَثْرَةِ ما يَملِكُونَه مِن الأموالِ الطائلةِ والإمكانيّاتِ الضَّخْمَةِ، فتَرَاهُم يَقُومُونَ بِنَشْرِ آرَائِهِم عَبْرَ أَشْرِطَةِ التَّسْجِيلِ والمَجَلّاتِ والكُتَيِّبَاتِ التي تُوَزَّعُ مَجّاناً..، فلذا قال العلماء: إذا ظَهَرَ في مَكانٍ مّا هؤلاء الذين يَدَّعُونَ اتِّبَاعَ السَّلَفِ الصّالِحِ يَجِبُ على أهلِ العلمِ خاصّةً أَنْ يَرُدُّوا عليهم ويُبَيِّنُوا لِلنّاسِ أَخْطَاءَهم، فيَكُونُونَ على حَذَرٍ منهم، ويَنبغي عليهم أيضاً أَنْ يُقَرِّرُوا قِرَاءَةَ كُتُبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ -الأشاعرة والماتريدية- في حَيِّهِم أو مَسَاجِدِهم.. قَبْلَ أَنْ يَنْتَشِرُوا، لِأنّ هؤلاء لا يَسْتَطِيعون أَنْ يَنْشُرُوا عقائدَهم الفَاسِدَةَ إلّا عند الجُهَلاءِ أو قَلِيلِي العلمِ. ونحن ذَكَرْنَا هنا بعضَ أخطائِهم، لكنّهم في كثيرٍ مِن المَسائِلِ مُخالِفون لِعقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهذه المَسائِلُ مَذكورةٌ في الكُتُبِ التي صُنِّفَتْ لِلرَدِّ عليهم وعلى الوَهَّابِيَّةِ. نَدْعُو اللهَ سُبحانه وتعالى أَنْ يَهْدِيَهم إلى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

قال الإمام العلّامة أحمد الدَّرْدِير رحمه الله تعالى في شرحه على «خَرِيدَة التَّوْحِيد» (ص:١٩٣):

«وافْتَرَقَ مَن جاء بعد السَلفِ الصَالحِ مِن أئمةِ الأُمّة الذين يَجب اتِّباعُهم على ثلاثِ فِرَقٍ:

١- فِرقةٌ نَصَبَتْ نَفْسَها لِبيان أحكامِ الشريعةِ العَمَليَّةِ، وهم الأئمةُ الأربعةُ وغيرُهم مِن المُجتهِدِين، لكن لم يَسْتَقِرَّ مِن المَذاهِبِ المَرْضِيَّةِ سِوَى مذاهبِ الأئمةِ الأربعةِ.

٢- وفرقةٌ نَصَبَتْ نفسَها للاشتغالِ بِبيانِ العقائِدِ التي كان عليها السَّلَفُ، وهم الأشعري والماتريدي ومن تبعهما.

٣- وفرقةٌ نَصَبَتْ نفسَها للاشتغالِ بِالعَمَلِ والمُجاهَدَاتِ على طِبْقِ ما ذَهَبَ إليه الفِرْقَتانِ المُتَقَدِّمَتَانِ، وهم أبو القاسم الجنيد ومَن تَبِعَه. فهؤلاء الفِرَقُ الثلاثةُ وهم خَوَاصُ الأُمَّةِ المحمديةِ، ومَن عَدَاهم مِن جميعِ الفِرَقِ على ضَلالٍ، وإن كان البعضُ منهم يُحْكَمُ له بالإسلام، فالنَّاجِي مَن كان في عَقيدتِه على طِبْقِ ما بَيَّنَه أهلُ السُّنَّةِ، وقَلَّدَ في الأحكامِ العَمَليةِ إماماً مِن الأئمةِ الأربعةِ المَرْضِيَّةِ، ثم تَمَامُ النِّعْمَةِ والنَّجاةِ في سُلُوكِ مَسْلَكَ الجُنَيْدِ وأَتباعِه بعد أَنْ أَحْكَمَ دِينَه على طِبْقِ ما بَيَّنَه الفَرِيقانِ المُتَقَدِّمانِ».

وعلى الجُمْلَةِ: أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مُصْطَلَحٌ يُرَادُ به عند الإطلاقِ الأشاعرةُ والماتريديةُ، فإنّ هؤلاء هم السَّوَادُ الأعظمُ، والكَثْرَةُ الغالِبَةُ التي عَمَّتْ جَمِيعَ الأَدْوَارِ التَّارِيخِيَّةِ ومُعْظَمَ مَساحَةِ الدَّوْلَةِ الإسلاميّةِ ابتداءً بِعَصْرِ السَّلَفِ=

والسَّريّ السَّقَطِيّ وذِي النُّونِ المِصْرِيّ وأَبِي يَزِيدَ البِسْطامِيّ وعَبْدِ القَادِرِ الجِيلانِيّ وأَبِي الحَسَنِ الشَّاذِلِيّ وأَحْمَدَ الرِّفَاعِيّ ومُحَمَّد بَهَاءِ الدِّينِ النَّقْشبَنْدِيّ[1] وغيرِهم رضي الله عنهم أجمعين.

=الصَّالِحِ إلى يومِ النّاسِ هذا، ولقد تَوَاتَرَتْ فَتاوَى علماءِ الأُمّةِ في جميعِ العُصُورِ بالثَّناءِ على الأشاعرةِ والماتريديةِ، والتَّنْويهِ بِفَضْلِهم وشَرَفِهم، وأَقْوَالُ علماءِ الإسلامِ مُتَّفِقَةٌ على أنّ الأشاعرةَ والماتريديةَ ومَن وَافَقَهم في الاعتقادِ مِن طَوَائِفِ أهلِ الحقِّ هم الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، وهم المَعْنِيُّونَ بِقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: (ما أَنَا عليه وأَصْحابِي)، قال العلامة الخَادِمِيّ رحمه الله في شرح الطريقة المحمدية (١-١٥٦): «وَجْهُ كَوْنِهم فِرْقَةً ناجِيَةً الْتِزامُهم كَمَالَ مُتابَعَةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه في مُعْتَقَدَاتِهم بِلا تَجَاوُزٍ عن ظاهِرِ نَصٍّ بِلا ضَرُورَةٍ ولا اسْتِرْسالٍ إلى عَقْلٍ خِلافاً لِمُخَالِفِيهم»،

وعُظَمَاءُ أُمّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم منهم: كالقُرطبي وابنِ كثير وفخرِ الدين الرازي والآلوسي والبَغَوي والسَّمَرقندي وابنِ عطيّة وشيخ زادة والدَّارَقطني والأصبهاني والبَيهقي وابن عساكر والذَّهَبي والعَيْني والسَّخاوي والمُناوي والرَّافعي والسُّبْكي والمزي والعِراقي والخَطِيب البَغدادي وابنا حَجَر-العَسْقلاني والهَيْتمي- والسُّيوطي والنَّوَوي والبَاقِلّاني وحجة الإسلام الغزالي وأبو المُعِين النَّسَفي وأبو اليُسْر البَزْدَوي والكمال بن الهُمام وعلي القاري وأبو حَفْص نَجم الدين النّسفي.. وما لا يُحْصِيهِ العَدُّ ممّا تَنقطِعُ بِذِكْرِه الأَنْفَاسُ ويَضِيقُ بِعَدّه القِرْطَاسُ. حتى أنّ الإمام القائد السّلطان محمّد الفاتح الذي فَتَحَ القسطنطينية كان ماتريدياً حَنفِياً، وهذا الرَّجُلُ الذي قال فيه سيدُنا وسَنَدُنا محمدٌ المصطفى صلى الله عليه وسلم: (**لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، وَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا**..).

وعُلماء الأمّةِ هم وَرَثَةُ الأنبياءِ، فمَن رأى أَمامَه أكابِرَ الذين شَهِدَتْ لهم الأُمّةُ بالفضلِ وتَلَقَّاهم الخَاصّةُ والعَامّةُ بِالقَبُولِ عَلِمَ أنّ هذا المَنْهَجَ والطريقَ الذي سَلَكَه هؤلاء مَنْهَجُ هُدًى وصِراطٌ مُستَقِيمٌ. فنقول: كما أنّ الانْفِكاكَ عَمَّنْ أَخْطأَ واجِبٌ.. كذلك الالْتِزَامُ والنُّصْرَةُ على مَن أَصَابَ واجِبٌ!!. نَسأَلُ الله تعالى أَنْ يَحْفَظَنَا مِن زَيْغِ الاعتِقادِ، ويُثَبّتَنَا على طريقِ أهلِ الرَّشادِ...

(١) هؤلاء مِن كِبارِ أَئِمّةِ الصُّوفيةِ. قال العلماء: التَّصوُّفُ عِلمٌ يُعرَفُ به كيفيةُ تَصفِيةِ الباطِنِ مِن كُدُرَاتِ النّفسِ، أي عُيُوبِها وصِفَاتِها المَذْمُومَةِ كَالغِلِّ والحِقْدِ والحَسَدِ والغِشِّ وحُبِّ الثَّناءِ والكِبْرِ والرِّياءِ والغَضَبِ والطَمَعِ والبُخْلِ.. وغيرِها، لأنّ عِلمَ التّصوّفِ يُطلِعُ على العَيْبِ والعِلاجِ وكيفيتِه، فَبِالتّصوّفِ يُتَوَصَّلُ إلى قَطْعِ عَقَبَاتِ النّفسِ والتَّنَزُّهِ عن أخلاقِها المَذمومةِ وصِفاتِها الخَبِيثَةِ، حتى يُتَوَصَّلُ بذلك إلى تَخليةِ القَلْبِ عن غيرِ اللهِ تعالى، وتَحليتِه بِذِكْرِ اللهِ سُبحانه وتعالى. وأمّا تحليةُ النفسِ بِالصِّفاتِ الكاملةِ؛ كالتّوبة والتّقوى والاستقامةِ والصِّدقِ والإخلاصِ والزُّهْدِ والوَرَعِ والتَّوَكُّلِ والرِّضا والتَّسليمِ والأَدَبِ والمَحبّةِ والذِّكْرِ والمُرَاقَبَةِ.. فَلِلصُّوفيةِ بذلك الحَظُّ الأَوْفَرُ مِن الوَرَاثَةِ النَّبَوِيَّةِ، في العِلمِ والعَمَلِ.

فالتصوّفُ هو الذي اهْتَمّ بهذا الجانِبِ القَلْبِيّ بالإضافة إلى ما يُقابِلُه مِن العِباداتِ البَدَنِيّةِ والمَالِيّةِ، ورَسَمَ الطَّرِيقَ العَمَلِيّ الذي يُوصِلُ المُسلِمَ إلى أَعلَى دَرَجاتِ الكَمالِ الإيمانِيّ والخُلُقِيّ، وليس -كما يَظُنُّ بعضُ النّاسِ- قِراءةَ أَوْرَادٍ وحِلَقَ ذِكْرٍ فحَسْبُ، فلقد غابَ عن أَذْهَانِ الكَثيرين أنّ التصوّفَ مَنْهَجٌ عَمَلِيٌّ كامِلٌ، يُحَقِّقُ انقلابَ الإنسانِ مِن شَخصِيَّةٍ مُنحَرِفَةٍ إلى شخصيةٍ مُسلمةٍ مِثالِيَّةٍ مُتَكامِلَةٍ، وذلك مِن النَّاحِيَةِ الإيمانِيّةِ السَّلِيمَةِ، والعِبادةِ الخالِصةِ، والمُعامَلةِ الصَّحيحةِ الحَسَنَةِ، والأخلاقِ الفاضِلةِ. وليس التّصوّفُ أيضاً إنشادَ قَصائِدَ دِينيةٍ مِن الصَّباحِ إلى المَساءِ=

=كما يُظهِرُونَه في أكثر المَحطَّاتِ التّلفزيونيةِ، بل هو في الحقيقة ـكما قال البعضُـ أَنْ يَقُومَ العَبْدُ في كلِّ وقتٍ بما هو أَوْلى في الوقتِ، لِذا قال المشايخ: «الصُّوفِيُّ ابنُ وقتِه» أي: أنه لا يُضَيّعُ أَوْقَاتَه، لأن عُمْرَ الإنسانِ مَجمُوعةُ ساعاتٍ، فكُلَّما مَضَتْ سَاعَةٌ مَضَى جزءٌ منه كما قال الحسن البصري: «يا ابن آدم إنّما أنت أيّامٌ مَجمُوعةٌ، كُلَّما ذَهَبَ يومٌ ذَهَبَ بعضُك». فيَنبغي للإنسان أن يَعرِفَ شَرَفَ زَمَانِه وقَدْرَ وقتِه، فلا يُضَيّعُ منه لَحْظَةً في غيرِ قُرْبَةٍ، ويُقَدِّمُ فيه الأفضلَ فالأفضلَ مِن القولِ والعملِ.

فالصّوفيّ يَستغِلّ الوقتَ الذي هو فيه أعظمَ استِغلالٍ ويُحَقِّقُ فيه أكبرَ إنجازٍ، ويكون دائماً مِن المُتَمَيّزين، فلا يَغتَرُّ بِمَا مَضَى، وبما عَمِلَ في الماضي (كُنْتُ وفَعَلْتُ وصَنَعْتُ)، ولا يُسَوِّفُ للمُستَقْبَلِ (سَوْفَ أعمَلُ، سَوْفَ أذكُرُ، سَوْفَ أَصْنَعُ) بل هو ابنُ وقتِه. والصّوفيُّ يَسْعَى دائماً نحوَ الأَحْسَنِ، فقد قيل: «الصّوفيّ مَنْ إذا استَقبَلَه حالانِ أو خُلُقَانِ كِلاهما حَسَنٌ كان مع الأَحْسَنِ».

ومِن هنا تَظهَرُ أهميةُ التّصوّفِ وفائدتُه، ويَتَجَلّى لنا بِوُضُوحٍ أنه رُوحُ الإسلامِ وقَلْبُه النابِضُ، إذ ليس هذا الدِّينُ أعمالاً ظاهريةً وأُموراً شَكليةً فحَسْبُ، لا رُوحَ فيها ولا حياةَ..

سُئِل محمد بن علي القَصّاب -وهو أستاذ الجُنيد رحمهما الله- عن التّصوّف: ما هو؟ قال: «أخلاقٌ كَريمةٌ، ظَهَرَتْ في زمانٍ كَريمٍ، مِن رَجُلٍ كَريمٍ، مع قومٍ كِرَامٍ».

وسُئِل أبو محمد الجُريري رحمه الله فقال: «التّصوّف هو الدُّخولُ في كُلِّ خُلُقٍ سَنِيّ، والخُرُوجُ مِن كلِّ خُلُقٍ دَنِيّ».

قال القاضي زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى: «التّصوّف عِلمٌ تَعرِفُ به أَحْوَالَ تَزكيةِ النُّفُوسِ، وتصفيةِ الأخلاقِ وتعميرِ الظاهرِ والباطِنِ لِنَيْلِ السّعادةِ الأَبديةِ».

وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: «التّصوُّفُ تدريبُ النَّفْسِ على العُبُوديّةِ، ورَدُّها لِأحكامِ الرُّبُوبيّةِ».

وقال عبد القادر الجيلاني رحمه الله: «التّصوّف: هو الصِّدْقُ مع الحقّ وحُسْنُ الخُلُقِ مع الخَلْقِ». وقال الذهبي رحمه الله في سِيَرِ أَعلام النُّبَلاءِ: «إنّما التّصوّفُ والتَّألُّهُ والسُّلُوكُ والسَّيْرُ والمَحبّةُ ما جاء عن أصحابِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم مِن الرّضا عن الله، ولُزُومِ تقوى اللهِ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، والتَّأَدُّبِ بِآدابِ الشّريعةِ مِن التِّلاوَةِ بتَرْتِيلٍ وتَدَبُّرٍ، والقيامِ بِخَشْيَةٍ وخُشُوعٍ، وصومِ وقتٍ، وإفطارِ وقتٍ، وبَذْلِ المَعروفِ، وكثرةِ الإيثارِ، وتعليمِ العَوَامّ، والتّواضعِ للمُؤمِنين، والتَّعَزُّزِ على الكافِرين، ومع هذا فاللهُ يَهْدِي مَن يَشاء إلى صِراطٍ مستقيمٍ. والعالِمُ إذا عَرِيَ مِن التّصوّفِ والتّألّهِ، فهو فارغٌ، كما أنّ الصّوفيّ إذا عري مِن عِلمِ السُّنَّةِ، زَلَّ عن سَوَاءِ السَّبِيلِ».

وقال ابن عجيبة رحمه الله: «التّصوّف: هو علمٌ يُعرَفُ به كيفيةُ السُّلُوكِ إلى حضرةِ مَلِكِ المُلُوكِ، وتصفيةُ البَوَاطِنِ مِن الرّذائِلِ، وتحليتُها بأنواعِ الفضائلِ، وأَوَّلُه عِلمٌ، ووَسَطُهُ عَمَلٌ، وآخِرُه مَوْهِبَةٌ».

وقال السّيّد أحمد الرّفاعي رحمه الله: «التّصوّف: الإعراضُ عن غيرِ الله، وعَدَمُ شُغْلِ الفِكْرِ بِذَاتِ الله، والتَّوَكُّلُ على الله، وإلقاءُ زِمامِ الحالِ في باب التّفويضِ، وانتظارُ فَتْحِ بابِ الكَرَمِ، والاعتمادُ على فضلِ اللهِ، والخَوْفُ مِن اللهِ في كلّ الأوقاتِ، وحُسْنُ الظّنِّ به في جميعِ الحالاتِ»..

الصوفيةُ قومٌ اعتَصَمُوا بالكتاب والسُّنَّة كما قال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه تنبيه المُغتَرّين (ص:٢٢-٢٣): «ومِن أخلاقهم رضي الله عنهم مُلازَمَةُ الكتابِ والسُّنّةِ كَلُزُومِ الظِّلِّ للشّاخِصِ، ولا يَتَصَدَّرُ أحدُهم للإرشادِ إلّا بعد تَبَحُّرِهِ في علومِ الشّريعةِ المُطَهَّرَةِ...، قال سيّد الطائفة الإمام أبو قاسم الجنيد رحمه الله: لو رَأَيْتُم=

=رَجُلاً قد تَرَبَّعَ في الهَوَاءِ فلا تَقْتَدُوا به حتى تَرَوْا صُنْعَه عند الأمرِ والنهيِ، فإنْ رَأَيْتُمُوهُ مُمْتَثِلاً لِجميعِ الأَوَامِرِ الإلهيّةِ مُجْتَنِباً لِجميعِ المَناهِي فاعْتَقِدُوهُ واقْتَدُوا به، وإنْ رأيتموه يُخِلُّ بالأوامرِ ولا يَجتَنِبُ المَناهي فاجْتَنِبُوهُ».

ومِثلُه قولُ أبي يزيد البسطامي: «لو نَظَرْتُم إلى رَجُلٍ أُعْطِيَ مِن الكَراماتِ حتى يَرْتَقِي في الهَوَاءِ فلا تَغْتَرُّوا به حتى تَنْظُرُوا كيف تَجِدُونَه عند الأمرِ والنهيِ وحِفظِ الحُقُوقِ وأَدَاءِ الوَاجِباتِ».

وقال سَهْلٌ التُّسْتَرِيُّ رحمه الله: «أُصولُنا سَبْعةُ أشياءَ: التَّمَسُّكُ بِكتابِ اللهِ تعالى، والاقتداءُ بِسُنَّةِ رسولِه صلى الله عليه وسلم، وأَكْلُ الحَلالِ، وكَفُّ الأَذَى، واجتنابُ الآثامِ، والتوبةُ، وأداءُ الحُقُوقِ».

والصّوفيّةُ اتَّخَذُوا سيّدَ المُرسَلين صلى الله عليه وسلم إماماً وقِدْوَةً، وجَعَلُوا مِن أَشْوَاقِ الحُبِّ الإلهيِّ، ومِن إلهاماتِ الرُّوحِ القُرْآنيّةِ، ومِن مِثاليّاتِ الخُلُقِ المُحمّديِّ مَنهَجاً في المَعرفة، وطَرِيقاً في السُّلُوكِ، ومِعْرَاجاً للوُصولِ، فقَدَّمُوا لِلعَالَمِين أَرْوَعَ وأقوى رُوحانيّةٍ إيمانيّةٍ مُعْتَصِمَةٍ مَهْدِيَّةٍ.

فهم أُمَنَاءُ اللهِ تعالى في أرضِه، وخَزَنَةُ أَسْرَارِه وعِلمِه، وصَفْوَتُه مِن خَلْقِه، فهم عِبادُه المُخلِصون، وأولياؤُه المُتَّقون، وأَحِبّاؤُه الصّادِقون الصّالِحون، منهم الأخيارُ والسّابِقون، والأَبْرَارُ المُقَرَّبون، والبُدَلاءُ والصِّدِّيقون، هم الذين أَحْيَا اللهُ بِمَعرِفَتِه قُلُوبَهم، وزَيَّنَ بِخِدْمَتِه جَوَارِحَهم، وأَلْهَجَ بِذِكْرِه أَلْسِنَتَهم، وطَهَّرَ بِمُرَاقَبَتِه أَسْرَارَهم، سَبَقَ لهم منه الحُسْنَى بِحُسْنِ الرِّعَايَةِ، ودَوَامِ العِنايَةِ، فتَوَّجَهُم بِتاجِ الوِلايَةِ، وأَلْبَسَهم حُلَلَ الهِدايةِ، وأَقْبَلَ بِقُلُوبِهم عليه تَعَطُّفاً (أي: جَعَلَ اللهُ قُلُوبَهم تُقبِلُ عليه)، وجَمَعَهم بين يَدَيْهِ تَلَطُّفاً، فاسْتَغْنَوْا به عمّا سِواه، وآثَرُوهُ على ما دُونه، وانْقَطَعُوا إليه، وتَوَكَّلُوا عليه، وعَكَفُوا بِبَابِه، ورَضُوا بِقَضَائِه، وصَبَرُوا على بَلائِه، مُسْتَأْنِسِين به.

فالتّصوّفُ هو روحُ دِينِ الإسلامِ وحقائِقُه وأخلاقُه، وهو رُكْنُ التزكيةِ المُعَبَّرُ عنه في الحديث الصحيحِ «بالإحسان». نعم.. التّصوّفُ مَقامُ الإحسانِ الذي هو أحدُ أركانِ الدِّينِ الثّلاثةِ التي جَعَلَها النّبيّ صلى الله عليه وسلم بعد ما بَيَّنَها واحداً واحداً دِيناً بقوله: (هذا جبريل أَتَاكم يُعَلِّمُكم دِينَكم). وهو الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ. فالإسلامُ طاعَةٌ وعِبادةٌ، والإيمانُ نُورٌ وعقيدةٌ، والإحسانُ مَقامُ مُرَاقَبَةٍ ومُشَاهَدَةٍ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنّك تَراه، فإنْ لم تَكن تَراه فإنه يَرَاك». فمَن أَخَلَّ بهذا المَقامِ (الإحسان) فدِينُه ناقِصٌ بلا شَكٍّ لِتَرْكِه رُكْناً مِن أَرْكانِه. ولمّا كان هذا الطَّرِيقُ صَعْبَ المَسالِكِ على النُّفُوسِ النّاقِصَةِ، فعلى الإنسانِ أَنْ يَجْتَازَه بِعَزْمٍ وصَبْرٍ ومُجاهدةٍ حتى يُنْقِذَ نَفْسَه مِن بُعدِ الله تعالى وغضبِه. ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (الحديد:٢١)، ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾ (فاطر:٣٢)، ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** ﴾ (النمل:٥٩).

قال حجّة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه المُنقِذ مِن الضَّلال (ص:١٣١): «ولقد عَلِمْتَ يَقِيناً أنّ الصّوفيّةَ هم السّالِكون لِطريقِ اللهِ تعالى خاصّةً وأنّ سِيرَتَهم أَحْسَنُ السِّيرَةِ، وطريقتَهم أَصْوَبُ الطُّرُقِ، وأخلاقَهم أَزْكَى الأخلاقِ..»

عِلمُ التصوّفِ عِلمٌ ليس يَعرِفُه ... إلّا أَخُو فِطْنَةٍ بالحَقِّ مَعرُوف
وليس يَعرِفُه مَن ليس يَشْهَدُه ... وكيف يَشْهَدُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مَكْفُوف.

فمَن قال إنّ طريقَ الصّوفيّةِ لم يَأْتِ بها كتابٌ ولا سُنّةٌ فهو جاهلٌ، وقد قال الإمام الشَّعراني رحمه الله: «كان شيخُنا عليٌّ الخَوّاص رحمه الله يقول: إنّ طريقَ القومِ رضي الله عنهم مُحَرَّرَةٌ على الكتابِ والسُّنَّةِ تَحْرِيرَ الذَّهَبِ والجوهرِ،=

=وذلك لأنّ لهم في كلِّ حَرَكَةٍ وسُكُونٍ نيّةً صالحةً بِمِيزَانٍ شَرْعِيٍّ، ولا يَعرفُ ذلك إلّا مَن تَبَحَّرَ في عُلُومِ الشريعةِ انتهى.

قلتُ: فَكَذَبَ واللهِ وافْتَرَى مَن يَقول إنّ طريقَ الصّوفيّةِ لم يَأْتِ بها كتابٌ ولا سُنَّةٌ، وقَوْلُه ذلك مِن أكبرِ العَلاماتِ الدَّالّةِ على كثرةِ جَهْلِه، فإنّ حقيقةَ الصّوفيّ عند القوم: هو عالِمٌ عَمِلَ بِعِلْمِه على وجهِ الإخلاصِ لا غيرُ، وغايَةُ ما يَطْلُبُه القومُ مِن تَلامِذَتِهم بالمُجاهداتِ بالصَّوْمِ والسَّهَرِ والعُزْلَةِ والصَّمْتِ والوَرَعِ والزُّهْدِ وغيرِ ذلك: أَنْ يَصِيرَ أحدُهم يَأْتِي بِالعِباداتِ على الوجهِ الذي يُشْبِهُ ما كان عليه سَلَفُهم الصّالِحُ لا غيرُ، ولكن لمّا انْدَرَسَتْ طريقُ السَّلَفِ بِانْدِراسِ العَامِلِين بها ظَنَّ بعضُ النّاسِ أنّها خارجةٌ عن الشّريعةِ لِقِلَّةِ مَن يَتَخَلَّقُ بِصِفاتِ أهلِها.. فاعلَمْ ذلك والحمدُ لله ربِّ العالَمين.» (تنبيه المغترين للشعراني، ص: ٢٣)

قال الشيخ الإمام عبد الكريم القُشَيري رحمه الله تعالى: «اعلموا رحمكم الله تعالى أنّ المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية عَلَمٍ، سِوى صُحبة رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، إذ لا فضيلةَ فَوْقَها، فقيل لهم: «الصحابة». ولمّا أَدْرَكَهم أهلُ العصرِ الثّاني سُمّي مَن صحب الصّحابة: «التابعين»، ورَأَوْا ذلك أشرف سِمة، ثم قيل لِمن بعدهم: «أتباع التابعين». ثم اختلف النّاسُ، وتَبَايَنَت المَرَاتِبُ، فقيل لِخَوَاصّ النّاس مِمَّن لهم عناية شديدةٌ بأمر الدّين: «الزّهّاد والعُبّاد»، ثم ظَهَرَتِ البِدَعُ، وحَصَل التَّدَاعِي ـ التَّنَازُع ـ بين الفِرَق، فكلّ فريقٍ ادَّعوا أَنّ فيهم زُهّاداً، فانْفَرَدَ خَوَاصُّ أهلُ السُّنّةِ المُرَاعُونَ أَنْفَاسَهم مع الله تعالى، الحافِظون قلوبَهم عن طَوَارِقِ الغَفلةِ باسم «التصوّف»، واشتَهر هذا الاسمُ لهؤلاء الأكابرِ قَبلَ المائتين مِن الهِجرة». (الرّسالة القشيريّة ص:٥٤)

وقال الفقيه الحنفي الحصكفي في الدُّرّ المُختار (ج:١ ص:٤٣) بعدما أَوْرَدَ أنّ الإمامَ أبا حنيفة رضي الله عنه كان صاحبَ العلمِ والطريقةِ: «فعَجَباً لك يا أخي، ألم يكن لك أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في هؤلاء السَّاداتِ الكِبارِ؟ أكانوا مُتّهَمِين في هذا القَرَارِ والافتخارِ، وهم أئمةُ هذه الطّريقةِ، وأربابُ الشّريعةِ والحقيقةِ، ومَن بعدهم في هذا الأمرِ فلهم تَبَعٌ، وكلُّ ما خالَفَ ما اعْتَمَدُوهُ مَرْدُودٌ ومُبْتَدَعٌ».

والتّصوّفُ الذي يُعتَبَرُ روحَ الإسلامِ الحقيقيّ وسِرَّ حَياتِه، وواحداً مِن أعظمِ حُصُونِه وقِلاعِهِ، كان نَصِيبُه مِن سِهامِ أعداءِ الإسلامِ وافتِرَاءَاتِهم الحَظَّ الأَوْفَرَ، لأنه يَنتَهِجُ مَناهِجَ الإحسانِ، ويَحرِصُ على كَمالِ العُبوديّةِ للرَّحمن، ويَربِطُ بِإحكامٍ بين أعمالِ الإسلامِ الظّاهرةِ وقَوَاعِدِ الإيمانِ الباطنةِ، فلا يَنفَكُّ أحدُهما عن الآخَر، ويَرسُمُ الطريقَ العمليّةَ التي تُوصِلُ الإنسانَ إلى أَرْقَى دَرَجاتِ الكَمالِ عقيدةً وخُلُقاً وسُلُوكاً ويُخَلِّصُ سِرَّهُ مِن الأَمْرَاضِ المُهلِكَةِ والآفاتِ المَرْدِيَّةِ، ويَغرِسُ الرَّأْفَةَ والرَّحْمَةَ والشَّفَقَةَ على الخَلْقِ بإعتبارِهم عِيالَ الله، وأَحَبُّهم إلى اللهِ أَنْفَعُهم لِعِيالِه [عِيالُ اللهِ: أي فُقَرَاؤُه، وهو الذي يَعُولُهم، قال العسكري: هذا على المَجازِ والتَّوَسُّعِ، فإنه تعالى لمّا كان المُتَضَمِّنَ لِأَرْزَاقِ العِبادِ الكافِلَ بها كان الخَلْقُ كَعِيالِه]، فلا عُتُوَّ ولا اسْتِكْبارَ ولا انْحِرَافَ ولا عِصْيَانَ، ومِن هنا قلنا بِكُلِّ ثِقَةٍ واعْتِزَازٍ إنّ التّصوّفَ روحُ الإسلامِ وقَلْبُه النّابِضُ، لا يَقبَلُ مِن الأعمالِ ظاهِرَها مُجَرَّداً عن بَوَاطِنِهَا ويَرفُضُ الحَرَكاتِ الشَّكْلِيَّةَ التي لا رُوحَ فيها ولا حَياةَ..

وإنّ أَشَدَّ ما يَحتَاجُ إليه المسلمُ، في هذا العَصْرِ الذي طَغَتْ فيه المَادّةُ، هو العِنَايَةُ بِالجَانِبِ الرُّوحِيّ، الذي أشارَ إليه الحديثُ الشّريفُ بِمَقامِ الإحسانِ: وهو أَنْ تَعبُدَ اللهَ كأنّك تَرَاه، فإنْ لم تكن تَرَاه فإنّه يَرَاك. ومَقامُ الإحسانِ هو أحدُ مَرَاتِبِ الدِّينِ الثَّلاثِ وهي: الإسلامُ، والإيمانُ، والإحسانُ. التي يَجِبُ على المُسلمِ أَنْ يُؤَدِّيَهَا بِشَكْلٍ مُتكامِلٍ، لِيَصِلَ إلى كمالِ دِينِه. وقد تَهَيَّأَ ذلك للصَّحابة رضي الله عنهم، لأنهم اسْتَمَدُّوا مُبَاشَرَةً مِن فَيْضِ النُّبُوّةِ،=

=فكَانُوا أكملَ النّاسِ دِيناً.. واستَمرَّ التّابعون على نفسِ النَّهْجِ، لِقُرْبِهم مِن عَهْدِ الرّسالةِ، فهم خيرُ خَلَفٍ لِخَيْرِ سَلَفٍ. وما زَالَ الأمرُ كذلك، إلى أَنْ فَشَا الإقبالُ على الدّنيا، في القَرْنِ الثّاني وما بَعْدَه، وجَنَحَ النّاسُ إلى مَفاتِنِ الدنيا، فاختَصَّ المُقبِلون على الدِّين بِمَرَاتِبِه الثّلاثِ باسْمِ الصُّوفيّةِ..

وإذا كُنّا نَرَى اليومَ تَرَاجُعاً في أحوالِ المسلمين، وضَعْفاً في مَوَاقِعِهم، وتَمَزُّقاً في وَحْدَتِهم، وجَهْلاً مُتَفشِّياً في أَوْسَاطِهم، وتَخَاذُلاً في مَوَاقِفِهم، فَلِأَنَّهم فَقَدُوا رُوحَ الإسلامِ وجوهرَه، ولم يَبْقَ فِيهم إلّا الانْتِسابُ الشَّكْليُّ والولاءُ الاسْمِيُّ له. وكلُّ ذلك بِسَبَبِ الحَمَلاتِ العَنِيفَةِ، والمَكَائِدِ الخَبِيثَةِ، والهَجَماتِ المُتَوَالِيَةِ على مَنهَجِ التّصوُّفِ وأَهْلِه. ولا غَرَابَةَ أن يَحمِلَ رَايَةَ هذه الحَمْلَةِ الظّالِمَةِ المَسْعُورَةِ الكَفَرَةُ والمُشركون، لأنّ هذا شَأْنُهم وتلك طَبيعَتُهم بيّنَها لَنَا المَوْلَى سُبحانه وتعالى بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ (آل عمران: ١١٨). ولكنّ الغَرَابَةَ كُلَّ الغَرَابَةِ أَنْ يَنْضوِيَ تحت لِوَاءِ هذه الحَمْلَةِ جماعةٌ مِن المسلِمين أنفسِهم، سَلُّوا سُيُوفَهم المَادِيّةَ والمَعنويّةَ لِحربِ التّصوّفِ، ووَجَّهُوا سِهامَهم المَسمومةَ لِضَربِه، وشَحَذُوا حِرَابَهم المَاضِيَةَ لِطَعْنِه، ومِن المُؤْسِفِ حَقّاً، أَنْ يُعَانِيَ التّصوّفُ مِن هؤلاء مِثْلَ ما يُعَانِي مِن الكَفَرَةِ والمُشركين بل لا نَعْدُو الحَقِيقَةَ إنْ قُلْنَا إنّ مَضَرَّةَ التّصوّفِ مِن كَيْدِ هؤلاء وهم مسلمون أَدْهَى ومُصِيبَتَه بهم أَمَرُّ.

ولا شَكَّ أنّ بعضَ الأَشْخاص والجَماعات مِن أَدْعِيَاءِ الطّريقِ الصّوفيّ، الذين شَوَّهُوا جَمَالَ التّصوّفِ وبَرِيقَه، فقد ظَهَرَ هؤلاء المُنْحَرِفُونَ خِلالَ العُصُورِ المُتَوَالِيَةِ، وهم شَيْنٌ عليهم، كما تَشَبَّهَتْ بالفقهاء العامِلِين أَقْوَامٌ قاصِرون، فكانوا بِدَوْرِهم شَيْناً عليهم. ولم تَزَلْ كلُّ طائفةٍ مِن طَوَائِفِ النّاسِ، فيهم الصّالِحون وفيهم الفاسِدون.

وبَدِيهِيٌّ **أَنّ الحَقَّ لا يُعرَفُ بالرِّجالِ، ولكنّ الرِّجالَ يُعرَفون بالحق**. وقد حَذَّرَ العلماءُ المُحقِّقون مِن أولئك المُنْحَرِفِين. قال التّاجُ السُّبكي في مُعِيد النِّعَم: «إذا عَلِمْتَ أنّ خاصّةَ الخَلْقِ هم الصّوفيّةُ، فاعْلَمْ أنه قد تَشَبَّهَ بهم أُناسٌ، فأَوْرَثَ ذلك سُوءَ الظَّنّ». ويَعيبُ حجّةُ الإسلام الإمامُ الغزالي والإمامُ الشَّعْراني والحافظُ ابن رَجَب الحَنبلي على الّذِينَ لَبِسُوا الصُّوفَ على أَجْسَادِهم، ولم يُصَوّفُوا قُلُوبَهم، واغْتَرُّوا بِالزِّيّ والنُّطْقِ والهَيْئَةِ، فتَشَبَّهُوا بالصّادِقِين مِن الصّوفيّةِ في الظّاهِر. وعَدَّهُم السّهروردي في عَوَارِفه بأنّهم مِن المَفْتُونين، وأنّهم في غُرُورٍ وغَلَطٍ، إلى أَنْ قال: «كُلُّ حقيقةٍ رَدَّتْها الشّريعةُ فهي زَنْدَقَةٌ». كما ناصَبَ الشّيخُ الأكبر ابن عربي العَدَاءَ لِلمُتَفَقِّهَةِ والمُتَصوّفَةِ المُزَيَّفِينَ، فقال في ذَمّ الصِّنْفِ الثاني (روح القدس ص:١٠٠): «إنّني ذَمَمْتُ الصِّنفَ الذي تَزَيَّا بِزِيّ الصّوفيّةِ عند النّاس، وبَاطِنُه مع الله بِخلافِ ذلك، فإنّ الحُلُوليّةَ والإباحيّةَ وغيرَهم مِن هذا الطريقِ ظَهَرُوا وتَظَاهَرُوا بالدَّعَاوَى واتَّصَفُوا، فإنّهم قُرَنَاءُ الشّيطانِ وحُلَفَاءُ الخُسْرَانِ». وقال سَيّدُ القومِ الجنيدُ: «اجْتَنِبْ صُحْبَةَ ثلاثةٍ: العلماءِ الغافِلِين، والقُرّاءِ المُدَاهِنِين، والمُتَصَوّفَةِ الجاهِلِين». وحتى يَقْطَعَ -رحمه الله- الطّريقَ في المُستَقْبَلِ على الدُّخَلاءِ والشَّاذِّينَ قال: «الطريقُ كُلُّها مَسْدُودَةٌ على الخَلْقِ، إلّا مَن اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم»، ونحوُه قولُ الشّيخ أبي عبد الرّحمن السّلمي: «أصلُ التّصوّفِ: مُلازَمَةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، وتركُ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ، وتعظيمُ حُرُماتِ المَشايِخِ، والدَّوَامِ على الأَوْرَادِ».

ولا بُدَّ مِن التَّنْويهِ إلى أَنّ مَنْ ذَمَّ التَّصوُّفَ لم يُرِدِ التّصوّفَ الجُنَيْدِ وأَتْبَاعِه، وإنّما أَرَادَ تَصوُّفَ المُبتَدِعِين المُفرِطِين، فجاءَ تَلامِذَةُ هؤلاء الذّامِّينَ فعَمَّمُوا الذَّمَّ على كلِّ التّصوّفِ والصّوفيّةِ، ومَن مَدَحَ التّصوُّفَ لم يُرِدْ كلَّ تصوّفٍ وصوفيّةٍ، فحَصَلَ ما حَصَلَ مِن الهُوَّةِ الكبرى بين المَادِحِين والذّامّين..

فَلِتَوْحِيدِ كَلِمَتِنا يَجِبُ علينا جميعاً أن نَتعلّم دِينَنا على أَيْدِي علماءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، الذين هم دُرَّةُ التَّاجِ وخيرُ مَن اقتَفَى سُنَّةَ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام. قال ابنُ سِيرِين رحمه الله: «إنّ هذا العِلمَ دِينٌ[1] فانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكم»، وقد أَوْصَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ابنَ عُمَرَ رضي الله عنه بذلك فقال: (يا ابن عمر دينَك دينَك إنّما هو لَحْمُك ودَمُك، فانْظُرْ عَمّن تَأخُذُ، خُذِ الدِّينَ عن الّذِين استَقَامُوا، ولا تَأخُذْ عن الّذِين مَالُوا)، وقال بعضُ العارِفِين: «العلمُ رُوحٌ تُنفَخُ لا مَسَائِلُ تُنسَخُ، فَلْيَنتَبِه المُتَعَلِّمون عَمّن يَأخُذُون، ولْيَنتَبِه العَالِمون لِمن يُعْطُون». وقالوا أيضاً: «ولا تَأخُذ العِلمَ مِمّن كان أَخْذُه له مِن بُطُونِ الكُتُبِ مِن غيرِ قِرَاءَةٍ على شُيُوخٍ أو شَيْخٍ حَاذِقٍ، فَمَن لم يَأخُذه إلّا مِن الكُتب يَقَعُ في التَّصْحِيفِ، ويَكْثُرُ منه الغَلَطُ والتَّحْرِيفُ».[2]

(١) والمراد بـ «هذا العلم» العلومُ الشّرعيّة، والعربيّة وآلاتُها، لِكونها خادِماً للعلوم الشّرعيّةِ. قوله: (فانظروا) أي: تَأَمّلُوا (عمّن تَأخذون دينكم) أي: فلا تَأخُذُوا الدِّينَ إلّا عَمَّنْ تَحَقَّقْتُم كَوْنَه مِن أهلِه.. (انظر: فيض القدير:٢٥١١)

(٢) ذكره الإمام النووي رحمه الله في «المجموع».

قال العلماء: إنّ أَخْذَ العِلمِ عن الشُّيوخِ هو مِفتاحُ العلمِ الصّحيحِ، وعُنْوَانُ فَلاحِ الطّالِبِ وظَفَرِه، ولا خيرَ في عِلمِ مَن لم يَتَلَقَّ العِلمَ عن العلماءِ المُتْقِنِينَ، والعِلمُ الشّرعيُّ الشّريفُ -مِن هذه الحَيْثِيَّةِ- كالعُلُومِ والصِّناعاتِ الأُخْرَى، فلا يُؤْتَمَنُ لِطَبِيبٍ لم يَدْرُس الطِّبَّ على أَطِبَّاءَ مَهَرَةٍ، ولا يُطْمَأَنُّ إلى طَبِيبٍ جَرّاحٍ لم يَتَمَهَّر على مُخْتَصِّين بهذا الجانبِ مِن الجِرَاحَةِ، كما لا يُوثَقُ بِهَنْدَسَةِ مِعْمَارٍ لِعِمَارَةٍ ضَخْمَةٍ تَتَّسِعُ لِسُكْنَى العَشَرَات مِن العَائِلاتِ، إذا لم يَتَخَصَّص بذلك نَظَرِيّاً و عَمَلِيّاً، وهكذا غيرُهما مِن الدِّراساتِ النظريةِ والتطبيقيةِ.

ودِينُ اللهِ أَجَلُّ وأَغْلَى، فلا يجوز لأحدٍ أَنْ يَتَدَخَّلَ في الكلامِ في دين اللهِ تعالى: عقائدَ، وعباداتٍ، ومُعَامَلاتٍ، وتفسيرٍ لكتابِ الله، أو شَرْحٍ للسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، أو تَصْحِيحٍ أو تَضعِيفٍ فيها، وما إلى ذلك مِن علومِ الإسلامِ، إلّا إذا تَلَقَّى ذلك وأَتْقَنَه، على أَيْدِي علماء حُلَمَاء حُكَمَاء، تَلَقَّوْا ذلك أيضاً مِن شُيُوخٍ وَرِثُوا مِنهم العِلمَ والحِكمةَ، وهكذا.

وعندما نَقرَأُ أَقْوَالَ العلماءِ المُتَقَدِّمِين في هذا الباب نَعرِفُ أنّهم لم يَكونوا يَلْتَفِتُون إلى مَن لم يكن له شيوخٌ في العِلم، ولا يُقِيمُون له وَزْناً ولا اعْتِباراً، ولا يَرَوْنَ فيه أهليةَ التّكلُّمِ معه، لأنه مَحَلُّ الخَطَرِ والغَلَطِ. ولهذا كلِّه -وغيره- «كان كلُّ مَن أَخَذ العِلمَ عن السُّطُورِ ضَالاً مُضِلاً».

قيل لأبي حنيفة رحمه الله: «مِن أَيْنَ لك هذا الفِقْهُ؟ فقال: كُنْتُ في مَعْدِنِ العِلمِ والفقهِ، فجالَسْتُ أَهْلَه، ولَزِمْتُ فَقِيهاً مِن فُقَهَائِهم يُقال له: حَمّاد، فانْتَفَعْتُ به». (مَناقِب أبي حنيفة، للموفق المَكّيّ ص:٥٢).

وأَوْصَى لُقْمَانُ الحكيم ابْنَه فقال: «يا بُنَيّ: جالِسِ العُلَمَاءَ، وزَاحِمْهم بِرُكْبَتَيْكَ، فإنّ اللهَ يُحْيِي القُلُوبَ بِالحِكمَةِ، كما يُحْيِي الأَرْضَ المَيْتَةَ بِوَابِلِ السَّماءِ». ومِن وصايا العلماء: «حيثما كنتَ فكُنْ قُرْبَ فَقِيهٍ» أي عالِمٍ.

لقد كان العلمُ بِالتَّلَقِّي والمُزَاحَمَةِ بالرُّكَبِ، ووُقُوفِ طُلّابِ العلمِ على أَبْوَابِ العلماءِ، وبِقراءَةِ عَدَدٍ مِن الكُتُبِ المُعْتَمَدَةِ في كلِّ فَنٍّ، وبِحِفْظِ أُمّهاتِ المُخْتَصَرَاتِ في كلِّ عِلمٍ، وكان الطّالِبُ يَتَدَرَّجُ في التّحصيلِ تَدَرُّجاً مُشْتَرَكاً، مع رُجُوعِه إلى شُيُوخِه فيما يُشكِلُ عليه، فيَصِلُ بِتوفيقِ اللهِ إلى مَرحَلَةٍ يكون فيها مَرجِعاً لِلجِيلِ اللّاحِقِ له،=

ويجب علينا أيضاً أن نَجْتَنِبَ أَصْحابَ الفِرَقِ البَاطِلَةِ الضَّالَّةِ مِثل المُجَسِّمَةِ والمُعَطِّلَةِ والقَدَرِيَّةِ والشِّيعَةِ[1] وغيرِهم..

=مِن الطُّلّابِ، أو عامَّةِ المُسلمين في استِفتاءاتِهم. أَمّا مُجَرَّدُ طلبِ العلمِ وتَلَقِّيهِ عن شيخٍ سَنَةً أو سَنَتَيْنِ، ثُمَّ الاستقلالُ بِالعلم، والفَهْمِ، والتَّلَقِّي مِن الصُّحُفِ، وما شاكل حالَ زَمَانِنَا ــ زمن العَجائبِ ــ: فلا، ولَنْ.

رَوَى ابنُ عبد البَرّ عن أبي الدَّرْداء رضي الله عنه حكيمِ هذه الأُمَّةِ، قال: «مِن فِقْهِ الرَّجُلِ مَمْشَاهُ ومَدْخَلُه ومخرَجُه مع أهلِ العلمِ». فعَلِمْنَا أَنّ تَلَقِّيَ العلمِ عن العلماء، وصحبتَهم زَمَناً طويلاً، والتأدُّبَ بآدابهم أمرٌ ضَرُورِيٌّ لا بُدَّ منه.

لكنّا انْتَقَلْنَا إلى مَرْحَلَةٍ خَطِيرَةٍ أَدَّتْ بِنَا إلى مرحلةٍ أَشَدَّ خَطَراً.. فمَثَلاً: الدِّرَاسَةُ في الجامِعاتِ الشّرعيةِ «كلّيات الشّريعة» مِن غيرِ مُطَالَبَةِ الطَّالِبِ بِالحُضُورِ والدَّوَام، ولا يَشْتَرِطُونَ لِقَبُولِه أَنْ يكون (طالبَ علمٍ شرعيّ) قبلَ دُخُولِه المَرحَلةَ الجامِعِيَّةَ، أي: إنه لم يَدْرُس المرحلةَ الإعداديّةَ والثَّانَوِيّةَ في المَدَارِسِ الشّرعيّةِ، بل يُقبَلُ طالِباً مُنْتَسِباً في كلّيةِ الشريعةِ ولو كان طالبَ ثانوياتٍ عامَّةٍ، ليس له أساسٌ في العلومِ الشّرعيّة، ولم يَدرُسْ مَبَادِئَها وضَرُورِيَّاتِها.

يَدخُلُ هذا الطالِبُ المرحلةَ الجامعيةَ، فيَدرُسُ في كليةِ الشريعةِ أربعَ سَنَوَاتٍ، يَتَخَرَّجُ بعدها مُدَرِّساً ومُعَلِّماً للأَجْيَالِ دِينَها، ويَنظُرُ إلى نَفْسِه أنه صارَ (عالِماً) إذا جَلَسَ بين العامَّةِ، يَتَكَلَّمُ في دِينِ الله بِمَا تَقْتَضِيهِ ضَرُورَةَ المَجلِسِ.

عِلْماً أَنَّ مَن وَضَعُوا مَنَاهِجَ الكُلِّيّاتِ الشرعيةِ وَضَعُوها بناءً على أنه لا يَدخُلُها إلّا خِرِّيجُوا الثَّانَوِيَّاتِ الشّرعيّةِ أو المَعَاهِدِ الشّرعيّةِ، فلمّا دَخَلَها طُلّابُ الثَّانَوِيَّاتِ العَامَّةِ حَصَلَ الخَلَلُ الكَبِيرُ.

وقد قال بعض النّاس: أكثرُ ما يُفسِدُ الدُّنيا: نِصْفُ عَالِمٍ..، فإنه يَتكلَّمُ ظَانّاً أنه عالِمٌ، وهو جاهِلٌ، فيَضِلُّ ويُضِلُّ، وهذا هو الذي يُقال فيه: جاهِلٌ جَهْلاً مُرَكَّباً، لأنّه جاهِلٌ، ولا يَدرِي أنّه جاهِلٌ.

فكان الأمرُ كما قال سيّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن الفِتَنِ آخِرَ الزَّمانِ: «يُرَقِّقُ بَعْضُها بعضاً». فحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ.. والدَّاءُ الوَبِيلُ، وهو الخَطَرُ الثّاني، هو أَنَّ أساتذة الجامعات الشّرعيّة يَعلَمون ما عليه طلّابهم مِن الضَّعْفِ، ومع ذلك فإنهم يُجَرِّؤُونَهم آخِرَ العَامِ ــ حتى في السَّنَةِ الأُولَى ــ في الاختبارات النِّهائية على أَنْ يُزَاحِمُوا الأئمةَ المُجتهِدِين: أَبَا حَنِيفَةَ ومالكاً والشَّافِعِيَّ وأَحْمَدَ، في آرَائِهم واجتهاداتِهم، إذا بَحَثُوا مَسْأَلَةً فقهيةً في مادّةِ الفقهِ، أو في آياتِ الأحكام، أو أحاديث الأحكام، بِأَنْ يَذكُرَ الطَّالِبُ الذي بَلَغَ مِن العُمُرِ العِلْمِيّ سَنَةً واحدةً رَأْيَ الأئمةِ الأربعةِ وغيرِهم، ثُمَّ يَذكُرَ رَأْيَه وتَرْجِيحَه!!! وزِدْ مِن إشاراتِ التَّعَجُّبِ ما شِئْتَ. (للاستزادة ارجِعْ إلى كتاب: مَعالم الإرشاديّة لِصِناعة طالبِ العلمِ، للأستاذ محمد عَوّامة -حفظه الله وأدام نفعَه للإسلام والمسلمين-)

(١) نَحن في أيّامِنَا هذه نُشَاهِدُ أَنّ الشِّيعَةَ الشَّنِيعَةَ -قَبَّحَهم اللهُ- في العِراق وسُورية وغيرِها مِن البِلاد يُقاتِلون جَنْباً إلى جَنبٍ مع الكُفّارِ والظَّالِمين، فيَقتُلُون المُسلِمِين الأَبْرِيَاءَ، ويُذِيقُونَهم شَتَّى أنواعِ العَذَابِ، ويَنْتَهِكُون حُرُمَاتِهم، ويُذَبِّحُون أَطْفَالَهم دُونَ أَيِّ رَأْفَةٍ أو رَحْمَةٍ، ودون تَمْيِيزٍ بين رَضِيعٍ أو شيخٍ، ويُدَمِّرُونَ بُيُوتَهم ومَسَاجِدَهم، ويُحْرِقُونَ مَصَاحِفَهم [لأنهم يَعتقِدون أَنّ المَصاحِفَ بين أَيْدِينَا نَاقِصة]، ويَعْتَقِدُونَ أَنّهم بما يَصْنَعُونَه مِن قَتْلٍ وتَعذِيبٍ واغْتِصَابٍ وتَخريبٍ وتَدمِيرٍ.. يَتَقَرَّبُونَ إلى اللهِ تعالى، وحاشا أَنْ يُتَقَرَّبَ إلى الله بِمَعْصِيَةٍ..

هذه هي حقيقتُهم.. فلو تَتَبَّعْنَا سِيرَتَهم عَبْرَ التَّارِيخِ لَوَجَدْنَاها مَلِيئَةً بِالقتلِ والدَّمِ والظُّلْمِ، فَدَأْبُهُم الوَحِيدُ سَفْكُ دِمَاءِ أهلِ السُّنّةِ والجماعةِ ونَشْرُ اعتقادِهم الفاسِدِ.. وهم دائِماً مُتَّفِقُونَ مع الكُفّار والظّالِمين سِرّاً، ومُعْلِنُونَ عَدَاوَتَهم جَهْراً.. وهذا سَهْلٌ بِالنِّسْبَةِ إليهم؛ لأنّ التَّقِيَّةَ عندهم أمرٌ مَشروعٌ، وهم لا يُرِيدُونَ مِن التقيّةِ إلّا الكَذِبَ والخِدَاعَ والتَّظَاهُرَ=

=بغيرِ ما يُبْطِنُونَه، لذا قال العلماءُ كأَنّ الشِّيعَةَ والكَذِبَ لَفْظَانِ مُتَرَادِفَانِ لا فرْقَ بينهما!!. ولكنّ اللهَ سُبحانه وتعالى فَضَحَ أَمْرَهم في أَحْدَاثِ العِرَاقِ وسُورية خاصّةً، فعَرَفْنا أنهم عَدُوُّنا اللَّدُودُ، يَسْتَبِيحُونَ دِمَائَنَا، يَتَرَبَّصُونَ بِنَا، ويُرِيدُونَ القَضَاءَ علينا..

وفي هذه الأيّام نَسمَعُ أيضاً مِن إِخْوَانِنا السُّورِيّين والعِرَاقِيّين أنهم عندما يُطْلِقُونَ النّارَ على المسلمين الأَبْرِيَاءِ أو يُرْسِلُونَ الصَّوَارِيخَ عليهم يقولون: يا عليّ! يا حُسَيْن!.. وفي الحقيقة سيّدُنا عليٌّ والحَسَن والحُسَيْن وغيرُهم رضي اللهُ عنهم بَرِيئُونَ منهم، يَدَّعُونَ حُبَّ أهلِ البيتِ، وهم أَبْعَدُ ما يكونون عنهم وعن أخلاقِهم. وما أَشْنَعَ مِن أنّهم يَنسِبُونَ أنفسَهم إلى أهلِ بيتِ النبيّ صلى الله عليه وسلم ويَدّعُونَ مُتَابَعَتَهم ومُوَالاتِهم، وأولئك الأَخْيَارُ يَتَبَرَّؤُونَ مِن هذه المَحَبَّةِ المُفْرِطَةِ الكَاذِبَةِ، ولا يَقْبَلُونَ منهم مُتَابَعَتَهم، إنّما مَحَبَّةُ هؤلاء الضُّلّالِ كَمَحَبَّةِ النَّصَارَى لِعِيسى بنِ مَرْيَمَ عليه السّلام؛ أَفْرَطُوا في مَحَبَّتِه حتى عَبَدُوهُ وهو بَرِيءٌ منهم. فعَرَفْنَا أنّ مَذْهَبَ الشِّيعَةِ خَاطِئٌ، وفِكْرُهم فاسِدٌ، واعتقادُهم باطِلٌ..

أَخْبَرَنا كثيرٌ مِن إِخْوَانِنا السُّورِيّين بِأَنّهم يَسُبُّونَ الصَّحَابَةَ الكِرامَ عَلَناً ويَفْرَحُونَ بِقَتْلِ السُّنِّيّ وتَعْذِيبِه، خاصّةً إذا كان اسْمُه أبا بكر وعُمر وعُثمان أو كان اسمُها عائشة.. رضي الله عنهم أجمعين، كما فَعَلُوهُ وما زَالُوا في العِرَاقِ وغيرِها مِن البِلاد.

وقد أَجْمَعَت الأُمّةُ على كُفْرِ مَن قَذَفَ السَّيِّدَةَ عائشةَ أمَّ المُؤمِنِين رضي الله عنها، وعلى كُفْرِ مَن اعْتَقَدَ سَبَّ أَحَدٍ مِن الصَّحابة مُبَاحاً ــخاصّةً سَبَّ الشَّيْخَيْنِــ أو يَتَرَتَّبُ عليه ثَوَابٌ كما هو دَأْبُ كلامِهم، وعلى كُفْرِ مَن اعْتَقَدَ كُفْرَ الصّحابةِ. (انظر: شَمُّ العَوَارِض في ذَمِّ الرَّوَافِض، ص:٢٧-٢٨ للعَلّامة علي القاري، والمُقَدّمَةُ السَّنِيَّةِ في الانْتِصارِ للفِرْقَةِ السُّنِّيَّةِ، للإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي، وفتاوى أبي السعود أفندي).

قال الإمام الرَّبّاني رحمه الله في مكتوبه الذي كَتَبه في رَدِّ الرَّوَافِض: «الذي اختارَ طَرَفَ الإفراطِ في مَحَبَّةِ عليّ ووَقَعَ منه الزِّيَادَةُ على القَدْرِ اللّائِقِ وأَظْهَرَ الغُلُوَّ في تلك المَحَبَّةِ وأَطَالَ اللِّسَانَ بِسَبِّ أصحابِ خيرِ البَشَرِ عليه الصّلاة والسّلام، وتَرَكَ طَرِيقَ الصّحابةِ والتَّابِعِين والسَّلَفِ الصالِحِين رِضوان الله عليهم أجمعين ورَفَضَه سُمِّيَ رَافِضِيّاً». (المكتوبات، ج:٢ م:٣٦) ونُرِيد أن نَنقُلَ لكم أيضاً بعضَ ما قاله العلماء الأعلام في حقِّ هؤلاء الرَّوَافِضِ:

قال أبو القاسم الحكيم رحمه الله: «الرَّافِضَةُ أَقْبَحُ فِعْلاً مِن اليَهود والنَّصارى، إذ لو قِيل ليهودي: مَن أفضلُ الناسِ بعد مُوسَى؟ قال: نُقَبَاؤُه، ولو قِيل لِنَصْرَانيّ: مَن أفضلُ الناسِ بعد عِيسى؟ قال: حَوَارِيُّوهُ، ولو قيل لِرَافِضِيّ مَن شَرُّ الناسِ؟ قال: أصحابُ النّبِيّ صلى الله عليه وسلم، فَقَبَّحَهم الله تعالى، ويَكْفِي في الرَّدِّ عليهم قولُه تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً**﴾ (الأحزاب:٥٧)». (شرح العقيدة الطّحاوية للغُنَيْمِيّ، ص:١٥٨)

وقال الإمام الرَّبَّاني أحمد الفاروقي السرهندي (رحمه الله) : «وأَيْقِنُوا أنّ فَسادَ صُحْبَةِ المُبْتَدِعِ أَزْيَدُ مِن فسادِ صحبةِ الكافِرِ، وأَخْبَثُ جميعِ المُبْتَدِعِين وأَخَسُّهم طائِفةٌ يُبْغِضُونَ أَصْحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال اللهُ تعالى في القُرآنِ المَجِيدِ لِهؤلاء الطّائفةِ كُفّاراً حيث قال سُبحانه وتعالى: ﴿**لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ (الفتح:٢٩)، والمُبَلِّغُونَ للقرآنِ والشّريعةِ هم الأصحابُ، فإنْ كان الأصحابُ مَطْعُوناً فيهم يَلزَمُ الطَّعْنُ في القُرآنِ والشّريعةِ، والقرآنُ جَمَعَه عُثْمَانُ بنُ عَفّان عليه الرِّضْوَانُ، فإنْ كان عثمانُ مَطْعُوناً فيه كان القرآنُ مطعوناً فيه، أَعَاذَنَا اللهُ سبحانه ممّا يَعتَقِدُه الزَّنَادِقَةُ». (مكتوبات الإمام الرباني، ج:١ م:٥٤).

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره: «رَوَى أَبُو عُرْوَةَ الزُّبَيْرِيُّ مِن وَلَدِ الزُّبَيْرِ: كُنَّا عند مالك بنِ أنسٍ،=

أهميةُ تعلّمِ العلمِ

قال العلّامة الحَصْكَفِي رحمه الله في الدُّرّ المُختار: «واعْلَمْ أنّ تَعَلُّمَ العلمِ يكون فَرْضَ عَيْنٍ، وهو بِقَدْرِ ما يَحتاجُ لِدِينِه، وفَرْضَ كِفايَةٍ..» وقال ابنُ عابدين في حاشيته نَقْلاً عن العَلَّامِيّ: «مِن فَرَائِضِ الإسلامِ تَعَلُّمُ ما يَحتاج إليه العَبْدُ في إقامَةِ دِينِه وإخلاصِ عَمَلِه لله تعالى ومُعاشَرَةِ عِبادِه، وفَرْضٌ على كُلِّ مُكَلَّفٍ ومُكَلَّفَةٍ بعد تَعَلُّمِه عِلمَ الدِّينِ والهِدَايَةِ تَعَلُّمُ

=فذَكَرُوا رَجُلاً يَنْتَقِصُ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقَرَأَ مالكٌ هذه الآيَةَ: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ حتى بَلَغَ ﴿**يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾. فقال مالك: مَن أَصْبَحَ مِن النّاسِ في قَلْبِه غَيْظٌ على أحدٍ مِن أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقد أَصَابَتْه هذه الآيَةُ..»

وبعدما نَقَلَ هذه الرِّوَايَةَ قال رحمه الله: «لقد أَحْسَنَ مالكٌ في مَقالَتِه، وأَصابَ في تَأْوِيلِه (كما قال شِهابُ الدِّين الخفاجي في حاشيته على البَيضاوي لِكلام مالكٍ: وهو كلامٌ حَسَنٌ جِدًّا). فمَن نَقَصَ واحداً منهم أو طَعَنَ عليه في رِوايتِه فقد رَدَّ على اللهِ رَبِّ العالمين، وأَبْطَلَ شَرَائِعَ المُسلِمِين». ثم ذَكَر بعضَ الآياتِ والأحاديثِ التي تَتَعَلَّقُ بفضلِ الصّحابةِ رضي الله عنهم أجمعين، إنْ شِئْتَ ارْجِعْ إلى تفسيره. (الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الفتح، الآية:٢٩).

ونَقَلَ شارِحَا تفسيرِ البيضاوي: شِهاب الدِّين الخفاجي وإسماعيل القُنوي رحمهما الله عن المَوَاهِب: أنّ مَالِكاً رحمه الله اسْتَنْبَطَ مِن هذه الآيةِ تَكْفِيرَ الرَّوَافِضِ الذين يبغضون الصّحابةَ رضي الله عنهم، فإنهم يُغِيظُونَهم، ومَن غاظَه الصّحَابَةُ فهو كافرٌ. ووَافَقَه كثيرٌ مِن العلماءِ. (انظر: حاشية الشهاب والقنوي على البيضاوي، وتفسير ابن كثير. وبَيَّنَ العلّامةُ علي القاري مُفَصَّلاً إشارَةَ الآيَةِ إلى تكفيرِ الرَّوَافِضِ في كتابه: شَمّ العَوَارِض في ذَمِّ الرَّوَافِض، ص:٥٣)

قال الإمام الرباني أحمد السرهندي (رحمه الله) في مكتوبٍ آخَر: «ولَعَلَّ مَقصودَ هذه الطائفةِ إبطالُ الدِّين وإنكارُ شَريعَتِه عليه الصلاة والسلام، ففي ظاهِرِ الصُّورَةِ يُظْهِرُونَ مَحبَّةَ أهلِ بيتِ رَسُولِ اللهِ، وفي الحقيقةِ يُبْطِلُونَ شَرِيعَتَه صلى الله عليه وسلم». (المكتوبات، ج:٢ م:٣٦)

وقال أبو زُرْعَة الرَّازي رحمه الله: «إذا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَنْتَقِصُ أحداً مِن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعْلَمْ أنه زِنْدِيقٌ، وذلك أنّ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم عندنا حَقٌّ والقرآنَ حقٌّ، وإنّما أَدَّى إلينا هذا القرآنَ والسُّنَنَ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنّما يُرِيدُونَ أَنْ يَجْرَحُوا شُهُودَنَا لِيُبْطِلُوا الكِتابَ والسُّنَّةَ، والجَرْحُ بهم أَوْلى وهم زَنَادِقَةٌ». (الكِفاية، للخطيب البغدادي رحمه الله)

قال أبو جَعْفر الطحاوي رحمه الله: (و) نقول (**مَن أحسنَ القولَ في أصحابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم**) الأَكْرَمين (**وأزواجِه**) أُمّهاتِ المؤمنين (**وذرّيّاته**) المُطَهَّرين (**فقد بَرِئَ مِن النّفاق**) والضَّلالِ، لِمَا ذَكَرَ اللهُ لهم مِن المَزَايَا الحميدةِ والخِصالِ في مَوَاضِعَ كثيرةٍ، وقد قال تعالى: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ**﴾ إذ هما ضِدّانِ، وبِتَرْكِ أحدِهما يَثْبُتُ الآخَرُ، والحَقُّ ما جاءَ به الكتابُ والسُّنَّةُ. فمَحَبَّتُهم آيةُ الإيمانِ، والبَرَاءَةُ منهم أَمَارَةُ النِّفاقِ، وإساءةُ القولِ فيهم إنّما يكون لِخُبْثِ الباطِنِ وسُوءِ الاعتقادِ. (انظر: العقيدة الطحاوية مع شرح الغُنيمي، والبابرتي)

علمِ الوُضُوءِ والغُسْلِ، والصَّلاةِ والصَّوْمِ، وعلمِ الزَّكاةِ لِمَنْ له نِصابٌ، والحَجِّ لمن وَجَبَ عليه، والبُيُوعِ على التُّجَّارِ لِيَحْتَرِزُوا عن الشُّبُهَاتِ والمَكْرُوهَاتِ في سَائِرِ المُعَامَلاتِ[1]. وكذا أهلُ الحِرَفِ، وكلُّ مَن اشتَغَلَ بشيءٍ يُفْرَضُ عليه عِلمُه وحُكْمُه لِيَمْتَنِعَ عن الحَرَامِ فيه».اهـ.[2]

(١) قيل لمحمد بن الحَسَن الشَّيْبَانِيّ رحمه الله: لِمَ لا تُصَنِّفُ كِتاباً فى الزُّهْدِ؟ قال: «قد صَنَّفْتُ كتاباً في البُيُوعِ»، يعنى: الزَّاهِدُ مَن يَحترِزُ عن الشُّبُهَاتِ والمَكرُوهَاتِ فى التِّجَارَاتِ. وكذلك يَجِبُ التَّحَرُّزُ عن الشّبهات فى سائر المُعَامَلات والحِرَفِ.. (شرح تعليم المتعلّم، ص:٢٩-٣٠)

(٢) بعضُ الآياتِ والأحاديثِ التي تَتَعَلَّقُ بِفَضْلِ العِلمِ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨)، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٩)، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المُجادلة:١١)..

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقاً إلى الجَنَّةِ، وإِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ؛ وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)، وقال: (يا أَبَا ذَرٍّ! لَأَنْ تَغْدُوَ فتعلّمَ آيةً مِن كتابِ اللهِ خيرٌ لك مِن أَنْ تُصَلِّيَ مائةَ رَكعَةٍ، ولَأَنْ تَغْدُوَ فتَعَلَّمَ باباً مِن العِلم عُمِل به أو لم يُعمَل خيرٌ مِن أَنْ تُصَلِّيَ ألفَ رَكعةٍ)، وقال: (إذا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خيراً فَقَّهَهُ في الدِّينِ، وأَلْهَمَه رُشْدَه)، وقال: (فقيهٌ واحدٌ أَشَدُّ على الشَّيطانِ مِن أَلْفِ عابِدٍ)، وقال: (أُغْدُ عَالِماً، أَوْ مُتَعَلِّماً، أَوْ مُسْتَمِعاً، أَوْ مُحِبّاً، ولا تكن الخامسةَ فتَهْلِكَ)، وقال: (الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلّا ذِكْرَ الله وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِماً أو مُتَعَلِّماً)، وقال: (مَن جاءَه المَوْتُ وهو يَطلُبُ العِلمَ لِيُحْيِيَ به الإسلامَ ؛ فبَيْنَه وبين النَّبِيِّين دَرَجَةٌ واحدةٌ في الجَنَّةِ)..

وأَقْوَالُ الأَفاضِلِ في هذا الباب كثيرٌ أيضاً، منها: عن مُعاذ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه: «تَعَلَّمُوا العلمَ، فإنّ تَعَلُّمَه حَسَنَةٌ، وطَلَبَه عِبادَةٌ، ومُذَاكَرَتَه تَسْبِيحٌ، والبَحْثَ عنه جِهادٌ، وبَذْلَه قُرْبَةٌ، وتَعليمَه مَن لا يَعلَمُه صَدَقَةٌ»، وقال أبو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ: «ليس شيءٌ أَعَزَّ مِن العِلمِ، المُلُوكُ حُكّامٌ على النّاسِ، والعلماءُ حكّامٌ على المُلُوكِ»، وعن سُفيان الثوري والشافعي رضي الله عنهما: «ليس بعد الفَرَائِضِ أفضلُ مِن طلبِ العلمِ»، وعن أبي ذَرٍّ وأبي هُريرة رضي الله عنهما قالا: «بَابٌ مِن العلمِ نَتَعَلَّمُه أَحَبُّ إلينا مِن ألفِ ركعةٍ تَطَوُّعاً، وبابٌ مِن العلم نُعَلِّمُه عُمِلَ به أو لم يُعْمَلْ أَحَبُّ إلينا مِن مائة ركعةٍ تَطَوُّعاً».

قال الشّيخ الإمام البَدْرُ ابنُ جماعة رحمه الله في «تذكرة السّامع والمتكلّم في آداب العالم والمتعلّم» (ص:٢٣) بعدما نَقَلَ هذه الأقوالَ: «وقد ظَهَرَ بما ذَكَرْناه أنّ الاشتغالَ بالعلمِ لله أفضلُ مِن نَوَافِلِ العِباداتِ البَدَنِيَّةِ مِن صَلاةٍ وصِيامٍ وتَسْبِيحٍ ودُعاءٍ ونحوِ ذلك؛ لأنّ نَفْعَ العِلمِ يَعُمُّ صاحِبَه والنّاسَ، والنَّوَافِلُ البدنيّةُ مَقصُورَةٌ على صاحِبِها؛ ولأنّ العلمَ مُصَحِّحٌ لِغيرِه مِن العِباداتِ فهي تَفْتَقِرُ إليه وتَتَوَقَّفُ عليه، ولا يَتَوَقَّفُ هو عليها، ولأنّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ عليهم الصّلاةُ والتّسليمُ وليس ذلك للمُتَعَبِّدِين، ولأنّ طاعَةَ العالِمِ واجبةٌ على غيرِه فيه، ولأنّ العلمَ يَبْقَى أَثَرُهُ بعد موتِ صاحِبِه، وغيرُه مِن النَّوَافِلِ تَنْقَطِعُ بموتِ صاحِبِها، ولأنّ في بَقاءِ العلمِ إحياءَ الشّريعةِ وحِفْظَ مَعَالِمِ المِلَّةِ». =

وفي تَبيينِ المَحَارِمِ: «لا شَكَّ في فَرْضِيَّةِ عِلمِ الفَرَائِضِ الخَمْسِ ـ التي بُنِيَ الإسلامُ عليها ـ وعلمِ الإخلاص؛ لأنّ صِحَّةَ العَمَلِ مَوْقُوفَةٌ عليه، وعِلمِ الحَلالِ والحَرَامِ، وعِلمِ الرِّيَاءِ؛ لأنّ العَابِدَ مَحْرُومٌ مِن ثَوَابِ عَمَلِه بِالرِّيَاءِ، وعِلمِ الحَسَدِ والعُجْبِ؛ إذ هما يَأْكُلانِ العَمَلَ كما تَأكُلُ النّارُ الحَطَبَ، وعِلمِ البَيْعِ والشِّرَاءِ والنِّكاحِ والطَّلاقِ لِمَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ في هذه الأشياءِ، وعِلمِ الألفاظِ المُحَرَّمَةِ والمُكَفِّرَةِ، ولَعَمْرِي هذا مِن أَهَمِّ المُهِمَّاتِ في هذا الزَّمانِ؛ لأنّك تَسْمَعُ كثيراً مِن العَوَامِّ يَتَكَلَّمُونَ بما يُكَفِّرُ، وهم عنها غافِلُونَ. والاحتِياطُ أَنْ يُجَدِّدَ الجاهِلُ إيمَانَه كُلَّ يومٍ، ويُجَدِّدَ نِكاحَ امْرَأَتِه عند شَاهِدَيْنِ في كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ، إذ الخَطَأُ وإنْ لم يَصدُر مِن الرَّجُلِ فهو مِن النِّسَاءِ كثيرٌ».(١)

وذُكِرَ في الفتاوى البَزّازِيَّة أَنّ «تعليمَ صِفَةِ الخالِقِ مَوْلانَا جَلّ جَلالُه لِلنّاسِ وبَيَانَ خَصَائِصِ مَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ مِن أَهَمِّ الأُمُورِ، وعلى الذين تَصَدَّوْا لِلوَعْظِ أَنْ يُلَقِّنُوا النّاسَ في مَجَالِسِهم على مَنَابِرِهم ذلك، قال اللهُ تعالى: ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الذاريات: ٥٥)، وعلى الذين يَؤُمُّونَ في المَساجِدِ أَنْ يُعَلِّمُوا جَمَاعَتَهم شَرَائِطَ الصّلاةِ وشَرَائِعَ الإسلامِ وخَصَائِصَ مَذهَبِ الحَقِّ، وإذا عَلِمُوا في جَماعتِهم مُبْتَدِعاً أَرْشَدُوهُ، وإنْ كان دَاعِياً إلى بِدْعَتِه مَنَعُوهُ، وإنْ لم يَقْدِرُوا رَفَعُوا الأَمْرَ إلى الحُكَّامِ حتى يُجْلُوهُم عن البَلْدَةِ إنْ لم يَمْتَنِعْ، وعلى العالِمِ إذا عَلِمَ مِن قَاضٍ أو مِن آخَرَ يَدْعُو النّاسَ إلى خِلافِ السُّنَّةِ أو ظَنَّ منه ذلك أَنْ يُعلِّمَ النَّاسَ بأنه لا يَجوز اتِّبَاعُه ولا الأَخْذُ عنه، فعَسَى يَخلِطُ في أَثْنَاءِ الحَقِّ باطِلاً يَعْتَقِدُهُ العَوَامُّ حَقًّا، ويَعْسُرُ إِزَالَتُه..»(٢)

= ولذا يقول العُلماء الرَّبّانيّون: **أعظمُ الجهادِ في هذا العَصْرِ أَنْ تُنْشِئَ طَالِبَ العلمِ**، كما قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله في «شرح حديث أبي الدرداء» (ص:٣٧): «**إنّ العلمَ أفضلُ أنواعِ الذِّكْرِ، وهو أفضلُ أنواعِ الجِهادِ**»، وقال أيضاً في «لَطَائِف المَعَارِف» (ص:١٣٠): «**وقد نَصَّ الأئِمّةُ الأربعةُ على أنّ طلبَ العلمِ أفضلُ مِن صلاةِ النَّافلة..، فإنّ العلمَ مِصباحٌ يُستضاء به في ظُلْمَةِ الجَهْلِ والهَوَى، فمَنْ سارَ في طريقٍ على غيرِ مصباحٍ: لم يَأْمَنْ أن يَقَعَ في بِئْرٍ بَوَارٍ فيَعْطَبَ**».

(١) نَقَلَه ابنُ عابدين رحمه الله في حاشيته على الدر المختار: ج:١ ص:١٣٩-١٤٠.

(٢) الفتاوى البَزّازية بهامش الفتاوى الهندية، ج:٦ ص:٣٢٠

وقال الإمامُ الشّيخ أحمدُ الفاروقي السرهندي (رحِمه الله): «اعلَمْ أنّ أَوّلَ الضَّرُورِيّاتِ الواجبةِ على أَرْبابِ التكليفِ تَصحِيحُ العَقَائِدِ على وَفْقِ آرَاءِ علماءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ شَكَرَ اللهُ تعالى سَعْيَهم فإنّ النَّجاةَ الأُخرويّةَ مَرْبُوطَةٌ بِاتّباعِ آراءِ هؤلاء الأكَابِرِ، وهم وأَتْباعُهم هم الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، فإنّهم على طريقِ النَّبِيّ وطريقِ أَصْحابِه صَلَوَاتُ اللهِ وتَسْلِيمَاتُه عليه وعليهم أجمعين والمُعْتَبَرُ مِن العُلُومِ المُسْتَفَادَةِ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ هو ما أَخَذَه واسْتَنْبَطَه منهما هؤلاء الأكابِرُ، فإنّ كُلَّ مُبْتَدِعٍ وضَالٍّ يَأخُذُ عَقِيدَتَه الفاسِدَةَ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ بِزَعْمِه الفاسِدِ، فلا يكون كلُّ معنىً مَفْهُومٍ مِن مَعاني الكتابِ والسُّنَّةِ مُعْتَبراً.[1]

وبعد تَصحِيحِ هذه العقائِدِ لا بُدَّ مِن تَعَلُّمِ علمِ الحَلالِ والحَرَامِ والفَرْضِ والوَاجِبِ والسُّنَّةِ والمَندوبِ والمَكروهِ وغيرِها ممّا تَكَفَّلَ به عِلمُ الفقهِ، والعَمَلُ بِمُقْتَضَى هذا العِلْمِ أيضاً ضَرُورِيٌّ...

فإنْ وَقَعَ عِياذاً بِاللهِ سُبحانه خَلَلٌ في مَسْأَلَةٍ مِن المَسائِلِ الاعتقاديّةِ الضروريّةِ فقد تَحَقَّقَ الحِرْمَانُ مِن النَّجاةِ الأُخْرَوِيَّةِ بِخِلافِ العَمَلِيّاتِ، فإنّها إذا وَقَعَتْ المُسَاهَلَةُ فيها يُرْجَى العَفْوُ والتَّجَاوُزُ عنها، ولو بلا توبةٍ ولَئِنْ أُخِذَ بها، ولكنّ النَّجاةَ مُتَحَقِّقَةٌ في آخِرِ الأَمْرِ، فعُمْدَةُ الأَمْرِ تَصْحِيحُ العَقائِدِ».[2]

وقال في مَكتوبٍ آخَرَ: «وَاعْلَمْ أنّ الذي لا بُدَّ منه هو تصحيحُ الاعتقادِ أَوّلاً على وَفْقِ آرَاءِ علماءِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ الّذين هم الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، ثم العَمَلُ بِمُقْتَضَى الأحكامِ الفقهيّةِ ثانياً، فإذا حَصَلَ هَذَانِ الجَنَاحَانِ الاعْتِقَادِيّ والعَمَلِيّ ينبغي أَنْ يُقصَدَ الطَّيَرَانُ إلى عَالَمِ القُدْسِ[3]، هذا هو الأَمْرُ والبَاقي مِن العَبَثِ».[4]

---

(١) فَفَهْمُ المُرادِ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ على ما بيَّنَه علماءُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ.

(٢) مكتوبات الإمام الرباني، ج:١، م:١٩٣.

(٣) قَصْدُ الإمامِ الرباني رحمه الله: التَّنْبِيهُ على مَقامِ الإحسانِ، وهو أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنّك تَرَاهُ..، وأَفْضَلُ طَرِيقٍ له الدُّخولُ مع الصُّوفيّةِ والْتِزَامُ صُحْبَتِهم، أي: السُّلُوكُ على يَدِ شيخٍ صادِقٍ كامِلٍ.. قد سَلَكَ طريقَ أهلِ اللهِ على يَدِ شيخٍ كذلك إلى أَنْ يَنْتَهِيَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) مكتوبات الإمام الرباني، ج:١، م:٩١.

وقال العلّامة الشّيخ إبراهيم البَاجُوريّ الشّافعيّ عند شرحِه كلامَ الشّيخ إبراهيم اللَّقَانِيّ صَاحِبِ «جوهرة التّوحيد»: وكُنْ كَمَا كان خِيَارُ الخَلْقِ حَلِيفَ حِلْمٍ تَابِعاً لِلحَقِّ.

«أي كُنْ مُتَّصِفاً بِأَخْلاقٍ مِثْلِ الأخلاقِ الّتِي كان عليها خِيارُ الخَلْقِ...» إلى أَنْ قال: «وإذا كانت المُجاهَدَةُ على يَدِ شيخٍ مِن العارِفين كانت أَنْفَعَ، لِقَوْلِهم: حالُ رَجُلٍ في ألفِ رَجُلٍ أَنْفَعُ مِن وَعْظِ ألفِ رَجُلٍ في رَجُلٍ.. فيَنبغي لِلشَّخْصِ أَنْ يَلْزَمَ شَيْخاً عارِفاً على الكتابِ والسُّنَّةِ.. فإنْ وَجَدَه على الكتابِ والسنةِ لازَمَهُ، وتَأَدَّبَ معه، فعَسَاهُ يَكْتَسِبُ مِن حالِه ما يكون به صَفاءُ بَاطِنِه، واللهُ يَتَوَلَّى هُدَاهُ».(١)

ونَصَحَ أيضاً بِمِثْلِ هذه النَّصِيحَةِ الشّيخُ السّيّد أحمد الرِّفاعي رحمه الله تعالى فقال: «أُوصِيكم كُلَّ الوَصِيَّةِ بعد عِلمِ وَاجِبَاتِ الدِّينِ بِصُحْبَةِ الأَولياء، فإنّها تِرْيَاقٌ مُجَرَّبٌ، عندهم رأسُ الأمرِ كلِّه، عندهم الصِّدْقُ والصَّفَاءُ، والذَّوْقُ والوَفَاءُ، والتَّجَرُّدُ مِن الدّنيا والتّجرّدُ مِن الأُخْرَى، والتّجرّدُ إلى المَوْلَى، وهذه الخِصالُ لا تَحصُلُ بالقراءةِ والدَّرْسِ والمَجَالِسِ، لا تَحصُلُ إلّا بِصُحْبَةِ الشيخِ العارِفِ الذي يَجمَعُ بين الحالِ والمَقالِ، يَدُلُّ بِمَقَالِه، ويَنهَضُ بِحَالِه، أولئك الذين هَدَاهُم اللهُ فبِهُدَاهم اقْتَدِهْ».(٢)

وقال الإمام الشّيخ عبد الوَهَّاب الشّعرانيّ رحمه الله: «وكان أبو هُريرة رضي الله عنه يقول: يُؤْتَى بِالعَبْدِ يومَ القيامةِ بين يَدَيِ الله تعالى، فيقول اللهُ عزّ وجلّ له: هل أَحْبَبْتَ لي وَلِيّاً؛ حتّى أَهَبَكَ له؟ انتهى. فأَحِبُّوا الصَّالِحِين، واتَّخِذُوا عندهم أَيَادِيَ، فإنّ لهم دَوْلَةً يومَ القيامةِ.

وكان أحمدُ بنُ حَربٍ رحمه الله تعالى يقول: ليس شيءٌ أَنْفَعَ لِقَلْبِ العَبدِ مِن مُخَالَطَةِ الصَّالِحِين والنَّظَرِ إلى أَفْعَالِهم، وليس شيءٌ أَضَرَّ على القَلْبِ مِن مُخالَطَةِ الفَاسِقِين والنَّظَرِ

(١) شرح الجوهرة، للباجوري ص:٥٠١.
(٢) البرهان المؤيد، ص: ١٣٧.

وما وَصَلَ المسلمون إلى هذا الدَّرَكِ مِن الانْحِطَاطِ والضَّعْفِ والذُّلِّ.. إلّا حين فَقَدُوا رُوحَ الإسلامِ وجَوْهَرَه، ولم يَبْقَ فِيهم إلّا شَبَحُهُ ومَظاهِرُهُ. لِهذا نَرَى العلماءَ العامِلِين، والمُرْشِدِين الغَيُورِينَ، يَنْصَحُون النَّاسَ بِالدُّخُولِ مع الصّوفيّةِ والْتِزَامِ صُحْبَتِهم، كَيْ يَجْمَعُوا بَين جِسْمِ الإسلامِ ورُوحِه، ولِيَتَذَوَّقُوا مَعَانِيَ الصَّفَاءِ القَلْبِيّ والسُّمُوّ الخُلُقِيِّ، ولِيَتَحَقَّقُوا بِالتَّعَرُّفِ على الله سُبحانه وتعالى المَعْرِفَةَ اليَقِينِيَّةَ، فيَتَحَلَّوْا بِحُبِّهِ ومُرَاقَبَتِه ودَوَامِ ذِكْرِه.. ولا شَكَّ أنّنا في عَصْرِنَا هذا أَشَدُّ النَّاسِ حَاجَةً إلى التّصوّف، وإلى مُتَصَوِّفٍ يَعمَلُ بِنِظَامِ التَّصوّف الحَقِيقِيِّ..

إلى أفعالِهم. وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: وَلِيُّ اللهِ رَيْحَانٌ في الأرضِ، فإذا شَمَّهُ المُرِيدُونَ ووَصَلَتْ رَائِحَتُه إلى قُلُوبِهم اشْتَاقُوا إلى رَبِّهِم. انتهى».[1]

رَوى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**الرَّجُلُ على دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**».[2] ومِن الأقْوَالِ المُسلَّمِ بها، الدَّارِجَةِ على أَلْسِنَةِ العَامَّةِ والخَاصَّةِ: **قُلْ لِي مَنْ تُصَاحِبُ، أَقُلْ لَكَ مَن أَنْتَ**. وبِالحديث الآخَر، أنه قيل: يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ؟ قَالَ: «**مَنْ ذَكَّرَكُمُ اللهَ رُؤْيَتُهُ، وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَذَكَّرَكُمْ بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ**»[3].

يقول الفقيرُ -أَصْلَحَه اللهُ القديرُ-: اللهم أنت قلتَ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾[4] فَاجْعَلْنَا اللهمّ مِن الصَّادِقِين، وَاجْعَلْنَا مَعَهم[5].. وَأَدْخِلْنَا بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحِين. آمين.

---

(١) تنبيه المُغتَرّين، للشعراني، ص:٤٤،٤٥.

قال ابن عطاء الله السكندري في الحكم (٤٣): «**لا تَصحَبْ مَن لا يُنهِضُك حَالُه، ولا يَدُلُّكَ على اللهِ مَقالُه**».

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)..

(٣) رواه عبد بن حميد (٦٣١)، وأبو يعلى (٢٤٣٧).

(٤) سورة التوبة: ١١٩.

قال القرطبي رحمه الله: «حَقٌّ مَن فَهِمَ عنِ اللهِ وعَقَلَ عنه أَنْ يُلَازِمَ الصِّدْقَ في الأقوالِ، والإخلاصَ في الأعمالِ، والصَّفاءَ في الأحوالِ، فمَن كان كذلك، لَحِقَ بالأَبْرَارِ ووَصَلَ إلى رِضَا الغفَّارِ..» (الجامع لأحكام القرآن).

وقال ابن عجيبة رحمه الله: «الصِّدْقُ سَيْفٌ حازِمٌ، ما وُضِعَ على شيءٍ إلّا قَطَعَه، ويكون في الأقوالِ، وهو صِيَانَتُها مِن الكَذِبِ، ولو أدّى إلى التَّلَفِ. وفي الأفعالِ، وهو صِيَانَتُها مِن الرِّياءِ وطَلَبِ العِوَضِ. وفي الأَحْوَالِ، وهو تَصْفِيَتُها مِن قَصْدٍ فاسِدٍ، كَطَلَبِ الشُّهْرَةِ، أو إدْرَاكِ مَقامٍ مِن المَقَامَاتِ، أو ظُهُورِ كَرَاماتٍ، أو غيرِ ذلك مِن المَقَاصِدِ الدَّنِيَّةِ..» (البحر المديد).

(٥) قال الإمام الغزالي رحمه الله في إحياء علوم الدِّين (٣٨٧/٤): «اعلَمْ أنّ لفظَ الصِّدْقِ يُسْتَعْمَلُ في سِتَّةِ مَعَانٍ: صِدْقٌ في القولِ، وصدقٌ في النِّيَّةِ والإرادةِ، وصدقٌ في العَزْمِ، وصدقٌ في الوَفاءِ بالعَزْمِ، وصدقٌ في العَمَلِ، وصدقٌ في تَحْقِيقِ مَقاماتِ الدِّينِ كُلِّها. فمَنْ اتَّصَفَ بالصِّدْقِ في جَمِيعِ ذلك فهو صِدِّيقٌ، لأنه مُبالَغَةٌ في الصِّدْقِ. ثُمَّ هم أيضاً على دَرَجَاتٍ، فمَن كان له حَظٌّ في الصِّدْقِ في شيءٍ مِن الجُمْلَةِ فهو صادِقٌ بالإضَافَةِ إلى ما فيه صِدْقُه». ثم شَرَحَ الإمام رحمه الله هذه الأقسامَ كُلَّها بِبَسْطٍ، فرَاجِعْهُ لِلتَّفْصِيلِ. فالصِّدْقُ في كُلِّ الأحوالِ مَمْدُوحٌ، وصاحِبُه مَحْمُودٌ في الدّنيا والآخرة...

فنَسْأَلُ اللهَ سُبحانه وتعالى أَنْ يَجْعَلَنَا مِن الصِّدِّيقِينَ بِجَاهِ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ سيدِنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم..

مسألة: «الجهاد الأصغر والأكبر»

إنّ ممّا يَكثُر ذِكْرُه في مَجَالِس الوَعْظِ خاصَّةً حديثَ: «**رَجَعْنَا مِن الجِهَادِ الأَصْغَرِ إلى الجِهَادِ الأَكْبَرِ**»..[1] قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في «تَسدِيد القَوْس» : هو مَشهورٌ على الأَلْسِنَةِ، وهو مِن كلام إبراهيم بن أبي عَبْلَة في «الكُنَى» للنسائي.[2]

لكنّ هذا المعنى وَرَدَ بِسَنَدٍ مرفوعٍ إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بغيرِ هذا اللَّفْظِ، وهو ما رَوَاه الإمامُ البيهقيّ رحمه الله في كتاب «الزّهد الكبير» (٣٧٣) فقال: أَخْبَرَنا عليّ بنُ أحمدَ بنِ عَبْدَانَ، أَنْبأَنا أحمد بن عبيد، حَدَثَّنا تَمْتَام[3]، حَدَّثَنا عِيسى بن إبراهيم، حَدَّثَنا يحيى بنُ يَعْلَى، عن لَيْثٍ، عن عَطَاء، عن جابر رضي الله عنه قال: «**قَدِمَ على رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَوْمٌ غُزَاةٌ، فقال صلى الله عليه وسلم: قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، مِنْ جِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى جِهَادِ الأَكْبَرِ، قِيلَ وَمَا جِهَادُ الأَكْبَرِ؟ قال: مُجَاهَدَةُ العَبْدِ هَوَاهُ**».[4]

كما قال الحافظ رحمه الله اشْتَهَرَ بين النّاسِ قَدِيماً وحَدِيثاً ما يُرْوَى: «**رَجَعْنَا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»، وبعضُهم يُحاوِلُ أَنْ يَصرِفَ النَّاسَ عن أَهَمِّيَّةِ القِتالِ، ونِيَّةِ الجهادِ، والاستعدادِ له، والأَخْذِ في سَبِيلِه..، ويُرِيدُونَ أَنْ يُقعِدُوا المُسلِمِين أَذِلّاءَ حتى يَسْتَوْلِيَ الكُفَّارُ

---

(١) تَمامُه: رَجَعْنَا مِن الجهاد الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ، قالوا: وما الجهادُ الأكبرُ؟ قال: جهادُ القَلْبِ.

(٢) ونَقَلَ كلامَ الحافِظِ ابنِ حَجَرٍ رحمه الله الإمامُ السيوطي في «الدّرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة»، والمُلّا عليّ القاري في «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة»، والعَجْلُونِي في «كشف الخفاء».

(٣) تَمْتَام: لَقَبُ محمّد بن غالِب.

(٤) قال الإمام البيهقيّ رحمه الله بعد أَنْ رَوَاه: «وهذا إسنادٌ فيه ضعفٌ».

وخُلاصَةُ كلامِ العلماءِ في هذا الحديث: أنه بهذا السَّنَدِ في مَرْتَبَةِ الضَّعِيفِ المُقارِبِ (ويُمكِنُ إطلاقُ النَّكارَةِ عليه لِتَفَرُّدِ اللَّيْثِ به، عند مَن يَسْتَعْمِلُ النّكارَةَ بمعنى التَّفَرُّدِ لا بمعنى المُخالِفِ)، فيُرْوَى في الشَّوَاهِدِ والاعْتِبَارِ وفي الرَّغَائِبِ والفَضَائِلِ، وليس شَدِيدَ الضّعفِ، وليس باطِلاً، وليس إسنادُه تَالِفاً.!

على البِلادِ ويَسْتَعْبِدَ العِبادَ.. فيَسْتَغِلُّونَ بهذا الأَثَرِ الضَّعِيفِ لِلاستدلالِ على التَّهْوِينِ مِن شأنِ قِتالِ الكفّارِ، والاحتجاجِ به للتقليلِ مِن عَظَمَةِ بَذْلِ المُهَجِ والأَرْوَاحِ وهَجْرِ الأهلِ والأَوْطانِ وتكَبُّدِ المَشَاقِّ والأَهْوَالِ والسَّخَاءِ في إنفاقِ الأَمْوَالِ لتكون كلمةُ الذين كَفَرُوا السُّفْلَى وكلمةُ اللهِ هي العُلْيَا. فذلك كُلُّه جهادٌ أصغرُ، أمّا ما هم فيه مِن دَعَةٍ وخُمُولٍ وإخلادٍ إلى الأرض وتَخَاذُلٍ عن الأمرِ بالمَعروفِ والنهيِ عن المُنكَرِ ـ قبل التّفكير بقتال الكفّار ـ بِحُجَّةِ تَهذِيبِ النَّفْسِ قَبْلَ التَّطَلُّعِ إلى تَهذِيبِ الآخَرِينَ، والرِّضا في كلِّ الأَحْوَالِ حتى عمّا لا يَرْضَاهُ اللهُ.. فهذا كلُّه جِهادٌ أكبرُ لا تُضارِعُه ولا تُوَازِيهِ أصنافُ ذلك الجهادِ الأصغرِ!.

وبعضُهم يقول: ما دامَ الحديثُ ضَعِيفاً فنَتْرُكُه كُلِّيّاً، ونَرْمِيه وَرَاءَ ظَهْرِنَا..! فهَبَّ مِن طَرَفٍ آخَرَ مَن يقول: إنّ هذا الحديثَ ليس له وجودٌ في الكتب الحديثيّة إطلاقاً، وما مِن شَكٍّ بأنّه موضوعٌ وَضَعَه الكفّارُ ودَسُّوهُ في كُتُب المسلمين، وإنّ تقسيمَ الجهادِ إلى أكبر وأصغر هو أَخْطَرُ ما أُصِيبَ به الجهادُ في تَارِيخِه مِن النَّكْسَةِ، وإنّ ذلك التّقسيمَ كان هو الطّرِيقةُ السِّلْمِيَّةُ الّتِي صَرَفَتْ المسلمين عن الجهاد، وأَقْعَدَتْهم أَذِلَّاءَ لِمُدَّةٍ طويلةٍ حتّى يَوْمِنَا هذا، وبِتلك الطريقةِ اسْتَوْلَى الكفّارُ على البِلادِ واسْتَعْبَدُوا العِبادَ..

فنَقول بِعَوْنِ اللهِ تبارك وتعالى: إنّ ضَعْفَ السَّنَدِ غيرُ مُستلزِمٍ ضَعْفَ المَعنى، ومع الأَسَفِ الشَّدِيدِ هناك فِئَةٌ مِن النّاسِ حَشَرَتِ الأَحَادِيثَ الضَّعِيفةَ والمَوْضُوعَةَ في أَتُونٍ وَاحِدٍ تُرِيد إحراقَ الجميعِ وتخليصَ الأُمَّةِ الإسلاميةِ منها، ثم زَادَتْ على ذلك أَنْ اعْتَقَدَ عَوَامُّهم أَنّ ضَعْفَ السَّنَدِ مُستلزِمٌ لا مَحَالَةَ ضَعْفَ المَتْنِ وبُطْلَانَ مَعناه! فكان البَيانُ واجباً أَنّ بَيْنَ الضعيفِ والموضوعِ بَوْناً شَاسِعاً.

ومِن المعلوم: أنّ هذا الحديث الّذِي رواه البيهقيّ على ضَعفِ إسنادِه صحيحُ المَعنى، لا يُخالِفُ شيئاً مِن أصولِ الإسلامِ الكُلِّيَّةِ، ولا يُخالِفُ قُرْآناً ولا سُنَّةً ثابِتَةً[1]. وكونُ بعضِ

(١) قال العلّامة علي القاري رحمه الله تعالى في الأسرار المرفوعة: «ثم اعلم أنّه قد يكون الحديثُ مَوْضُوعاً بِحَسَبِ المَبْنَى، وإن كان صحيحاً مُطابِقاً للكتاب والسُّنّة بِحَسَبِ المَعنى». هذا في الموضوعِ فما بَالُكَ في الضعيفِ! فتَدَبَّرْ.

النّاسِ مِن الجَاهِلِين يُرَدِّدُونَ هذا الحديثَ في مَجالِسِهم، ويَسْتَنِدُونَ إليه في تَرْكِ الأمرِ بالمَعروف والنّهيِ عن المُنكرِ، والغَيْرَةِ على دِينِ اللهِ، والنَّفيرِ لِقتالِ الكفّارِ والظّالِمين، ويَرَوْنَ أَنّ ما هم عليه في مَجالِسِهم جِهادٌ أكبرُ.. لا يَعني أَبَداً وُجُوبَ الطَّعْنِ في هذا الحديثِ، بل الواجبُ رَدُّهُم إلى الصَّوَابِ في فَهْمِه، فسُوءُ الفَهْمِ لا يُقابَلُ بِسُوءِ الفَهْمِ، والحَقُّ أَسْمَى مِن رُدُودِ الأفعالِ!.

ولا بُدّ أَنْ نَنْتَبِهَ جَيّداً إلى الحديثِ الّذِي رواه البيهقيُّ: «قَدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم قَوْمٌ غُزَاةٌ، فقال صلى الله عليه وسلم: قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، مِنْ جِهَادِ الأَصْغَرِ إِلى جِهَادِ الأَكْبَرِ، قيل وما جهادُ الأكبر؟ قال: مُجَاهَدَةُ العَبْدِ هَوَاهُ».

أَوّلاً: القَادِمُ هم الصَّحابَةُ رضي الله عنهم أجمعين، والغُزَاةُ كانوا في سَرِيَّةٍ، والقائِلُ هو رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لا الصَّحَابَةُ.

ثانياً: في الكلامِ محذوفٌ ـعلى هذا اللفظِـ تَقدِيرُه: قَدِمْتُمْ مِنْ جِهَادِ العَدُوِّ الأَصْغَرِ إِلى جِهَادِ العَدُوِّ الأَكْبَرِ، فيكون الأصغرُ والأكبرُ صِفَةً للعدوِّ، لا صِفَةً للجهاد.

قال حُجّة الإسلام الإمام الغزاليّ رحمه الله تعالى في إحياء علوم الدين: «وكُلُّ مُتَجَرِّدٍ لِلّهِ في جهادِ نفسِه فهو شهيدٌ، مَهْمَا أَدْرَكَه الموتُ مُقبِلاً غيرَ مُدْبِرٍ، فالمجاهدُ مَن جاهَدَ نفسَه وهَوَاهُ، كما صَرَّحَ به رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم. والجِهادُ الأكبرُ جهادُ النَّفْسِ، كما قال بعضُ الصّحابةِ رضي الله عنهم: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)، يَعْنُونَ: جِهادَ النفسِ».

وقال شارحُ الإحياءِ الزَّبِيدِيُّ رحمه الله: «والمرادُ بِجِهاد النَّفسِ قَهْرُها على ما فيه رِضَا اللهِ تعالى مِن فِعْلِ الطَّاعاتِ وتَجَنُّبِ المُخَالَفاتِ، وسُمِّيَ الأكبرَ؛ لأنّه مَن لم يُجاهِدْها لم يُمْكِنْه جهادُ العدوِّ الخارِجِ، وكيف يُمكِنُه وعدوُّه الذي بين جَنْبَيْهِ قاهرٌ له مُتَسَلِّطٌ عليه، وما لم يُجاهِدْ نَفْسَه على الخُرُوجِ لِعَدُوِّه لا يُمكِنُه الخُرُوجُ له، فجهادُ العدوِّ الخارِجِ بِالنِّسْبَةِ إلى جهادِ العدوِّ الباطِنِ أَصْغَرُ».[1]

(١) إتحاف السّادة المتقين ٦: ٣٧٨-٣٧٩. والشّرحُ بِتَمَامِه لِعِبارةِ الغزالي رحمه الله: (وكل متجرّد) عن الدّنيا (لله) تعالى (في جهاد نفسه) في تَبدِيلِ الذَّمَائِمِ (فهو شهيد، مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر) كَارّاً غيرَ فَارّ، فالآيَةُ=

حتى لو قُلْنَا ـفي لفظ الرّواية الأُولىـ : «الأصغر» و«الأكبر» صِفَتَانِ للجهاد، فيكون الجهادُ الأصغرُ قِسْماً مِن الجهاد الأكبر، وسَبَبُ كونِ جهادِ العَبْدِ نَفْسَه وهَوَاهُ أكبرَ؛ لأنه أَصْعَبُ وأَشَدُّ، لِذا قيل: قَتْلُ الهَوَى أَصْعَبُ مِن قَتْلِ السِّوَى. فجهادُ النّفسِ والهَوَى أَصْلٌ لِجهادِ الكفّارِ والمُنافِقِين، لأنّ الإنسانَ لا يَقدِرُ على جهادِهم حتى يُجاهِدَ نفسَه وهَوَاهُ أَوّلاً، ثُمّ يَخرُجَ إليهم، فإنه ما لم يُجاهِد نفسَه أوّلاً لِتَفْعَلَ ما أُمِرَتْ به، وتَترُكَ ما نُهِيَتْ عنه، ويُحَارِبْها في اللهِ، لم يُمكِنه جهادُ عدوِّه في الخارج، فكيف يُمكِنه جهادُ عدوِّه والانتِصافُ منه، وعدوُّه الذي بين جَنْبَيْهِ قاهِرٌ له مُتسلِّطٌ عليه؟؟!!.

قال النّسفي وكثيرٌ مِن المُفَسِّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1]: أَطْلَقَ المُجاهَدَةَ ولم يُقَيِّدْها بِمَفعولٍ، لِيَتَنَاوَلَ كُلَّ ما تَجِبُ مُجَاهَدَتُه مِن النَّفْسِ والشَّيْطانِ[2] وأَعْدَاءِ الدِّين.

=﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ..﴾ وإن كانت خاصَّةً في شهداءِ المَعركَةِ، فشهداءُ المَحَبَّةِ لهم حُكْمُ شهداءِ المعركةِ بشرطِ الإقبالِ وعدمِ الإدبارِ (فالمجاهد) ليس هو مَن جاهَدَ الكُفَّارَ بِسَيْفِه وسِنَانِه فقط، بل هو أيضاً (من جاهد نفسه وهواه) بِأَنْ أَمَاتَه بسيفِ تَأدِيبِه (كما صرّح به رسول الله صلى الله عليه وسلم).. (والجهاد الأكبر جهاد النّفس، كما قال بعض الصّحابة رضي الله عنهم: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، يَعنون: جهادَ النفسِ).

(١) سورة العنكبوت: ٦٩

(٢) قال تعالى في سورة فاطر (٦): ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ فلا تَقبلُوا غُرُورَه في عَقائِدِكم وأفعالِكم، وكُونُوا على حَذَرٍ منه في جميعِ أحوالِكم. الأمرُ باتِّخَاذِهِ عدوّاً غايَةٌ في التّحذير، وتنبيهٌ على استفراغِ الوُسْعِ في مُحَارَبَتِه، كأنّه عدوٌّ لا يَفْتُر، ولا يُقصِّرُ عن مُحارَبَةِ العَبْدِ على عَدَدِ الأَنْفَاسِ.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ أي فَعَادُوهُ ولا تُطِيعُوهُ. ويَدُلُّكم على عَدَاوَتِه إخرَاجُه أَبَاكم مِن الجَنَّةِ، وضَمَانُه إضلالَكم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية. فأَخْبَرَنَا عز وجلّ أنّ الشّيطانَ لَنَا عدوٌّ مُبِينٌ، وقَصَّ علينا قِصّتَه، وما فَعَلَ بِأَبِينَا آدمَ عليه السّلام، وكيف انْتَدَبَ لِعَدَاوَتِنَا وغُرُورِنَا مِن قَبْلِ وُجُودِنَا وبَعْدَه، ونحن على ذلك نَتَوَلّاهُ ونُطِيعُه فيما يُرِيدُ مِنَّا مِمّا فيه هَلاكُنَا. وكان الفُضَيْلُ بنُ عِياض يقول: «يا كَذّابُ يا مُفتَرٍ، اتّقِ اللهَ ولا تَسُبَّ الشّيطانَ في العَلانيةِ وأنت صَدِيقُه في السِّرّ». وقال ابنُ السَّمَّاكِ: «يا عَجَباً لِمَنْ عَصَى المُحْسِنَ بعد مَعرفتِه بإحسانِه، وأَطَاعَ اللَّعِينَ بعد معرفتِه بِعَدَاوَتِه!». انتهى كلامُ القرطبي.

ولِأَهَمِّيَّةِ المَسْأَلَةِ قال الشّيخ السّيّد عبدُ الباقي البِلوَانِسِيّ (حفظه الله): «انْتَبِهُوا، إنّ الشّيطانَ لَنَا عدوٌّ مُبِينٌ،=

=ولا يَرْحَمُ العَدُوُّ عَدُوَّهُ».

قال البُرُوسوي رحمه الله في روح البيان: «..فلا تَكْفِي العداوةُ بِاللِّسانِ فقط، بل يَجِبُ أن تكون بالقَلْبِ والجَوَارِحِ جَمِيعاً، ولا يَقْوَى المَرْءُ على عَدَاوَتِه إلّا بِمُلازَمَةِ الذِّكْرِ ودَوَامِ الاسْتِعانَةِ بِالرَّبِّ، فإنّ مَن هَجَمَ عليه كِلابُ الرَّاعِي يُشكِلُ عليه دَفْعُها إلّا أَنْ يُنَادِيَ الرَّاعِيَ، فإنه يَطْرُدُها بِكَلِمَةٍ منه».

قال فخر الدِّين الرَّازِيّ رحمه الله في تفسيره: «..فَمُحَارَبَةُ العَدُوِّ البَاطِنِ أَوْلَى مِن مُحارَبَةِ العدوِّ الظّاهِرِ؛ لأنّ العدوَّ الظّاهِرَ إنْ وَجَدَ فُرْصَةً فَفِي مَتَاعِ الدّنيا، والعدوُّ الباطِنَ إنْ وَجَدَ فُرْصَةً فَفِي الدِّينِ واليَقِين، وأيضاً فالعدوُّ الظاهِرُ إنْ غَلَبَنَا كُنّا مَأْجُورِينَ، والعدوُّ الباطِنُ إنْ غَلَبَنَا كُنّا مَفْتُونِين، وأيضاً فمَن قَتَلَه العدوُّ الظّاهِرُ كان شَهِيداً، ومَن قَتَلَه العدوُّ الباطِنُ كان طَرِيداً، فكان الاحترازُ عن شَرِّ العدوِّ الباطِنِ أَوْلى، وذلك لا يكون إلّا بِأَنْ يقول الرَّجُلُ بِقَلْبِه ولِسَانِه «أعوذ بالله مِن الشّيطان الرّجيم».

وقال أيضاً في تفسير آيةٍ أُخرَى: «واعْلَمْ أَنّ مَن عَلِمَ أَنّ له عدوّاً لا مَهْرَبَ له منه وجَزَمَ بذلك فإنه يَقِفُ عنده ويَصْبِرُ على قِتالِه، والصَّبْرُ معه الظَّفَرُ، فكذلك الشّيطانُ لا يَقدِرُ الإنسانُ أَنْ يَهرُبَ منه، فإنه معه، ولا يَزَالُ يَتْبَعُه إلّا أَنْ يَقِفَ له ويَهْزِمَه، فهَزِيمَةُ الشيطانِ بِعَزِيمَةِ الإنسانِ، فالطّرِيقُ الثَّباتُ على الجَادَّةِ والاتِّكَالُ على العِبادَةِ».اهـ

وكان الفُضَيْل بنُ عِياض يقول: «ما قَطَعَ ظَهْرَ إبليسَ شيءٌ مِثلُ مَن أَحْسَنَ عَمَلَه. قال تعالى: ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ (الملك:٢) ولم يَقُلْ أَكْثَرُ عَمَلاً». (تنبيه المغترين، ص:١٥٣)

الذِّكْرُ عُمُوماً حِرْزٌ عظيمٌ مِن أَذَى الشيطانِ، لقوله صلى الله عليه وسلم: «..وآمُرُكم أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فإنّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ في أَثَرِهِ سِرَاعاً حتّى إذا أَتَى على حِصْنٍ حَصِينٍ، فأَحْرَزَ نَفْسَه منهم، كذلك العَبْدُ لا يُحرِزُ نفسَه مِن الشّيطانِ إلّا بِذِكْرِ اللهِ». رواه الترمذي: ٢٢٦.

وروى البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٠) وأبو يعلى في «مسنده» (٤٣٠١) عن أنس مرفوعاً: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ ـ أي فَمَهُ ـ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ». قال المُنَاوِي رحمه الله في «فيض القدير» (الرقم: ٢٠٣١): «فبُعْدُ الشّيطانِ مِن الإنسانِ على قَدْرِ مُلازَمَتِهِ لِلذِّكْرِ..»

وقِرَاءَةُ القُرْآنِ تَحفَظُ الإنسانَ وتَقِيهِ أيضاً، وقد جاء في السُّنَّة المُطهَّرَةِ اختصاص بعضِ الآياتِ بموضوعِ الوقايةِ مِن شُرُورِ الجَان والشَّياطِين، منها قراءةُ آية الكرسي، فَإِنّ مَن قَرَأَها عندما أَتَى إلى فِرَاشِه لَنْ يَزَالَ عليه مِن اللهِ حافِظٌ، ولا يَقرَبُه شيطانٌ حتّى تُصبِحَ. (انظر: البخاري:٢٣١١) وفي حديث آخر قال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، وَإِنَّ البَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، لا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ». (رواه الإمام أحمد: ٨٩١٥، والترمذي: ٢٨٧٧)، وفي رواية قال: «..فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ». (مسند الإمام أحمد: ٧٨٢١)

وفي البخاري (١٤١) و(٥١٦٥) ومسلم (١٤٣٤): «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ [أي: جامَع امْرَأَتَه أو جَارِيَتَه] قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شيطانٌ أَبَداً»،

وقد كان محمّد بنُ وَاسِع رحمه الله تعالى يقول كلَّ يومٍ بعد الصُّبْحِ: « **اللّهُمّ إنّك سَلَّطْتَ علينا عَدُوّاً لَنَا بَصِيراً بِعُيُوبِنَا؛ مُطَّلِعاً على عَوْرَاتِنَا يَرَانَا هو وقَبِيلُه مِن حيث لا نَرَاهُ، اللهم فَآيِسْهُ مِنّا كما آيَسْتَه مِن رَحْمَتِك، وقَنِّطْهُ مِنّا كما قَنَّطْتَه مِن عَفْوِكَ، وبَاعِدْ بَيْنَنَا وبَيْنَه كما بَاعَدْتَ بَيْنَه وبين مَغفِرَتِك وجَنَّتِك إنّك على كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ** »، قال: فتَمَثَّلَ له إبليسُ يَوْماً، وقال له: يا محمّدُ، لا تُعَلِّمْ هذا الدُّعاءَ لِأَحدٍ، وأَنَا لا أَعُودُ أَتَعَرَّضُ لَكَ بِسُوءٍ أَبَداً، فقال له محمّدٌ:=

وبعدَ أَنْ نَقَلَ الشِّهَابُ الخفاجي رحمه الله كلامَ الرَّاغِب (يعني: الجهاد والمجاهدة: استفراغُ الوُسْع فِي مُدَافَعَةِ العَدُوِّ. والجهادُ ثلاثةُ أَضْرُبٍ: مجاهدةُ العدوّ الظّاهِرِ، ومجاهدةُ الشيطانِ، ومجاهدةُ النّفسِ[١]، وتَدخُلُ ثلاثَتُها في قوله تعالى: ﴿وجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ قال: فمَن قَصَرَه على بعضِها فقد قَصَّرَ.[٢]

قال الشّيخ إسماعيل حقي البُرُوسوي رحمه الله بعد أَنْ فَسَّرَ قولَه تعالى: ﴿ وجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾.. جهادُ النّفسِ أَشَدُّ مِن جهادِ الأعداءِ والشَّياطِين، وهو حَمْلُها على اتّباعِ الأَوَامِرِ والاجتنابِ عن النَّوَاهِي.[٣]

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه «جامع العلوم والحكم» عند قولِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: (واعْلَمْ أنَّ النَّصرَ مع الصَّبْرِ) : «وهذا في جهادِ العدوّ الظّاهِرِ، وهو جهادُ الكفّارِ، وكذلك جهادُ العدوِّ الباطِنِ، وهو جهادُ النَّفسِ والهَوَى، فإنَّ جِهادَهُما مِن أعظمِ الجِهادِ، كما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: (المُجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نفسَه في اللهِ).

=وَاللهِ، لا أَمْنَعُه مِن أَحَدٍ واصْنَعْ أنت ما شِئْتَ. (تنبيه المغترين، ص:١٥٢ للشّيخ عبد الوهّاب الشعراني رحمه الله)

قال الشّيخ أبو طالب المَكّيُّ رحمه الله في قُوتُ القُلُوبِ: «وروينا عن أَبِي زُرْعَةَ قال: كَتَبَ إِلَيَّ أبو هريرة فيما أُكَاتِبُه، وشَافَهَنِي به فيما أَلْقَاهُ، أَنّ الشّيطان لا يَطِيفُ بإنسانٍ يقول حين يُصْبِحُ وحين يُمْسِي: «اللهم إنّي أَعُوذُ بِاسْمِكَ وكَلِمَتِك التّامَّةِ مِن شَرِّ السّامّةِ والهامّةِ، وأعوذ باسمِك وكَلِمَتِك التّامَّةِ مِن شَرِّ عَذَابِك وشَرِّ عِبادِك، وأعوذ باسمِك وكلمتِك التّامَّةِ مِن شَرِّ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ. اللهم إنّي أَسْأَلُك بِأَسْمائِك وكلمتِك التّامَّةِ أَنْ تُصَلِّيَ على نَبِيِّك مُحمَّدٍ وآلِه، وأَسْأَلُك مِن خَيْرِ ما تُعْطِي وما تُسْأَلُ، ومِن خيرِ ما تُخْفِي وخيرِ ما تُبْدِي، اللهم إنّي أعوذ باسمِك وكلمتِك التّامَّةِ مِن شَرِّ ما يَجْرِي به النَّهارُ، إنّ رَبِّيَ اللهُ الَّذِي لا إلهَ إلّا هو، عليه تَوَكَّلْتُ وهو رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ» وإن كان مَسَاءً قال: «ومِن شَرِّ ما جاءَ به اللَّيْلُ»، يقول ذلك ثلاثاً. (ج:١ ص:٢٢)

وذكر عليّ بن حسام الدِّين المُتَّقِي الهندي رحمه الله في كنز العمال (٣٨٦٢) أنّ: ما مِن رَجُلٍ يَدْعُو بهذا الدُّعَاءِ في أَوَّلِ لَيْلِه وأَوَّلِ نَهارِه إلّا عَصَمَه اللهُ مِن إبليسَ وجُنُودِه: «بسم اللهِ ذِي الشَّأْنِ عَظِيمِ البُرْهَانِ شَدِيدِ السُّلْطَانِ ما شَاءَ اللهُ كان أَعُوذُ بِاللهِ مِن الشّيطان». (وانظر: جامع الأحاديث لِجلال الدين السّيوطي رحمه الله، الرقم: ٢٠٤٨٣)

(١) صرّح الآلوسي وابنُ عجيبة وكثيرٌ مِن العلماء رحمهم الله: بِأنّ مُجاهدةَ النفسِ والهَوَى الجِهادُ الأكبر.

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٦: ٥٥٠.

قال القرطبي في تفسير الآية: ﴿وجَاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ قيل: عَنَى به جِهادَ الكفّارِ. وقيل: هو إشارةٌ إلى امْتِثالِ جميعِ ما أَمَرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كُلِّ مَا نَهَى اللهُ عنه، أي جاهدوا أنفسكم في طاعةِ اللهِ ورُدّوها عن الهوى، وجاهدوا الشّيطان في رَدِّ وَسْوَسَتِه، والظَّلَمَةَ في رَدِّ ظُلْمِهِم، والكَافِرِين في رَدِّ كُفْرِهِم. (تفسير القرطبي)

(٣) تفسير روح البيان: ٦: ٨٤.

وقال عبد الله بنُ عمر لِمَنْ سَأَلَه عن الجهادِ: ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فجَاهِدْهَا، وابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَاغْزُها.

وقال بقيّةُ بنُ الوليد : أَخْبَرَنَا إبراهيمُ بن أَدْهَم ، قال: حَدَّثَنَا الثِّقَةُ، عن عليّ بن أبي طالب قال: أَوَّلَ ما تُنْكِرُونَ مِن جِهادِكم جِهادَكم أَنْفُسَكم.

وقال إبراهيم بن أبي عبلة لِقَوْمٍ جَاؤُوا مِن الغَزْوِ: قد جِئْتُم مِن الجهادِ الأصغرِ، فما فَعَلْتُم في الجهادِ الأكبرِ؟ قالوا: وما الجهادُ الأكبرُ؟ قال: جِهادُ القَلْبِ. ويُرْوَى هذا مَرفوعاً مِن حديث جابر بإسنادٍ ضعيفٍ، ولَفْظُه: (قَدِمْتُم مِن الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ) قالوا: وما الجهادُ الأكبرُ؟ قال: (مُجَاهَدَةُ العَبْدِ لِهَوَاهُ).

ويُرْوَى مِن حديث سعد بن سنان، عن أنس، عن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم، قال: (ليس عَدُوُّك الّذِي إذا قَتَلَكَ أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ، وإذا قَتَلْتَه كان لك نُوراً، أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُك الّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ).

وقال أبو بكر الصِّدِّيق في وَصِيَّتِه لِعُمَرَ رضي الله عنهما حِين اسْتَخْلَفَه: إنَّ أَوَّلَ ما أُحَذِّرُكَ نَفْسُك الّتي بين جنبيك.

فهذا الجهادُ يَحْتَاجُ أيضاً إلى صَبْرٍ، فَمَنْ صَبَرَ على مُجاهَدَةِ نَفْسِه وهَوَاهُ وشيطانِه غَلَبَه، وحَصَلَ له النَّصْرُ والظَّفَرُ، ومَلَكَ نَفْسَه، فصَارَ عَزِيزاً مَلِكاً، ومَن جَزِعَ ولم يَصبِر على مُجاهَدَةِ ذلك، غُلِبَ وقُهِرَ وأُسِرَ، وصارَ عَبْداً ذَلِيلاً أَسِيراً في يَدِي شَيْطانِه وهَوَاهُ، كما قيل:

إذا المَرْءُ لم يَغْلِبْ هَوَاهُ أَقَامَه ... بِمَنْزِلَةٍ فيها العَزِيزُ ذَلِيل».[1]

قال العلّامة ابن عابدين رحمه الله في حاشيته على الدُّرّ المُختار: «فَضْلُ الجهادِ عظيمٌ، كيف؟! وحاصِلُه بَذْلُ أَعَزِّ المَحْبُوباتِ وهو النَّفْسُ، وإِدْخَالُ أَعْظَمِ المَشَقَّاتِ عليه تَقَرُّباً بذلك إلى اللهِ تعالى، وأَشَقُّ منه قَصْرُ النّفسِ على الطَّاعاتِ على الدَّوَامِ، ومُجَانَبَةُ هَوَاها».[2]

(١) جامع العلوم والحكم ١ : ٤٨٩ - ٤٩٠

(٢) انظر: «حاشية ابن عابدين» في بداية (كتاب الجهاد)، ونَحْوُه في «فتح القدير» ج:٤ ص:٢٧٧.

قال الشّيخ السّيّد أحمد الرّفاعيّ رحمه الله: «..الشَّهيدُ ليس بِمَيّتٍ، والشَّهادَةُ بِجهادِ النفسِ إلى أَنْ يُمِيتَها عن حُظُوظِها أكبرُ رُتْبَةً عند اللهِ سُبحانه وتعالى مِن الشَّهادةِ المُورِثَةِ لِقِتالِ الكفّارِ، وحَطْمِ السُّيوفِ..»[1]

وقال الشّيخ السّيّد عبد القادر الجيلاني رحمه الله : «قد أَخْبَرَكَ اللهُ عزّ وجلّ بِجِهَادَيْنِ: ظاهر وباطن:

فالباطِنُ: جِهادُ النّفسِ والهَوَى والطَّبْعِ والشّيطانِ والتّوبةِ عن المَعاصِي والزّلّاتِ والثَّباتِ عليها وتَرْكِ الشَّهَوَاتِ المُحَرَّماتِ.

والظاهر: جِهادُ الكفّارِ المُعَانِدِين له ولِرَسُولِه صلى الله عليه وسلم ومُقَاسَاةُ سُيُوفِهم ورِمَاحِهم وسِهَامِهم يَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ.

فالجِهادُ الباطِنِ أَصْعَبُ مِن الجهاد الظّاهر، لأنّه شيءٌ مُلازِمٌ مُتَكَرِّرٌ[2]، وكيف لا يكون أَصْعَبَ مِن الجهادِ الظّاهِرِ وهو قَطْعُ مَأْلُوفَاتِ النَّفْسِ مِن المُحَرَّماتِ وهِجْرَانِها، وامْتِثالِ أَوَامِرِ الشَّرْعِ والانتهاءِ عن نَهْيِه، فمَنْ امْتَثَلَ أَمْرَ اللهِ عزّ وجلّ في الجِهَادَيْنِ حَصَلَتْ له المُجَازَاةُ دُنْيا وآخِرَةً..»[3]

قال الإمام المُناوي رحمه الله: (قَدِمْتُم خيرَ مَقْدَمٍ، وقدمتم مِن الجهاد الأصغر) وهو جهادُ العدوِّ المُبَايِنِ[4] (إلى الجهادِ الأكبر) وهو جهادُ العدوِّ المُخَالِطِ[5]، (قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه) فهي أعظمُ الجهادِ وأكبرُه، لأنّ قِتالَ الكفّارِ فَرْضُ كفايةٍ، وجهادُ النّفسِ فَرْضُ عَيْنٍ على كُلِّ مُكَلَّفٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ ﴿ **إنّ الشَّيطَانَ لكم عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً** ﴾

---

(١) البرهان المؤيد، ص:١١٣.

(٢) قال شيخنا محمود أفندي (حفظه الله) : جهادُ النّفسِ يَسْتَمِرُّ إلى المَوْتِ، لِذا كان جِهاداً أكبر.

(٣) المَجلِس الثامِن عشر مِن الفتح الرباني.

(٤) أي الكُفّارِ والمُنافِقِين.

(٥) أي النَّفْسِ والشيّطانِ.

(سورة فاطر:٦) ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ** ﴾ (سورة النساء:٨٤) فإنّ البَدَنَ كالمَدِينةِ، والعَقْلَ ـأَعْنِي المُدْرِكَ مِن الإنسانـ كَمَلِكٍ مُدَبِّرٍ لها، وقُوَاهُ المُدْرِكَةَ مِن الحَوَاسِّ الظاهِرَةِ والباطنةِ كَجُنُودِهِ وأَعْوَانِه، وأعضاءَه كَرَعِيَّتِه، والنَّفْسَ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ الّتي هي الشَّهْوَةُ والغَضَبُ كَعَدُوٍّ يُنَازِعُه في مَمْلَكَتِه ويَسْعَى في إهلاكِ رَعِيَّتِه، فصار بَدَنُه كَرِبَاطٍ وثَغْرٍ، ونفسُه كَمُقِيمٍ فيه مُرَابِطٍ، فَإِنْ جَاهَدَ عَدُوَّهُ فهَزَمَه وقَهَرَه على ما يُحِبّ حُمِدَ أَثَرُهُ إذا عَادَ إلى الحَضْرَةِ: ﴿ **فَضَّلَ اللهُ المُجاهِدِين بِأَمْوَالِهم وأَنْفُسِهم على القاعِدِين دَرَجَة** ﴾ (سورة النساء:٩٥) وإِنْ ضَيَّعَ ثَغْرَه وأَهْمَلَ رَعِيَّتَه ذُمَّ أَثَرُه وانْتُقِمَ منه عند لِقاءِ اللهِ فيُقال له يومَ القيامةِ: يا رَاعِيَ السُّوءِ أَكَلْتَ اللَّحْمَ وشَرِبْتَ اللَّبَنَ، ولم تَرُدَّ الضَّالَّةَ، اليومَ أَنْتَقِمُ مِنك، وإلى هذه المُجاهَدَةِ الكُبْرَى أَشَارَ بالحديث[1].

قال ابنُ أدهم: أَشَدُّ الجهادِ جِهادُ الهَوَى، فمَن مَنَعَ النَّفْسَ هَوَاها فقد اسْتَرَاحَ مِن الدّنيا وبَلائِها.

وقال الحَرالي: مَن لم يَحْتَرِقْ بِنَارِ المُجاهدةِ أَحْرَقَتْه نارُ الخَوْفِ، ومَن لم يَحترِق بِنارِ الخَوْفِ أَحْرَقَتْه نارُ السَّطْوَةِ، فعلى العاقِلِ أَنْ يُجاهِدَ نفسَه سَاعَةً فسَاعَةً ويُخَاطِبَها خِطابَ النَّصُوحِ الآمِرِ بِنَحْوِ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ: أنت على جَنَاحِ سَفَرٍ، ودَارُكَ هذه غُرُورٌ وكَدَرٌ، والمُسافِرُ إن لم يَتَزَوَّدْ رَكِبَ مَتْنَ الخَطَرِ، وخيرُ الزَّادِ التّقوى كما أُنْزِلَ على سيّدِ البَشَرِ، فجُدِّي السَّيْرَ وشُدِّي المِئْزَرَ بِتَجْرِيدِ عَزْمِ التّوبةِ والتَّلَبُّسِ بِلِبَاسِ الحَوْبَةِ ومُلازَمَةِ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ[2] ومُفَرِّقِ الجَمَاعَاتِ فلا تَتْرُكِي عَمَلَ اليومِ لِغَدٍ، **فالوَقْتُ كَالسَّيْفِ إذا لم تَقْطَعْهُ قَطَعَكَ.**[3]

وقال المُناوي أيضاً: (أفضلُ الجهادِ أَنْ يُجاهِدَ الرَّجُلُ) ذِكْرُ الرَّجُلِ وَصْفٌ طَرْدِيٌّ (نفسَه في ذاتِ اللهِ (وهَوَاهُ) بِأَنْ يَكُفَّهما عن الشَّهَوَاتِ، ويَمْنَعَهما عن الاسْتِرْسالِ في اللَّذَّاتِ،

(١) هذا المِثال مِن كلام الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء ج:٧ ص:٢١٨.

(٢) هاذم اللّذّاتِ: بمعنى قاطِعِها، أو الهادِم: مِن هَدَمَ البِنَاء، والمُرَادُ المَوْتُ، وهو هاذِمُ اللَّذَّاتِ، إمّا لأنّ مَن يَذكُرُه يزهد فيها، أو لأنّه إذا جاء ما يُبْقِي مِن لَذَائِذِ الدّنيا شيئاً، والله تعالى أعلم..

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصّغير، رقم الحديث: ٦١٠٧.

ويُلْزِمَهما فِعْلَ الأَوَامِرِ وتَجَنُّبَ المَناهِي، فإنّه الجهادُ الأكبرُ، والهَوَى أكبرُ أَعْدَائِك، وهو ونَفْسُك أَقْرَبُ الأعداءِ إليك لِمَا أنّ ذلك بين جنبيك والله يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ** ﴾[1] ولا أَكْفَرَ عِنْدَكَ مِن نَفْسِك، فإنّها في كلِّ نَفَسٍ تَكْفُرُ نعمةَ الله عليها، وإذا جاهَدْتَ نَفْسَك هذا الجِهادَ خَلَصَ لك جهادُ الأعداءِ الذي إن قُتِلْتَ فيه كُنْتَ شَهِيداً مِن الأَحْيَاءِ الّذين عند رَبِّهم يُرْزَقُونَ، ولَعَمْرِي إنّ جِهادَ النَّفْسِ لَشَدِيدٌ بل لا شيءَ أَشَدُّ منه، فإنّها مَحبوبةٌ وما تَدْعُو إليه محبوبٌ، فكيف إذا دُعِيْتَ إلى محبوبٍ فإذا عَكَسَ الحالُ وخُولِفَ المَحْبُوبُ اشْتَدَّ الجِهادُ، بخلاف جهادِ أعداءِ الدِّين والدّنيا، ولِهذا قال الغزالي: وأشدُّ أنواعِ الجهادِ الصَّبْرُ على مُفارَقَةِ ما هَوَاهُ الإنسانُ وأَلِفَه، إذ العَادَةُ طَبِيعَةٌ خامِسَةٌ، فإذا انْضَافَتْ إلى الشَّهْوَةِ تَظَاهَرَ جُنْدَانِ مِن جُنُودِ الشّيطانِ على جُنْدِ الله ولا يَقْوَى بَاعِثُ الدِّين على قَمْعِهما. فلذا كان أفضلَ الجهادِ.

وقال أبو يزيد: ما زِلْتُ أَسُوقُ نَفْسِي إلى الله وهي تَبكِي حتى سُقْتُها إليه وهي تَضحَكُ.

تنبيه: قال الشّيخ محي الدّين بن عربي رحمه الله: وأمّا أمراضُ النّفسِ فثلاثةٌ: مرضٌ في الأقوال كالتزامِ قولِ الحقِ، فإنّ الغِيْبَةَ حَقٌّ وقد نُهِيَ عنها، والنَّصِيحَةَ في المَلَأِ حَقٌّ، وهي نَصِيحةٌ مَذمُومَةٌ، وكالمَنِّ والتَّحدُّثِ بما لا يَعني ونحوِ ذلك، ومرضٌ في الأفعال: كالرِّياءِ والعُجْبِ، ومرضٌ في الأحوال: كصُحْبَةِ الأولياءِ لِيَشِيعَ أنّه منهم وهو في نَفْسِه مع شَهْوَتِه، فمَن عَرَفَ هذه العِلَلَ وأَدْوَاءَها وخَلَّصَ نَفْسَه منها فقد نَفَعَها، وذلك أفضلُ الجهادِ مُطلَقاً، فإنّه فرضُ عَيْنٍ مطلقاً.[2]

قال الشّيخ إسماعيل حَقِّي البُرُوسَوِي رحمه الله في تفسير الآية ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[3]: «ثم اعْلَمْ: أنّ الفِئَةَ الباغِيَةَ ظاهِرَةٌ

---

(١) سورة التوبة: ١٢٣.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، رقم الحديث: ١٢٤٧.

(٣) سورة الأنفال: ٤٥.

كالطَّائِفَةِ الكافِرَةِ والجَماعةِ الفاجِرَةِ، وباطِنةٌ كطَائِفَةِ القُوَى النَّفْسَانِيَّةِ وجَماعةِ النّفسِ الأَمّارَةِ، فكَمَا أَنّ المُؤمِنَ مَأمُورٌ بِالثَّبَاتِ عند ظُهُورِ الفِئَةِ الباغِيَةِ الظّاهِرَةِ، فكذلك مأمورٌ بالثّبات عند ظهورِ الفئةِ الباغيةِ الباطنةِ بالمُجَاهَدَاتِ، والجِهادُ مع الكفّارِ جهادٌ أصغرُ، والجهادُ مع النّفسِ جهادٌ أكبرُ، والأكبرُ أفضلُ مِن الأصغرِ، ولذلك يكون القَتِيلُ في الأكبرِ صِدّيقاً، وفي الأصغرِ شهيداً، فالصِّدّيقُ فوقَ الشَّهِيدِ، كما قال تعالى: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ** ﴾[1]..».

قال الخَطِيبُ ابنُ نُبَاتَه الأندلسي رحمه الله: «واعْلَمُوا أنه لا يَصلُحُ الجِهادُ بِغير اجتهادٍ، كما لا يَصلُحُ السَّفَرُ بِغير زَادٍ، فقَدِّمُوا مُجاهَدَةَ القُلُوبِ قَبْلَ مُجاهَدَةِ الحُرُوبِ، ومُغَالَبَةَ الأَهْوَاءِ قَبْلَ مُحارَبَةِ الأعداءِ، وبَادِرُوا بإصلاحِ السَّرَائِرِ، فإنّها مِن أَنْفَسِ العُدَدِ والذَّخَائِرِ»[2].

قال العارف بالله عبد الغنيّ النّابلسي رحمه الله: «وَاعْلَمْ يا أخي أنّ الجِهادَ على قِسْمَيْنِ: جهادٌ أصغرُ، وجهادٌ أكبرُ. أمّا الجهادُ الأصغرُ: فهو جهادُ الإنسانِ أَعْدَاءَهُ مِن الكافِرِين، وقِتَالُهم فرضُ عَيْنٍ إِنْ هَجَمُوا على حِصْنٍ مِن حُصُونِ المُسلمين. وأمّا معرفةُ الجهادِ الأكبرِ: فهو مِن أَهَمِّ الأُمُورِ على المُكلَّفِ وذلك فرضُ عَيْنٍ عليه. فالمؤمنُ في جهادٍ دائمٍ مع نَفْسِه لِتَوَقِّي مَفاسِدِها، إلى أَنْ يَمُوتَ، بِخلافِ الجهادِ مع الكُفّار، لأنّ بَقاءَ الكافِرِين في الدّنيا على كُفْرِهم لا يَضُرُّ أَهْلَ الإسلامِ في دِينِهم».[3]

فنَسْتَنْتِجُ مِن هذا كُلِّه: أنّ الحديثَ المذكورَ[4] لا يُفِيدُ أَبَداً الانْصِرَافَ عن الجهادِ في سبيلِ الله تعالى والاسْتِعْدَادِ له..، وإنّما يكون معناه وُجُوبَ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ حتى تُخلِصَ لله في كلِّ عَمَلِها فَلْيُعْلَمْ!!.

(١) سورة النّساء: ٦٩.

(٢) دِيوَانُ خطب منبريّة للشّيخ عبد الرّحيم بن محمّد الشّهير بابن نباته ص:١٧٩ وما بعدها شرح الشّيخ طاهر الجزائري. وقد ذكر صاحب شذرات الذّهب: أنّ ابنَ نُباته رَأَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم في المَنامِ، وتَفَلَ فِي فِيهِ، فلم تَزَلْ رَائِحَةُ المِسْكِ تُوجَدُ فيه إلى أَنْ مَاتَ.

(٣) بيان الجهاد لأهل الوداد خ- الورقة ٢١ ب.

(٤) نَعني: (رَجَعْنَا مِن الجِهَادِ الأَصْغَرِ إلى الجِهَادِ الأَكْبَرِ..)

الجهاد والبُطولة عند الصوفية الكِرام

يَعتقد الكثيرُ مِن النّاسِ خَطأً أَنّ التَّصوُّفَ يَحُثُّ على الخُمُولِ والتَّكاسُلِ والابْتِعَادِ عن جهادِ الكفّارِ وخَوْضِ المَعارِكِ البُطولِيَّةِ، وهذا بالطَّبْعِ مِمّا يَدُسّه الأَعْدَاءُ لِتَشْويهِ الوَجْهِ المُشْرِقِ للتّصوّفِ، ومَن يَدَّعِي أَنّ الصُّوفِيَّةَ قد تَقَاعَسُوا عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ فهو أَعْمَى أو مُتَعامٍ عن رُؤْيَةِ الحَقِّ، وإليكَ أَخِي القارئ نَماذِجَ مِن المُجاهِدِين الصّوفيّةِ الّذِين جاهَدُوا في مُخْتَلَفِ العُصُورِ:

«أُوَيْس الْقَرَنِيّ» خيرُ التَّابِعِين بِشَهادَةِ سيّدِ المُرْسَلِين، الذي ذَكَرَه صلى الله عليه وسلم وأَوْصَى أَصْحَابَه بِطَلَبِ الدُّعاءِ والاستغفارِ منه.. وعَدَّ أبو بكر محمد الكلاباذيُّ أُوَيساً مِن أَوَائِلِ رِجَالِ الصّوفيّةِ، مِمَّنْ نَطَقَ بِعُلُومِهم، ونَشَرَ مَقَامَاتِهم، ووَصَفَ أَحْوَالَهم قَوْلاً وفِعْلاً.[1]

واتَّفَقَ أصحابُ التَّوَارِيخِ على أنّه ماتَ في إحدى المَعارِكِ، واخْتَلَفُوا في المَكانِ والمُنَاسَبَةِ. قال ابنُ عَسَاكِرَ: «خَرَجَ أويس رَاجِلاً إلى ثَغْرِ أَرْمِينْيا، فَأَصابَه البَطَنُ[2] فَالْتَجَأَ إلى أَهْلِ خَيْمَةٍ، فتُوُفِّيَ هُنَاكَ.[3]

وعن عبدِ اللهِ بنِ سَلَمَةَ، قال: غَزَوْنَا أذربيجان زَمَنَ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رضي الله عنه ومَعَنَا أُوَيْس القَرَني، فلمّا رَجَعْنَا مَرِضَ علينا ـ يَعني أويس ـ، فحَمَلْنَاهُ، فلم يَسْتَمْسِكْ، فماتَ، فنَزَلْنَا فإذا قَبْرٌ مَحْفُورٌ، وماءٌ مَسْكُوبٌ، وكَفَنٌ وحَنُوطٌ، فغَسَّلْنَاهُ، وكَفَّنَّاهُ، وصَلَّيْنَا عليه، ودَفَنَّاهُ، فقال بعضُنا لِبعضٍ: لو رَجَعْنَا وعَلَّمْنَا قَبْرَه، فرَجَعْنَا، فإذا لا قَبْرَ ولا أَثَرَ.[4]

وفي روايةٍ أنه قُتِلَ يومَ صِفِّين، أو يومَ نهاوند، والله أعلم.

---

(١) التّعرّف لِمَذهب أهل التّصوّف ص:٢٢.

(٢) البَطَنُ: داءٌ في البطْنِ.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق ج:٣ ص:١٧٧، الزهد للإمام أحمد ص:٤١٦.

(٤) صفة الصّفوة ج:٣ ص:٥٦، وحلية الأولياء ج:٢ ص:١٤٦، وطبقات الخواصّ للزبيدي ص:٤١، والزُّهْد للإمام أحمد بن حنبل، وتاريخ دمشق لابن عساكر.

«أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلانِيُّ» صاحِبُ المَنَاقِبِ الغَزِيرَةِ، والكَرَاماتِ الظّاهرةِ، كان يُقال له حكيمُ هذه الأُمَّةِ، وهو الذي طَرَحَه الأَسْوَدُ العَنْسِيُّ -المُتَنَبِّىءُ بِالْيَمَنِ- في النَّارِ، فلم تَضُرَّه. وهو الذي قَبَّلَه عُمَرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه وبَكَى، وقال: الحمدُ لله الذي لم يُمِتْنِي، حتّى أَرَانِي في أُمَّةِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم مَن فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم عليه السّلام. وفي الكَوَاكِبِ الدُّرِّيَّةِ في تَرَاجِمِ السّادةِ الصّوفيّةِ: أنّه غَزَا الرُّومَ مع أصحابِه، فكان يَعْتَرِضُهم النَّهْرُ العظيمُ، فيقول: «باسم الله»، ويَمُرُّ على وَجْهِ الماءِ، ويَمُرُّونَ خَلْفَه.[1] وقال ابنُ كثير وغيرُه: «وكان مُلازِماً للجهاد، وفي كلِّ سَنَةٍ يُغَازِي بِلادَ الرُّومِ، وله مُكاشَفاتٌ، وأحوالٌ، وكراماتٌ كثيرةٌ جِدًّا».[2]

مات أبو مسلم بِدَارَيَّا[3]. قال الإمام النّووي رحمه الله: «وبِدَارَيَّا قَبْرَانِ مَشْهُورَانِ، يُقْصَدَانِ لِلزِّيارَةِ، لِسَيِّدَيْنِ جَلِيلَيْنِ: أبي مسلم الخولاني وأبي سليمان الدَّارَاني رضي الله عنهما».[4]

«الحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيّ» لا نَجِدُ كِتاباً مِن كُتُبِ تَرَاجِمِ الصّوفيّةِ إلّا وهو الصّدْرُ المُبَرَّزُ فِيهم، وهم يَعُدُّونَه في هَرَمِ سِلْسِلَةِ شُيُوخِهم، ونَاشِرِ عُلُومِهم. قال أبو طالب المكي رحمه الله: «كان الحَسَنُ رضي الله عنه أَوَّلَ مَن أَنْهَجَ سَبِيلَ هذا العلمِ، وفَتَقَ الأَلْسِنَةَ به، ونَطَقَ بمعانيه، وأَظْهَرَ أَنْوَارَه، وكَشَفَ قِنَاعَه..»[5]. وأيضاً، يَعُدُّ الدَّارِسُونَ المُحَدِّثُونَ الحَسَنَ واضِعَ قَوَاعِدِ ومُرْتَكَزَاتِ حركةِ الزُّهْدِ والتّصوّفِ في الإسلام، وممّن جَمَعُوا بين عِلمَي الظّاهِرِ والباطِنِ.

---

(١) الكَوَاكِب الدُّرِّيَّة: ج:١ ص:٨٥، وطبقات الأولياء للسّخاوي خ (٨٧ أ)، طبقات الخواصّ: ١٩٢

(٢) البداية والنهاية ج:٨ ص:١٤٦، شمائل الرسول ص:٥١٧.

(٣) داريّا بلدةٌ في رِيفِ دمشق.

(٤) تهذيب الأسماء واللّغات للنووي ج:٣ ص:١٥٠.

(٥) قوت القلوب ج:١ ص:١٥٠.

قالَ ابنِ سعد رحمه الله في الطَّبَقات الكُبْرَى[1]: «إنّ رَجُلًا سَأَلَ الحَسَنَ: يا أبا سَعِيدٍ، هل غَزَوْتَ؟ قال: غَزَوْتُ كَابُلَ، مع عبد الرَّحمن بنِ سَمُرَةَ». ويَعضُدُ هذا الكلامَ الحُفَّاظُ: لازَمَ الحَسَنُ الجِهادَ، ولازَمَ العِلمَ والعَمَلَ، وكان أحدَ الشُّجْعَانِ المَوْصُوفِين في الحَرْبِ.[2] وهو القائِلُ: «ما عُمِلَ عَمَلٌ بعد الجهادِ في سبيلِ اللهِ، أفضلُ مِن ناشِئَةِ اللَّيْلِ».[3] قال قَتَادَةُ وغيرُه: «عليكم بهذا الشّيخِ، فوَاللهِ ما رَأَيْنَا أَشْبَهَ بأصحابِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم منه». وقال يُونس: «كان الرَّجُلُ إذا نَظَرَ إلى الحَسَنِ انْتَفَعَ به، وإن لم يَرَ عَمَلَه، ولم يَسْمَعْ كلامَه».

«مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ» فهو يُعَدُّ مِن كِبارِ أهلِ الطّريقةِ، ومِمّن نَطَقَ بِعلومِ الصّوفيّةِ[4]. يَرْوِي صاحِبُ كُنُوز الأولياءِ عنه: أنّه (كان في طَلَبِ الغَزْوِ سِنِينَ، فَلَحِقَ بِعَسْكَرِ الإسلامِ للغزوِ، فلمّا شَرَعُوا أَخَذَتْه الحُمَّى، حتّى غَدَا لا يَقدِرُ القُعُودَ على الفَرَسِ، فضلاً عن أَنْ يُقاتِلَ، فحَمَلُوهُ إلى الخَيْمَةِ، وجَعَلَ يَبْكِي، ويَلُومُ نَفْسَه، ويقول: لو أَنّ في بَدَنِي خيراً لَمَا ابْتُلِيَ اليومَ بِالحُمَّى[5]..) وللقِصَّةِ بقيّةٌ تَرَكْنَاها مَخَافَةَ التَّطْوِيلِ.

«إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ» الذي يُعَدّ إمامَ المُتَصوِّفِين.. كان أَبُوه مَلِكاً، لكنّ الابْنَ تَزَهَّدَ اختياراً، وساحَ في البِلاد، وجَعَلَ الثُّغُورَ الإسلاميّةَ له مَقاماً. يَذكُرُه ابنُ عَساكِر أَنّه كان فارِساً شُجَاعاً، ومُقاتِلاً بَاسِلاً،[6] رَابَطَ في الثُّغُورِ، وخَاضَ المَعَارِكَ ضِدَّ البِيزَنْطِيّينَ، العَدُوِّ الرَّئِيسِيّ لِلدَّوْلَةِ الإسلاميّةِ النَّاشِئَةِ.

---

(١) ج:٣ ص:٣٧. وانظر: التعرّف لِمذهب أهل التّصوّف ص:١٤، الحِلية ج:٦ ص:١٩٦.

(٢) تَذكرة الحُفّاظ للذهبي ج:١ ص:٧١، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ج:١ ص:٤٨٣.

(٣) الزهد للإمام أحمد ص:٣٤٨.

(٤) كشف المحجوب ص:١١٢، التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف ص:٢٢.

(٥) خ: الورقة: ٦٠ أ.

(٦) انظر: تهذيب تاريخ دمشق ج:٢ ص:١٧٩ وما بعدها، حلية الأولياء ج:٧ ص:٣٨٨ وما بعدها

وقد أَثْنَى على وَرَعِه وزُهْدِه الإمامُ أحمد بن حنبل، والأَوْزَاعِيُّ، وسُفيان الثّوري، والنَّسائي، وغيرُهم.

وذَكَرَ ابنُ كثير في «البِداية والنِّهاية»[1] أنّه تُوُفِّيَ في جزيرةٍ مِن جَزَائِرِ بَحْرِ الرُّومِ وهو مُرَابِطٌ.. فلمّا كانت غَشْيَةُ المَوْتِ قال: أَوْتِرُوا لي قَوْسِي، فَأَوْتَرُوهُ، فقَبَضَ عليه فمَاتَ وهو قابِضٌ عليه يُرِيدُ الرَّمْيَ به إلى العَدُوّ..

وقد صَحِبَ إبراهيمَ بن أدهم وأَخَذَ عنه الطَّرِيقَ:

«**إِبْرَاهِيْمُ بْنُ أَدْهَمَ**».. ذُكِرَ في سِيَرِ أَعلامِ النُّبَلاءِ لِلذَّهَبِيّ وفي تاريخ دمشق لِابْنِ عَساكِر وصِفَة الصَّفْوَة لابنِ الجَوْزِيّ: أَنّ حاتَم الأَصَمّ قال: «كُنَّا مع شَقِيقٍ (البلخي) ونحن مُصَافُّوا العَدُوِّ، في يومٍ لا أَرَى إِلّا رُؤُوساً تَنْدُرُ[2]، وسُيُوفاً تَقْطَعُ، ورِمَاحاً تَقْصِفُ.. فقال لي: كيف تَرَى نَفْسَكَ، هل هي مِثْلُ لَيْلَةِ عُرْسِكَ؟ قلتُ: لا واللهِ. قال: لكنِّي أَرَى نفسِي كذلك. ومات في غَزْوَةِ كُوملان [ما وراء النهر].

«**عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ**» كان مِن الرَّبّانِيّينَ في العِلمِ ومِن المَذكُورِين بِالزُّهْدِ.. وشُهْرَتُه تُغْنِي عن الإطالةِ في تَرْجَمَتِه، كان يَغْزُو سَنَةً، ويَحُجُّ سَنَةً، ويَتَّجِرُ سَنَةً، وما يَحصُلُ مِن تِجَارَتِهِ يُوَزِّعُه على الفُقَرَاءِ. قال عنه الخطيبُ البغدادي: «خَرَجَ مِن بغداد يُرِيدُ [ثَغْرَ] المَصِيصَة[3] فصَحِبَه الصوفيةُ..»[4]. وهو أَوَّلُ مَن صَنَّفَ في الجهادِ، وله كتابُ الزُّهْدِ والرَّقَائِقِ.. ويُرْوَى أَنّ ابنَ المُبارَكِ تَرَكَ مَرَّةً فَرَسَه لِصَاحِبِ أَحَدِ البَسَاتِينَ، لأنّه أَكَلَ شيئاً مِن زَرْعِه، وقال: إنّه أَكَلَ حَرَاماً فلا يَجِبُ أَنْ يُغْزَا عليه.

(١) ج: ١٠ ص: ١٤٥. وانظر: مُعجم البلدان لِياقوت الحموي، مادة: «سوقين».

(٢) أي: تَسْقُطُ.

(٣) المصيصة: قال يَاقوت رحمه الله: مَدِينَةٌ على شاطِىءِ جَيْحَان مِن ثُغُورِ الشَّامِ، رَابَطَ بها الصّالِحونَ قَدِيماً. ولمعرفة التّفاصيل عنها انظر: فُتُوح البلدان للبلاذري ص:١٧٠ وما بعدها.

(٤) تاريخ بغداد ج:١٠ ص:١٥٧.

«حَاتِمٌ الْأَصَمُّ» القُدْوَةُ الرَّبَّاني، كان يُقال له: لُقْمَانُ هذه الأُمَّةِ[1]. ومما حَدَّثَ به حاتم عن نَفْسِه، قال: «لَقِينَا التُّرْكَ وكان بَيْنَنَا جَوْلَةٌ، فرَمَانِي تُرْكِيٌّ بِوَهَقٍ[2] فقَلَبَنِي عن فَرَسِي، ونَزَلَ عن دَابَّتِه، فقَعَدَ على صَدْرِي، وأَخَذَ بِلِحْيَتِي هذه الوَافِرَةِ، وأَخْرَجَ مِن خُفِّهِ سِكِّيناً لِيَذْبَحَنِي، فَوَحَقِّ مَوْلاي ما كان قَلْبِي عنده و لا عند سِكِّينِه إنّما كان قَلْبِي عند مولاي أَنْظُرُ ماذا يَنزِلُ به القَضاءُ منه، فقلتُ: مولاي قَضَيْتَ عليَّ أَنْ يَذْبَحَنِي هذا فعلى الرَّأْسِ والعَيْنِ، وإنّما أَنَا لَكَ ومِلْكُكَ.. فبينما أَنَا أُخَاطِبُ مولاي وهو قاعِدٌ على صَدْرِي آخِذٌ بِلِحْيَتِي لِيَذْبَحَنِي إِذْ رَمَاهُ بعضُ المسلمين بِسَهْمٍ فما أَخْطَأَ حَلْقَه، فسَقَطَ عَنِّي، فَقُمْتُ أَنَا إليه فأَخَذْتُ السِّكِّينَ مِن يَدِهِ فذَبَحْتُه».. فما هو إلّا أن تكون قُلُوبُكم عند المَوْلى عزّ وجلّ حتّى تَرَوْا مِن عَجَائِبِ لُطْفِه ما لم تَرَوْا مِن الآبَاءِ والأُمَّهَاتِ.[3] وتُوُفِّيَ حاتم وهو مُرَابِطٌ على جَبَلٍ فوق وَاشْجِرْد.[4]

«أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيّ» المُلَقَّبُ بِـ سلطان العَارِفِين.. كان خِلالَ وُجُودِه في الثَّغْرِ يَحْرُسُ طِيلَةَ اللَّيْلِ، ويُرَابِطُ، ويَتَعَبَّدُ، ويَذكُرُ اللهَ، ويَذْرِفُ الدُّمُوعَ مِن خَشْيَتِه. ومِن أقوالِه: «لم أَزَلْ مُنذ أربعين سَنَةً، ما اسْتَنَدْتُ إلى حائِطٍ، إلّا حَائِطَ مَسْجِدٍ أو رِبَاطٍ»، ويقول أيضاً: «أَقَامَنِي الحَقُّ مع المُجاهِدِين، أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ في وَجْهِ أَعْدَائِه»..

«اَلسِّرِيُّ السَّقَطِيُّ» الذي يَنْتَمِي إليه أكثرُ مَشايِخِ الصّوفيّةِ، حَكَى عنه المُؤَرِّخُونَ بعضَ

---

(١) عن الحسن البصرى قال: وَقَفَ حاتمُ الأَصَمُّ على قَبْرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا ربّ، إنّا زُرْنا قَبْرَ نَبِيِّكَ فلا تَرُدَّنَا خَائِبِين، فنُودِيَ: يا هذا، ما أَذِنَّا لك فى زيارةِ قبرِ حَبِيبِنَا إلّا وقد قَبِلْنَاكَ، فارْجِعْ أنت ومَن مَعَكَ مِن الزُّوَّارِ مَغفوراً لكم.. (المَواهب اللدنيّة بالمنح المحمّديّة، للقسطلاني)

(٢) الوهق ـ بالتحريك وتسكّن الهاء ـ: الحَبْلُ في طَرَفَيْهِ أُنْشوطَةٌ تُطرَحُ في عُنُقِ الدَّابَّةِ أو الإنسانِ حتى تُؤْخَذَ. والأنشوطةُ عُقْدَةٌ يَسهُلُ انحِلالُها كَعُقْدَةِ التُّكَّةِ عند جَذْبِها.

(٣) صفة الصّفوة لابن الجوزي ج:٤ ص:٣٥٣، وانظر: سير أعلام النّبلاء ج:٢ ص:١٥٢.

(٤) شذرات الذهب وفيات ٢٣٧ هـ. وَاشْجِرْد: مِن قُرَى ما وراء نهر جيحون، وبها كان الثّغر والمرابطة.

المُجاهَداتِ التي مَارَسَها أَثْنَاءَ نُزُولِه في أرضِ الرُّومِ[1]، ويَتَجَلَّى رَأْيُه في الجهادِ حِين فَسَّرَ لِأهلِ الثَّغرِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا.. ﴾ فقال: صابِرُوا عند القِتالِ بِالثَّبَاتِ والاسْتِقَامَةِ..

«أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ» العارف المَشهور.. كان يَخرُجُ إلى بعضِ الثُّغُورِ، كما حَكَاه ابنُ كثيرٍ في وَفِيَّات (٢٠٥ هـ).

«أَرْسَلان الدِّمَشْقِيُّ» العالِمُ المُجاهِدُ -صاحبُ الرِّسالةِ المَعروفةِ في التَّوْحِيدِ والتّصوّفِ-، الذي لم يكن رِباطُه يَقعُ دَاخِلَ سُورِ مَدِينَةِ دِمَشق، بل خارِجَها، كأنه مَخْفَرٌ يَأْوِي إليه حَرَسُ الحُدُودِ، والذين يَطُوفُونَ حَوْلَ المَدينةِ بعد إغلاقِها لَيْلاً، كَيْ لا يَكونَ هُناك عَدُوٌّ مُباغِتٌ، وكان المُريدون يَتَرَدَّدُونَ إلى رِباطِه، يَتَعَلَّمُونَ فيه جميعَ أَنواعِ الدِّرَاسَةِ، ويَتَدَرَّبُونَ على الفُنُونِ الحَرْبِيَّةِ، لِلوُقُوفِ في وَجْهِ الصَّلِيبِيِّينَ، حتى لُقِّبَ الشَّيْخُ أَرْسَلَان بِحَقٍّ: (إمام السَّالِكِين وشيخ المجاهدين). وحتى الآنَ لا يَزَالُ أَهَالِي دمشق يَذْكُرُونَه، ويُرَدِّدُونَ الأُنْشُودَةَ المَعروفةَ (شيخ رسلان يا شيخ رسلان، يا حامِي البَرِّ والشَّامِ). وقَبْرُه مَعروفٌ يُزَارُ.

«نُور الدِّين زَنكي» الإمامُ القائِدُ المَشهورُ الوَرِعُ التَّقِيُّ الصُّوفيّ.. الذي حارَبَ الصَّلِيبِيَّةَ، والنَّاسُ في الحقيقةِ لا يَعرِفُونَ إلّا اليَسِيرَ عن هذا الرَّجُلِ العَظِيمِ..[2] يَرْوِي لَنَا ابنُ كثير حِكايَةً مُفَادَها: أَنّ أُنَاساً سَمِعُوا الإفرنجَ يَقولون: (إنّ القسيم ابن القسيم) -يَعْنُونَ نُورَ الدِّين- له

(١) انظر: تاريخ بغداد ج:٩ ص:١٨٨.

(٢) هناك حِكايةٌ مَشهورةٌ عن نُور الدّين أنه رَأَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم في المَنامِ وهو يُخبِرُه أنّ شَخْصاً يُرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ الجُثَّةَ الشَّرِيفَةَ، وأَرَاهُ شَكْلَه، فلمّا أَصْبَحَ نُورُ الدين تَوَجَّهَ إلى المَدينةِ المُنَوَّرَةِ، فعَرَفَ ذلك الشَّخْصَ وصَلَبَه، وتَبَيَّنَ أنه يَهُودِيّ لابَسَ ثِيَابَ مُسلِمٍ مُتَزَهِّدٍ. (انظر: شذرات الذهب ج:٤ ص:٢٢٧، بدائع الزهور حوادث ٥٦٩ هـ، غربال الزمان ص:٤٥٢).

مع اللهِ سِرٌّ، فإنّه لم يَظفَرْ ويُنصرْ علينا بِكثرةِ جُنْدِه وجَيْشِه.[1]

وفي الواقِعِ، كانت هُناك علاقةٌ وَثيقةٌ بينه وبين رِجالاتِ التّصوّفِ في عَصْرِه، واتّخذَ منهم خيرَ سَنَدٍ في حُرُوبِه مع الصَّليبيّينَ، فكان هؤلاء يَشْحَذُونَ هِمَمَ النَّاسِ، ويَسْتَثيرُونَهم للجهادِ، وهذه العَلاقةُ الرَّاسِخَةُ كانت مُشَيَّدَةً عن عقيدةٍ، ورَغْبَةٍ حَقيقيّةٍ. قال ابنُ الأثيرِ وغيرُه: «وكان يَحضِر مَشايخَ الصُّوفيّةِ عنده، ويُقَرِّبُهم، ويُدْنيهم، ويَتَواضَعُ لهم، فإذا أَقْبَلَ أحدُهم إليه يَقوم له مُذْ تَقَعُ عَيْنُه عليه، ويَعْتَنِقُه، ويُجلِسُه معه على سَجّادتِه، ويُقبِلُ عليه بِحَديثِه». وكان يَقول عن الصّوفيّة: «هؤلاء جُنْدُ اللهِ، وبِدُعَائِهم نُنْتَصَرُ على الأَعْدَاءِ». وقد لامَهُ بعضُ أصحابِه على المُبَالَغَةِ في تكرِيمِه للصّوفيّة، فغَضِبَ وقال: «﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ..** ﴾[الرعد:١١] واللهِ إنّي لا أَرْجُو النَّصْرَ إلّا بِأُولئك، فإنّما تُرْزَقُونَ وتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكم، كيف أَقْطَعُ صِلاتِ قومٍ يُقاتِلون بِسِهَامٍ لا تُخْطِىء»[2].

«**مُحْيِي الدِّينِ بن عربي**» الشّيخُ الصّوفيّ المَشهور.. أُثِرَ عنه أنّه كان خِلالَ الحُرُوبِ الصَّليبيّةِ يُحَرِّضُ المُسلِمين على الجهادِ، ومُقَاوَمَةِ الغُزَاةِ، ومِن وَصَايَاهُ قولُه: «أُوصِيكَ بتقوى اللهِ وحِفْظِ لُزُومِ ظاهِرِ الشَّرْعِ، وحفظِ حُدُودِهِ، وعليك بالجهاد الأكبرِ، وهو جهادُ هَوَاكَ، فإنّك إذا جاهَدْتَ نَفْسَك هذا الجِهادَ خَلَصَ لك الجِهادُ الآخَرُ في الأعداءِ، الذي إن قُتِلْتَ فيه كُنْتَ مِن الشُّهَدَاءِ الأَحْيَاءِ الّذين عند رَبّهم يُرْزَقُونَ.. واجْهَدْ أَنْ تَرْمِيَ سَهْماً في سبيلِ اللهِ، وعليك بِتَجْهِيزِ المُجاهِدِ بما أَمْكَنَك، ولو بِرَغِيفٍ إذا لم تكن أنت المُجاهِدَ، واخْلُفْ الغُزَاةَ في أَهْلِهِم بِخيرٍ تُكْتَبُ مَعَهم، واحْذَرْ إنْ لم تَغْزُ أَنْ لا تُحَدِّثَ نَفْسَك بِالغَزْوِ، فإنّك إنْ لم تَغْزُ ولم تُحَدِّثْ نفسَك بالغزوِ، كُنْتَ على شُعْبَةٍ مِن النِّفاقِ..»[3]

---

(١) البداية والنهاية ج:١٢ ص:٢٨٣. عيون الرّوضتين ج:١ ص:٢٥٥.

(٢) وفيات الأعيان ج:٥ ص:١٨٨، الكواكب الدّريّة ص:١٦٢، عبرة أولي الأبصار ص:٥٢٩.

(٣) الوصايا ص:٣٧ وما بعدها.

«**أَبُو الْحَسَنِ الشّاذلي**» الإمامُ شيخُ الطّريقة الشَّاذليّةِ.. تَذكُرُ كُتُبُ التَّارِيخِ أنّه كان ضَرِيراً، قَدِمَ إسكندريّةَ في المَغرِبِ وصارَ يُلازِمُ ثَغْرَها مِن الفَجْرِ إلى المَغرِبِ. ثم تَحَوَّلَ أبو الحسن مِن المَغرِبِ إلى مِصْرَ، وفيها يُسَطِّرُ لَنَا مِثالاً رائِعاً عن مُقاوَمَةِ الصُّوفِيّةِ للغُزَاةِ، فقد كان هو وأَصْحَابُه في مُقَدِّمَةِ الصُّفُوفِ التي دَمَّرَتْ في وَقْعَةِ المَنْصُورَةِ سنة (٦٤٧ هـ) حَمْلَةَ المَلِكِ الفِرَنْسِيّ لويس التّاسِعِ، بما أَذْكَاهُ مِن حَمَاسَةٍ في المُجاهِدِين، يُثَبِّتُ مِن جَأْشِهِم، ويَبعَثُ الحَمِيَّةَ في نُفُوسِهم.

قال الشّيخ ابنُ دَقِيق العِيد: حَضَرْتُ بِالمَنصورةِ مع الشّيخِ أبي الحَسَن وما رَأَيْتُ أَعْرَفَ بالله منه. ونَصَرَ اللهُ المُؤمِنِين نَصْراً مُؤَزَّراً، عادَ بَعْدَها الشّاذليُّ إلى ما كان عليه مِن التَّدْرِيسِ والوَعْظِ وتَهْذِيبِ النُّفُوسِ بين مُرِيدِيهِ.

«**شَيْخُ الإسلامِ العِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلامِ**» سلطانُ العلماءِ، هو مِن أَشْهَرِ رِجَالِ التّصَوُّفِ ومِن كِبَارِهم، ولا مَجَالَ لِلشَّكِّ أَنّ العِزَّ بنَ عبد السّلامِ كان فَقِيهاً صوفيّاً، وبعضُ تَصانِيفِه وكلامُ مُتَرْجِمِيهِ قَاضِيَةٌ بذلك. فقد حَكَى السُّبْكِيُّ والسُّيوطي وغيرُهم: «أنه لَبِسَ خِرْقَةَ التَّصَوُّفِ مِن الشِّهاب السهروردي (صاحب عَوَارِف المَعَارِف). وكان يَحضُرُ عند أبي الحسن الشّاذلي، ويَسمَعُ كلامَه في عِلمِ الحقيقةِ.[1]

كان للعز مُكَاشَفاتٌ وكراماتٌ، منها ما حَصَلَتْ له أَثْنَاءَ غَزْوِ الإفرنج لِمِصْرَ، ورَوَاها لَنَا السُّبكي في طَبَقاتِ الشَّافعية[2].

---

(١) طبقات الشّافعيّة الكبرى (ترجمة الرقم: ١١٨٣)، طبقات الأولياء الورقة ٥٠ ب، تأييد الحقيقة العلميّة وتشييد الطّريقة الشّاذليّة للسّيوطي ص:٧١.

(٢) منها الكَرَامَةُ المَشهورةُ: «.. فلمّا رَأَى الشيخُ العِزُّ حالَ المُسلِمين نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِه مُشِيراً بِيَدِهِ إلى الرِّيحِ: يا رِيحُ خُذِيهِم عِدَّةَ مَرَّاتٍ، فعادَت الرِّيحُ على مَرَاكِبِ الإفرنج فَكَسَرَتْها، وكان الفَتْحُ، وغَرِقَ أكثرُ الإفرنج، وصَرَخَ مِن بين يدي المسلمين صَارِخٌ: الحمدُ لله الذي أَرَانا في أُمَّةِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً سُخِّرَ له الرِّيحُ». (طبقات الشافعية ج:٨ ص:٢١٦)

وقد قام بِدَوْرٍ كبيرٍ في التَّحْضِيرِ لِمَعْرَكَةِ عَيْن جَالُوت، وشَارَكَ في الاجْتِمَاعَاتِ مع السلطانِ والقَادَةِ وحَثَّهُم على مُلاقاةِ التَّتارِ، ولم يَمْنَعْه تَقَدُّمُه في السِّنِّ مِن المُشَارَكَةِ في الاجْتِماعاتِ مع السُّلطانِ وقَادَةِ الأُمَّةِ، وحَثِّهم على مُلاقاةِ التَّتارِ، وفَتَوَاهُ في الجِهاد مَشهورةٌ مَعروفةٌ..

«مُحي الدِّين بن زكريّا النَّوَوِيُّ» مِن الفُقَهاءِ الصّوفيّةِ المُجاهِدِين، وهو الزَّاهِدُ والإمامُ الرَّبَّانِيُّ الذي كان يَصدَحُ بِالحَقِّ، ولا يَخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، وكَثِيراً ما حَرَّضَ المَلِكَ الظاهِرَ بِيبَرس على الإسْرَاعِ في مُلاقاةِ التَّتَارِ، وكان بيبرس يقول: «أَنَا أَفْزَعُ مِن هذا الرَّجُلِ».

قال رحمه الله في كتابه «المَقاصد» مُبَيِّناً أُصولَ طريقِ التّصوّفِ: «تَقوى اللهِ في السِّرِّ والعَلانيةِ، واتّباعُ السُّنَّةِ في الأقوالِ والأفعالِ، والإعراضُ عن الخَلْقِ في الإقبالِ والإدبارِ، والرِّضَا عن اللهِ في القليلِ والكثيرِ، والرُّجُوعُ إلى اللهِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ».

قال عنه تاجُ الدِّين السُّبْكِيّ: الشّيخُ الإمامُ، شيخُ الإسلامِ، أستاذُ المُتَأَخِّرين، حُجَّةُ اللهِ على اللَّاحِقِين، ما رَأَتِ الأَعْيُنُ أَزْهَدَ منه، ولا عايَنَتْ أكثرَ اتِّباعاً منه لِطُرُقِ السَّالِفِين مِن أُمَّةِ سَيِّدِنا محمّدٍ عليه أفضلُ الصّلاةِ والسّلامِ.. والتَّطوِيلُ بِذِكْرِ كَرَامَاتِه تَطوِيلٌ في مَشهُورٍ، وإسهابٌ في مَعروفٍ.

«السُّلطان محمّد الفاتح» مِن المجاهدين الأَبْطالِ.. الإمامُ القائِدُ الصّوفيّ الحنفيّ المَاتريديّ[1]، الذي فَتَحَ القُسْطَنْطِينِيّةَ، وهذا الرَّجُلُ الّذي قال فيه سَيِّدُنَا وسَنَدُنا محمدٌ المُصطفى صلى الله عليه وسلم:

﴿ لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، وَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ﴾[2]

(١) وكذلك كان أَغْلَبُ سَلاطِينِ العُثْمَانِيّينَ، قد أَمضَوْا عُمُرَهم في الجهاد، كالسّلطان بَايزيد الصَّاعِقَة، والسّلطان سَلِيم الأَوّل، والسّلطان سليمان القَانُوني، والسّلطان عبد الحَمِيد الثّاني...

(٢) رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند (١٨٩٥٧)، والحاكم في المستدرك (٨٣٠٠)، والبخاري في التّاريخ الكبير (١٧٦٠) والتّاريخ الأوسط (١٤٨٢)، والطّبراني في المعجم الكبير (١٢١٦)..

وشَهادَةُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَافِيَةٌ في عُلُوِّ شَأْنِه ومَقَامِه. وكان شَيْخُه الطَّبِيبُ العالِمُ مُحمّدُ بنُ حَمْزَةَ المُلَقَّبُ أق شَمْس الدِّين، قد أَدْخَلَه الخَلْوَةَ ولَقَّنَهُ الأَوْرَادَ.

ومِن جَلِيلِ أَعْمالِ الصُّوفيَّةِ وآثَارِهم الحَسَنَةِ في الأُمَّةِ الإسلاميةِ أَنّ المُلُوكَ والأُمَرَاءَ مَتى قَصَدُوا الجِهادَ كان مَشَايِخُهم يُحَرِّضُونَ أَتْبَاعَهم لِلمُشارَكَةِ في رَدِّ العُدْوَانِ، وكان هؤلاء المُرِيدُونَ يُسَارِعُونَ بذلك لِعَظِيمِ اعْتِقَادِهِم وانْقِيَادِهم، فيكون ذلك سَبَباً لِلظَّفَرِ والنَّصْرِ...

ذَكَرَ العُلماءُ في كُتُبِهم[1]: (أنّه لمّا أراد السّلطانُ محمّد خان فَتْحَ القسطنطينيةِ أَرْسَلَ وَزِيرَهُ إلى الشّيخ آق شمس الدّين يَدْعُوه إلى الجهادِ وإلى الحُضُورِ معه في فَتْحِ المَدِينَةِ العَظِيمَةِ، فحَضَرَ وبَشَّرَ بِالنَّصْرِ وقال: «سَتُفْتَحُ القسطنطينيةُ إِنْ شاءَ اللهُ تعالى على يَدِ المسلمين هذا العَامَ، في اليومِ الفُلانِيِّ، مِن نَاحِيَةِ القَلْعَةِ»، فبَشَّرَ الوَزِيرُ السّلطانَ بِمَا بَشَّرَ به الشّيخُ مِن خَبَرِ الفَتْحِ، فلمّا صارَ ذلك الوَقْتُ المَوْعُودُ ولم تُفْتَحِ القَلْعَةُ، ذَهَبَ الوَزِيرُ إلى الشّيخِ يَسْتَفْسِر، فوَجَدَهُ سَاجِداً على التُّرَابِ في خَيْمَتِه وهو يَتَضَرَّعُ ويَبْكِي، ثُمَّ قامَ وكَبَّرَ وقال: «الحمدُ لله الذي مَنَحَنَا فَتْحَ هذه المَدِينَةِ». قال الوَزِيرُ: «فنَظَرْتُ الى جانِبِ المَدِينَةِ فإذا العَسْكَرُ قد دَخَلَ بِأَجْمُعِه»، فَفَتَحَ اللهُ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ في ذلك الوقتِ، وكانت دَعْوَتُه تُخرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ، وقال السّلطانُ كَلِمَته الشَّهِيرَةَ: «ما فَرِحْتُ بهذا الفَتْحِ، وإنّما فَرَحِي بِوُجُودِ مِثْلِ هذا الرَّجُلِ في زَمَانِي».

ثم بعد يومٍ جاءَ السّلطانُ محمد إلى خَيْمَةِ الشّيخِ آق شمس الدّين وهو مُضْطَجِعٌ وقَبَّلَ يَدَهُ، وقال له: «جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ عِنْدِي»، قال: «ما هي؟»، قال: «أُرِيدُ أَنْ أَدْخُلَ الخَلْوَةَ عندك أيّاماً»، فَقَرَأَ عليه الشّيخُ الأَوْرَادَ، والسّلطانُ جالِسٌ أَمَامَه على رُكْبَتَيْهِ يَسْتَمِعُ لِلأَوْرَادِ..

فلمّا أَتَمَّها الْتَمَسَ السّلطانُ مِن الشّيخ أَنْ يُعَيِّنَ له قَبْرَ الصَّحابِيِّ أَبِي أَيُّوب الأنصاري (الصّحابيّ الذي اسْتُشْهِدَ على أَبْوَابِ القُسطنطينيّةِ)، فقال آق شمس الدّين: «الْتَقَتْ رُوحِي

---

(١) انظر: البدر الطالع للشوكاني ج:٢ ص:١٦٦، أخبار الدُّوَل للقرماني ص:٣٠٧، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ج:٢ ص:١٦٦، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والآثار ج:٢ ص:٢٧، ونَفَحاة العَبير السّاري بأحاديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، لِعليّ بن أحمد القَرَافِيّ.

مع رُوحِهِ وهَنَّأَنِي بهذا الفَتْحِ»، ثم سارَ الشّيخُ إلى مَنطِقَةٍ وقال: «إنّي أُشَاهِدُ في هذا المَوْضِعِ نُوراً، لَعَلَّ قَبْرَه هَاهُنَا، فاحْفِرُوا مِقْدَارَ ذِرَاعَيْنِ مِن جَانِبِ الرَّأْسِ مِنَ القَبْرِ، فَحَفَرُوا في الوَضْعِ المُشَارِ إليه، فظَهَرَ رُخَامٌ عليه خَطٌّ، فَقَرَأَهُ مَن يَعرِفُه وفَسَّرَهُ فإذا هو ما قَرَّرَهُ الشّيخُ!.. فغَلَبَ على السلطان محمّدٍ حَالٌ، كادَ أَنْ يَسْقُطَ لولا أَنْ أَخَذُوهُ، ثم أَمَرَ بِبِنَاءِ مَسْجِدٍ وَقُبَّةٍ على قَبْرِ الصَّحابِيّ الجَلِيلِ.. رضي الله عنهم أجمعين) اهـ. كما بَنَى قُرْبَهما زَاوِيَةً لِتَوْزِيعِ الطَّعَامِ، وصومعةً شَرِيفَةً لِلدَّرَاوِيش.

وقد كان الجَيْشُ العُثْمَانِيُّ يَضُمُّ عَدَداً كَبِيراً مِن المَشايِخِ، ومِن بينهم الدَّرَاوِيشُ ـ أي: مِن أَتْبَاعِ الطُّرُقِ الصُّوفِيّةِ ـ، وكَانُوا يُقَوُّونَ رُوحَ الجهادِ والحَمَاسِ في الجُنُودِ، وكان السّلطان قد اسْتَصْحَبَهُمْ على عمدٍ تَبَرُّكاً بهم وتَيَمُّناً بِصُحْبَتِهم.

قال السَّخاوي رحمه الله: «إنّ السّلطانَ محمّدا الفاتِحَ كان مَلِكاً عَظِيماً، زَاحَمَ العُلماءَ ورَغِبَ فِي لِقَائِهِم وتَعْظِيمِ مَن يَرِدُ عليه منهم، وله مَآثِرُ كثيرةٌ مِن مَدَارِسَ وزَوَايَا وجَوَامِعَ»[1]. وقال المَكِّيُّ: وله كرامات عَجِيبَةٌ، وآثارٌ بَدِيعَةٌ[2].

إنّ صُورَةَ الفاتِحِ النَّاصِعَةَ وآثارَهُ الحَسَنَةِ لا تَزَالُ مَاثِلَةً في جميع قُلُوبِ المُسلمين، وإنّ فَتْحَه للقسطنطينيّةِ كان أَشْبَهَ بِالمُعْجِزَةِ، وما يَزَالُ مَجَالاً لِلتَّأَمُّلِ والاسْتِنْتَاجِ. فَنَالَ بذلك شَرَفَ بِشَارَةِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، خاصّةً أنّ هذه المَدِينَةَ اسْتَعْصَتْ على الفَاتِحِين مُنذ فَجْرِ الإسلامِ، وبعد أَنْ حَاصَرُوها عِدَّةَ مَرَّاتٍ.

«الشّيخ شَامِل الدّاغستاني» المَاتُرِيدي الحنفيّ النّقشبنديّ.. الذي قَادَ أَشْهَرَ حَرَكَةٍ للجهادِ الإسلاميّ في مُحَاوَلَةٍ بَدَتْ مُسْتَحِيلَةً لِوَقْفِ الزَّحْفِ الرُّوسِيّ على أَرَاضِي مُسْلِمِي القَوْقَازِ.. وتَقَلَّدَ الشّيخُ شامِل أُمُورَ الجهادِ، وحَقَّقَ انْتِصَارَاتٍ عَظِيمَةً على الرُّوس، وأَلْقَى الرُّعْبَ في قُلُوبِهِم، وجَلاهم عن قِسْمٍ كبيرٍ مِن البِلاد.

(١) الضَوْءِ اللّامِع ج:١٠ ص:٤٧.

(٢) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ج:٤ ص:٦٧.

«**الشّيخ عَبْدُ القَادِرِ -الأمير عبد القادر-**» الجزائري المالكي الأشعري.. الذي يُعَدُّ شيخُ المُجاهِدِين في العَصْرِ الحديثِ فَضْلاً عن كَوْنِه مِن كِبارِ صوفيّةِ عَصْرِه. وقد وَقَفَ ضِدَّ الغَزْوِ الصَّلِيبِيّ الفِرنسيّ بِالجَزَائِرِ مُعْلِناً الجِهادَ ضِدَّهم، ووَقَفَ سَدّاً مَنِيعاً أمامَ اسْتِعْمَارِهِم خَمْسَةَ عَشَرَ عَاماً مُجاهِداً ومُنَاضِلاً أَشْهَرَ مِن أَنْ يُعَرَّفَ..

«**أحمد الشّريف السَّنُوسِيُّ**[1]» العالِمُ الجَلِيل والمُحَدِّثُ الصّوفيّ الشَّهِيرُ، يُعَدُّ أيضاً مِن كِبار مُجاهِدِي السَّنُوسِيَّةِ، قَاتَلَ الإيطاليين بِضَرَاوَةٍ..

«**عُمَرُ المُختار**» المالكيّ الأشعريّ الصّوفيّ الزّاهِد التّابِعُ للطّريقة الصّوفيّة السَّنُوسِيَّةِ.. وهو الذي أَذَاقَ إيطاليا مَرَارَةً عظيمةً في صَحْرَاءِ لِيبْيَا..

«**الإمامُ الرَّبَّانِيُّ أحمدُ الفاروقي السّهرندي**» رائد ثَوْرَةِ الإصلاحِ والتَّجْدِيدِ في الهِنْدِ، قِيل إنه لم يكن له مَثِيلٌ في عَصْرِهِ في عِلمِ الحَقائِقِ، وقد نَعَتَه العلماءُ: «بَطَلُ الشَّرِيعَةِ والحَقِيقَةِ». ورَأَى صَاحِبُ نزهة الخواطر فيه: «آيَة مِن آياتِ اللهِ العِظَامِ، ونَادِرَة مِن نَوَادِرِ الأَيَّامِ».

يقول عنه الشّيخ أرسلان: «فهو في هذا المَشْرَبِ مِن الأَفْرَادِ الأَفْذَاذِ، رُبّما لا يُوجَدُ نَظِيرُهُ في المُتَأَخِّرِين، فقد كان شَيْخَ طريقةٍ، وزَعِيماً رُوحِيّاً، كما كان مُجاهِداً وقائِداً أيضاً»[2].

«**شَاه وَلِيُّ اللهِ الدهلوي**» الّذي يُعَدُّ رَأْسَ العلماءِ المُجاهِدِين في سَبِيلِ دِينِهم وَوَطَنِهم، بِما قامَ به مِن مَجْهُودٍ عظيمٍ في تَنْبِيهِ المُسلِمِين والحُكَّامِ منهم إلى خَطَرِ الإنجليزِ.[3]

---

(١) حَفِيدُ الشّيخ محمد بن علي السنوسي، الذي قارع الفرنسيين بكل شجاعةٍ وإخلاصٍ حتّى عام ١٩١١م، ثم استمرّ جهاده ضد الإيطاليين بعد ذلك.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ج:٢ ص:١٧٣.

(٣) تاريخ الإسلام في الهند ص:٤١٢ وما بعدها.

«الشّيخ الصُّوفِيّ مُحمّد بَدْرُ الدِّين الحَسَنِيُّ» مُحَدِّثُ الشَّامِ في عَصْرِه، يُعَدُّ المُفَجِّرُ الحَقِيقِيُّ لِلثَّوْرَةِ السُّورية الكُبرى (١٩٢٥-١٩٢٧م)، وأَصْلُه مِن المَغرب مِن ذُرّيَّةِ الشيخ الجَزُولِيِّ -صاحِب دَلائِلِ الخَيْرَات-، وُلِدَ في دمشق مِن أَبٍ قَادِرِيِّ الطَّرِيقةِ. كان فَقِيهاً زاهِداً عارِفاً بِاللهِ، يَغُوصُ على مَكْنُونَاتِ عِلمِ التَّصَوُّفِ بِدِقَّةٍ، وعليه قَرَأَ شُيُوخُ المُتَصَوِّفَةِ في دمشق.[1]

وَصَفَه صاحِبُ الأَعْلام أَنّه كان «وَرِعاً صَوَّاماً بَعِيداً عن الدّنيا.. ولمّا قامَتْ الثَّوْرَةُ على الاحْتِلالِ الفِرَنْسِيّ في سُورية كان الشّيخُ يَطُوفُ المُدُنَ السُّورية مُتَنَقِّلاً مِن بَلْدَةٍ إلى أُخْرَى، حَاثّاً على الجهادِ وحَاضّاً عليه، يُقابِلُ الثُّوّارَ، ويَنْسجُ لهم الخُطَطَ الحَكِيمَةَ، فكان أَباً رُوحِيّاً لِلثَّوْرَةِ والثُّوَّارِ المُجاهِدِين».[2]

«الشّهيد الشّيخ عِزُّ الدِّين القَسّام» الذي أَتْعَبَ اليَهودَ والصهيونية في فِلسطين.. وكان شيخَ الزَّاوِيَةِ الشَّاذلِيَّةِ في جَبلَةَ الأَدْهَمِيَّةِ[3]..

وهذه نُبْذَةٌ مُوجَزَةٌ لِحَيَاةِ بعضٍ مِن أعلامِ الصُّوفيّة المُجاهِدِين رضي الله عنهم أجمعين، وإذا أَرَدْنَا ذِكْرَهم جَمِيعاً وتفصِيلَ قِصَصِهم فيَحْتَاجُ ذلك إلى مُجَلَّدَاتٍ ضَخْمَةٍ ومُؤَلَّفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ..

ويَنبغِي علينا أَنْ لا نَنْسَى فَضْلَ مُجاهِدِي النَّقْشبَنْدِيَّةِ والقَادِرِيَّةِ في الشِّيشَان، وفَضْلَ الكَتَائِبِ مِن مُجاهِدِي النَّقْشبَنْدِيَّةِ في العِرَاق، التي وَقَفَتْ ضِدَّ الأَمَريكِيِّين وأَعْوَانِهم في حَرْبِهِم على العِرَاق، وما زَالُوا في هذه الأَيَّامِ يُقاتِلون ضِدَّ الشِّيعَةِ الشَّنِيعَةِ وأَعْوَانِهم، وفَضْلَ مُجاهِدِي السَّنُوسِيِّينَ في لِيبيا، وفَضْلَ مُجاهِدِي طُلّابِ العلمِ وغيرِهم مِن الصُّوفِيّةِ في سورية ضِدَّ أعداءِ اللهِ والظالِمِين في هذه الأيّام..

(١) تاريخ علماء دمشق ج:١ ص:٤٧٢.

(٢) سِيَرُ أَعْلام النُّبلاء، ج: ٧ ص:١٥٧.

(٣) سميت «جبلة الأدهمية» نسبةً إلى الضريح المَوجود فيها لِقطب الزّاهدين إبراهيم بن أدهم رحمه الله.

وبالجُمْلَةِ فإنّ الصّوفيّة كانت في الصَّفِّ الأَوَّلِ عند المَعَارِكِ في الدِّفَاع عن الإسلام والمُسلِمِين، فلم يُقْعِد الزُّهْدُ والوَرَعُ الصُّوفيّةَ عن الجِهادِ في سبيلِ اللهِ وطَلَبِ مَرْضَاتِه والشَّوْقِ إلى لِقَائِه.. فلا يَصِحُّ القَوْلُ بعد كُلِّ ذلك بِأَنَّ التَّصَوُّفَ خُمُولٌ أو رَفْضٌ لِمَبْدَأِ الجِهادِ في سبيل اللهِ، أمّا الشَّوَاذُّ والدُّخَلاءُ فلا حُكْمَ لهم عندنا...

وقد لَخَّصَ لَنَا الإمامُ الشّيخُ عبدُ الوَهَّاب الشّعرانيّ (رحِمه الله) مَبادِئَ الصّوفيّةِ في الجِهادِ قائِلاً:

«أُخِذَ علينا العَهْدُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دَخَلْنَا ثَغْراً مِن ثُغُورِ المُجاهِدِين أَنْ نَنْوِيَ المُرَابَطَةَ مُدَّةَ إقامَتِنَا، ولو لم يكن هُناك عَدُوٌّ؛ لِاحْتِمالِ أَنْ يَحْدُثَ عَدُوٌّ.

ومِن هنا اسْتُحِبَّ لِلإنسان أَنْ يَتَعَلَّمَ رَمْيَ النُّشَّابِ والمُضَارَبَةِ بِالسَّيْفِ والرُّمْحِ لِيكونَ مُسْتَعِدًّا لِرَدِّ العَدُوِّ عن نَفْسِه ومالِه وعِيالِه وإخوَانِه المُسلِمِين في أَيِّ مَحَلٍّ حَلَّ، سواءٌ كان العَدُوُّ كافِراً أو مِن البُغاةِ أو مِن قُطَّاعِ الطَّرِيقِ، ويَقْبُحُ على مَن أَعْطَاهُ اللهُ قُوَّةً أَنْ يَبْخَلَ بها ولا يَتَعَلَّمَ آلاتِ الحَرْبِ، فرُبَّما خَرَجَ عليه بَعْضُ اللُّصُوصِ فَهَتَكَ حَرِيمَه وأَخَذَ مالَه أو قَتَلَه أو جَرَحَه. والله عليم حكيم».

وقال أيضاً: «أُخِذَ علينا العَهْدُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنْ لا نَتَهَاوَنَ بِتَرْكِ تَعَلُّمِ آلاتِ الجِهادِ كالرَّمْيِ بِالنُّشَّابِ والمُسَارَعَةِ والمُدَافَعَةِ ونحوِ ذلك، ثم لا نَتْرُكُها بعد التَّعَلُّمِ حتى يَنْفَكَّ إدْمَانُنَا، وهذا العَهْدُ قَلِيلٌ مِن النَّاسِ مَن يَعْتَنِي به اكْتِفَاءً بِعَسْكَرِ السُّلطانِ ويَقول: إذا وَقَعَ دُخُولُ عَدُوٍّ بِلادَنَا فعَسْكَرُ السّلطانِ يَكْفِي، فكلُّ ذلك جُبْنٌ وكَسَلٌ ويُبْسُ طِبَاعٍ، وكذلك مِن الأَدَبِ أَنْ لا نَتَهَاوَنَ بِتَرْكِ تَعَلُّمِ السِّبَاحَةِ في البَحْرِ لِاحْتِمالِ أَنْ يَضْطَرَّنَا عَدُوٌّ عند شَاطِىءِ البَحْرِ فيُهْلِكَنَا، ولو أَنَّنَا كُنَّا نَعرِفُ السِّبَاحَةَ لَرُبَّمَا خَلَصْنَا منه».

وقال: «أُخِذ علينا العَهْدُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنْ لا نَغْفَلَ عن تحديثِ أَنْفُسِنَا بِالغَزْوِ في سبيلِ الله لِنُكْتَبَ إن شاء الله مِن جُمْلَةِ أَنْصَارِ دِينِ اللهِ..»

وقال: «أُخِذَ علينا العَهْدُ العَامُّ مِن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ نَسْأَلَ رَبَّنَا أنْ نَمُوتَ شُهَدَاءَ في سبيلِ اللهِ لا على فُرُشِنَا، فإن لم يَحصُل لَنَا مُباشَرَةُ ذلك حَصَلَ لَنَا النِّيَّةُ الصَّالِحَةُ... وحَصَلَ الأَجْرُ كامِلاً..»

وقال: «أُخِذَ علينا العَهْدُ العَامُّ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم إِذَا لم يُقْسَمْ لَنَا جهادٌ أَنْ لا نَنْفُرَ مِن الأُمُورِ التي تُلْحِقُنَا بِالشّهداءِ في الثَّوَابِ الأُخْرَوِيّ بل نَتَلَقَّاها بِالرِّضا..»

وقال: «أُخِذَ علينا العَهْدُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنْ نُكرِمَ الغُزَاةَ والحَارِسِينَ..»

وقال: «أُخِذَ علينا العَهْدُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنْ لا نَفِرَّ مِن جَمَاعَةٍ اجْتَمَعْنَا مَعَهم على أَمْرٍ فيه إقامَةٌ لِلدِّينِ كالجهادِ في سبيلِ اللهِ أو أمرٍ بِمَعرُوفٍ نُعِينُ عليه أو إِزَالَةِ مُنْكَرٍ أو مَجْلِسِ ذِكرِ اللهِ.. إلّا لِضرورةٍ شَرْعِيَّةٍ لا سيّما إن كان النَّاسُ يَنْفُرُونَ عن ذلك الخَبَرِ تَبعاً لَنَا، وهذا العَهْدُ يَتَأَكَّدُ العَمَلُ به على علماءِ هذا الزَّمَانِ وصُوفِيَّتِه لِكَوْنِهم رُؤُوسَ النَّاسِ، فإِنْ قَامُوا في أَمْرٍ قامَتْ العَامَّةُ معهم، وإِنْ غَفَلُوا في أَمرٍ غَفَلَتِ العَامَّةُ معهم عنه، والله تعالى يُحِبُّ كُلَّ مَن نَصَرَ شَرِيعَةَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم وأَعَانَ مَن يُرِيدُ إِقَامَةَ شَعَائِرِها..»[١]

وقال شيخُنا الشّيخُ محمود أَفندي (حفظه الله): «جِهادُ الأَمْرِ بِالمَعروفِ.. على مُقْتَضى قَوْلِ عَلِيّ رضي الله عنه: (أفضلُ الجهادِ الأمرُ بِالمَعروف والنَّهْيُ عن المُنكَرِ) كَبِيرٌ، لكن قد تَتَغَيَّرُ الأَوَّلِيَّةُ في الجهاد على حَسَبِ الأَحْوَالِ، فمَثَلاً: إذا هَجَمَ الأَعداءُ علينا فعِنْدَئِذٍ يَجِبُ أَنْ نُقَاتِلَهم أَوَّلاً.. وهُنَاك جهادٌ آخرُ وهو جهادُ النَّفسِ، وذلك جِهَادٌ أَكبَرُ.. لأنّه يَستمِرُّ إلى الموت، [ولِذا سُمِّيَ جهاداً أكبرَ]».[٢]

وأَفْرَدَ حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ الغزالي رحمه الله في كتابه «مُكاشَفَة القُلُوبِ» (ص:٤٤٢)

---

(١) لَواقِح الأنوار القُدسيّة في بيان العُهود المحمديّة، للشعراني: ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ٥١٧، ٥١٨.

(٢) Mahmud Efendi Hazretlerinden Duyulan Hikmetli Sözler, sayfa;153

بَاباً عن فضلِ الجِهَادِ وأَوْرَدَ في ذلك عَدَداً مِن الأحاديثِ الشريفةِ. منها ما مُلَخَّصُه: (أَنّ رَجُلاً أَرَادَ الاعْتِزَالَ، ثم اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللهِ فقال له الرَّسُولُ الكَرِيمُ: لا تَفْعَلْ، فإنّ مقامَ أَحَدِكُمْ في سَبيلِ اللهِ أَفْضَلُ، أَلَا تُحِبّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ، ويُدْخِلَكُمْ الْجَنّةَ؟ اغْزُوا في سَبِيلِ اللهِ..)

وعَلَّقَ ـطَيَّبَ اللهُ ثَرَاهُـ على ذلك فقال: «فإذا كان الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ لم يَأْذَنْ له رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في العُزْلَةِ مع اجْتِهَادِهِ في الطَّاعَاتِ، بل أَرْشَدَهُ إلى الجهاد، فكيف يَلِيقُ بِنَا تَرْكُه مع قِلَّةِ طَاعَاتِنَا وكَثْرَةِ سَيِّئَاتِنَا..»

وقال أيضاً في كتابِه المَشهور «إحياء علوم الدّين»: «...أما الزَّاهِدُونَ المُحِبُّونَ لله تعالى فقَاتَلُوا في سبيلِ اللهِ كأنّهم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، وانْتَظِرُوا إحدى الحُسْنَيَيْنِ، وكانوا إذا دُعُوا إلى القِتالِ يَسْتَنْشِقُونَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، ويُبَادِرُونَ إليه[1] مُبَادَرَةَ الظَّمْآنِ إلى الماءِ البارِدِ، حِرْصاً على نُصْرَةِ دِينِ الله (لِتَكُونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيَا)، أو نَيْلِ رُتْبَةِ الشَّهَادَةِ، وكان مَن ماتَ منهم على فِرَاشِه يَتَحَسَّرُ على فَوْتِ الشَّهادَةِ (لِعُلُوّ رُتْبَتِها عندهم)، حتّى إنّ خالِد بن الوَلِيد رضي الله تعالى عنه لمّا احْتُضِرَ لِلمَوْتِ على فِرَاشِه كان يقول: «كم غَرَّرْتُ بِرُوحِي وهَجَمْتُ على الصُّفُوفِ طَمَعاً في الشَّهَادَةِ، وأَنَا الآنَ أَمُوتُ مَوْتَ العَجَائِزِ»، فلمّا ماتَ عُدَّ على جَسَدِه ثَمَانمائَةِ ثُقْبٍ مِن آثَارِ الجِرَاحَاتِ (في سبيل اللهِ)، هكذا كان حالُ الصَّادِقِين في الإيمانِ رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وأما المُنافِقُونَ فَفَرُّوا مِن الزَّحْفِ خَوْفاً مِن المَوْتِ... وأمّا المُخلِصُونَ فإنّ اللهَ تعالى اشْتَرَى منهم أَنْفُسَهم وأَمْوَالَهم بِأَنّ لهم الجَنَّةَ..»[2]

وفي مَوْطِنٍ آخَرَ يقول حُجَّةُ الإسلامِ: «..يَمُوتُ المَرْءُ على ما عَاشَ عليه ويُحْشَرُ على ما ماتَ عليه، فأَسْلَمُ الأَحْوَالِ عن هذا الخَطَرِ خَاتِمَةُ الشَّهادَةِ إذا لم يكن قَصْدُ

(١) أي إلى القتالِ.

(٢) إحياء علوم الدين، ٣٠٢/٤ ، ٣٠٣.

الشَّهِيدِ نَيْلَ مَالٍ أو أَنْ يُقَالَ شُجَاعٌ أو غيرَ ذلك..»[1]

وقال الشّيخ محي الدّين ابن عربي رحِمه الله في سِياقِ كلامِه عن أَصْنَافِ الأولياءِ: «ومنهم السَّائِحُونَ، وهم المُجاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ، لأنّ المَفَاوِزَ المُهْلِكَةَ، البَعِيدَةَ عن العِمْرَانِ، لا يكون فيها ذَاكِرٌ لله مِن البَشَرِ، لَزِمَ بَعْضُ العَارِفِين السِّيَاحَةَ، صَدَقَةً منهم على البَيْدَاءِ، الّتي لا يَطْرُقُها إلّا أَمْثالُهم، والجِهادُ في أرضِ الكُفْرِ، الّتي لا يُوَحِّدُ الله تعالى فيها. فكان السِّياحَةُ بِالجهادِ أَفْضَلَ مِن السِّيَاحَةِ في غيرِ الجهادِ».[2]

وقال الإمامُ الرَّبّاني أحمدُ الفارُوقي السّرهندي رحِمه الله في المَكتوبِ الّذي كَتَبه إلى محمّد مُراد البَدَخْشِيّ في بَيانِ لُزُومِ تَصحِيحِ النِّيَّةِ عند الذَّهَابِ إلى مُحَارَبَةِ الكُفّارِ: «أَيُّهَا السَّعِيدُ: العَمَلُ إنّما يَصِحُّ بِالنِّيّةِ، وحيث ذَهَبْتُم إلى جهادِ كُفَّارِ دارِ الحَرْبِ يَنبغِي أَوَّلاً تَصحِيحُ النِّيَّةِ حتى يَتَرَتَّبَ عليه النَّتِيجَةُ..

ونحن نَغبِطُ حالَكم حيث إنّكم مَشغُولُونَ في الباطِنِ بِالحَقِّ سُبحانه وفي الظّاهِرِ تُؤَدُّونَ الصَّلاةَ مع جماعةٍ كثيرةٍ، ومع ذلك تَشَرَّفْتُم بِجِهادِ الكُفّارِ، فَمَن سَلِمَ فهو غازٍ ومَن هَلَكَ فهو شهيدٌ، ولكن كلُّ ذلك إنّما يُتَصَوَّرُ بعدَ تَصحِيحِ النِّيَّةِ..».[3]

وقال أيضاً: «قد قال اللهُ سُبحانه خِطاباً لِنَبِيّه وحَبِيبِه صلى الله عليه وسلم: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾[4] فإذا أَمَرَ الله سُبحانه رَسُولَه الذي هو مَوْصُوفٌ بِالخُلُقِ العَظِيمِ بِجِهادِ الكُفَّارِ والغِلْظَةِ عليهم عُلِمَ أنّ الغِلْظَةَ عليهم داخِلٌ في الخُلُقِ العظيمِ،

---

(١) إحياء علوم الدين، ٣٨٤/١. فنَسْأَلُ الله تعالى أَنْ يُكرِمَنَا بِأَعْلَى رُتَبِ الشَّهَادَةِ مع حُسْنِ النِّيَّةِ، وأَنْ يَجْعَلَنَا في الخَاتِمَةِ مِن أهلِ (لا إله إلّا الله) حَالاً وذَوْقاً ومَقَالاً ظَاهِراً وبَاطِناً حتى نُوَدِّعَ الدنيا ونَتْرُكَها غيرَ مُلْتَفِتِين إلى زَخَارِفِها، بل مُتَبَرِّمِينَ بها ومُحِبِّينَ لِلِّقَاءِ اللهِ، فإنّ مَن أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ تعالى أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، ومَن كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ..

(٢) الفتوحات المكيّة ج:٢ ص:٣٣.

(٣) مكتوبات الإمام الرّبّانيّ، ج:٢، م:٦٩، ص:١٢١.

(٤) سورة التوبة:٧٣، وسورة التّحريم:٩.

فعِزَّةُ الإسلامِ في مَذلَّةِ الكُفْرِ وأَهْلِه، فمَن أَعَزَّ أَهْلَ الكُفرِ فقد أَذَلَّ أهلَ الإسلامِ..»[1]

والمُلاحَظُ أنّه عندما ظَهَرَ التَّصَوُّفُ رَافَقَتْه مَجْمُوعَةٌ مِن الفَضَائِلِ المُسْتَمَدَّةِ مِن الفُتُوَّةِ، وفي مُقَدِّمَتِها: الشَّجَاعَةُ والتَّضْحِيَةُ. يَقول العَارِفُ بِاللهِ سَهْلٌ التُّسْتَرِيُّ: «أَصلُ هذا الأمرِ الصِّدْقُ والسَّخَاءُ والشَّجَاعَةُ».[2] ويَذكُرُ غيرُه: «الأَسَاسُ الأوّلُ لِلصّوفيّ هو تَقوِيَةُ الصِّلَةِ باللهِ، والشَّجَاعَةُ بِالقتالِ للجهادِ».

ولا نُرِيد الإِسْهَابَ في هذه المَسْأَلَةِ أكثرَ مِن ذلك، وزُبْدَةُ القَوْلِ: أنّ العُبَّادَ والزُّهَّادَ ومَن بَعْدَهم مِن الصّوفيّة، اسْتَنُّوا لِأَنْفُسِهِم سُنَّةَ «المرابطة»، فشَدُّوا الرِّحالَ إلى مَيادِينِ القِتالِ، لِوَعْظِ المُجاهِدِين، وتقويةِ عَزائِمِهم، والمُجاهَدَةِ معهم. يَقول يحيى بنُ مُعَاذٍ الرَّازِيّ مُشِيراً إلى أنّ مِن شُرُوطِ الصُّوفيّةِ السِّيَاحَةُ للجهاد:

ومِن الدَّلائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَافِراً ... نَحْوَ الجِهَادِ وَكُلِّ فِعْلٍ فَاضِلِ.

ولقد صَدَقَ الوَصْفُ الإلهيُّ فِيهم: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[3] وإنْ كان هذا الخِطابُ نَزَلَ في أَصحابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فكُلُّ مَن اقْتَدَى أَثَرَهم، وسَارَ على طَرِيقِهم، مِن الأولياءِ والصَّالِحِين، والعلماءِ العامِلِين، يَسْرِي عليه هذا الخِطابُ، ويَشمَلُه هذا الوَعْدُ.

وإنّنا اليومَ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إلى إعادةِ كِتابةِ تَارِيخِ أَبْطَالِنَا، والتَّرْكِيزِ على النَّاحِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، التي فَجَّرَتْ فيهم طاقاتٍ عظيمةً، قَلَّمَا نَجِدُ لها مَكاناً في النُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ مِمَّن فَاتَتْهُم هذه التَّرْبِيةُ. وإنّ التَّارِيخَ لَيَشْهَدُ أنّه عندما تَمَسَّكَ المُسلمون بِرُوحِ الإسلامِ، تَرَقَّوْا وعَزُّوا، وكانت لهم الغَلَبَةُ، والمَكَانَةُ المَهِيبَةُ بين الأُمَمِ. فهكذا كان الصَّحابَةُ، وهكذا كان التَّابِعون، وهكذا كان الأَبْطالُ مِن بعدهم صَفّاً وَاحِداً، وجِهاداً مُتَتَابِعاً، ونَهْجاً رُوحِيّاً وَاضِحاً.. لا يَعرِفُ الجَدَلَ والفُرْقَةَ والانْقِسَامَ..

(١) مكتوبات الإمام الرّبّانيّ، ج:١، م:١٦٣، ص:١٤٣.

(٢) إحياء علوم الدين ج:٤ ص:٤٠٩.

(٣) سورة الفتح: ٢٩.

فائدة في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]

قال العلّامة المُفَسِّر الآلوسي رحمه الله: «في الآيةِ تَنبيهٌ على أَنّ العَبْدَ يَنبغي أَنْ لا يَشْغَلَهُ شيءٌ عن ذِكرِ مَوْلاهُ سُبحانه، وذِكره جَلَّ شَأنُه في مِثلِ ذلك المَوْطِنِ مِن أَقْوَى أَدِلَّةِ مَحبَّتِه عزّ شأنُه، أَلَا تَرَى مَن أَحَبَّ مَخْلُوقاً مِثلَه كيف يقول:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِل　　مِنّي وبِيضُ الهِنْدِ تَقطرُ مِنْ دَمِي

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا　　لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ..»[2]

وقال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: « أَمَرَ اللهُ أولياءَه بِذِكْرِهِ في أَشَدِّ أَحْوَالِهم تَنبيهاً على أنّ الإنسانَ لا يجوز أَنْ يُخْلِيَ قَلْبَه ولِسَانَه عن ذكرِ اللهِ، ولو أَنّ رَجُلاً أَقْبَلَ مِن المَغرب إلى المَشرِق يُنفِقُ الأَمْوَالَ سَخَاءً، والآخَرَ مِن المَشرِق إلى المَغرِب يَضرِبُ بِسَيْفِه في سبيلِ اللهِ كان الذَّاكِرُ للهِ أَعْظَمَ أَجْراً».[3]

وقال عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: «لم يَفرِضِ اللهُ تعالى على عِبَادِه فَرِيضَةً إلّا جَعَلَ لها حَدّاً مَعلُوماً، ثم عَذَرَ أَهْلَها في حال العُذْرِ، غَيْرَ الذِّكْرِ؛ فإنّه لم يَجعَل له حَدّاً يَنْتَهِي إليه، ولم يَعْذِرْ أَحَداً في تَرْكِه إلّا مَغلُوباً على عَقْلِه، وأَمَرَهم بِذِكرِه في الأحوالِ كلِّها، فقال عزّ مِن قائِلٍ: ﴿ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) سورة الأنفال: ٤٥. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي حَارَبْتُم جَماعَةً كافِرَةً ﴿فَاثْبُتُوا﴾ وقتَ لِقائِهم وقِتالِهم ولا تَنْهَزِمُوا ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ أي في تَضَاعِيفِ القِتالِ ومَوَاطِنِ الشِّدَّةِ بالتّكبير والتّهليلِ وغيرهما، وادْعُوهُ بِنَصْرِ المُؤمنين وخِذْلَانِ الكافِرين كالذين (قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ) ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تَفُوزُونَ بِمَرَامِكم وتَظْفَرُونَ بِمُرَادِكم مِن النُّصْرَةِ والمَثُوبَةِ. (تفسير روح البيان، وتفسير أبي السعود، والقنوي على البيضاوي).

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، المعروف: بـ «تفسير الألوسي».

(٣) نَقَلَه فخرُ الدّين الرَّازِيّ رحمه الله في تفسير الآية.

(٤) سورة النساء: ١٠٣.

اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾[1] أي بِاللَّيْلِ والنَّهارِ، وفي البَرِّ والبَحْرِ، والسَّفَرِ والحَضَرِ، والغِنَى والفَقْرِ، وفي الصِحَّةِ والسَّقَمِ، والسِّرِّ والعَلانيةِ، وعلى كلِّ حال».[2]

الذِّكْرُ صِقالُ القَلْبِ[3]، وغِذاءُ الرُّوحِ، ومِفتاحُ بابِ النَّفَحاتِ، وسَبِيلُ تَوَجُّهِ التَّجَلِّياتِ على القُلُوبِ.. الذِّكْرُ جَاذِبُ الخَيْرِ، وأَنِيسُ المُسْتَوْحِش، ومَنْشُورُ الوِلايةِ [4]، فلا يَنبغي تَرْكُه مَهما كان الشَّاغِلُ، ولو لم يكن مِن شَرَفِ الذِّكْرِ إلّا أنّه لا يَتَوَقَّتُ بِوَقْتٍ لَكان ذلك كِفايَةً في شَرَفِه.

قال القرطبيّ رحمه الله في تفسير قوله تعالى﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾: «أَصْلُ الذِّكْرِ التَّنَبُّهُ بالقلبِ لِلمَذكورِ والتَّيَقُّظُ له، وسُمِّيَ الذِّكْرُ بِاللِّسانِ ذِكْراً؛ لأنه دلالةٌ على الذِّكْرِ القَلْبِيِّ،

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١.

(٢) نور التحقيق ص:١٣٧.

الآيات والأحاديث في بابِ الذكرِ كثيرٌ، فمنها قولُه تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (آل عمرَان: ٤١)، وقولُه تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الدهر: ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (المزمل: ٨)، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ (العنكبوت:٤٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (الأحزاب:٣٥)، وقولُه صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) (رواه البخاري)، وقوله صلى الله عليه وسلم: («أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنفاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ» قَالُوا: بَلَى! قَالَ: «ذِكْرُ اللهِ») (رواه مالك، وأحمد، والترمذي)، وقولُه صلى الله عليه وسلم: (أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ) (رواه الطبراني، وابن حِبّان)، وقوله: («إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا». قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «حِلَقُ الذِّكْرِ») (رواه أحمد، والترمذي)، وقولُه: (مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللهَ، لا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ؛ إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قُومُوا مَغْفُوراً لَكُمْ، قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ) (رواه أحمد)، وقولُه: (أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ) (رواه أحمد)، وقولُه: (لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا) (رواه الطبراني)، وقولُه: (مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَان حَسْرَةً يومَ القيامة) (رواه أبو داود).

(٣) كان وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ رحمه الله يقول: «وَا عَجَباً مِن النّاسِ، يَبْكُونَ على مَن مَاتَ جِسْدُه، ولا يَبْكُونَ على مَن مَاتَ قَلْبُه وهو أَشَدُّ». (تنبيه المغترين للشّعرانيّ رحمه الله، ص:١٠٣)

(٤) المَنْشُورُ هو ما يُكتَبُ لِمَنْ وَلِيَ وِلَايَةً على جِهَةٍ مِن الجِهَاتِ، لِيَعْلَمَ أهلُ تلك الجِهَةِ تَحَقُّقَ ولايته عليهم. والمُرَادُ أنّ الذِّكْرَ يَشهَدُ لِلذَّاكِرِ بالولايةِ كما يَشْهَدُ المَنشورُ لِلوَالِي بِولايَتِه على القَوْمِ.

غيرَ أنه لمّا كَثُرَ إطلاقُ الذِّكرِ على القَوْلِ اللِّسانِيِّ صارَ هو السّابِقُ لِلفَهْمِ».[1]

قال الشّيخ عبد الوهّاب الشّعراني رحِمه الله: «أُخِذَ علينا العَهْدُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نغفل عن الإكثار مِن ذكر الله عز وجل لَيْلاً ونهاراً سِرّاً وجَهراً إجلالاً لله تعالى وعبوديّةً له.

والمُرَادُ بِذِكْرِ اللهِ تعالى شُهُودُنَا لَيْلاً ونَهاراً أَنَّنَا بين يَدَيْهِ وهو يَرَانَا ويَرَى أَفْعَالَنَا وأَقْوَالَنَا وخَوَاطِرَنَا. وأمّا الذِّكْرُ اللَّفْظِيُّ فإنّما هو وَسِيلَةٌ إلى حُصُولِ هذا الذِّكْرِ».[2]

وقال أَنَسُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه: «ذكرُ اللهِ عَلامَةٌ على الإيمانِ، وبَرَاءَةٌ مِن النِّفاقِ، وحِصْنٌ حَصِينٌ[3] مِن الشّيطانِ، وحِرْزٌ مِن النَّارِ».

الذكرُ تِرْيَاقُ المُذْنِبِينَ، وأُنْسُ المُنْقَطِعِين، وكَنْزُ المُتَوَكِّلِينَ، وغِذَاءُ المُوقِنِين، وحِلْيَةُ الوَاصِلِين، ومَبْدَأُ العَارِفِين، وبِسَاطُ المُقَرَّبِين، وشَرَابُ المُحِبِّينَ.

---

(١) وقال الإمام الرَّبَّانِي رحمه الله: «يَنبغي أَنْ يُعلَمَ: أَنَّ الذِّكْرَ عِبارَةٌ عن طَرْدِ الغَفْلَةِ بِأَيِّ وَجْهٍ يَتَيَسَّرُ، لا أنّ الذِّكْرَ مَقصُورٌ على تَكْرَارِ كلمةِ النَّفْيِ والإثباتِ (لا إله إلّا الله) أو على تَكْرَارِ اسمِ الذَّاتِ (الله)كما زُعِمَ، فكُلُّ مَا هو مِن امتثالِ الأَوَامِرِ والانتهاءِ عن النَّوَاهِي كُلّه دَاخِلٌ في الذِّكرِ، والبَيْعُ والشِّرَاءُ مع مُراعاةِ الشُّرُوطِ ذِكْرٌ، وكذلك النِّكاحُ والطَّلاقُ مع مُرَاعَاةِ شُرُوطِهما ذِكرٌ...». (المكتوبات، للإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي، ج:٢ م:٤٦)

وَرَدَ في الحديث: (مَن أَطَاعَ اللهَ فقد ذَكَرَ اللهَ وإنْ قَلَّتْ صَلاتُه وصِيَامُه وتِلاوَتُه القُرْآنَ. ومَن عَصَى اللهَ فقد نَسِيَ اللهَ وإنْ كَثُرَتْ صَلاتُه وصِيَامُه وتِلاوَتُه القُرْآنَ).

قال القرطبيّ: هذا يُؤْذِنُ بِأَنّ حَقِيقَةَ الذِّكْرِ طاعَةُ اللهِ في امتثالِ أَمْرِهِ وتَجَنُّبِ نَهْيِه، وقال بعضُ العارِفِين: هذا يُعَلِّمُكَ بِأَنّ أَصْلَ الذِّكْرِ إجابةُ الحَقِّ مِن حيث اللَّوَازِمُ. (فيض القدير شرح الجامع الصغير، الرقم: ٨٤٦٣)

قال سَعيد بن جُبَير رضي الله عنه: «الذِّكْرُ طاعَةُ اللهِ، فمَن أَطَاعَ اللهَ، فقد ذَكَرَهُ، ومَن لم يُطِعْهُ، فليس بِذَاكِرٍ وإنْ أَكْثَرَ التَّسْبِيحَ والتَّهْلِيلَ وقِرَاءَةَ القُرْآنِ».

(٢) وبَعْدَه ذَكَرَ الشّيخُ قائلاً: «ولا تَصِلُ يا أخي إلى هذا المَقامِ إلّا بالسُّلُوكِ على يدِ شيخٍ مُرشِدٍ ناصِحٍ، ومَن لم يَسْلُكْ كذلك فَمِنْ لازِمِهِ الغَفْلَةُ عن الله تعالى ولا يَذكُرُه إلّا عند الحَاجَةِ لا غيرُ، فإذا أَعْطَاهُ حاجَتَه نَسِيَ ذِكْرَه، ومَن شَكَّ فَلْيُجَرِّبْ». (لَواقِح الأنوار القُدسيّة في بيان العُهُود المُحمديّة، ص:٥١٩).

(٣) الحِصْنُ: كلُّ مَكانٍ مَحْمِيٍّ مَنِيعٍ لا يُوصَلُ إلى جَوْفِه، والحَصِينُ مِن الأَمَاكِنِ المَنِيعِ، يقال: دِرْعٌ حَصِينَةٌ، أي: مُحكَمَةٌ، وحصنٌ حصينٌ لِلمُبَالغةِ.

الذّكرُ يَطْرُدُ الشَّيْطانَ، ويَمْنَعُه ويَكْسِرُه ويُسْخِطُه، ويُرْضِي الرّحمنَ، ويُزِيلُ الهَمَّ عن القَلْبِ والغَمَّ، ويَجْلِبُ الفَرَحَ والسُّرُورَ، ويُقَوِّي البَدَنَ والقلبَ، ويُبهِجُ القلبَ ويُنَوِّرُ الوَجْهَ، ويَكسُو الذَّاكِرَ مَهَابَةً، ويُلهَمُ به في أَمْرِه صَوَابَه.

قال الشّيخُ السّيّدُ عبدُ البَاقِي البِلْوَانِسِيُّ[1] (أطَالَ اللهُ في عُمُرِهِ وأدامَ نَفْعَه للإسلام والمسلمين): «الذِّكْرُ غِذَاءُ القلبِ.. والقلبُ الذي لا يَتغَذّى بِالذِّكْرِ يَضعُفُ ثم يَموت.. فإنّ القلبَ لا يَقْوَى ولا يَحْيَى إلّا بالذِّكْرِ..»[2]

وقال أيضاً: «دَاوِمُوا على ذِكرِ اللهِ عزّ وجلّ.. وفي أثناءِ ذِكْرِكم كُونُوا يَقِظِينَ.. ومَكِّنُوا ذِكْرَ اللهِ مِن قُلُوبِكم، فإذا تَمَكَّنَ ذِكرُ اللهِ فيه استَمَرَّ على ذِكرِه وإنْ لم تَذكُرُوا، كما أنّ المَعِدَةَ تَقوم بِوَظِيفَتِها وأنتم نِيامٌ.. كذلك القلبُ يَقوم بِدَوْرِهِ عندما يَتَمَكَّنَ الذِّكْرُ فيه...»

وقال أَبُو عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيُّ رحمه الله: «ليس ساعَةٌ مِن سَاعَاتِ الدّنيا إلّا وهي مَعْرُوضَةٌ على العبدِ يومَ القيامة يوماً فيوماً وساعَةً فساعَةً، ولا تَمُرُّ به سَاعَةٌ لم يَذكُرِ اللهَ فيها إلّا وتَقَطَّعَتْ نَفْسُه عليها حَسَرَاتٍ، فكيف إذا مَرَّتْ به ساعَةٌ مع ساعةٍ ويومٌ إلى يومٍ؟»[3].

وقال شيخُنا الشّيخ محمود أفندي (أطَالَ اللهُ في عُمُرِه وأَدَامَ نَفْعَه للإسلام والمسلمين) في فضلِ الذِّكْرِ:

Derman ararsan derde, Rabbini zikret her yerde.

إذا أردتَ عِلاجاً لِهُمُومِكَ وأَحْزَانِكَ فَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ تعالى في كل مَكانٍ.

Zikir, Müslümanın hayâtında, balığın hayâtındaki su gibidir.

إنّ الذِّكْرَ فِي حَيَاةِ المُسلِم، كَالمَاءِ بِالنِّسْبَةِ لِلسَّمَكَةِ.

---

(١) وهو مِن كبارِ مشايخِ الطّريقةِ النّقشبنديّةِ في شَرْقِ تُرْكِيّا، في مَدينةِ أَضِيَمان، قَرْيَة مَنْزِل.

(٢) Hayat Dengemiz, Seyyid Muhammed Saki (Semerkand Yayınları) sh: 98

(٣) ذكره ابن الجوزي في صفة الصّفوة: ٤/٤٢٠.

Zikrullâh ne büyük şeydir, Bundan vazgeçilmez, ancak deliler vazgeçer. Bir nefesin ne kadar kıymetli şey olduğunu bilirmisiniz

Bu nefes ne kadar kıymetli! Ya âbâd eder insanı, ya da berbâd eder insanı. Her nefesi zikrullâh ile geçirmeye çalışalım

ذِكرُ اللهِ شيءٌ عظيمٌ، لا يَترُكه إلّا ناقِصُ العَقْلِ،

فهل تُدرِكُوا قِيمَةَ الوقتِ!؟ فإنّ الإنسان إذا ضيَّعه يكون مِن الخاسِرين

وإذا عَمَّرَه بما يُرضِي اللهَ يكون مِن المُفلِحِين،

فلْنَجْتَهِدْ أَنْ نَقْضِيَ جميعَ أَوْقَاتِنَا بِذِكْرِ اللهِ تعالى.

Efendi Babam (Kuddise Sırruhu) **Yunus** (Aleyhisselâm) **ile ilgili âyet-i kerimeleri okur ve buyururdu ki: Mevlâ Teâlâ tesbihâtı sebebiyle Yunus** (Aleyhisselâm)**ı balığın karnından kurtardığı gibi, tesbih eden müminleri de nefis balığının karnından, yâni zulmetinden (nefsin karanlığından) kurtarır.**

لَقد كان شيخي (قَدَّسَ اللهُ سِرَّه) يَقول عند قِراءةِ الآياتِ التي يُذكَرُ فيها سيِّدُنا يونس عليه السّلام: كما أنّ اللهَ تعالى نَجّى سيّدَنا يونس عليه السّلام مِن بَطْنِ الحُوتِ بِسَبَبِ تَسبِيحِه، فكذلك يُنَجِّي المُؤمِنَ الذَّاكِرَ مِن ظُلُماتِ نَفْسِهِ.

Âhirette dünya dolusu altın versen bile bir «Lâ ilâhe illallâh» alınmıyor, ama dünyada bedâva.

لن تَسْتَطِيعَ شِرَاءَ ثَوَابِ كلمةِ (لا إله إلا الله) في الآخِرة ولو بَذَلْتَ مِلْءَ الأَرْضِ ذَهَباً، أمّا في الدّنيا فيُمكِنُكَ الحُصُولُ عليه دُونَ أَنْ تَبذُلَ شيئاً مِن المال.

Eğer yiğitlik istiyorsan Rabbini zikret, istikâmet et.

قِمّةُ الشَّجَاعَةِ أَنْ تكونَ مُستَقِيماً وذَاكِراً.

Allâh diyen ayakta tutuyor dünyâyı.[1]

تَعمُرُ الدّنيا بِسبب الذَّاكِرِين لله تعالى.[2]

نَسْأَلُ اللهَ تعالى أَنْ يُحَقِّقَنَا بِحَقَائِقِ الذِّكْرِ والتَّوْحِيدِ..

---

(١) Hikmetli Sözler, sayfa: 365,366,369,371,372,374

(٢) هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ اللهُ). رواه مسلم (١٤٨)

الأدعية المُهِمّة[1]

وخِتاماً... لمّا كان الدُّعَاءُ سِلاحَ المُؤمِنِ، وعِمَادَ الدِّينِ، ونُورَ السَّماوَاتِ والأَرْضِ[2] أَحْبَبْتُ أن أَذْكُرَ بعضَ الأَدْعِيَةِ الّتِي وَرَدَتْ في سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، لِيَسْتَفِيدَ منها إخْوَانُنَا المسلمون.

عن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « **سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللهمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ[3] لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِناً بِهَا[4] فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِن اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ** ». رواه البخاري (٦٣٠٦).

في رواية أبي داود (٥٠٧٠): « **مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ حِينَ يُمْسِي...** (الاستغفارَ المَذكورَ) **فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ** ».

وعَنْ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ، قَالَ :سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَهُوَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: « **مَنْ قَالَ فِي أَوَّلِ يَوْمِهِ[5]، أَوْ فِي أَوَّلِ لَيْلَتِهِ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ**

---

(١) قال العلماء: يُستحبّ للمُجاهدين استحباباً مُؤَكَّداً، أَنْ يَقرَؤوا مِن القرآن ما تيسّر، وأن يدعوا بالدّعاء المأثور، مثلِ: لا إله إلّا اللهُ الحليمُ العظيمُ، لا إله إلّا اللهُ رَبُّ العرشِ العظيمِ، لا إله إلّا اللهُ رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ، رَبُّ العرشِ الكريم، فحَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ، اعْتَصَمْنَا بِاللهِ، واسْتَعَذْنَا بِاللهِ، تَوَكَّلْنَا على اللهِ.. إلى غيرِ ذلك مِن الأدعية والأذكارِ المَأثورةِ عن النَّبِيِّ المُختارِ صلى الله عليه وسلم (التي ذَكَرْنَا بَعْضَها ص:٧٨ ت:٥)، وبغير ذلك مِن التَّوَسُّلاتِ المَأخوذةِ عن العُلماءِ الأعلامِ، والجَهَابِذَةِ الفِخَامِ.

(٢) رواه الحاكم في المُستدرَك (١٨١٢): عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الدّعاءُ سِلاحُ المُؤمِنِ وعِمَادُ الدِّينِ ونُورُ السَّمَاوَاتِ والأَرضِ ».

(٣) أي: أَعْتَرِفُ وأُقِرُّ.

(٤) أي مُخلِصاً مِن قَلْبِه مُصَدِّقاً بِعَظِيمِ ثَوَابِها.

(٥) يَحتَمِلُ أَنّ هذا القَيْدَ له مَدْخَلٌ في أصلِ الجَزَاءِ، أو صِفَتِهِ، وهو انتفاءُ الضَّرَرِ تَمَامَ ذلك اليومِ، حتّى إذا قال بعد الأَوَّلِ يكون انتفاءُ الضَّرَرِ مِن ذلك الوقتِ...إلخ، والله تعالى أعلم. (ذَكَرَه السِّندي في حاشيته على مسند الإمام أحمد)

شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَوْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ». رواه الإمام أحمد (٤٧٤).

وفي رواية أبي داود (٥٠٨٨): « مَنْ قَالَ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ... ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاءٍ[١] حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ »..

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضى الله عنه، عَن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: « حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى مَا هَمَّهُ[٢] مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ». رواه ابن السني (٧١).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ». قَالَ « يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟![٣] ». رواه أبو داود (٥٠٩٥).

قال العَلَّامَة عليّ القاري (رحِمه الله) : ويَنبَغِي أَنْ يَتعَوَّذَ المُسلِمُ مِن الكُفرِ وَيَذكُرَ هذا الدُّعَاءَ صَبَاحاً ومَسَاءً، فإنّه سَبَبُ النَّجاةِ مِن الكُفرِ: « اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً وَأَنَا أَعْلَمُ بِهِ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ بِهِ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ».[٤]

---

(١) أي بغتته

(٢) أَوْرَدَه النووي في «الأذكار» (٢٤٦) بلفظِ: (..كَفَاهُ الله تعالى ما أَهَمَّهُ مِن أمرِ الدّنيا والآخِرَةِ).

(٣) أي بِبَرَكَةِ هذه الكَلِمَاتِ، فلا سَبِيلَ لك إلى إضلالِه. قوله: (يقال حينئذ) يحتمل أن يكون القائل هو «الله تعالى» أو مَلَكٌ يَأْمُرُه الله عزّ وجلّ. (هُدِيتَ) أي طَرِيقَ الحَقِّ والرَّشادِ (وكُفِيتَ) أي كفيتَ كلَّ هَمٍّ مِن هُمُومِ دُنْيَاك وآخِرَتِك (ووُقِيتَ) أي حُفِظْتَ مِن شَرِّ أَعْدَائِكَ (فَتَتَنَحَّى) أي مال عن جِهَتِه وابتَعَدَ عن طريقه (له) أي لِأَجْلِ القائِلِ (الشَّيَاطِينُ)..

(٤) انظر شرح «الفِقْه الأكْبَر» لِعليّ القاري، ص:٥٢٥، عند خاتِمَتِه.

تَمَّ هذا الكتابُ «**نور المجاهدين**» بِعَوْنِ اللهِ تعالى وتَوْفِيقِه وبِفَضْلِه وتَيْسِيرِه في ليلةِ السابع والعشرين مِن شَهْرِ رمضان المُبَارَكِ، سَنَةَ ١٤٣٥ هـ، بِقَلَمِ أَفْقَرِ عِبَادِ اللهِ وأَحْوَجِهم إلى غُفرانه «خَلِيل بن إحسان» ذِي التَّقْصِير، غَفَرَ له ولِوَالِدَيْهِ وللمُسلِمِين الخَبِيرُ البَصِيرُ، بِمَسْجِدِ إسماعيل آغا، في المَحَلَّةِ المُسَمَّاةِ بِـ(چارْشَامْبه)، في مِنْطِقَةِ (فاتِح)، مَدِينَة (إسطنبول).

واللهَ أَسأَلُ وبِنَبِيِّه أَتَوَسَّلُ: أَنْ يَجعَلَ هذه الكتابَ خالِصاً لِوَجْهِه الكَرِيمِ، وأَنْ يَنفَعَ بها النَّفْعَ العَمِيمَ.

والمَرْجُوُّ مِمَّن اطَّلَعَ عليه أَنْ يَدْعُوَ لي بِالخير والمُبَاعَدةِ عن كُلِّ شَرٍّ وضَيْرٍ، والمَطلُوبُ مِن صاحِبِ العَقلِ السَّلِيمِ والخُلُقِ القَوِيمِ أَنْ يُقِيلَ عَثَرَاتِي، ويَسْتُرَ هَفَوَاتِي، وأَنْ يُصلِحَ كلَّ ما يَرَاه ويَفهَمُ خِلافَ الصَّوَابِ، مُساعَدَةً لِي على ما قَصَدْتُه مِن الخير للمسلمين، ولا يُستَغرَبُ هذا مِن الإنسانِ، فإنّه مَحَلٌّ لِلنِّسيَانِ والخَطَأِ؛ خُصُوصاً في هذا الزَّمَانِ مع ضِيقِ الوَقتِ وشُغْلِ الأَذْهَانِ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

ونَحن نَسْتَغفِرُ اللهَ مِن كُلِّ ما زَلَّ به القَدَمُ، أو أَطْغَى به القَلَمُ، ونَستَغفِرُهُ مِن أَقَاوِيلِنَا الّتي لا تُوَافِقُ أَعْمَالَنَا، ونَستغفِرُهُ ممّا ادَّعَيْنَاهُ وأَظهَرْنَاهُ مِن العِلمِ بِدِينِ اللهِ تعالى، مع التَّقْصِيرِ فيه، ونَستغفِرُهُ مِن كُلِّ خَطْرَةٍ دَعَتْنَا إلى تَصَنُّعٍ وتَزَيُّنٍ في كِتَابٍ سَطَّرْنَاهُ أو كَلَامٍ نَظَمْنَاه أو عِلْمٍ أَفَدْنَاه؛ ونَسْأَلُه أن يَجْعَلَنَا وإيّاكم مَعْشَرَ الإِخْوَانِ بما عَلِمْنَاهُ عَامِلِين، ولِوَجْهِهِ به مُرِيدِينَ، وأَنْ لا يَجْعَلَه وَبَالاً علينا، وأَنْ يَضَعَه في مِيزَانِ الصَّالِحَاتِ إذا رُدَّتْ أَعْمَالُنَا إلينا، إنّه جَوَادٌ كَرِيمٌ..

وصَلِّ اللهم وسَلِّمْ أَفْضَلَ صَلَاةٍ وأَكْمَلَ سَلَامٍ على أَشْرَفِ مَخْلُوقَاتِكَ مُحَمَّدٍ
وعلى آلِهِ وأَصْحَابِه وأَزْوَاجِهِ عَدَدَ مَعْلُومَاتِكَ، ومِدَادَ كَلِمَاتِكَ[1]. آمِين..

---

(١) وإنما أَتَيْنَا بالصّلاة والسّلام على رسول الله في أوّلِ كِتابِنَا وفي آخِرِه، رَجَاءً لِقَبُولِ ما بَينهما، لأنّ الصَّلاة على النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم مَقبُولَةٌ لا مَردُودَةٌ، واللهُ أكرمُ مِن أَنْ يَقبَلَ الصَّلاتَيْنِ ويَرُدَّ ما بَينهما. فقد وَرَدَ هذا الفضلُ في الدُّعاءِ، ويُقاسُ على الدُّعاءِ نَحْوُ التَّأْلِيفِ..

الفهرس

«لِكُلِّ طَرِيقٍ مُخْتَصَرٌ
وَمُخْتَصَرُ طَرِيقِ الْجَنَّةِ الْجِهَادُ»



قال السلطان محمد فاتح القسطنطينية (رحمه الله):

امتثال "جاهدوا فى الله" اولوبدر نيتوم — دين اسلامك مجرد غيرتيدر غيرتوم

فضل حق وهمت جند رجال الله ايله — اهل كفره سرتسر قهر ايلمكدر نيتوم

انبيا و اوليايه استنادم وار بنوم — لطف حقدندرهمان اميد فتح نصرتوم

نفس ومال ايله نولا قيلسام مجهاندا اجتهاد — حمد لله وار غزايا صد هزاران رغبتوم

اى محمد معجزات احمد مختار ايله — اوماروم غالب اوله اعداى دينه دولتوم